
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00853 1331



SITY

الجا

٧٥

Muhammad, Muhammad ʿAwad.
al-Sūdān al-shamālī.

لجنة التأليف والترجمة والنشر

السودان الشمالي

سكانه وقبائله

تأليف
محمد عوض محمد
الأستاذ بجامعة فؤاد الأول
مدير معهد الدراسات السودانية

الطبعة الأولى

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥١



تصدير

كثيراً ما تكون الدراسات الطبيعية أقرب منالا ، وأبعد عن مواطن الزلل من الدراسات البشرية ؛ فان حقائق الطبيعة مبسوطة أمام العين ، نطالعها ونراقبها ، ونقوم بقياس دقيق لمظاهرها المختلفة . وهى فوق ذلك بطيئة التحول من جيل إلى جيل بل ومن قرن إلى قرن ، إذا تركت لشأنها . وفوق ذلك فإن عناصر الطبيعة لا تهاجر ولا تنتقل ، ولا تتزاوج ولا تختلط اختلاطاً يخفى معالمها الأصلية . أما الإنسان فحُوَّل قلَّب كثير الاضطراب ، لا يكاد يقر له قرار . والحقائق البشرية كثيراً ما يعوزها التأويل السليم ، مهما أطلنا ملاحظاتها ومراقبتها ، وأكثرها مما لا يهتدى إليه إلا بواسطة الإنسان نفسه ، وهو كائن متعدد الألسنة واللهجات . مختلف الميول والنزعات ، ليس من السهل أن نستخرج دفائن نفسه وأن نستجلى مختلف شئونه ، شديد الإحساس والاعتزاز بنفسه ، قلما تعنيه الحقيقة إلا بقدر ما ترفع من شأنه ، وتطفىء جذوة زهوه وغروره .

وفوق ذلك فإن للإنسان تاريخا ، بعضه مدون ، وأكثره غير مدون . ولا بد من استجلاء حقائقه كلها ، ما ظهر منها وما بطن ، قبل أن ندلى فى الشئون البشرية بحكم بعيد عن احتمال الخطأ . أما ظاهرات الطبيعة فقلما يعنينا تاريخها ، وأكثر ما يهمنا تسجيل حقائقها كما تبدو للباحثين اليوم . حتى المسائل الجيولوجية ، وإن عنيت بتسجيل ظاهرات ذات نشأة قديمة ، فان الشواهد عليها قائمة ملموسة فى الوقت الحاضر .

***

سقت هذه العبارات تنبيها للقارئ إلى ما يكتنف الدراسات البشرية من الصعوبات واعتذارا من أننا فى الصفحات التالية كثيرا ما نضطر إلى الامتناع عن الإدلاء بحكم قاطع فى بعض المسائل ، حينما تعوزنا الأدلة التى تقضى بمثل هذا الحكم .

ولعل فى هذه الاعتبارات ما يفسر للقارىء أيضاً أنه قد مضى ما يزيد على العشرين عاما ، منذ أخرجت كتاب نهر النيل للمرة الأولى ، وضمنته شرح الظاهرات الطبيعية للنهر . وكانت نيتى فى ذلك الوقت أن أشفعه بكتاب عن سكان حوض النيل وسلالاتهم وقبائلهم ، وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولذلك وصفت الكتاب فى الطبعة الأولى بأنه القسم الأول : الظاهرات الطبيعية ، أملا فى أن يتلوه الجزء الثانى عن الظاهرات البشرية .

غير أنى لم ألبث أن رأيت أن الموضوع أوسع وأعمق من أن يوصف بأنه الجزء الثانى من كتاب نهر النيل ، وقد راعيت ذلك فى الطبعة الثانية من ذلك الكتاب فلم أصفه بأنه الجزء الأول ، بل جعلته كتابا مستقلا عن الجغرافيا الطبيعية لنهر النيل . على أن أسعى للقيام بالدراسات البشرية بقدر ما يتسع له الجهد والوقت ، وأن أنشر ما أستطيع نشره عنها فى مؤلف مستقل .

وقد أتاح لى عملى بمعهد الدراسات السودانية الفرصة اللازمة للاطلاع والتفكير كما أتاح لى السفر والاتصال بأصدقائى من السودانيين ومن رجال الإدارة فى السودان فرصا أخرى لتحقيق كثير من المسائل . ولولا هذه الظروف المختلفة والمساعدات القيمة لما أمكننى تحقيق أمنيتى القديمة بأن أعالج الدراسات البشرية ، كما سبقت لى معالجة الظاهرات الطبيعية .

ويرى القارىء أننى لم أعالج فى هذا الكتاب الدراسات البشرية فى حوض النيل كله ، كما فعلت فى كتاب نهر النيل من ناحية الدراسات الطبيعية ؛ بل اقتصرت هنا على السودان وحده ، بل وعلى السودان الشمالى دون الجنوبى ، وذلك لأن الدراسات البشرية فى حوض النيل أوسع وأعمق من أن يستوعبها مؤلف علمى واحد ، اللهم إلا إذا عالج الموضوع معالجة موجزة لا تشفى غلة طالب العلم .

والتمييز بين السودان الشمالى والجنوبى شىء معروف لأهل السودان ولمن يدرسون جغرافية حوض النيل . وقد أوضحت فى الفصل الأول المقصود من هذا التمييز . وحسبى هنا أن أشير إلى أمرين أولهما : أن السودان الشمالى هو فى الواقع السودان الأصلى الذى عرفه التاريخ منذ قرون عديدة ؛ أما الإقليم الذى يوصف

بالسودان الجنوبى ، وهو لايتجاوز ثلث مساحة السودان كما نعرفه الآن ؛ فلم يعرف العالم عنه شيئاً إلا بعد أن كشف رجال محمد على عن أعالى النيل ، وبعد أن أتم إسماعيل عمل محمد على بأن ضم الأقطار الجنوبية إلى السودان ، فظهر السودان للمرة الأولى فى التاريخ قطراً موحداً بشقيه الجنوبى والشمالى . ولا تكاد حدوده اليوم أن تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه من قبل .

ومع أن السودان الشمالى هو القطر الأصلى ، الذى اتسعت رقعته حتى شمل الجهات الجنوبية ، فقد لقى السودان الجنوبى من علماء الدراسات البشرية عناية كبيرة لم يظفر بمثلها السودان الشمالى . وبسبب وفرة هذه الدراسات أمكن للأستاذ سلجمان أن ينشر كتابه المشهور عن قبائل السودان الجنوبى .[١] وليس فى أيدى طلاب الدراسات البشرية كتاب عن السودان الشمالى يضارع كتاب سلجمان عن سكان الجنوب ، بل ليس هنالك شىء يدنو منه ، بل كل مالدينا دراسات متفرقة مبعثرة فى بعض المجلات وعلى الأخص فى مجلة « السودان فى مذكرات ومدونات »[٢] ، وفى كتب الرحالة وبعض الإشارات الواردة فى كتب المؤرخين أمثال المقريزى والمسعودى . وأكثر المؤلفين لتلك المقالات من الهواة أو من رجال الإدارة وكثيرا ما تعوزهم الدراسة الأساسية العلمية : ولذلك كانت مقالاتهم بمثابة وثائق ، يستفيد بها المؤلف بعد أن يستبعد الزبد ويستبقى ما ينفع الناس .

وهنالك كتاب واحد يجوزلنا استثناؤه من هذا الوصف ، وهو كتاب الأستاذ السيرهارولد ما كمايكل عن تاريخ العرب فى السودان فى مجلدين[٣] ، كما أن له كتابا آخر مفيداً لولا قدم عهده عن القبائل العربية فى أواسط وشمالى كردوفان . غير أن كلا الكتابين — وبوجه خاص الكتاب الأول — يغلب عليهما الأسلوب التاريخى والاعتماد على الوثائق ، التى ليست دائماً فوق مستوى الشك . ومع أننى استفدت كثيراً من بحوث ما كمايكل ، فاننى كثيرا ما اختلفت معه فى تأويل بعض الظاهرات وتفسيرها . كما أن معالجته التاريخية لاتطفىء غلة طالب الدراسات البشرية .

---

(١) Pagan Tribes of the Nilotic Sudan (1928)

(٢) Sudan Notes and Records وهى التى نشير إليها دائما بالأحرف الثلاثة S.N.R.

(٣) Macmichael, Harold(sir)A: History of the Arabs in the Sudan (1922)

أما المقالات التى اشتملت عليها مجلة S.N.R. فلعلها أحسن المراجع ، بل هى أحياناً المرجع الوحيد لبعض القبائل . وإذا كنا أحياناً لا نستطيع أن نقبل التأويل الفلسفى الذى قد يتورط فيه بعض الكتاب ، فإننا بلا شك نستفيد فائدة كبيرة من الحقائق والمشاهدات التى دونها كل منهم تدوينا دقيقا . وليس فى وسع كاتب واحد أن يلم إلماماً شخصياً بجميع قبائل السودان الشمالى ، لأن دراسة مجموعة واحدة من تلك القبائل قد تستغرق الشهور بل الأعوام . ولذلك لم يكن بد لمن يتعرض لكتاب شامل لجميع سكان السودان الشمالى أن يعتمد كثيرا على ما قام به أولئك الكتاب من دراسات . ولئن تفاوتت أحياناً فى الدقة والجودة وأعوزها فى كثير من الأحيان الأسلوب العلمى ، فإنها عن كل حال مما لا يستغنى عنه الباحث فى هذا الموضوع .

وقد حاولت أن يكون هذا الكتاب شاملا لجميع جهات السودان الشمالى ، ولقبائله على كثرتها وتعددها . ومع ذلك فإن من المحتمل ، بل يوشك أن يكون من المؤكد ، أن سيكشف القراء — وعلى الأخص من إخوانى السودانيين — عن بعض النقص أو القصور . ولى وطيد الأمل — بعد ما لقيته منهم من المساعدات القيمة وقت إعداد الكتاب — أن يتابعوا تزويدى بمقترحاتهم وآرائهم السديدة ، عسى أن تتاح للكتاب طبعة ثانية تكون أبعد عن النقص من الأولى .

وكذلك حاولت ألا أكتفى بوصف القبائل ومواطنها ، بل رأيت من الواجب أن أرسم صورة توضح كيف نزلت كل قبيلة واستقرت فى مواطنها الحالية ، وكيف انتشرت المجموعات الكبيرة مثل المجموعة العباسية فى الأوطان التى تحتلها اليوم . وهذه كلها محاولات تعرض للمرة الأولى فيما أعلم . ولذلك أرجو أن أنتفع برأى إخوانى الجغرافيين والمؤرخين فيها .

وفى السودان ، كما يعلم القراء ، قبائل ليست العربية لغتها الأصلية ، مثل قبائل البجه ، وقبائل دارفور ؛ ولذلك وردت أسماء كثيرة للبلدان وللقبائل والأفراد ، ليس من السهل أن يتفق الناس على كتابتها بالعربية . فقبيلة المساليط مثلا فى إقليم دارفور كتبها الشيخ عمر التونسى بهذه الصورة وأوردها ما كايكل بالصاد والطاء

ومع ذلك فإن كثيراً من السودانيين يكتبونها المساليت ، بالسين والتاء . ومثال آخر لأحد أجداد الهدندوه اسمه ويلالى ، يكتب أحياناً على هذه الصورة ، وأحياناً يكتب وايلالى ، وأكد لى البعض أنه يجب أن يكتب « وائل على » أى فى صيغة عربية . ولذلك لم يكن بد من أن يختار الكاتب ما يراه أنسب فى نظره . وأنا واثق أن بعض القراء سيجد فى اختيارى ما لا يتفق مع وجهة نظره ، ورجائى ألا أحرم من نقد إخوانى السودانيين فى هذه الناحية أيضاً .

ويرى القارىء مما تقدم أننى مدين للكثير من أصدقائى السودانيين بما زودونى به من المقترحات والآراء . وليس من السهل أن أذكرهم هنا بالاسم ، خوفاً من أن تخوننى الذاكرة . ولهذا أكتفى بشكرهم من أعماق نفسى ، كما أنى أشكر لوزارة الزراعة المصرية تفضلها بتزويدى ببعض الصور الخاصة بإقليم جبل علبه ، ولإدارة النشر فى السودان للسماح لى بنشر عدد آخر من الصور .

كما لايسعنى إلا أن أنوه بقيام الأستاذ محمد رياض من خريجى معهد الدراسات السودانية برسم الخرائط ، وعمل الفهرس الأبجدى للكتاب ، ومساعدته للمؤلف فى تصحيح التجارب .

أول ذى الحجة سنة ١٣٧٠
٣ سبتمبر سنة ١٩٥١

محمد عوض محمد

فصول الكتاب

فهرس الخرائط

فهرس الصور

SITY

الجا

السودان الشمالى

الفصل الاول

تمهيد عام

١ — سكان السودان

موقع السودان فى الجزء الأوسط من حوض النيل ، يجعله من ناحية الدراسات الجنسية أكثر إثارة للاهتمام العلمى من أى إقليم آخر ، فى جنوبه أو شماله . أو شرقه أو غربه . فالأقطار الجنوبية واقعة كلها تقريباً ، فى داخل نطاق السلالات الزنجية . اللهم إلا فى مواقع قليلة تسربت إليها بعض جماعات قوقازية ، ولن تلبث حتى تندمج فى سائر السكان ، وتضيع وسط المحيط الزنجى الكبير .

وإلى الشمال من السودان . غلبت العناصر القوقازية منذ آلاف السنين . ولم تستطع الجماعات الزنجية فى أى عصر من العصور أن تصل بنفسها إلى النصف الشمالى من حوض النيل .

وإلى الشرق أقاليم تأثرت بالهجرات الحامية ، وغلبت عليها ثقافتها وعاداتها . وإلى الشرق ايضاً الهضبة الحبشية ذات الصفات الفريدة المنقطعة النظير فى القارة الأفريقية .

وإلى غرب السودان الصحراء الليبية ، تعيش فيها جماعات ذات صفات خاصة مثل التبو ، والبربر الذين لهم لغاتهم الخاصة ، والعرب الأنقياء الخالصون ، والبربر المستعربون .

وفى الجنوب الغربى تتصل حدود السودان بالكنجو البلجيكية ، وأعالى النيل بأعالى نهر أويلة : وهنا ميدان خاص تستأثر به جماعات متشابهة تحتل أعالى الغزال وأعالى الكنجو .

وفى الجنوب الشرقى من السودان : جماعات اطلقوا عليها اسم أنصاف الحاميين ،

استأثروا بمساحة من الأرض تمتد فى شرق أفريقية حول الأخدود الأعظم وتمتد إلى داخل السودان .

وصفوة القول أن حول السودان من جميع النواحى أقاليم لكل منها ميزات انفرد بها ، وسادته سلالات تميزه عن غيره ، ولكن لكل من هذه الأقاليم شعب وفروع تتوغل داخل السودان ، وتجعل منه ميدانا واسعاً لتمثيل تلك السلالات . وله فوق ذلك سلالات ومجموعات جنسية انفرد بها ، أوكان هو الميدان الأكبر لها ؛ مثل الجماعات النيلية ، والبجة وغيرهم .

ونستطيع أن نقول على سبيل التعميم ، إن السودان تتنازعه السلالات الزنجية من الجنوب والقوقازية من الشمال ، وإن خط العرض الثانى عشر الشمالى يمثل على وجه التقريب ، خط التقسيم بين الجهات التى يغلب عليها الجنس الزنجى من جهة ، والجهات التى يسودها الجنس القوقازى من جهة أخرى ، غير أن هذه العبارة — وإن كانت لا بأس بها على سبيل الإيجاز والتعميم — فانها لا تعبر تعبيراً صادقاً عن التنوع الكبير فى السلالات الزنجية والقوقازية والثقافات المختلفة التى يمتاز بها كل منها ، ومبلغ التوغل لكل من هذه السلالات ،وأهمية كل منها .

٢ — خط العرض الثانى عشر

وليس خط العرض الثانى عشر خطاً فاصلا بالمعنى الصحيح : فإن قبائل البقارة التى لاشك فى عروبتها يعيش أكثرها جنوب هذا الخط ؛ وإذاكان لهذا التحديد معنى فيما يتعلق بالنهر ذاته ، فان الشذوذ واضح إذا ابتعدنا عن النهر ، وعلى الأخص فى الجهات الغربية . . ومع ذلك فقد أصبح من الأمور المصطلح عليها فى السودان أن يعتبر خط العرض الثانى عشر هو الحد بين السودان الجنوبى والشمالى . ولذلك جعل هذا الخط هو الحد الشمالى لمديرية « أعالى النيل » التى عاصمتها ملاكال (على خط عرض ٩,٣٠َ°) وأصبح لهذا التحديد صفة حكومية رسمية . واعتبارات تتصل بالسياسة التى تتبعها الحكومة نحو الجنوب والشمال ؛ وأهم عنصر فى هذه السياسة الحرص على عدم تسرب الثقافة العربية والإسلامية نحو الجنوب ، وفتح

المجال للهيئات التبشيرية للانتشار فى الجنوب ، مع تحريمها فى الشمال .

وأقصى ما يقال فى هذا الحد بين الشمال والجنوب ، هو كما ذكرنا من قبل ، أن العناصر القوقازية تغلب فى شماله والزنجية فى جنوبه . وهذا الوضع البشرى يستند إلى ظروف طبيعية ، وهى ترجع إلى أن السلالات الزنجية قد انتشرت من أقاليم السفانا ذات المطر الغزير والحشائش الطويلة ، والخط الثانى عشر هو المدى الشمالى الذى تصل إليه تلك الحشائش ، وتليه إلى الشمال الحشائش الفقيرة نسبياً ، والسفانا الشوكية حتى ينتهى إلى الأقاليم الشبيهة بالصحراوية ثم الصحراوية .

وطريق العناصر القوقازية على عكس ذلك : أكثره من الشمال ، وأسلوب المعيشة ، ووسائل النقل عن هذا الطريق قد فرضتها طبيعة الأقطار التى سلكتها تلك العناصر ، ولذلك لم يكن بد من أن ينتهى بها المطاف إلى حدود السفانا الغنية . اللهم إلا فى الجهات الغربية ، السهلة الفسيحة التى أمكن التوغل فيها إلى الجنوب .

وهنالك جهات جبلية اعتصمت فيها بعض العناصر الزنجية ، أو الشبيهة بالزنجية كجبال النوبا وجبال دارفور ، وقد ساعد ذلك على الحد من التوغل القوقازى فى تلك الجهات ، وإن لم يحل تماماً دون هذا التوغل فى بعض مظاهره الثقافية .

٣ — الاختلاط والامتزاج

نظراً لتعدد الأقاليم الجنسية فى السودان ، وفى الأقطار المجاورة له ، لم يكن بد من أن يكون على حدود تلك الأقاليم ضروب متفاوتة من الاختلاط والامتزاج بين السلالات من جهة ، وبين الثقافات المختلفة من جهة أخرى . ولم يساعد على هذا الاختلاط مجرد التجاور الإقليمى ، بل ساعد عليه بوجه خاص سهولة الأرض وسهولة الانتقال فيها ، وانتشار حرفة الرعى ، التى لا تقيد الناس تقييداً شديداً بالأرض التى يعيشون عليها .

والاختلاط والامتزاج على ضروب مختلفة ؛ ونقصد بالاختلاط اجتماع عناصر مختلفة فى جهة مشتركة مع احتفاظ كل منهم ببعض خصائصه . أما الامتزاج فهو اندماج عنصرين مختلفين حتى يتألف منهما مركب جديد قائم بذاته .

ومن الاختلاط والامتزاج ما يتناول الصفات الجسدية أو ما يتناول الثقافات وحدها ، فيتأثر الناس بثقافة غير ثقافتهم ، مع بقاء دمائهم على ما كانت عليه تقريباً . فالدنكا أو الشلك الذين اعتنقوا الإسلام لم يمتزجوا بالدم القوقازى إلى أى درجة بعيدة ، بل بقيت دماؤهم النيلية على ما كانت عليه . وبعض الكبابيش يمتون إلى أصل حامى بجاوى ، ومع ذلك قد امتزجوا امتزاجاً تاما بالعناصر العربية . وبنو عامر من البجة ، ولكنهم اقتبسوا لغة سامية بحكم مجاورتهم لهضبة الحبشة ، التى تسودها الثقافة السامية .

ولعل أهم مظاهر الامتزاج والاختلاط وأكثرها وضوحا هو ما نشأ عن تدخل العناصر الزنجية فى القوقازية . وبديهى أن تكون هذه الحالة أكثر وضوحاً فى الإقليم الأوسط ، الذى تتجاور فيه السلالات الزنجية والقوقازية . ولذلك بات من المتعذر أن يرسم خط يفصل بين المجموعتين فصلا تاماً .

٤ — العناصر الزنجية أقدم من القوقازية

ولكى ندرك حقيقة الأوضاع الانثروبولوجية فى السودان لابد لنا أن نذكر دائماً أن الجنس الزنجى أقدم فى أفريقية وبالتالى فى السودان من العناصر القوقازية . وقد ظل حوض النيل زمناً مفتوحا أمام الجنس الزنجى دون غيره من السلالات والأجناس .

ولا بد لنا أن نفترض أن الجنس الزنجى لم يتوغل بعيداً فى السودان ، حتى قبل ظهور الجنس القوقازى فى حوض النيل ، وذلك لأن الظروف التى أحاطت بالهجرات الزنجية ، وقد كانت كلها عن طريق باب المندب ، فى زمن معرق فى القدم ، قد ألزمت الجنس الزنجى ، عند انتقاله إلى القارة الأفريقية ، أن يتجه صوب الجنوب فقد كان الطريق نحو الغرب تعترضه الهضبة الحبشية بمسالكها الوعرة ، والطريق نحو الشمال فى محاذاة شاطىء البحر الأحمر ، يجتاز منخفضات ارتريا . وكانت تكتنفها المستنقعات ، بينما الطريق إلى الجنوب والجنوب الغربى ممهد سهل ، يغرى المهاجرين بسلوكه والانتشار فى أرجائه .

٥ — مصادر الجنس الزنجى

لهذا كان من الراجح أن الجنس الزنجى لم يبدأ انتشاره فى حوض النيل إلا فى مرحلة متأخرة من تاريخ هجراته داخل القارة الأفريقية ، وليس من الغلو أن يقال إن جميع الهجرات الأولى للجنس الزنجى على مدى عشرات الآلاف من السنين ، قد اتجهت كلها أو جلها صوب الجنوب ، وعمرت القارة الأفريقية فى هذا الاتجاه . وحسبنا دليلا على ذلك أن انتشار البانتو ، الذين تتمثل فيهم آخر الهجرات الزنجية — أو الشبيهة بالزنجية — لم يؤثر فى السودان مطلقاً ، مع أنه قد أثر تأثيراً شديداً فى سائر القارة الأفريقية جنوب خط الاستواء .

وقد سلكت هجرات البانتو نفس الطريق التى سلكتها العناصر الزنجية التى سبقتها ، وكان انتشارها فى صورة غزوات متتالية ، لا شك أنها أحدثت اضطراباً فى العناصر السابقة ، وقد كان من آثارها أن اندمج بعضها فى الجماعات الغازية ، وأصبح جزءاً منها . وآثر البعض الآخر أن ينتقل إلى أقاليم جديدة ، وربما دفع ذلك بعضها إلى المهاجرة إلى أعالى النيل ، وانتقال طوائف منها إلى السودان الجنوبى .

وهنالك شواهد تدعو إلى الترجيح بأن هذه الوحدات الزنجية القديمة المهجرة إلى أعالى النيل لم تكن كثيرة العدد . وأهم هذه الشواهد ، ما نراه اليوم من أن السودان الجنوبى تسوده الجماعات التى يطلق عليها اسم المجموعة النيلية Nilotes ، لأنها تحتل أقاليم تجاور نهر النيل وروافده من العرض السادس جنوبا إلى الثانى عشر شمالا . وهذه السلالات أجمع الكتاب على أنها حديثة الهجرة إلى السودان ، ومتشابهة فى صفاتها الجسدية تشابهاً شديداً . لا يدع مجالا للشك بأن العناصر السابقة لها ، التى اندمجت فيها لم تكن كثيرة العدد إلى درجة تؤثر فى شكل هؤلاء النيليين وفى صفاتهم الطبيعية[١] . فإن تشابه صفات النيليين ، حيثما وجدوا ،

---

(١) النيليون سلالة زنجية يخالطها عنصر قوقازى ، وتمتاز بالقامة الطويلة والرأس الطويل ، أما السلالات السابقة لها فى أعالى النيل ، وتتمثل فى الجماعات التى تجاورها فى بحر الغزال ، فإنهم أقصر قامة ورأساً .

يضطرنا لأن نقرر واحداً من أمرين : إما أن هذه السلالات قد قضت على العناصر السابقة لها أو أنها امتصتها واندمجت فيها . فإن كانت الأولى فلا بد أن هذه العناصر كانت من القلة بحيث سهل التغلب عليها واستئصالها . وإن كانت الثانية ، فإنها كانت من القلة بحيث لم تؤثر فى الصفات الجسدية للنيليين . وفى هذا ما يبرر القول بأن الانتشار القديم للعناصر الزنجية فى السودان كان على نطاق ضيق .

٦ — مصادر العناصر القوقازية

والعناصر القوقازية التى تسكن السودان اليوم — وهذا القول ينطبق على مصر أيضاً — لم تسلك كلها طريقاً واحداً ، ولم تأت من ناحية واحدة أو مصدر واحد . ومع التسليم بأن الشمال هو المصدر الأكبر للعناصر القوقازية فى العصور التاريخية ، فإن هنالك طرقاً أخرى لا بد لنا أن نميز بينها :

(١) الطريق الشرقى الجنوبى :

هو الذى سلكته السلالات الحامية ، وتدفقت منه إلى أفريقية عن طريق بوغاز باب المندب ، وهاجر بعضها جنوباً إلى بلاد السومال والجلا ، وإلى إقليم بحيرة رودلف ، وشرق إفريقية ، حيث تكونت الجماعات المسماة بأنصاف الحاميين ، مثل السوك والتركانا والمازاى ومن على شاكلتهم ، وهاجر بعضها شمالاً بعد أن جفت المستنقعات فى سهول أرترية الجنوبية واتجه إلى الإقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر ، وكثير من هذه العناصر اتجه نحو نهر النيل نفسه ، ودخل إلى بلاد النوبة والقطر المصرى عن هذا الطريق ، كما أن بعضها اتجه إلى مصر بطريق مباشر سالكا الصحراء الشرقية من الجنوب إلى الشمال ، ولعلها فى ذلك الوقت المتقدم كانت أقل جفافاً مما هى اليوم .

ومعروف أن المصريين القدماء كانت لهم صلات قوية ببلاد بُنت ، وهى فى الأطراف الجنوبية من البحر الأحمر . وكانوا يدعونها بلاد الآلهة ، وكانوا حريصين

على بقاء الاتصال بينها وبين مصر ، وكذلك لاحظ سلجمان وجوه الشبه القوية بين المصريين القدماء وبين البجه[1] .

(ب) الطريق الشرقى ، عبر البحر الأحمر :

والراجح أن الحاميين كانت أوطانهم القديمة فى الأطراف الجنوبية من الجزيرة العربية ، وإن لم يبق فيها منهم أحد اليوم ، ولذلك كانت هجراتهم إلى إفريقية كلها من إقليم بوغاز باب المندب .

أما الساميون ؛ فقد امتلأت بهم الجزيرة العربية فى الشمال والجنوب ، منذ زمن بعيد . ولا شك أن مجاورة البلاد العربية للجزء الشمالى من القارة الإفريقية عامل عظيم الأثر فى التكوين الجنسى للسودان . فإن عبور البحر الأحمر فى كل جزء من أجزائه لم يكن فى يوم من الأيام أمراً صعباً . وكانت بلاد اليمن وما يليها إلى الجنوب والشمال مصدراً لهجرات عديدة أثرت تأثيراً بالغاً فى الهضبة الحبشية وأعالى النيل الأزرق والمطبرة وبلاد أرتريا وسواحل السودان الشرقية .

وقد كانت المؤثرات السامية تتدفق من الجزء الجنوبى لجزيرة العرب أكثر من تدفقها من الجزء الشمالى ، وذلك لوفرة السكان فى بلاد اليمن من جهة ، ولصغر مساحة البحر من جهة ثانية ، ولبراعة السكان فى الملاحة من جهة ثالثة .

ولكن ليس معنى هذا أن إقليم الحجاز لم يتصل اتصالا مباشراً بالسودان ؛ فإن هذا الاتصال قد حدث وإن كان لم يبلغ مبلغاً عظيما إلا فى العهد الإسلامى .

(ح) الطريق الشمالى :

لا شك أن هذا كان أهم الطرق التى سلكتها العناصر القوقازية إلى السودان فى العصور التاريخية القديمة والحديثة ، لأن كثيراً من القبائل العربية كانت تهاجر إلى مصر أولا ، عبر برزخ السويس ، ثم تصعد إلى الجنوب ، فالصلات بين شمال الوادى وجنوبه كانت دائماً أوثق الصلات ، سواء من ناحية الجنس والسلالة ،

(١) مقالة الأستاذ سلجمان فى عدد سنة ١٩١٣ من J.R.A.I. وعنوانها :
The Hamitic Problem in the Anglo - Egyptian Sudan.

أو من الناحية الثقافية ، وسواء فى ذلك ما حدث فى العصر الفرعونى القديم ، أو فى عصر الرومان المسيحى ، أو فى العهد الإسلامى .

(د) الطرق الليبيـة :

وهى التى تصل السودان الشمالى الغربى بصحراء ليبيا الواقعة غربى نهر النيل . وبعض هذه الطرق يشمل القطر المصرى وبرقة ، فهو جزء من الطريق الشمالى ؛ وبعضها يجىء من تونس وطرابلس وفزان . وبعضها من الصحراء رأساً من منطقة تبستى ووادای ، حمل إلى السودان جماعات ليبية فى عصر متأخر مثل الزغاوة والجرعان والبدايات ؛ أو من إقليم بحيرة تشاد وغرب إفريقية ، وقد هاجر من هذا الطريق فى الأزمنة الحديثة جماعات الفلاتا وهى مزيج من الحاميين والزنج .

٧ — تقابل السلالات القوقازية والزنجية

سبق لنا أن ذكرنا أن التوسع الزنجى نحو حوض النيل جاء فى مرحلة متأخرة ، ولعله لم يبدأ إلا بعد أن احتلت العناصر القوقازية جزءاً كبيراً من الحوض الشمالى : من أول البحر المتوسط إلى أقصى بلاد النوبة . ولعله ليس بمستبعد أن قد مضت فترة من الزمن قبل أن يتلاقى العنصران وجها لوجه ، وأن يقترب أحدهما من الآخر . ثم لم يكن بد من أن يلتقى العنصران ، وأن يختلطا ، وأن يترتب على هذا الاختلاط نتائج هامة . وقد كان هذا الاختلاط إما نتيجة للمهاجرة والتوغل السلمى ، فى الحدود التى تسمح بها وسائل الانتقال ، والتى تتحكم فيها الظروف الطبيعية . أو قد يجىء الاختلاط نتيجة الغزو . وفى وسعنا أن نقرر استنادا إلى ما نعلمه من الحوادث التاريخية ، أن ظاهرة الغزو هذه كانت دائما تتخذ صورة واحدة وهى غزو القوقازيين الآتين من الشمال ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق أنه كانت هنالك غزوات زنجيـة أغارت على الأوطان القوقازية . وقد زعم كل من ماكمايكل وترمنجهام[1] أن جماعات زنجية أغارت من جنوب كردوفان على حدود

(١) راجع الجزء الأول من كتاب « تاريخ العرب فى السودان » لماكمايكل ص ١٢ وما بعدها ، وكتاب ترمنجهام « الإسلام فى السودان » ص ٣٩ وما بعدها .

مصر فى أزمنة مختلفة فى الدولة المتوسطة وفى زمن الأسرة الثامنة عشرة ؛ واستند كل من الكاتبين على ترجمة كلمة نهسو Nehesu المصرية بكلمة زنجى . وقد فند الأستاذ ينكر وغيره من علماء التاريخ المصرى القديم هذا الزعم وأثبتوا بما لا يدع مجالا للشك أن المقصود بهذه الكلمة هم النوبيون سكان بلاد النوبة ، وهم من سلالة حامية قديمة ، ولا يمتون إلى الزنج بصلة كما أثبت ذلك الأستاذ سلجمان(١) .

والظروف الجغرافية الطبيعية للسودان تنفى احتمال حدوث غزو من الجنوب ، وذلك لأن الجهات التى يعيش فيها الزنوج ، والتى ألفوها ولا يستطيعون الابتعاد عنها طويلا ، تمتاز بوفرة فى المطر والمرعى . وليس فى وسعهم أن يبتعدوا عنها كثيراً ، وهم أكثر استقراراً فى أوطانهم من الشماليين ، الذين كانوا يألفون عيش البداوة ، وفى العهود المتأخرة كانوا رعاة إبل ، كثيرى الاضطراب والانتقال ، ولهم صفاتهم الحربية المعروفة .

لذلك نستطيع أن نستبعد ونحن مطمئنون حدوث غزوات هامة من الجنوب ، وأن نقرر أن الغزو كان دائما من الشمال نحو الجنوب ، ومن الإقليم القوقازى نحو الأوطان الزنجية .

ومع ذلك لم تسلم الأقاليم الشمالية من أن يصل إليها بعض الدم الزنجى فى صورة أخرى . فقد ساعدت تجارة الرقيق على تسرب الدم الزنجى نحو الشمال ؛ وهى ظاهرة تجارية سلمية غالباً ، ولكن كان لها أثرها فى انتشار الدماء الزنجية ، ولو بدرجة ملطفة ، فى جميع أنحاء وادى النيل الشمالى . وإن كانت أكثر فى الجنوب منها فى الشمال(٢) .

وقد استطاعت جماعات قليلة من القوقازيين أن تكون لها السيادة فى أوطان زنجية ، وأن تؤثر فى السكان تبعاً لذلك تأثيراً كبيراً ، بأن نزلت بينها وتزوجت

---

(١) مقال سلجمان السالفة الذكر .

(٢) إن بعض الكتاب ، مثل ماكمايكل ، لم يعر أهمية تجارة الرقيق ما تستحق من العناية ، وما كان لها من الأثر فى أشكال السكان ، ولكن أخبار الرحالة (راجع مثلا بركهارت ص ٣٢٣ وما بعدها) حتى فى العصور المتأخرة ترينا أن تجارة الرقيق كانت واسعة الانتشار جداً ، وأنها كانت تتناول الآلاف من الرجال والنساء فى كل عام .

منها . وانتشار حق الأم السائد بين كثير من الجماعات الزنجية قد ساعد على هذا . ومن الجائز أن نتصور أن أسرة قوقازية نزلت بلادا زنجية دون أن يكون لها حق فى ذلك ، وبدلا من أن تستخدم وسائل القهر والعنف ، تزوجت من الأسرة الحاكمة ، وبذلك يرث الولد خاله ، وقد يكون هذا الخال هو نفسه الحاكم الأصلى الزنجى .

وهكذا تغلغلت السلالات القوقازية فى البلاد الزنجية ، كما تسربت الدماء الزنجية إلى الأوطان القوقازية عن طريق تجارة الرقيق . وحدث ما ينتظر من التفاعل بين الفريقين ، وتبادل انواع الثقافات .

وقد سلمت بعض الجهات الوعرة (الجبلية) من توغل الدماء القوقازية فيها ، كما هى الحال فى النوبا سكان جنوب كردوفان والفور وبنى شنقل ؛ غير أن هذا لم يحل دون تسرب الثقافة القوقازية ، وامتداد أثرها فى بعض الأحوال .

٨ — أثر الحرفة فى الاختلاط

للحرفة أثر كبير فى تكييف الاختلاط . فالرعاة الرحل الذين لا يستقرون فى مكان واحد ، والذين ينتقلون مسافات بعيدة طلباً للمرعى ، مثل بعض البجة ، وبعض العرب ، كانوا أقل اختلاطا بالدم الزنجى ، وأقل اقتناء للرقيق .

أما المستقرون الذين يشتغلون بالزراعة ، فإن هذه الحرفة تتطلب كثيراً من الأيدى العاملة وتشتمل على أعمال يبغضها الرعاة ، ولذلك يستحب اقتناء الرقيق لكى يضطلع بهذا العمل الكريه .

أما رعاة البقر ، فإنهم فى حالة وسط بين رعاة الإبل والزراع . ومجاورتهم للوطن الزنجى فى الجهات الجنوبية ساعدت على الاختلاط وعلى اقتناء زوجات من الزنجيات . وبذلك تسربت إليهم الدماء الزنجية أكثر مما تسربت إلى رعاة الإبل مثل الكبابيش .

٩ — أثر الاختلاط بين السلالتين الزنجية والقوقازية

كان لهذا الاختلاط أثره من الناحيتين الطبيعية (الجسدية) والثقافية أو الاجتماعية ؛ والناحية الطبيعية أكثر وضوحا ، والاستدلال عليها أسهل

وأيسر : ومن مظاهرها تعديل فى التقاطيع فى الأنف والشفتين ؛ وبروز الوجه ؛ ففى الأنف تنخفض النسبة الأنفية انخفاضاً واضحا ، وهذه الظاهرة تبدو بين الجماعات الزنجية التى دخلها الدم القوقازى ، وكذلك يزول الفطس ، ويرتفع الأنف ارتفاعا محسوسا ، وتصبح الشفاه أقرب إلى صفات القوقازيين .

أما أثر الدم الزنجى فى القوقازيين ، فإنه يبدو بوجه خاص فى شكل الشعر ، والظاهر أن تجعيد الشعر من الصفات التى تورث بسهولة (أى من الصفات الغالبة Dominant فى المصطلح المندلى) .

فإذا دخل العناصر القوقازية مقدار ولو قليل من الدم الزنجى لا يلبث أن يظهر أثر هذا الاختلاط فى تجعيد الشعر ، وإن لم يصبح مفلفلا تماماً كما هى الحال فى الجنس الزنجى الصميم .

أما القامة والنسبة الرأسية ؛ فليس من السهل أن نجد للاختلاط أى أثر فيهما ، لأن كلا من الجنسين يشتمل على عناصر طويلة القامة والرأس ، والنسبة الرأسية منخفضة عند الفريقين .

أما لون البشرة فالأجدر بنا ألا نعيره اهتماماً كبيراً ، لأن السمرة قد تشتد جداً حتى فى العناصر القوقازية التى لم تختلط بأى دم زنجى ، ولذلك لايمكن الاعتماد عليها وحدها لتقرير درجة الاختلاط .

أما الآثار الاجتماعية والثقافية المترتبة على الاختلاط ، فليس من السهل تقريرها بصورة قاطعة فى جميع الحالات ، وهنالك آثار واضحة يسهل الاستدلال عليها ، ولكن هنالك من غير شك أمور خافية أوعلى الأقل ليست ظاهرة ظهوراً ملموساً .

من الواضح مثلاأن اللغة العربية قد انتشرت ، حتى محت بعض اللغات القديمة وحلت محلها ، كما هى الحال فى شمال كردوفان وجنوب الجزيرة ، وفى جهات أخرى أدخلت ألفاظ عربية واصطلاحات فى اللغات القديمة ، وإن لم تقض عليها تماماً ، كما هى الحال فى لغات البجة والنوبيين .

كذلك تسربت عناصر ثقافية من الشمال نحو الجنوب فى مختلف شئون المعيشة كالأدوات والآلات والزراعة وما إليها ، وهذا التأثير يرجع إلى زمن قديم ،

وهذه ناحية لا تزال فى حاجة إلى دراسة مستفيضة[١] .

والدين الإسلامى قد انتقل من القوقازيين إلى الزنوج ، ومن السهل أن نستدل على مبلغ انتشار هذا الأثر ... ولكن ليس من السهل أن نتبين أثر التعاليم الإسلامية ، ومبلغ تعمقها فى النفوس ، وإلى أى درجة أمكن للإسلام أن يعدل من المعتقدات السابقة للإسلام ، وأن يحل تماماً محل الديانات والمعتقدات القديمة ؛ فإن كثيراً من السكان لا يزالون يحتفظون بعادات وشعائر ليست مما ألفناه عند المسلمين ، وأحياناً قد تتنافى مع الإسلام صراحة .

وما يقال عن الإسلام يقال عن النصرانية التى دخلت على أيدى المبشرين حديثاً ، أو التى دخلت عند الأحباش والبجة والنوبة على أيدى قسس من مصر .

بقى سؤال يعرض للمرء : وهو ألم يكن للاختلاط بالزنوج أثر ثقافى بين العناصر القوقازية ؟ ألم يكن للوثنية الزنجية أثر أيضاً فى الجماعات القوقازية ؟ إن مثل هذا الأثر — إذا وجد — يكون سببه أولا أن العناصر الزنجية التى أسلمت واتخذت العربية لغة لها ، وأصبحت أحياناً تدعى « عرباً » على سبيل التجاوز ، قد تحتفظ ببعض شعائرها الوثنية ، ثانياً أن هذه التقاليد والشعائر تشيع بعد ذلك فى المجتمع الإسلامى كله ، وكثيراً ما نسمع أن بعض العادات الشائعة فى مصر مثل « الزار » هو من أصل زنجى ، ومن الممكن أن نبحث عن ظاهرات أخرى قد تكون من أثر الاختلاط بالزنوج ؛ فمن الجائز مثلا أن ندرس ظاهرة شائعة فى السودان أكثر من شيوعها فى أى بلد إسلامى آخر مثل « الطرق الصوفية » ، وكيف أصبحت عنصراً هاماً فى الحياة الإسلامية ، ولكل منها رئيس متبوع مسموع الكلمة وشعائر خاصة فى حفلاتها واجتماعاتها ، مما يدعونا إلى التساؤل : أليس من الممكن أن تكون هذه الزعامة الروحية ، التى لا نعرف لها نظيراً فى مصر أيضاً ، أثر من الزعامات الروحية التى نعرف أن لها كياناً قوياً فى القارة الإفريقية ؟ .

---

(١) راجع مثلا مقالة سلجمان عن أثر المصريين القدماء فى إفريقية الزنجية فى الدراسات المهداة إلى الأستاذ جريفيث ، طبع كامبردج سنة ١٩٣٢ . ص ٤٥٧ وما بعدها .

هـذه المسائل وأمثالها ليس من السهل أن نقطع فيها برأى ، حتى تستوفى دراسة وبحثاً .

١٠ — العناصر القوقازية غير العربية

تنقسم العناصر القوقازية فى السودان إلى قسمين : الأولى تتكلم العربية وليس لها لغة سواها ، والأخرى لها لغات غير العربية ، ولذلك تسمى بأسماء خاصة .

فأما الثانية فهى : (١) النوبة على اختلاف طبقاتهم ولهجاتهم ؛ وموطنهم الحالى المعروف الذى يمتد من الدبة إلى شمال أسوان ، هو البقية الباقية من وطن أكبر وأوسع على الأرجح .

(٢) العناصر غير العربية فى دارفور : وبعضها مثل الزغاوة والبدايات والجرعان ، هى من أصل ليبى ، أى هجرتها الأخيرة كانت من الغرب ؛ والبعض الآخر مثل الميدوب (سكان الجبل المسمى باسمهم فى الشمال الشرقى لدارفور) . والتنجور : كلاهما من أصل نوبى على الأرجح .

(٣) البجة : القبائل الحامية التى تعيش بين البحر الأحمر ونهر النيل .

هذه هى المجموعات الثلاثة الرئيسية غير العربية ، التى تنتمى مع ذلك إلى الجنس القوقازى .

١١ — العناصر المسماة « عربية »

أما سائر العناصر القوقازية وتسمى باسم « عرب » وهم يتكلمون اللغة العربية ولا يتكلمون لغة سواها . فلا شك أن نسبة عالية منهم من أصل عربى صميم . كما أن فيهم جماعات فيها نسبة عالية من دماء أخرى . وقد تغلب هذه الدماء الأجنبية فى بعض الأحوال . ومع ذلك يطلق على أصحابها اسم العرب لسيادة الثقافة العربية عليهم ، وانعدام أى مميز آخر يميزهم .

وقد جرت العادة بالنسبة إلى العرب الأصليين — أى فى الجزيرة العربية ذاتها — أن نميز بين الجنوبيين منهم والشماليين ؛ وهذا التمييز يستند إلى فروق

ثقافية جوهرية ، وإلى فواصل جغرافية فصلت الجنوب عن الشمال فترة من الزمن . وعلماء اللغات السامية يفرقون بين اللغات السامية الشمالية ، التى كانت تظهر آثارها فى العراق والشام ، وسائر بلاد الهلال الخصيب ، وبين اللغات السامية الجنوبية ، التى تسود اليمن وحضرموت وعدن . والتى كان لها أثرها فى بلاد الحبشة وتيجرة وأرترية .

وقد ظلت الجهات الجنوبية من جزيرة العرب بمعزل عن الشمالية زمناً طويلا ، إلى أن جدت ظروف دعت إلى هجرة اليمنيين وإلى انتشارهم فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ؛ حتى وصلت قبائلهم إلى الحجاز والعراق والشام ، ولم يعد التقسيم إلى شمالى وجنوبى أمراً ممكناً ، بل أصبح العرب يقسمون إلى قحطانى وعدنانى ، وعلى هذه الصورة نرى الهجرات التى اتجهت إلى مصر ، ومنها إلى سائر حوض النيل ، وإلى بلاد المغرب والأندلس يتناولها هذا التميز .

وهـذا التميز نراه واضحاً أيضاً فى السودان ، حيث نرى القبائل أو الجماعات العربية تنقسم إلى قسمين : جَعْليين : وجُهَنيين ، والأولون يمثلون العرب الشماليين ، والآخرون الجنوبيين .

(١) فأما الجعليون فهم أكثر العرب عدداً . وتدخل فيهم جماعات تعيش على النيل شمال الخرطوم إلى دنقلة مثل الجوابرة ، والبديرية ، (فى النوبة) والشايقية والبطاحين ؛ وكذلك الجوامعة والبديرية فى كردوفان : وكذلك « الجعليون » الذين يعيشون بين العطبرة وخانق سبلوقة ومركزهم بلدة شندى ؛ وهم تلك الشعبة من الجعليين التى يطلق عليها هذا الاسم . وسنعود إلى شرح هذا الأمر بالتفصيل عند الـكلام على المجموعة الجعلية .

وهؤلاء الجعليون ينتمون إلى « إبراهيم » جدهم الأكبر ، الذى ينتمى إلى العباس ؛ والذى يروى أنه فى زمن الجدب أطعم الجائمين ! وقال لهم : «جعلنا كم منا» كما يروى هارولد ماكمايكل وسنتناول هذا الموضوع بالتفصيل عند الـكلام على الجعليين .

أما جهينة فاسم لقبيلة عربية مشهورة وهى فرع من قضاعة ؛ وقد هاجر

منها كثير إلى مصر . والقبائل التى تنتمى إلى جهينة (العرب الجنوبيين) فى السودان هى :

١ — رفاعة (بما فى ذلك الحوازمة) والعبد للاب (أصحاب حلفاية الملوك) .

٢ — الشكرية .

٣ — البقارة : مثل الرزيقات . الحبانية ، والتعايشة ، وغيرهم .

٤ — الحَمَر ، والكبابيش وأضرابهم .

ولقد كان لدخول الإسلام على أيدى القبائل العربية أثر فى الأنساب وترتيبها ، وأحياناً تعديلها ، فقد أصبح من المرغوب فيه أن تكون كل قبيلة لا من أصل عربى فقط ، بل بقدر الإمكان أن تنتمى إلى نسب شريف يتصل بالنبى صلى الله عليه وسلم . ولعل هذا هو السبب الذى جعل الجعليين يشتملون على كل هذا العدد الكبير من الجماعات ، التى آثرت أن تنضوى تحت لوائهم لشرف نسبهم .

كذلك نرى حتى الجماعات الحامية فى كثير من الأحيان تحاول أن تجعل نسبها متصلا بالعرب ، وكثيراً ما يكون لها اتصال عن طريق النسب ببعض القبائل العربية .

١٢ — الحاميون المستعربون

ولا مندوحة لنا من أن نفترض أن العرب عندما دخلوا السودان لم يكن ذلك القطر الكبير خالياً من العناصر القوقازية ، بل لعل السودان الشمالى كله كان وطناً من أوطان الجنس القوقازى فى ذلك الوقت كما هى الحال اليوم ، وبوجه خاص كان للحاميين انتشار أكبر مما لهم اليوم ، وكان كثير منهم يعيشون على ضفاف النيل وفى الأودية المجاورة له ؛ فكيف نعلل أن جميع السكان اليوم الذين يتكلمون العربية يدعون « عربا » ؟ .

لا بد لنا أن نسلم بأن كثيراً ممن يدعون اليوم عرباً هم من غير شك من الحاميين المستعربين ، الذين غمرتهم الثقافة العربية ، وغير قليل من الدماء العربية أيضاً . وهذه الحالة تعادل تماماً ما حدث فى مصر ذاتها ، بل وفى سائر البلاد المجاورة لجزيرة العرب .

ويقول ماكايكل : إن الكبابيش لا بد أن يكونوا من أصل حامى أو بجاوى ، بدليل أن كثيراً من عشائرهم لها أسماء تشابه أسماء العشائر المنتشرة عند البجة . ومن الملاحظ فى السودان أن فروع القبائل كثيراً ما تنتهى أسماؤها بالمقطع آب ، فيقال عبد اللاب وهاشماب وغير ذلك .

والمقطع معناه آل : (آل عبد الله وآل هاشم) ، وهذا المقطع منتشر لدى الحاميين ، والنوبيين والجعليين وبعض الجهنيين ، ولكن هذا لا يقطع بأن وجوده يضعف من النسبة العربية .

١٣ — العرب الذين لا ينتمون الى قبيلة

فى بلاد كالسودان يعتز فيها الإنسان بعصبيته ، وبالجماعة التى ينتمى إليها ، لا بد أن يكون عزيزاً على النفس أن يجد المرء نفسه مفرداً لا ينتمى إلى جماعة ، ولا يستند إلى رهط أو عشيرة . هذا أمر مألوف فى البلاد التى غمرتها الحضارة زمناً طويلا ، وبعد فيها عهد الفطرة والبداوة ؛ فأصبح الناس ينتسبون إلى المكان الذى يعيشون فيه ، لا إلى جماعة أو رهط أو قبيلة .

ومع ذلك فإن فى السودان آلافاً مؤلفة من الناس ، الذين لا قبيلة لهم ، ولا نستطيع أن نصف الواحد منهم بأنه جعلى أو جهنى . ومن الجائز أن نرجع هذه الظاهرة إلى سببين : أولهما ، ما تعرض له السودان من الحروب الداخلية ، والاضطرابات المتتالية فى عدة عصور . مما أدى إلى تفكك بعض الوحدات ، وتشريد بعض الجماعات .

والسبب الثانى ، ولعله أهم السببين ، هو التحضر ، فإن الاستقرار يبعث على تقوية الرابطة بين الشخص وبين المكان الذى يقيم فيه ، فتنقطع الصلة بينه وبين الوطن البعيد ، الذى تقيم فيه قبيلته أو عشيرته . ولا يمضى زمن طويل حتى يكون الشخص قد أخذ ينتسب إلى بلدته ، دون قبيلته ، وكثير من هؤلاء الأفراد الذين لا ينتمون إلى قبيلة ، قد يكون من أصل بجاوى أو نوبى ، كما أنهم قد يكونون من أصل عربى .

١٤ — الطرق الدينية

لا بد لنا قبل أن نتحدث عن السلالات القوقازية المختلفة أن نشير إلى ظاهرة فى الإقليم القوقازى كله ، تشمله كله تقريباً دون تفرقة بين حامى وسامى ، بجاوى أو عربى أو نوبى ، أو غير ذلك من الفروع والسلالات .

سبقت الإشارة إلى أن الإقليم القوقازى غلبت عليه الثقافة العربية ، والدين الإسلامى بوجه خاص ، بحيث لم يبق بين القوقازيين من يدين رسمياً بأى دين آخر . وأتباع النصرانية فى السودان الشمالى — مثل الجنوبى — كلهم حديثو الهجرة إلى السودان ، ومن أصل غير سودانى ، وقل منهم من تربطه بالأرض صلة دائمة . فمن الممكن القول أن جميع سكان السودان الشمالى مسلمون ، شديدو الإحساس للأمور الدينية ، ولذلك رأت حكومة السودان أن الأوفق ألا تسمح للمبشرين بأن يمارسوا حرفتهم فى السودان الشمالى . والمسلمون فى السودان سنيون ، وأكثرهم يتبع مذهب الإمام مالك .

ومن أهم الظاهرات الإسلامية فى السودان تلك الطرق الدينية المنتشرة فى جميع أرجائه . وربما لم يكن من الصواب أن ندعوها طرقاً صوفية ، وإن كان منشئوها الأول ، جماعة متصوفة ، أو شخصا متصوفا ، أى له تفكير دينى وفلسفى خاص ، والأولى أن نسميها طرقاً دينية .

ومن الملاحظ — كما قدمنا — أن لهذه الطرق فى السودان انتشاراً قل أن نجد له نظيراً فى أى بلد إسلامى آخر ، مع أن هذه الطرق أو معظمها قد انتشر فى مصر وغيرها من الأقطار دون أن تجد البذرة تلك التربة الملائمة التى وجدتها فى السودان . ومن الممكن أن ننظر إلى ظاهرة الطرق الصوفية على أنها ظاهرة أنثربولوجية ، أو اجتماعية لها مميزاتها . وقد يكون للعقائد السابقة للإسلام أثر فى قوة انتشارها فى السودان .

والطرق الدينية كما رأينا ليست مقصورة على سلالة من السلالات ، وبذلك تصبح لها أهمية خاصة فى التقريب بين المجموعات الجنسية ، وربط العرب بغير العرب ، ولو فى حيز محدود .

ومن هذه الناحية تبدو لها أهمية سياسية خاصة ، لأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية ، وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة .

من أجل ذلك كان لهذه الطرق خطر كبير . ولا بد أن يحسب لها حسابها فى دراسة الظاهرات البشرية للسودان ، ولم يتيسر لنا إلى الآن بحث واف عن الطرق وتوزيعها ، بوجه دقيق فى مختلف الأقاليم ، وإنما ندون ما نعرفه بوجه عام .

وليست الطرق عبارة عن مذاهب أو فرق دينية مثل فرقة « الشيعة » و « السنة » بل هى نظام يجمع عدداً كبيراً من الناس فى سلك واحد . ولهذا السلك رئيس واحد هو شيخ الطريقـة ، وهو القائد والمرشد لأتباعه . ويكاد كل سودانى مسلم أن ينتمى إلى بعض الطرق . كما قال هلسن فى مقال له[١] .

(Nearly every Moslem native of the Sudan belongs to one or other of these Societies, and looks to the head of his tarika for guidance in matters spiritual and tempeoral. Their influence is accordingly very : great.)

ويزعم هلاسن أن الفـكرة الأساسية فى الطريقة هى اعتقاد الناس من العامة ، أنهم فى حاجة من أجل مصلحتهم الروحية ، إلى إرشاد شخص من ذوى الـكرامة والبركة ليكون واسطة بينهم وبين الله .

ونستطيع أن نؤكد أن مثل هـذا الخاطر لم يجر فى نفس أحد من أتباع أى طريقة . فليست الرغبة فى التماس واسطة بين العبد وبين الرب هى التى تدفع الناس . بل إحساس داخلى يدفع الناس إلى الانتظام فى سلك العبادة المنظمة وهو إحساس وليد أجيال أو قرون ، ولعله إحساس يرجع إلى ما قبل الإسلام نفسه .

وليس نظام الطرق مقصـوراً على السودان . ولـكنه نجح فى السودان نجاحاً ممتازاً ، وقد اشتهر فى الإسلام عدد من مؤسسى الطرق الدينية مثل عبد القادر الجيلانى (١٠٧٩—١١٨٦) وأبو الحسن الشاذلى (١١٩٦—١٢٥٨) . أى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، وقد وصل أثرهما إلى السودان . كما وصل اليه أثر غيرهما من القادة الصوفيين . وكثير منهم جاء من المغرب . ونحن نعرف أن

---

(١) فى كتاب The Anglo Egyptian Sudan from Within ص٢٠٩ وما بعدها . ولعل هذه القاعدة لا تنطبق تماما على بعض طبقات من المتعلمين .

فى المغرب عادة تمجيد القديسين الأحياء ، والاهتداء بهداهم ، ولذلك كانت بلاد المغرب من أهم جهات الإنتاج للطرق الصوفية .

وقد دخلت الطرق الدينية السودان فى القرن الثانى عشر الميلادى . وفى ظل دولة الفنج كان ازدهارها الأول ، وإن لم تبلغ من التنظيم الدرجة التى وصلت إليها الآن . ففى العهد الحديث تم لها نظامها ، واستكملت عدتها وشعائرها .

وكل طريقة من الطرق لها كما ذكرنا شيخ هو رئيسها الأعلى . ومنصبه يوشك أن يكون وراثياً ، وله مساعدون يسمون خلفاء ، يحملون رسالته ، وينفذون أوامره . ومن الخطأ ما ذهب إليه هللسن من أن « الذكر الذى يشبه الرقص » هو أهم ما يميز الطرق بعضها عن بعض ، فالذكر والأوراد والأحزاب وغير ذلك ، ما هى إلا مظاهر للطريقة ، ولكن العنصر الأساسى فى الطريقة هو العهد الذى يقطعه التابع للطريقة ، بأن يسلك مسلكا رسم اه ولا يحيد عنه فى مسائل خاصة تتصل بالمعاملات والعبادات .

ونظام الطرق كنظام القبائل . أو ككل نظام اجتماعى له تطوراته الخاصة . فكما أن القبيلة قد تنقسم وتتفرع منها قبائل . أو يندمج بعضها فى بعض كذلك فى الطرق الدينية ، قد تتفرع طريقة من طريقة أخرى . وقد تضعف أو تقوى ، وقد ينمو الفرع ويزدهر ، ويضعف الأصل ويضمحل .

وفى السودان اليوم عدة طرق متفاوتة فى الأهمية :

(١) منها الطريقة المرغنية أو الختمية . أسسها فى السودان السيد محمد عثمان الكبير (الذى ولد بالحجاز فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر) وتنسب إلى مؤسسها الأول جده الأكبر السيد على المرغنى . وقد جال السيد محمد عثمان فى السودان كله . ثم استقر فى كسلا ، وأنشأ قرية خاصة بجوارها تسمى الختمية .

ولا شك فى أن هذه الطريقة هى اليوم أوسع الطرق انتشاراً وأعظمها خطراً ، ويشمل نفوذها أقاليم النيل الأزرق والعطبره ؛ وشرق السودان بوجه عام ، كما أن لها نفوذاً كبيراً فى دنقله ووادى حلفا وغيرهما من الجهات .

(٢) ومنها الاسماعيلية . وقد تفرعت فى القرن الماضى عن المرغنية وكان

رئيسها من أكبر أنصار الخليفة ، وقد عظم شأنها فى ذلك الوقت ، أما اليوم فإن نفوذها مقصور على منطقة الأبيض وبعض جهات غرب السودان .

(٣) ومنها السمّانية . وأصلها فرع من طريقة قديمة تسمى الخلوتية (يرجع تأسيسها إلى القرن الرابع عشر) . ودخلت السودان على يدى « الشيخ الطيب » ، فى أول القرن التاسع عشر . وكان رئيسها فى أول أيام المهدى هو الشريف نور الدايم ، الذى كان شيخاً للمهدى نفسه ، ثم تخلى عنه المهدى ، واتخذ له طريقته الخاصة .

وقد تفرع عن السمانية طريقة أخرى تسمى الهندية ، رئيسها الشريف يوسف الهندى ، وكان أحد القادة الروحيين الثلاثة فى السودان ، وقد أخذ نفوذه ينتشر فى الاعوام الأخيرة[1] .

(٤) ومنها المجذوبية . وكان لها فيما مضى شأن كبير فى السودان ، ويقال إنها تنتمى إلى الطريقة الشاذلية ، وقد أسسها شيخ من الجعليين يسمى محمد المجذوب فى القرن الثامن عشر ومركزها فى الدامر ، وفى القرن الثامن عشر كانت الدامر وما حولها بلداً مستقلا تحت زعامة شيخ الطريقة . وكانت مركزاً علمياً دينياً كبيراً فى السودان كله ، وقد وجدها بركهارت كذلك عند ما مر بها فى سنة ١٨١٥ .

واليوم نرى هذه الطريقة . منتشرة بين الجعليين والهدندوه ، وبعض البشاريين وكذلك على سواحل البحر الأحمر وعلى الأخص فى سواكن .

(٥) ومنها الإدريسية ، وهى طريقة قديمة ، وقد تفرع عنها بعض الطرق الهامة ويقال إن الختمية فرع منها ، وقد أسسها رجل من فاس فى مراكش يدعى أحمد ابن إدريس ، ورئيسها الحالى مركزه فى القاهرة أو دراو أو أرجو فى دنقله . ولهم نفوذ كبير فى هذه المديرية .

وهنالك فرع فى العسير ينتمى إلى نفس الطريقة كما هو معلوم .

(٦) ومنها التيجانية ، وهى من أشهر الطرق فى السودان ، ولعلها من أهم

---

(١) توفى الشريف يوسف إلى رحمة الله فى عام ١٩٤٣ وخلفه نجله الشريف عبد الرحمن .

الطرق فى إفريقية كلها . وكان لأصحابها فضل كبير فى نشر الإسلام فى غرب إفريقية ، وتغلب عليها النزعة الصوفية العميقة ، لذلك نراها اليوم منتشرة حتى بين المتعلمين فى السودان ، وأهم ميدان انتشارها فى إقليم النيل الأعظم بين أم درمان والدامر ، وربما كان جميع الفلاتا المقيمين حول سنار تابعين لها أيضاً ، ولها أيضاً انتشار واسع فى دارفور .

(٧) ومنها الرشيدية وهى متفرعة عن الإدريسية ، وأتباعها فى دنقله وأم درمان والنيل الأبيض .

هذه هى الطرق الرئيسية ، ولكن هنا لك طرق عديدة مركزة فى أمكنة محدودة ، ذات صبغة محلية ، أو قد تكون هنا لك جماعة صغيرة ، تتركز حول أشخاص من ذوى الصلاح والتقوى ، مثل اليعقوباب[١] ، الذين اكتسبوا شهرة بالتقوى والصلاح ، وإن لم يكن لهم أتباع كثيرون .

* * *

هذا وصف عام مهدنا به لدراسة سكان السودان الشمالى وسنتناول فى الصفحات التالية المجموعات الرئيسية للسكان مبتدئين بالبجة ، ثم المجموعات العربية المختلفة . وكذلك نعالج بإيجاز إقليم دارفور ، وإن كانت قد تسربت إليه سلالات غير عربية ، نظرا لموقعه فى السودان الشمالى من جهة ولغلبة الثقافة العربية عليه من جهة أخرى . وقد رأينا من المفيد أن نمهد لوصف كل جماعة أو قبيلة بوصف جغرافى موجز لأوطانها التى تعيش فيها ، وإن كان الهدف الأول للكتاب هو وصف القبائل وأنسابها وأهم مميزات كل منها .

---

(١) معظم اليعقوباب يتبعون الطريقة السمانية ، ولكن رؤساءهم يتمتعون بنفوذ دينى خاص.

الفصل الثانى

البُجه (البُجـاه)(١)

١ — مواطنهم وأقسامهم ...

إذا تناولنا دراسة الجماعات القوقازية بالترتيب التاريخى ، وجب علينا أن نبدأ بغير العرب من سكان السودان ، الذين استقروا فى ربوعه منذ عهود معرقة فى القدم . . ليس معنى هذا أن الجماعات العربية كلها حديثة الهجرة إلى السودان ، ولـكن معناه أنها جميعاً — وإن اشتملت على عناصر قديمة — قد تشربت الثقافة العربية فى عصر متأخر نسبياً ، واكتسبت سمتها العربية بفضـل هجرات قبائل عربية ، دخلت السودان من أطرافه الشمالية والشرقية بعد أن ظهر الإسلام فى جزيرة العرب وأخذ ينتشر فى قارة أفريقية .

والبجه والنوبة كلاهما معرق فى القدم ، ولـكن البجه بحكم بيئتهم ، وانقطاعهم عن طرق المهاجرة ، أصفى جوهراً من النوبة ، لم يتعرضوا للاختلاط بعناصر غريبة عنهم كما تعرض النوبة . وقد لاحظ غير واحد من الـكتاب شبهاً قوياً بين البجه وبين المصريين القدماء . مما يدل على قدم عنصر البجه وأنه قد استوطن البلاد التى يسكنها اليوم منذ آلاف السنين .

لا شك أن مواطن البجه فى الوقت الحاضر أضيق مساحة ، مما كانت عليه

---

(١) الاسم المتداول اليوم للبجة هو بكسر الباء ، وهـذا تطور حديث ، ومن المألوف على مضى الزمن أن تتحول الحركة من الضم إلى الـكسر . وقد كان المتقدمون من الـكتاب ، كالمسعودى وابن سليم الأسوانى والمقريزى يكتبون الاسم بضم الباء وبعدها ألف وهاء . والظاهر أن الاسم قديم جداً ، لأن شعب البجة كان معروفاً للمصريين القدماء باسم المـازوى أو المـاجوى ؛ ومبادلة الباء بالميم أمر ليس غريباً على اللغات السامية كما هى الحال فى مكة وبكة .

فى الأزمنة الغابرة . ومواطنهم اليوم تتألف من الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً ، ونهر عطبرة ، ثم النيل الأكبر غرباً ، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية فى الجنوب إلى نهاية مديرية أسوان فى الشمال »

أراض فسيحة شاسعة — وإن كانت أقل من أوطانهم القديمة . وبيئة فيها تنوع كثير وإن غلبت على معظمها صفة الشدة والجهد .. وهـذا التنوع يشمل التضاريس ، وسقوط المطر ، وما يترتب على ذلك من تنوع النبات والحيوان .»

ولعل اختلاف التضاريس هو أكبر عامل طبيعى يؤثر فى الظاهرات الطبيعية الأخرى . ولذلك يجدر بنا أن نتأمل فيه لحظة ؛ وأكبر مظهر لاختلاف التضاريس هو وجود تلك السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال موازية وملاصقة للبحر الأحمر ، مرتفعات متصلة الحلقات ، اللهم إلا فى مكان واحد حيث يشقها خور بركة ، ذلك المجرى الذى ينحدر من الركن الشمالى للهضبة الحبشية من ارتفاع ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، ثم يجرى نحو الشمال ، وسط فجوة واسعة بين جبال البحر الأحمر ، حتى تنتهى مياهه إلى الأرض الفضاء بقرب طوكر ؛ إذ لم يستطع لقلة مائه أن يبلغ البحر الأحمر .

وفيما عدا هذه نرى مرتفعات البحر الأحمر ممتدة بمحاذاته تلتصق به أحياناً ، حتى لا يكاد يفصلها عنه شىء ، وتبتعد أحياناً عنه ، فتترك بينها وبينه سهلا ساحلياً ضيقاً ، عرضه يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلو متراً ...

فتضاريس الوطن البجاوى إذن ذات اتجاهات شمالية جنوبية ؛ أولها من ناحية البحر ذلك الشريط الساحلى المنخفض ، وهو ليس سهلا ساحلياً بالمعنى الصحيح ، بل عبارة عن أرض منحدرة نحو البحر ، وقليلة الارتفاع عن سطحه : وهذا الشريط الساحلى ضيق فى القسم الأعظم من الجهات الداخلة فى السودان ، ولـكنه أكثر اتساعاً ، فى الجزء الداخل فى حدود مصر .

كذلك جبال البحر الأحمر ، ليست كلها متساوية فى الارتفاع والوعورة ، وهى تزيد على الألف وخمسمائة متر ، فى الـكتلة الواقعة جنوب فجوة طوكر ، والواقعة شمالها مباشرة . ولـكن أكثرها ارتفاعاً ووعورة الـكتلة الواقعة بين

خط العرض العشرين والثانى والعشرين ؛ والراجح أنها تبلغ أكثر من ٢٠٠٠ متر فى مواضع ؛ وعلى الساحل فى شرق الكتلة بلدة دنجوناب على خليج دخانة ، وفى هذه الكتلة بعض مرتفعات توصف بأنها جبال ، مثل جبل شلال ، وجبل علبه ، وجبل إربه .

هذة المرتفعات الساحلية هى أهم ظاهرة تضاريسية فى الوطن البجاوى ، ولها آثار مناخية خطيرة . ومن الأماكن المرتفعة فيها بلدة أركويت ١٠٩٣ وسنكات (٨٧١ متراً) وتهاميم . (٦٤٧ متراً) وتِلْجَـوارِبْ ٥٣٩ متر ، وكلها متقاربة .

أما البلاد الساحلية أو شبه الساحلية ، فيمثلها عقيق فى أقصى الجنوب ، ثم طوكر (إلى الداخل قليلا) وسواكن . وبور سودان ، ودنجوناب ، وعيذاب ، وبرنيس ، (وهما بلدتان بائدتان) [1]

يلى الجبال من الغرب انحدار فجائى أو تدريجى ، وهو على كل حال أسهل من الانحدار الشرقى نحو البحر الأحمر . ثم نصل بعد ذلك إلى منطقة أدنى إلى السهولة وتنحدر بالتدريج نحو نهر النيل ، وفى كثير من المواضع تختطها أودية قلما تجرى فيها المياه فى الوقت الحاضر ، مثل وادى العلاقى ورافده وادى قبقبة .

وهناك إلى جانب الانحدار من الشرق إلى الغرب ذلك الانحدار التدريجى من الجنوب إلى الشمال ، الذى يشترك فيه سائر حوض النيل ، وإن لم يكن ذلك الانحدار مطرداً ولا منتظا .

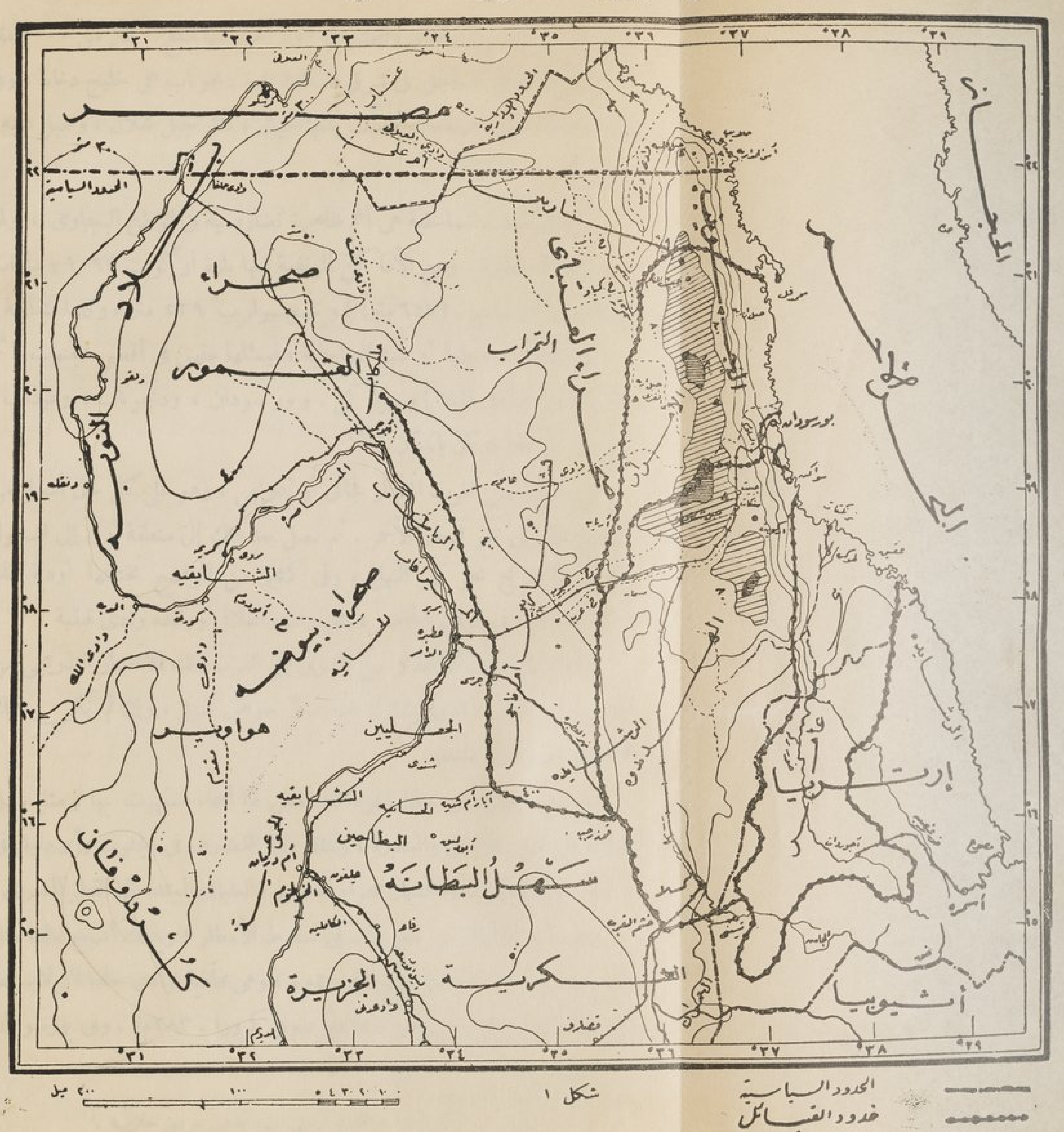
وبعض الجهات فى هذا الجزء المنخفض لها أسماء اشتهرت بها ، مثل سهل البطانة بين النيل الأزرق والعطبرة ، وتمثله بلدة القضارف فى الجنوب وأبو دليق فى الوسط . ثم يليه من جهة الشمال صحراء العتمور والعتباى الممتدة إلى القطر المصرى .

وقد أثرت الجبال من غير شك فى سقوط الأمطار ؛ وبذلك أصبح لبلدة مثل دنجوناب Dongonab مطر يبلغ نحو ٤٠ م ، وهى محاذية لوادى حلفا التى لايسقط عليها مطر قط . وفى عقيق نحو ١٤٠مم ، وفى كرورا . ٢٨٣مم . وفى بورسودان ١١٠ مم ، وسواكن ١٨٠ مم .

---

(١) بالقرب من موقع عيذاب القديم مرسى صغير يدعى مرسى حلايب .

السودان الشمالي الشرقي



شكل ١

الحدود السياسية
حدود القبائل

أما الجهات المرتفعة مثل سنكات وتهاميم فمطرها ١٣٤مم ، ١١٣مم على التوالى .

ومن الدراسات المناخية الممتعة فى هذا الإقليم مقارنة مواسم المطر ، إذ نرى أن بعضها صيفى وهو الواقع على مرتفعات تنحدر نحو الغرب ، والبعض شتوى ، وهو الواقع على المرتفعات التى تنحدر نحو الشرق ، والجهات الساحلية مطرها شتوى ، وإن شذت بعض الجهات لأسباب خاصة ، كما هى الحال فى سوا كن وطوكر ، إذ ينالهما بعض المطر الصيفى أيضاً ، . ولعل هذا بسبب موقعهما من الفجوة التى يجرى فيها خور بركة إذ تتسرب فى الصيف بعض التيارات الجنوبية عن هذا الطريق ، ومطر الصيف على كل حال أغزر من مطر الشتاء .

أما سهل البطانة فمطره أغزر ، وفى الجنوب نرى القضارف . ومطرها يبلغ ٦٧٦ مم (ومطرها صيفى) وأبو دليق (١٥°٥٥') : ومطرها ٢٠٨ مم (أكثر من الخرطوم وهى على نفس خط العرض ومطرها ١٦٠ مم) .

ولهذه الأمطار أثر فى السهول مختلف عن أثرها فى الجبال ، لأن المطر فى المرتفعات ذات الحرارة المنخفضة أعظم أثراً وأطول . وما يفقد بالتبخر منه أقل بكثير مما يفقد فى السهول . لذلك نرى المرتفعات يكسوها مقدار محترم من الشجر والخضرة فى جبل علبة وشلال وإربة وحول اركويت ، ولشدة قرب هذه المرتفعات من البحر الأحمر . يغشاها زمنا طويلا غطاء كثيف من الضباب والندى . له أثر كبير فى غزارة الحياة النباتية . بل لعله السبب الأكبر فيما تمتاز به تلك المرتفعات من وفرة النبات ، وفرة لا يبررها مقدار ما يتساقط عليها من الأمطار . أما الإقليم الجنوبى ، فى مثل كسلا والقضارف على حدود أرتريا ، فانه يمتاز بمطر أغزر من الأقطار التى تحاذيه على نهر النيل .

وهكذا نرى فى مواطن البجه تنوعا ملحوظا فى التضاريس والمناخ والنبات . ولئن كانت تغلب عليها قلة المطر عامة . والطبيعة الصحراوية تسودها فى الشمال ، فإنها لا تخلو من جهات يغزر نباتها فى بعض فصول السنة ، ويتنوع فيها سقوط المطر بين الصيف والشتاء ، هذا عدا الأنهار التى تجرى المياه فى بعض أجزاء منها مثل خور بركة وخور الجاش ، والأنهار التى تجرى بالقرب منها مثل العطبرة .

فالبيئة قاسية فى جملتها ، ولكنها أقل قسوة مما يتوهمه الإنسان لأول وهلة .

ومع التسليم بأن النصف الشمالى شديد الجدب ، لكن يخفف من جدبه انتشار الآبار فى مختلف أنحائه ، وإن كانت المسافات بين الآبار تزداد كلما اتجهنا شمالا أو غرباً . ولذلك كان امتلاك الآبار من أهم العناصر فى حياة البجه الشماليين وعلى الأخص البشاريين والعبابدة .

فى هذه البيئة ، إذن ، تعيش جماعات البجه ، منذ عصور عديدة ، وقد نظموا حياتهم على المنوال الذى تفرضه خصائصها الطبيعية ، فأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها .

وينقسم البجه إلى أقسام أربعة رئيسية ، ويصح أن نطلق على كل قسم منها اسم قبيلة ، لأن بين أفراده عصبية ، ولكل منها زعيم (ناظر) : وهذه الأقسام هى البشاريون فى الشمال ، فى تلك البيئة الجبلية الصخرية القليلة الماء والكلأ ؛ كما يحتلون معظم الإقليم المسمى صحراء العتباى

يليهم من الجنوب الأمرأر ، يمتدون بانحراف فى اتجاه من الجنوب الغربى فى مسمار على الخط الحديدى ، إلى الشمال الشرقى ، فى اتجاه بور سودان .

ويليهم جنوبا الهدندوه ، وهم أكثر البجه فى السودان عدداً ، ويمتدون من سواكن إلى سنار ، وفى الأرض المجاورة للخط الحديدى الممتد بين البلدين ، وبذلك أصبحوا يحتلون دلتا الجاش ، ويعيشون على شواطىء العطبرة المجاورة لهم . على خط عرض ١٥ ، وأخيراً نجد إلى الجنوب الشرقى جماعة بنى عامر ، ويمتدون من طوكر شمالا إلى داخل حدود إرترية فى الجنوب .

وهنا لك جماعات أخرى من البجه ، أو قبائل صغيرة ، مثل الأشراف والأرتيقا والكميلاب ، والحالنقا وغيرهم . بعضهم يدور فى فلك القبائل الكبيرة ، ويرتبط بها . ولكن أكثرهم يدعى الاستقلال ويحاول أن يثبت ماله من الأهمية والخطر ويحدثنا عن أبطاله القدماء ، وما كان لقبيلتهم من علو الشأن وسمو المقام فى العصور الغابرة . . وليس فى دعواهم هذه وجه غرابة ، لأن نظام القبائل من طبعه عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة ، فيعلو شأن بعضها حينا من الزمن ، بفضل أسرة قوية الشوكة ، كبيرة الثروة . ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف

بسبب الحروب أو الأمراض ، أو سوء القيادة ، فيضعف أمرها ، ويقل عددها ، وهذه الظاهرة واضحة فى تاريخ القبائل العربية نفسها فى جزيرة العرب ، ولا عجب إذا رأيناها لدى البجه أيضاً .

يتكلم البجه لغتهم الحامية ، وهى المسماة التبداوى (أو بداويت) ويستثنى من هذا معظم القبائل الجنوبية من بنى عامر ومن يجاورهم من الجماعات القليلة التى تتكلم لغة تجرة (الخاصة) وهى لغة سامية منتشرة فى أرتريا وشمال بلاد الحبشة ، وإن كان بعضهم يتكلم اللغة التبداوية .

وأكثر البجه يعرف اللغة العربية إلى جانب معرفتهم لغة التبداوى أو تجره . ولكن العربية ليست لغتهم الأصلية ، على الرغم من أن بعضهم يحتفظ بشىء يسمونه « نسبة » وهى ورقة مكتوبة أو حديث محفوظ يرجع بهم إلى « قريش » فالدين الإسلامى المنتشر بينهم ، واللغة العربية ما هى إلا أثر من آثار النفوذ العربى الذى دخل فى عهد متأخر نسبياً إلى أوطانهم ، ويوشك أن يكون من المحقق أن هذا النفوذ العربى وصل إليهم من الشمال والشرق .

ويصف بعض الكتاب البجاوى بأنه جاف الطباع ، شديد النفور من الناس ، بل يذهب بعضهم إلى وصفه بالتوحش وإن لم يكن لهذه الكلمة مدلول صريح . غير أن الكتاب الانجليز من موظفى حكومة السودان يخالفون هذا الرأى . والذى يطالع مقالاتهم يأنس منهم تحيزاً للقبائل البجاوية وبعض التحامل على العرب ، فيؤكد لنا مثلا مستر نيوبلد الفرق بين العربى والبجاوى بمقارنة يوازن فيها بين طباع كل من الفريقين فيقول : إن الفزى (Fuzzy وهو وصف مشهور عند الانجليز للبجة مشتق من طريقتهم فى تصفيف الشعر) ، عاش فى مرتفعات البحر الأحمر أربعين قرناً على الأقل ، أما العربى فإنه « دخيل » منذ العصور الوسطى وللبجه أخبار شفوية وأساطير أبطال ترجع بسيرهم إلى نحو ١٢٠٠ سنة على الأقل ، والعربى يحب التجمع والاختلاط ، وهو ثرثار بخلاف ما اشتهر عنه ، أما الفزى فيحب العزلة ، نفور من الناس ، قليل الكلام ، وليس كالعربى ، عبداً للتقاليد

الاجتماعية الضيقة ، والتقاليد القبلية السائدة . وهو كثير التسامح والتساهل فى اتخاذ أصدقاء من الأجانب ، وفى التشكل بكل بيئة جديدة . وحبه للعزلة الذى يتوهم الناس حظاً أنه يرجع إلى طبع وحشى ، ليس فى الواقع وليد الخوف ، أو لإحساسه بأنه غريب عن سائر الناس ، بل هو خلق يرجع إلى طبيعة البيئة الجبلية ، التى لا تساعد على التجمع والاختلاط ، فهو ليس مبغضاً للغرباء والأجانب ، بل ألف العيش بنفسه ، فلا يجد لهم مكانا فى دائرة حياته ، والبادية العربية تبعث على التجمع والمخالطة : حتى عند الوهابيين ، الذين اشتهروا ببساطة العيش ، نرى الأفراد تتجمع للحديث والغناء والسمر حول النار أو فناجيل القهوة العديدة التى يستوعبونها ، أما سكان البحر الأحمر — فيما عدا بنى عامر — فلا يميلون إلى إنشاء قرى أو مساكن مجتمعة فى ساحة كبيرة ؛ وبيوتهم المكونة من « البرش » ، أو الحصير الممدود على عيدان محنية ، يقوم كل منها بمفرده ، أو كل بيتين معاً ، أو ثلاثة ، على رأس بعض الأودية أو الأخوار . ولا يكاد السائح المتجول أو الطائر المحلق فى السماء ، يستثير منهم نظرة أو التفاتة ... هكذا يعيشون فى جيوب وزوايا وسط التلال أو الهضاب ، حيث لا يراهم العالم ، على غذاء من اللبن والحبوب ، وقليل من اللحم والسكر فى زمن الرخاء ؛ وعلى اللبن وحده تقريباً حينما تنتابهم الكوارث ، من الجراد أو الجدب أو الطاعون[1] .

ومن الجائز بالطبع أن الحياة — قرونا عديدة — فى جوار هذه البيئة الجبلية قد علمت البجه أن المعيشة المنفردة فى أعالى الأودية لها أيضاً قيمتها من ناحية الدفاع سواء فى ذلك ما كان دفاعاً ضد أعداء من غير البجه ، أو من البجه أنفسهم ، ولا بد لنا أيضاً أن ندخل فى حسباننا ما طرأ على هذه البيئة من التغير منذ العصر المطير إلى وقتنا هذا ، فإن كثيراً من الأودية المتغلغلة فى الإقليم الصحراوى ، تدل على وفرة من الماء ليس لها اليوم وجود ، وقد اضطر السكان لتفضيل رءوس الأودية فى المرتفعات ، لأن الأمطار سرعان ما تصبح نادرة أو معدومة فى الجهات المنخفضة .

---

(١) راجع ص ١٤١ وما بعدها من كتاب Hamilton, The Anglo-Egyptian Sudan from within

على أن حالة الانفراد والتشتت فى شعاب الجبال وثناياها ، وإن لم تزل قائمة ؛ قد تأثرت من غير شك تأثراً شديداً بالاتصال بالعمران ، وبالمشاريع الزراعية التى تمت فى طوكر ودلتا الجاش ؛ وفى نمو مدينة كسلا والقضارف ، وما يصحب ذلك النمو من اشتباك المصالح ، واحتشاد العناصر المختلفة . وقد استجاب البجه إلى هذه التطورات ، فأخذوا يتخذون قرى على ضفاف القنوات ، ويحتلون أحياء من بعض المدن . وأخذ كثير منهم يشتغل بالزراعة وفى مختلف الحرف .. ويقول نيوبلد إن هـذا التطور لم يترتب عليه — حتى الآن — تفكك فى النظام القبلى أو العصبية القبلية ، ومع أن المستقبل فى يد الأقدار ؛ فقد لا يكون من المستحيل أن يسلك البجه هـذه المسالك المستحدثة ، وينتفعوا بهذه المرافق الجديدة ، دون أن يفقدوا شخصيتهم أو يتحلل نظامهم . فالناضى الذى يحكم فى خصوماتهم ، سيان إن عقد مجلسه فى داره فى القرية الجديدة ، أو فى خيمته وسط مسالك عتباى الوعرة .

ومعظم المنتفعين بمشروعات الرى فى طوكر وكسـلا هم من البجه ؛ ومع التسليم بأن مستواهم فى الإنتاج الزراعى ليس عالياً ، فإنه مع ذلك ليس منحطاً ؛ ومما يثبت قابلية البجه للتشكل بالبيئة الجديدة أنهم استطاعوا أن يتحولوا من بدو رحّل إلى زراع مستقرين ، وأن يقبلوا على هذا العمل الجديد الذى لم يعرفوه ولم يألفوه .

المراحل التاريخية للبجه :

قدمنا أن البجه عريقون فى القـدم ، فى أوطانهم الحالية ؛ ومن الجائز أنهم أول من سكن هـذا الإقليم ، الذى يحتلونه اليوم ؛ فإن تشابه صفاتهم واطراد أشكالهم الطبيعية لا يدع مجالا للظن بأنهم قد دخلتهم عناصر أخرى ، اللهم إلا القليل جـداً ، الذى جاء عن طريق بعض القوافل التجارية فى الأطراف الشمالية ، أو عن طريق الاتصـال بالحبشة فى الأطراف الجنوبية . وقد مرت بهذا الإقليم وسكانه أدوار نستطيع أن نسردها على سبيل الاجتهاد ؛ وإن كانت تعوزنا بعض التفاصيل ، لأن الدراسات الأثرية لم تتسع بعد لـكى تشمل هـذه الأقطار النائية المنعزلة .

١ — فى العصر القديم السابق للتاريخ كان هذا الإقليم على الأرجح أغزر مطراً ونباتاً مما هو اليوم . وكانت طوائف من الحيوانات المختلفة تمرح فى أرجائه وجوانبه ، وفى سهوله ومرتفعاته .. فكان الصيد متوفراً وفرة عظيمة ولا شك أنه كان يشتمل على حيوانات مثل الزراف ، وقطعان من الوعول ، بل والفيلة أيضاً ، وغيرها من حيوانات الصيد ، مما لا يكاد يكون له أثر فيها اليوم . كانت البلاد جنة لمحترفى الصيد . ولا شك أن هذه كانت حرفة السكان فى ذلك الزمن البعيد .

٢ — ثم أخذت الأقاليم تحس الجفاف ، ويقل صيدها ونباتها تدريجياً وقد ترتب على ذلك هجر بعض الجهات القليلة العشب ، التى أخذت تغلب عليها الطبيعة الصحراوية . والتجأ السكان بالتدريج إلى الجهات الأوفر ماء ، القريبة من المرتفعات ، أى فى النصف الشرقى من البلاد التى يحتلها البجه الآن . ولكن بقى لهم بعض الاتصال بالشمال عن طريق الأنهار ، وبعض المسالك التى تخلفت فيها مياه فى صورة آبار ؛ أو فى الأودية مثل العلاقى .

٣ — ولا شك أن هذه الحالة دامت طويلا ، وكانت فيها الجهات الصحراوية أقل سكاناً ، حتى ماهى عليه اليوم ، ثم جاء الدور الذى مرّ بجميع الجهات الصحراوية ، فى أفريقية ، حين أدخلت الإبل إلى هذه القارة للمرة الأولى . نحن نعلم أن الإبل دخلت مصر فى العهد الفارسى ؛ وانتشرت بعد ذلك بالتدريج . . ولا بد أنها تسربت إلى الجنوب بسرعة . والروايات التى تروى عن بعثات قمبيز إلى الجنوب ، التى لم تصادف النصر دائماً ، إن صحت فإن بعض هذه الحملات قد أدخلت الإبل إلى الجنوب ؛ فى وقت كان البجه قد عرفوا كيف يربون الماشية وإن كانت ماشيتهم من أنواع أخرى . ولا بد أن البجه قد أدركوا ما للإبل من الفائدة ، فأقبلوا على تربيتها فى عناية فائقة . ولا ندرى حتى على وجه التقريب متى بدأ البجه يربون الإبل . ولكن براعتهم فيها اليوم تدل على أن عهدهم بها ليس حديثاً[1] .

(١) كانت لبلاد البجه صلات بالجزيرة العربية ترجع إلى زمن قديم جداً . ولكن ليس هنالك دليل على انتقال الإبل إلى بلادهم مباشرة عبر البحر الأحمر فى ذلك الزمن البعيد . ولو أنها وصلت إليهم قبل العهد الفارسى لانتقلت منهم إلى مصر لما بين البلاد من الروابط القديمة .

ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع أن نرجح أن اقتناء الإبل كان بمثابة ثورة فى حياة البجه ، إذ مكنهم من استعمار الجهات البعيدة ، واجتياز المسافات الشاسعة ، ومنحهم وسيلة لتعمير أقطار كانوا هجروها من قبل . فقد حدث — إذن — فى صحراء العتباى ، بصورة مصغرة ، ماحدث فى صحراء ليبيا والصحراء الكبرى بصورة أكبر .

(٤) وفى أثناء هذا كله اتصل البجه بسكان وادى النيل ، واقتبسوا من حضارتهم ، وتعلموا الزراعة واستئناس الحيوان . وكان من أهم مناطق الاتصال وادى العلاقى ومايليه من جهة الجنوب ، حيث معدن الذهب المشتق من عروق الكوارتس .

وقد أثبت سلجمان أن البجه والمصريين القدماء من سلالة واحدة ، أو سلالات متقاربة ، وعلى الأخص سكان مصر الجنوبية الذين لم تمتزج دماؤهم كثيراً بالمهاجرين من آسيا عن طريق برزخ السويس . وقد التجأ سلجمان فى إثبات رأيه هذا على مقارنة الجماجم ، فوجد تشابها تاما بين أشكال المصريين القدماء ، ومنهم بعض الملوك ، وبين أشكال البجه الذين يعيشون فى أوطانهم الحالية[1] . فالشعبان من أصل واحد ، وإن كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقاً وأسلوباً فى الحياة ، وسلكت بالبجه طريقاً آخر . وانفصلت أوطان الفريقين فترة من الزمن إلى أن نشأت بينهما صلات لم يكن منها بد بحكم التجاور .

ولا يتسع المجال هنا لشرح المراحل المختلفة لاتساع الصلات بين الشمال والجنوب . وحسبنا أن نذكر أن الدولة القديمة لم تحاول أكثر من إرسال البعثات التجارية إلى الأقطار الجنوبية . ولكن الدولة الوسطى ذهبت إلى أبعد من هذا ، فأمعنت فى التوغل فى بلاد النوبة ، وتأسست دولة فى الجنوب تتصل بالشمال اتصالا سياسيا وثيقاً ، وامتد سلطان الدولة الجنوبية إلى أراضى النيل الأزرق ، وبذلك صارت جميع أوطان البجه مجاورة لهذه الدولة الواسعة الأرجاء ، ذات الثقافة المشتركة . فلم يكن بد من أن يساهم البجه فى بعض نواحى الثقافة المصرية ، ومنها الديانة التى ظلوا متمسكين بها إلى العهد المسيحى .

(١) راجع مقالة سلجمان فى مجلة J.R.A.I لسنة ١٩١٣ .

ومع أن مسألة استخراج الذهب ، هى التى يرد ذكرها على الألسنة ، بوصفها العامل الأساسى فى الاتصال بين المصريين والبجه ، فإن تجاور الأوطان كان له أثر أكبر . وقد كان استخراج الذهب من مظاهر اتصال المصريين بالأقاليم الصحراوية الشرقية والتوغل فيها · لأن أهم المناجم واقع فى وادى العلاقى والجهات التى تليه جنوبا إلى الإقليم الذى تمتد فيه السكة الحديدية اليوم بين مسمار وسنكات ، وآثار هذه المناجم لا تزال قائمة إلى اليوم (١) .

(١) لم تكن علاقات مصر القديمة والبجه قائمة على استغلال المناجم وحده ، وليس من المؤكد أن البجه أنفسهم كانوا يستخدمون عمالا فى استنباط الذهب بل الأرجح أنه فى هذه المشروعات فى ذلك الوقت كما هى اليوم ، كانت تجلب جماعات من صعيد مصر للقيام بهذه الأعمال إذ ليس العمل الجسدى مما يرغب فيه البجه . ومن الخطأ الفاحش ما ذهب إليه مستر نيوبولد فى مقاله المشار إليه ، من أن المصريين كانو يسخرون البجه لهذه الأعمال تسخير العبيد الأرقاء (ص ١٤٥) .

"Many of the Northern Beja must have been enslaved and decimated in the Egyptian slave gangs."

وهكذا يأبى هذا الموظف الانجليزى السودانى — حتى وهو بصدد كتابة مقال علمى — إلا أن يتحامل على المصريين ، حتى المصريين القدماء ! وقد بحثت هذا الموضوع مع بعض العلماء الأثريين ، وعلى الأخص مع الدكتور أحمد فخرى . . وقد تفضل حضرته بكتابة البيانات الآتية :

(ا) أن لفظ البجاه أو البجه هو الاسم الحديث للقبائل القديمة التى كانت معروفة لقدماء المصريين تحت اسم ميجا أو ميجوى وللكلمة هجاءات مختلفة ولكنها متقاربة كما يبدو من مراجعة القاموس الجغرافى لجوتييه أو كتاب كيس Kees عن مصر (سنة ١٩٣٣) ص ٢٣٧ ، ٣٤١ .

(ب) كانت هذه القبائل على صلات ودية مع مصر . وقد استعان بهم المصريون منذ الأسرة السادسة (حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م) فى مختلف الأعمال ، وعلى الأخص كانوا يؤلفون منهم فرقا عسكرية ، تستخدم للبوليس أو للحرب . وكانو من القبائل الجنوبية التى ناصرت القائد المصرى أونى عندما وكل إليه الملك ببى الأول إخضاع ثورة فى فلسطين .

(حـ) كان جنود البجه من دعائم الطمأنينة فى البلاد كما يستدل من النصوص ، ويكفى أن نذكر هنا ماورد بشأنهم فى نصوص بردية ليدن ، حيث يوصفون بأنهم إخوة مصر ويستنكرون تهمة اشتراكهم فى إحدى المؤامرات ويقولون : « وهل يقتل المرء أخاه ؟ » .

(د) استمر ولاء البجة لمصر فى العصور التالية ، وكانو من الجنود الذين عاونوا المصريين فى طرد الهكسوس .

وفى هذا كله تأييد تام لرأى سلجمان بأن البجه والمصريين سلالة واحدة وأن مازعمه نيوبولد لا يستند إلى رأى علمى .

(٥) وعنى البطالسة بالأقاليم الجنوبية أيضاً ، واهتموا باستنباط الذهب ، بعد أن تعطل فترة من الزمن بسبب الاحتلال الفارسى . ومن المعروف أيضاً أنهم كانوا يجلبون الفيلة من الجنوب لاستخدامها فى الحرب ، واستطاعوا أن يستألفوها ويروضوها ، مع أن الفيل الإفريقى لم يستأنس بواسطة الإفريقيين أنفسهم . وقد كانت لهم عناية بتجارة البحر الأحمر ، ولذلك أنشأوا على السواحل السودانية بعض الموانئ ، من أشهرها برنيس بالقرب من الحدود المصرية الحالية ، والمقيق Ptolomais Epitheras بالقرب من طوكر .

(٦) وهذه الموانئ ظلت قائمة فى العصر الرومانى ، ولكن أهميتها أخذت تنقص بالتدريج ، لأن الرومان لم يكن لهم مأرب فى مناجم الذهب أو الفيلة ، إذ كانت تجارتهم أوسع مدى وانتشاراً . فلم يكن البحر الأحمر بالنسبة لهم سوى طريق إلى المحيط الهندى . ومكنهم تقدم الملاحة من الاتجاه من مصر إلى جنوب البحر الأحمر رأساً ، ومنها إلى المحيط الهندى ، دون حاجة إلى التزام الشاطىء ، والمرور بكل مرفأ . ولم يكونوا حريصين على التجارة التى يجمعونها من موانىء السودان ، بل كان جل همهم غلات الهند . وكان اتصال الرومان بالبجه مقصوراً على الشماليين منهم الذين يعيشون فى مصر أو على تخوم مصر فى شمال السودان . وكانوا يطلقون على هؤلاء اسم البلميا .. Blemmye وإن كان هناك شك فى أن هؤلاء هم البجه أو جماعة أخرى .

فى ذلك العصر كانت دوله أكسوم فى شمال الهضبة الحبشية قد نمت وقويت شوكتها ، وأخذت تغير على البجه من جهة الجنوب ، وتدور بين الفريقين منازعات تثور حينا وتهدأ أحيانا . وهناك لوحة ترجع إلى القرن الأول للميلاد ، كتب عليها ملك من ملوك أكسوم كتابة يزعم فيها أنه انتصر على البجه . وزحف على مصر ، ويقول نيوبولد إن هذه أول مرة فى التاريخ يذكر فيها البجه باسمهم المعروف اليوم[١] ، والظاهر أن هذا الملك لم يذهب بعيداً فى زحفه نحو مصر . والأرجح أن انتصاره على البجه لم يكن نصراً دائماً ترتب عليه إخضاعهم لسلطانه فترة من

(١) راجع ما جاء فى ص ٣٢ عن اسم البجه .

الزمن ، بل مجرد غارات لابد أن تحدث بين دولة مستقرة ، وبين قبائل على حدودها لا تقبل الاستقرار أو الخضوع . بل من دأبها هى أيضا أن تثور وأن تغير .

وحكام مصر فى العهد الرومانى عانوا أيضا بعض المشقة فى إخضاع البجه الشماليين ، لأن كل الدول المتحضرة تحاول دائماً أن تخضع القبائل الواقعة على حدودها ، وتسعى فى أن تفرض عليهم قيوداً تنافى مشاربهم فى الحياة ، ومما زاد الحالة تعقيداً أن المملكة الحبشية من جهة ومصر من جهة أخرى سادتهما الديانة المسيحية . بينما ظل البجه متمسكين بعبادة إيزيس ، التى اقتبسوها عن المصريين القدماء وظلوا إلى القرن السادس يقاومون كل محاولة لتحويلهم عن وثنيتهم .

٧ — لم يكن بد من أن تنتصر المسيحية فى النهاية . ففى القرن السادس أخذت تنتشر بينهم تارة من الشمال عن طريق بلاد النوبة ، وتارة من الشرق عن طريق الموانىء ، التى يجتمع فيها البجه بطريقة سلمية مع الوافدين من مصر من التجار والعمال . ونستطيع أن نتصور أن جميع البجه الذين كانت لهم صلات مباشرة أو غير مباشرة مع مصر والنوبة والحبشة قد اعتنقوا المسيحية بالتدريج ، أما الذين يعيشون فى جهات منعزلة فظلوا على وثنيتهم .

٨ — وفى القرن السابع بدأ ظهور الإسلام فى الشمال ، ثم أرسلت البعثات لفتح المناجم القديمة ، وقاوم البجه توغل الإسلام حينا من الدهر . وتعود القصة سيرتها الأولى كما حدث فى ظهور المسيحية ، فالاختلاط فى الشمال وفى الموانىء أدى إلى التعارف ثم التزاوج . واستمر انتشار الإسلام فى القرن العاشر وما بعده حتى اعتنقه الجميع ، ومما ساعد على ذلك أن طريق الحج فى ذلك الوقت كان يصل إلى ميناء عيذاب ، فى آخر حدود مصر وأول حدود السودان . ومنها إلى جده ، ويقال إن سبب تفضيل عيذاب أنها بعيدة عن إغارات الصليبين الذين نقلوا فى ذلك العهد سفنهم إلى البحر الأحمر . وقرب عيذاب من جده يجعلها موضعا ملائما لاختراق البحر الأحمر : وقد اندثرت عيذاب بعد ذلك تماما[1] وانتقل نشاطها إلى بلدة

---

(١) كانت الحملة التى أرسلها الظاهر بيبرس سنة ١٤٢٦ إلى عيذاب من أهم العوامل فى تخريبها . وقد دعاه إلى ذلك أن بعض رؤساء البجه استولوا على بضائع مرسلة إلى مكة .

سواكن ، وهى أيضا واقعة فى أرض البجه . ولكن لم يؤسسها البجه ، ونحن نجهل تاريخ تأسيسها ، ولعله يرجع إلى العهد الفرعونى أو البطلمى ، وإن كانت الروايات الحديثة تعزو تأسيسها إلى عرب الجنوب ، وعلى الأخص الحضارمة .

وقد اشترك فى تعمير سواكن عناصر عديدة غير البجه(١)، الذين لم يكن لهم فى تعميرها شأن يستحق الذكر . وأهم هذه العناصر العرب ، سواء من الشمال أو الجنوب .. ولذلك وصفت بأنها مدينة عربية أكثر مما هى بجاوية . ومنذ القرن الخامس عشر أخذت تؤمها السفن القادمة من المحيط الهندى ، من آن لآن ، وقصدها تجار من حضرموت ، واليمن ، والهند ، والصين ، والبرتغال . واستولى عليها الأتراك فى سنة ١٥١٧ وأصبحت ملحقة بمصر . وازدهرت تجارتها وظلت تلعب دورها الخطير ، إلى أن قررت حكومة السودان أن تنشئ بور سودان فتحول إليها كل النشاط التجارى الذى امتازت به سواكن . وأصاب البلدة الأخيرة ركود لا يزال مخيما عليها إلى اليوم .

وعلى الرغم من أن البجه ظلوا محتفظين بطابعهم فى العهد العربى . وكثير منهم الذين كانوا يعيشون فى الجبال والجهات البعيدة لم يخضعوا لأى نفوذ أجنبى . فإن رؤساءهم ، بل وكثير من عامتهم ، قد اتصلوا بالعرب وشارك الرؤساء ، على الأقل ، فى النشاط التجارى ، وتزوج كثير من التجار العرب بنساء من البجه وأقاموا بينهم ، حتى اندمجوا فيهم . ولم يكن بد من أن يتأثر البجه بالإسلام والثقافة العربية تأثراً شديداً . فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعاً مسلمين لا يدينون بأى دين آخر . والكتاب الأوربيون مثل نيوبولد وسلجمان لا يفتأون يذكرون أن الإسلام لدى البجه لم يؤثر فيهم تأثيراً عميقاً وأن بقايا الوثنية لا تزال شائعة بينهم ، مثل الختان الفرعونى للنساء ، وعادة دق الأجراس عند ما يولد طفل . ولكن عادة دق الجرس وقت الولادة لها أثرها فى مصر أيضاً ، ووجود بقايا وثنية بعد اعتناق الإسلام

---

(١) لابد لنا أن نذكر أن سواكن تتألف من جزيرة ملاصقة للساحل ومن البر المجاور لها والميناء الجزرية هى سواكن الحقيقية ، وهى التى لم يؤسسها البجة أما البلد المجاور لها على البر ، فقد عاش فيه البجه ، وهو جزء من أوطانهم .

أو المسيحية ظاهرة ليست مقصورة على البجه ، بل نجد لهذه الظاهرة أمثلة فى مصر بل وفى أوربا نفسها بحيث لا يكاد يخلو منها قطر من الأقطار .

أما الثقافة العربية فقد تأثر بها البجه أيضاً ، كما تأثروا بالإسلام . فأصبح أكثرهم يعرف العربية معرفة تامة ، وعلى الرغم من احتفاظهم بلغتهم «التبداوى» فإن هذه اللغة قد تسرب إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما أثرت العربية فى بعض الصيغ النحوية للغة التبداوية .

(٩) وهكذا تمت — بفضل هذه الأحداث التاريخية المتعاقبة — المراحل الأساسية فى تكوين البجه كما نعرفهم اليوم ، وفى تشكيلهم على الصورة التى نراها ، كما تم تقسيمهم إلى الأقسام الرئيسية التى سبق ذكرها . ومعظمها يرجع إلى وقت حديث . ماعدا الأمرأر الذين كانوا معروفين بهذا الاسم وقت اتصال البجه بالعرب فى القرن التاسع الميلادى . أما البشاريون والهدندوه ، فقد كان تكوينهم على الصورة التى نراها اليوم فى أوطانهم المعروفة إلى الآن حدثاً جديداً .

ولعل أكبر تطور فى العهد الحديث (أى منذ منتصف القرن الثامن عشر) هو ظهور البشاريين والهدندوه فى حالة الاتساع والسيطرة على الإقليم الذى يحتلونه اليوم ، قد انتشر البشاريون جنوباً حتى اخترقوا العطبرة واحتلوا الجزء الشمالى من سهل البطانة وجعلوا عاصمتهم أو مركز الرئاسة لهم فى بلدة بعلوك على العطبره ، وبذلك أصبحت أوطانهم تمتد من خط العرض السادس عشر جنوباً إلى الثانى والعشرين شمالا . أى من سهل البطانة إلى تخوم مديرية أسوان والصحراء المحاذية لها من الشرق ، وهى مساحة تبلغ نحو ٥٠,٠٠٠ ميل مربع ويجاورهم من الجنوب العرب الشكرية ومن الشرق الهدندوه والأمرأر .

وقد اتسع وطن الأمرأر أيضاً من الجهات الجبلية فى الشرق إلى السهول الواقعة شمال العطبره ، أى إلى الوطن البشارى الحالى ، وعلى الرغم من بعض الاختلاط والتزاوج بين الفريقين ، قامت منازعات حول المراعى والمزارع فى هذا الإقليم بين الفريقين ، ولم يفصل نهائياً فى هذا النزاع إلى اليوم .

أما الهدندوه فكانوا قبيلة قليلة الخطر إلى منتصف القرن الثامن عشر . ولكن

الحروب التى دارت بين مملكة الفنج والحبشة ، وأضعفت نفوذ الفنج فى الأقاليم الواقعة حول كسلا Taka وإلى شمالها ، قد أتاحت فرصة للهدندوه ، فأخذوا ينتشرون ويزداد نفوذهم حتى أصبحت أوطانهم تمتد إلى الأقطار التى يحتلونها اليوم . وأصبحوا أكبر قبائل البجه فى السودان . فى ذلك الوقت كانت دلتا الجاش منطقة مستنقعات وأعشاب وشجر ، تؤمها السباع ، وقد طهرت هذه الأراضى وزرعت بعد ذلك بمختلف المزروعات ما بين ١٨٤٠ ، ١٨٧٠ ومن بين مزروعاتها القطن .

وهذا الازدياد السريع فى عدد الهدندوه ، وفى خطرهم ، وبروزهم لأول مرة كأكبر مجموعات البجه ، لا بد أنه يرجع إلى تغلبهم على عدة وحدات صغيرة وإدماجها بعضها فى بعض وتزعمها بواسطة القبيلة الغالبة . وسنرى فى تفصيل الكلام عليهم كيف تم لهم هذا التوسع .

١٠ — ثم جاء عصر المهدية ؛ وقد كان الحكم المصرى قبله سهلا ليناً ، لم يحاول الحكام أن يخضعوا البجه لحكم صارم دقيق ، ينافى ما ألفوه من الحرية . ولذلك لم يقم من البجه لمعاونة المهدية سوى بعض الهدندوه بقيادة عثمان دجنة ، ولم تكن ثورتهم فى الغالب عطفاً على المهدى وأنصاره بل لأسباب أخرى ، ويزعم نيوبولد أنهم قدموا خدمات للجيش ونقلوا بإبلهم حملة ولوازمها عبر الصحراء ، ولم يكافأوا على ذلك المكافأة التى كانوا يرجونها . ولذلك ثار عثمان دجنة وأصحابه وناصروا المهدية فترة من الزمن ثم تخلوا عنهم بعد ذلك بالتدريج ، حتى قبل فتح السودان الأخير . أما سائر القبائل : الأمرأر وبنو عامر والبشاريون ، فلم يشتركوا فى الثورة اشتراكا يستحق الذكر .

الفصل الثالث

البجــه

٢ — الحياة الاجتماعية

نظمت شئون البجه بعد عهد المهدية تنظيما تدريجياً . وجعل لكل قبيلة رئيس (ناظر) يتولى شئونها العامة ، ويكون حلقة الاتصال بين الحكومة وبين القبيلة . وإذا أحسن اختيار الناظر ، وكان رجلا محترماً من قبيلته ، ينتمى لأسرة سبق لها أن كانت ذات مركز ممتاز ، انقادت له القبيلة . وسارت الأمور على ما يرام . وقد تعلمت الحكومة بالتجربة أنه لن ينفعها أن تفرض على البجه أى ناظر تحبه ، ما لم يكن محبوباً من القبيلة ، معترفاً له بالسيادة . وقد أسندت النظارة الآن إلى أسر بعينها ، وأصبح المنصب وراثياً تقريباً[١] .

وليس من الممكن أن نحصى عدد البجه تماماً فى الوقت الحاضر ، ولكننا نستطيع أن نقدرهم تقديراً تقريبياً والأرقام الآتية المستقاة من نيوبولد وغيره تمثل لنا حالة هذه القبائل فى الوقت الحاضر على وجه التقريب ، واختلاف عددها يرجع غالباً إلى طبيعة البيئة . فالجهات الشمالية أقل سكانا بوجه عام من الجنوبية ، حيث المطر أغزر ، ومشروعات الرى أتاحت موردا جديداً للعيش .

فالبشاريون فى الشمال (أم على) يعيشون بين البحر الأحمر وأسوان . وعددهم يبلغ نحو ١٢,٠٠٠ نسمة ، لهم تجارة مع مصر فى الإبل التى يبيعونها لكى يشتروا حاجتهم من الحبوب وغيرها . وبعضهم يشتغل فى مناجم الذهب بوادى العلاق ، ويدر عليهم ذلك بضعة آلاف من الجنيهات سنويا .

أما بشاريو الجنوب (أم ناجى) فيتركزون حول العطبرة والجهات التى حوله

---

(١) أكد كثير من البجه للمؤلف أن السياسة لا تزال تلعب دورها فى اختيار الناظر .

وعددهم يبلغ سبعة آلاف نسمة ، وأرض البشاريين واسعة فسيحة تبلغ نحو ٥٠,٠٠٠ من الأميال المربعة ، لكن تغلب عليها الطبيعة الصحراوية .

والأمرأر يعيشون فى مساحة تبلغ نحو ١٠,٠٠٠ ميل مربع ، بعضها فى الجبال وبعضها فى السهول . وأرضهم أكثر مطراً من أرض البشاريين ، وزراعتهم أكثر . منهم نحو ٣٠٠٠ نسمة يشتغلون ويعيشون بصفة دائمة فى بور سودان ، وهم الذين يزودون المدينة وسكانها بحاجتهم من اللبن والسمن ، ويعملون فى الميناء .

أما سائر الأمرأر فيعيشون فى المرتفعات غربى بور سودان ، والمنحدرات التى تليها إلى الغرب ، وتمتد أوطانهم إلى العطبرة ، ويمارسون فى هذه المساحات حرفتى الرعى والزراعة . ويبلغ تعدادهم حسب تقدير ساندرز ٤٥,٠٠٠ يملكون نحو ٣٠,٠٠٠ رأس من الإبل ، وبضع مئات من البقر ، ونحو ١٢٠,٠٠٠ رأس من الضأن والماعز ، ولكن هذه الأرقام كلها تقريبية .

وهم ينقسمون إلى ١٢ قسما (بدنه) ونحو ثمانين عشيرة .

أما الهدندوه فعددهم الآن نحو ٨٠,٠٠٠ أو أكثر ، ينقسمون إلى أربعين بدنه ، وعدد كبير من العشائر ، والشماليون منهم رعاة ، ولكن الجنوبيين يمارسون الزراعة فى الأودية الواقعة غرب سنكات ، وفى دلتا الجاش ، وقد أمكنهم أن يجنوا بعض المال من النقل بواسطة إبلهم ، وعلى الأخص قبل إنشاء سكة حديد كسلا . ولهم فوق ذلك بعض التجارة ، كما يستغلون نخيل الدوم ، وكذلك يبيعون السنا المكى ، والألبان والجلود ، والفحم النباتى والسمن ، والحصير المصنوع من ألياف النخيل .

أما بنو عامر فى السودان فلا يزيد عددهم على ٣٠,٠٠٠ نسمة . ولعل هذا العدد إذا أضيف إلى الشطر الآخر الذى يعيش فى أرتريا يبلغ ثلاثة أمثال هذا القدر أو أكثر قليلا ، وهم أهدأ عيشا من سائر البجه ، ومواطنهم فى طوكر ، وحوض بركة مكنتهم من الانتفاع بمشروعات الرى .

هذه مقارنة موجزة لحالة البجه ، بأقسامهم المختلفة ، وإذا استثنينا الجماعات التى تعيش فى مدن ليست من صنعهم ، يمارسون صناعة وأعمالا تناسب بيئة خلقها

غيرهم كالزراع فى طوكر وكسلا ، والعمال فى بور سودان (وفيما مضى سواكن) أو التجار المقيمين إلى جوار أسوان . نرى سائر البجه يعيشون جماعات صغيرة فى رءوس الأودية ، عيشة تغلب عليها الشدة ، ولا عمل لهم إلا رعى ماشيتهم . ولا يعرفون القرى الكبيرة بل يعيشون عيشة العزلة ، فى بلاد يشتد حرها فى الصيف ، وبردها فى الشتاء . فى بيوت من الحصير (البرش) غذاؤهم اللبن ، وقليل من الحبوب . وبعض اللحم من آن لآن ، وفى سنى الجدب يقاسون مرارة الحرمان .

هذه البيئة القاسية التى تتعرض لنوبات من الجدب والقحط فى بعض السنين كما حدث فى عام ١٩٤٩ ، قد صبغتهم بصبغتها القاسية ، وتمرسوا بها ، حتى أصبحوا جزءاً منها ، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين . فأصبحوا ولهم جلد كثير على تحمل الشدائد وشظف العيش ، يجتزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر ، ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة . ومظهرهم الطبيعى يتفق مع هذه الظروف القاسية .

القامة تمتاز بالنحول والرشاقة متوسطة الارتفاع أو فوق المتوسط بقليل والبشرة سمراء تضرب إلى الحمرة ، تشتد سمرتها فى بعض الأحيان . والرأس مستطيل باطراد ، وإن وجدت بعض مقاييس للبشارين تكشف عن ارتفاع النسبة الرأسية ، فليس من الضرورى أن تعلق عليها أهمية كبيرة ، حتى تزداد لدينا الأمثلة بما يمكننا من الإدلاء برأى نهائى .

الشعر مموج أو مجعد قليلا . وإن بدا غير ذلك ، بسبب طريقتهم فى ترجيل الشعر وربطه على صورة خاصة . كأنه حزمة من الحطب أو الدريس . وإذا كان الشعر مجعداً جداً كان ذلك دليلا على الاختلاط ببعض العناصر الزنجية . وهذا قليل لدى البشاريين والأمرار ، الذين وقتهم عزلتهم الطويلة من الاختلاط والامتزاج ، والنسبة الأنفية معتدلة أو متوسطة دائماً . وليس هنالك بروز فى الفك أو أى مظهر آخر للصفات الزنجية المعروفة . وقد سبقت الإشارة إلى ما يراه سلجمان من الشبه القريب بين البجه والمصريين القدماء .

والأمر الذى يلفت النظر فى البجه جميعاً على اختلاف قبائلهم وأوطانهم أنهم لاتصلهم بالبحر أدنى صلة ، فليست لهم سفن أو قوارب أو زوارق . ولا يعرفون حرفة الصيد البحرى . فيهملون بذلك مورداً للغذاء هم فى أشد الحاجة إليه . وعلى الرغم من أنهم يرعون إبلهم على ساحل طوله ٤٠٠ ميل ، وقد تشرب إبلهم قليلا من ماء البحر أحياناً ، فإن البجه أنفسهم لايلقون إلى البحر بالا . وقد طافت بالسواحل جماعات عربية ، واشتغل بعضها بصيد اللؤلؤ فى دنجوناب وغيرها من الجهات . غير أن البجه لم يتعلموا شيئاً من ذلك . وموانئهم العديدة أنشأتها شعوب غير البجه . وعلى كثرة السفن والنشاط البحرى بواسطة المصريين والبطالسة والعرب اليمنيين والحضارمة والهنود والصين ، فإن البجه لم يكترثوا لشىء من هذه الأعمال البحرية . ولم يحاولوا أن يتعلموا صنعة من الصناعات العديدة التى تتصل بالنشاط البحرى .

وفيما يلى أوصاف لحياة البجه الشماليين ، وتنطبق فى جملتها على سائر البجه ، لاحظها مستر كلارك [1] الذى عاش فى بلادهم فترة من الزمن .

المسكن :

تقضى حياة البداوة بأن يكون المسكن خفيفاً ، يسهل نقله وبناؤه . ولذلك نرى فى جميع مواطن البجه الشماليين ، أن البيت السائد هو البديجاو Bidigau أو البرش المصنوع من الحصير ؛ وإقامة المنزل وتقويضه من عمل النساء ، وليس للرجال تدخل فى ذلك ، بل يعد من غير اللائق بالرجل أن يقوم بهذا العمل ، اللهم إلا إذا كان المنزل لضيف أو لرجل مريض ، حيث لاينبغى للنساء أن يظهرن .

وهذا المنزل يتألف كله تقريباً من الحصير ، والسقف المصنوع من هذه المادة ، يتألف من طبقة واحدة أو طبقتين ، طبقة داخلية ، من الحصير الدقيق الصنع ، والخارجية وهى من حصير أغلظ وأسمك ؛ وينصب هذا السقف مفردا أو مزدوجا على أعواد منحنية فى الطرفين . وفتحة المنزل أو بابه من الجانب الشرقى فى العادة ، ولكن قد تكون من جهات أخرى .

(١) فى Sudan Notes and Records مجلد ٢١ (لسنة ١٩٣٨) الجزء الأول .

وجوانب المنزل ليست كلها من الحصير ، بل تغطى أجزاء منها من الداخل أكسية من الصوف (كل كساء يسمى شملة) والأمامى منها (الشرق) من الصوف الرمادى ، والخلفى أسود اللون ، وتصنع هذه الشملات من صوف الغنم أو شعر الماعز .

والأثاث بالطبع غاية فى البساطة ، فالفراش أيضاً من الحصير الدقيق ، ومن تحته الحصير الغليظ وفى المنزل أيضاً أدوات القهوة ، وبعض القدور ، وأوعية من الجلد أو الخوص أو القرع لحفظ الماء واللبن ، وغير ذلك .

وفى وقت الظعن تكون الأكواخ صغيرة منخفضة ، وفى الإقامة الطويلة تكون أكبر وأعلى ، لاينفذ منها ماء المطر ، ومن هذه الناحية تفضل بيوت الشعر التى للأعراب . ولا نجد عند البجه اليوم تلك البيوت من الأدم التى أشار إليها المقريزى ، ولعله كان واهما .

عادات تتصل بالولادة :

حينما يولد طفل توقد النار أربعين يوماً أمام المنزل الذى ولد فيه الطفل . وعند بعض القبائل قد تكون المدة أقل من ذلك . ويروى أحد الأمرار أن إبقاء النار ليس ضرورياً ، بل يكفى أن يوقد مصباح أمام الدار . وليس من الضرورى أن تظل النار أو المصباح موقدا ليلا ونهاراً ، بل المهم أن توقد ليلا . ولعل الحكمة فى ايقادها الائتناس ، أو كما يزعم كلارك أنها لطرد الجن عن الأم النفساء التى تكون مدة النفاس عرضة لأن تتأذى بهذه الكائنات .

وبعد أن يولد الطفل مباشرة ، تخرج النساء التى ساعدت فى الولادة ، من المنزل ومعها المشيمة ، والخرق الملوثة ، وتمشى مسافة حتى تصل إلى شجرة ، فتلقى بهذه الأشياء وسط فروعها . وهن يغنين أنشودة خاصة فى الذهاب والإياب ، إذا كان المولود ذكراً ، ولكنهن يذهبن ويعدن صامتات إذا كان المولود أنثى ، وبهذه الطريقة يسهل الإعلان عن نوع المولود ، من غير حاجة إلى أى إعلان آخر . وبعد هذا الإعلان ، يقوم الوالد فى خيمته الخاصة بتقديم ولمية للجميع . والظاهر أن

عادة دفن المشيمة وسط فروع الشجر ليست عامة ، فعند بعض البجه يدفن الخلاص في الأرض ، ويكتفى بالزغاريد بدل الغناء فى حالة المولود الذكر .

وبعد الولادة بأسبوع — ونلاحظ مراعاة السبوع وما لها من اتصال بالعادة فى مصر — يحتفل بتسمية الطفل ، فيأتى الوالد بشاة ، ويذبحها للوليمة ، وينطق باسم الطفل ، فى أثناء الذبح . . والعادة ألا يرى الوالد طفله إلا بعد ثلاثين يوماً من الولادة .

الختان :

عند البجه ، كما هى الحال عند العرب والنوبة ، الختان شائع للأولاد والبنات ، وهى فى الأولاد عملية سهلة يسيرة لا تكاد تختلف عما يحدث فى مصر . ومن الجائز أن تعمل والطفل فى حوله الأول أو الثانى ، ويطهر مكان العملية بالشحم الساخن .

أما ختان الفتاة فعملية قاسية ، فى معظم الأحيان . فهنالك نوعان أو طريقتان : الأولى وهى طريقة الختان السنى ، وهى لا تختلف عما يحدث فى مصر . والطريقة الثانية ، التى تدعى الختان الفرعونى . وهى توشك أن تكون عملية جراحية ، تعمل عادة فى الحول السادس إلى الثامن ؛ وتقطع فيها الأشفار العليا من الفرج وجزء من الأشفار السفلى ، وقد وصفها الأستاذ سلجمان وصفاً مستفيضاً ، وقد أكدها أيضاً المقريزى إذ يقول : « وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن ، وأنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج . . . . . »[1] .

المراهقة :

عند ما يكبر الغلام عند البجه بحيث يستطيع أن يرعى بعض الغنم ، يعطى خنجراً ، فإذا بلغ ١٤ أو ١٥ سنة أعطى سيفاً ودرقة ، إعترافاً ببلوغه مرتبة الرجولة . والظاهر أنه ليس هنالك حفلات مشتركة كبيرة يجتمع فيها الصبية معاً عند ما يبلغون هذه المرحلة من العمر كما يحدث لدى القبائل الجنوبية من النيليين وانصاف الحاميين ، كذلك ليس هنالك نظام لتصنيف المجتمع طبقات بحسب السن .

---

(١) راجع الجزء الأول من الخطط ، طبع مصر سنة ١٣٢٤ هـ ص ٣١٥ ؛ وهذا النوع من الختان منتشر عند بعض القبائل الأخرى من غير البجه ؛ ونسبته إلى الفراعنة ليس لها سند تاريخى معروف .

مركز المرأة :

من المعروف أن المرأة عند كثير من القبائل الحامية تتمتع بمركز ممتاز. وهذه الحالة قد لاحظها ابن بطوطة لدى الطوارق فى الصحراء الغربية ، كما لاحظها الكثير عند الحاميين الشرقيين . وعادة الميراث التى تقضى بأن يرث الرجلُ ابنَ أخته ، هو بعض مظاهر أهمية المرأة . والفتى يعلو شأنه بعلو شأن خاله ، وفى أهمية الخال فى الأحاديث والقصص والأغانى عند كثير من الشعوب السامية والحامية ، ما يدل على أن عادة الاعتزاز بالأخت وأولادها عادة قديمة عند كثير من الشعوب ؛ وعلى الأخص الشعوب الحامية . . وحياة الصحراء بطبعها تعطى المرأة شأناً ومنزلة خاصة ، حين يغيب الرجل أياماً فى التجارة أو الغارة ، ولا بد للمرأة أن تنهض بكثير من الأعمال فى غيابه .

وسواء أكانت أهمية المرأة مما استلزمته طبيعة البيئة أو كانت عادة منتشرة لسبب آخر، فلا شك أن المرأة عند البجه كان لها فيما مضى مكان ممتاز . ولكنها لم تصبح لها اليوم المنزلة الممتازة التى كانت لها من قبل ؛ وإن بقيت من ذلك بقية فى بعض النواحى الاجتماعية .

ويقول كلارك فى مقاله المذكور إن المرأة قلما تعاقب أو تلقى جزاء رادعاً إذا ارتكبت منكرا ، ويزعم أنه أراد مرة أن يوقع عقاباً صارماً بامرأة شابة كان سوء سلوكها سبباً فى تخاصم وشقاق وتضارب بين طائفتين من البشاريين . فطلب تقديمها للمحاكمة الجنائية ، فاحتج أعيان البشاريين وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يعاقبوها عقاباً داخلياً . فسألهم ما نوع العقوبة التى يقترحونها ، فأجابوا أنهم سيقصون شعرها ، ويلزمونها أن تقوم بطحن الحبوب . . .

وفلسفتهم فى هذا أن المرأة عاجزة بطبعها عن مقاومة الإغراء ، ولذلك يجب أن تعذر ولا تؤاخذ ، وكل ما يجب عمله هو أن تلزم دارها وتراقب مراقبة دقيقة ، لكى لا يتعرض لها أحد بسوء ، وبذلك تتقى جميع دواعى الإغراء أو تكون فى حكم النادر . . .

ولكن على الرغم من هذه الفلسفة يبدو أن ظروف الإغراء ليست نادرة ، ويزعم كلارك أن النساء — وعلى الأخص لدى الأمرار — لسن على جانب كبير

من الوفاء . وكثيراً ما تكتشف الخيانة ، فلا تعاقب المرأة ولا يلحقها أى وصمة فيما يبدو ، ولكن الزوج له الحق دائماً فى أن يحصل من العاشق الأثيم على دية تقدر بنحو ثمانية من الجنيهات (سنة ١٩٣٨) وهكذا تسود الفكرة بأن الرجل دائماً هو المذنب ، وعليه وحده تقع جريرة ما ارتكب من اثم .

وتظل هذه حال المرأة حتى تبلغ الأربعين ، فتصبح « أم العيال » ، وينتهى بذلك عهد الصبى والغزل .

وعند البجه — وعلى الأخص البشاريين — لا تقوم المرأة بحلب الماشية ، وقلما تقوم برعيها . وهذه الحال تختلف عما هو سائد عند جيرانهم من العرب مثل الرشايدة ، الذين يشتدون فى معاملة النساء ، إذ يشترك نساؤهم فى أعمال الرعى وحلب الماشية ، وفى كثير من ضروب النشاط ، وقد تضرب المرأة عند الرشايدة ، ولكنها لا تضرب لدى البجه ، وإن كان ذلك لازماً لها فى بعض الأحيان عن جدارة واستحقاق .

وتنحصر أعمال المرأة عند البجه فى القيام ببعض الصناعات مثل عمل أوعية من الجلد وتحليتها بالودع ، ونسج الشملات من صوف الماعز أوالغنم أو وبر الإبل ، ويقمن بتربين الرحال التى يجلسن عليها حين تنتقل بهن الإبل من مكان إلى آخر . وكذلك ينسجن الأسرة ، التى تصنع من الخوص ، وتربط بسيور من الجلد . وفى وقت « الخريف » أى موسم المطر يصنعن السمن من الألبان المتوفرة فى ذلك الوقت من السنة .

فيما مضى كانت للمرأة فى الميراث مكانة ملحوظة ، إذ كان الولد يرث خاله ، وقد كان لدخول البجة فى الاسلام اثر فى تغيير هذه العادة ، فأصبح الأبناء يرثون آباءهم . ولكن صحب هذا التحول حرمان النساء من الميراث تماماً . لأن المرأة إذا ورثت انتقل ما ترثه إلى قبيلة أخرى . وكان من أهم الأسباب فى تركيز الميراث فى ابن الأخت ، أن الأخت كانت متصلة بأخيها ، فيظل الارث فى القبيلة أوالعشيرة ولا يخرج منها . والظاهر أنهم يخشون من توريث البنت لئلا ينتقل إرثها إلى العشيرة الأخرى التى تتزوج منها . ومهما يكن من شىء ، فان هذه العادة تنقص

من حقوق المرأة عند البجه . وقد ظهرت لدى الامرأر حركة ينادى أصحابها بأن هذا الاجراء مخالف للشريعة . ولكن هذه الحركة لا تزال فى بدايتها .

الزواج :

وجوه الشبه كثيرة بين الزواج لدى البجه وعند القبائل العربية . وأبناء العمومة أو الخؤولة مفضلون دائماً ، ولا يعطى الرجل ابنته لزوج غريب إلا بعد استئذان أقاربها الصالحين للزواج ، والصداق يحدده العرف السائد ، وهو عند البشاريين العلياب لا يقل عن ثلاث من الإبل ، وثلاث من الغنم ، جزء للأب وجزء للأم وجزء مساو للخال الأكبر . كذلك يقدم الخطيب هدايا مختلفة من الأقمشة والأسلحة وما إليها .

هذا بالطبع هو أقل صداق وتبعا لمقام الزوجة والزوج يرتفع الصداق إلى الضعف أو إلى أكثر من الضعف . وتبدأ الخطوبة عادة بأن يقدم الخطيب هدية من البن والسكر أو بعض الماعز . وهذه الأشياء ترد إليه إذا لم يكن طلبه مقبولا . فاذا تمت الخطبة ، يقدم الصداق الذى يقضى به العرف ، ويعطى للزوج والزوجة ناقة عشراء وتكون بداية عهد الزوجية .

وتقوم نساء الحى ببناء بيت الزوجية الجديدة ، ومن العادات السائدة أن تعد النساء أثناء الشروع فى بناء المنزل ، طبقا فيه تمر وخاتم من الفضة أو الذهب . فاذا أقبل رجل واقترب من النسوة وهن يقمن باعداد المنزل انبرت له أحداهن وقدمت إليه الطبق ، فيضطر لأن يتناول بعض التمر ويضطر فى الوقت نفسه لأن يقدم هدية إلى تلك المرأة ، والهدايا التى تحصل على هذه الطريقة ينتفع بها فى إعداد وليمة العرس . ومعظم رجال الحى يعرفون هذه العادة ، ولذلك يحذرون أشد الحذر من الاقتراب من مكان يبنى فيه بيت العرس .

وبناء المنزل يشتمل على إعداد الابراش والشملات اللازمة ، وتركيبها وتحليتها بالأصباغ والألوان برسم دوائر وخطوط عليها ، وفى النهاية يحلى مدخل المنزل بحلية تصنع من الألياف الصغيرة من نخيل الدوم ، وهذه تربط فوق المدخل ، ويعلق بها حبل على صورة مقود الناقة ، وخف صغير مما يلبسه الأطفال الذكور . والغرض من

هذا جلب السعادة للزوجين ، بأن يولد لهما الأطفال الذكور ، والإبل الإناث ، وهذا بالطبع منتهى السعادة وأقصى ما يتمناه الزوجان . غير أن هذه التعويذة (التى تدعى سنكواب Sankwab) لا تعمل إلا لمن يتزوج للمرة الأولى .

ويجرى الطلاق عند البجه طبقاً للعرف السائد عند العرب ، ولكن لديهم عادة خاصة تدعى « التعليق » أى أن يطلق الرجل زوجته بشرط يفرضه عليها ، فإذا لم يستوف هذا الشرط لا يجوز لها الزواج من رجل آخر ، بل تظل معلقة . كأن يفرض عليها مثلا ألا تتزوج من رجل يشك فى أنه عشيقها ، وأنه هو السبب فى فساد الزيجة الأولى .

احترام الحم والحماه :

يحترم الزوج حماه وحماته احتراماً شديداً يذكرنا بما هو سائد عند الدنكا ، بل لعله أقوى عند البجه منه عند أية جماعة أخرى . ويبلغ بالختن هذا الاحترام درجة تجعله لا يستطيع الجلوس فى حضرة الحم ، ويتجنب حماته كل الاجتناب . ويروى الأستاذ كلارك أن أحد البشاريين (العلياب) انتحر فى سنة ١٩٣٤ ولم يقم العمدة بالتبليغ عن هذا الحادث فعوقب من أجل ذلك ، وأظهر البحث والتحرى أن سبب انتحار الشاب يرجع إلى أنه خطب فتاة من أبيها ، فوافق الأب على ذلك غير أن ألسنة السوء وشت بالشاب زاعمة أنه عاشق لامرأة هذا الشيخ ، أى حماته فى المستقبل ، وأبى الوالد أول الأمر أن يصدق تلك الوشاية ، فلما تكررت دعا إليه هذا الفتى وواجهه بهذه التهمة ، فكان مجرد التهمة من البشاعة بحيث لم يطق الشاب أن يعيش وهو فى ظل هذه الوصمة ، فأمسك بسير من الجلد وشنق نفسه .

الأطفال المولودون خارج الزواج :

يقول كلارك إن انتشار العلاقات غير الشرعية والتغاضى عنها ، استلزم أن ينظر إلى الولد الذى يولد خارج الزواج ، نظرة تنطوى على كثير من التسامح ، فلا تلحقه وصمة ولا عار بسبب حادث ولادته . وهؤلاء الأولاد يلتحقون فى النسبة بأمهم . وإذا كانوا ذكوراً كان لهم جميع الحقوق التى يتمتع بها أبناء القبيلة ، وعند بعض البشاريين تدل البنت على الرجل الذى أغواها ، وله الحق فى هذه الحالة

أن يأخذ الفتاة وابنها ، ويدفع مهراً مخفضاً قلما يزيد على بعير واحد ، وبوجه عام تصبح قيمة الزوجة التي سبق لها أن حملت من غير زوجها ، فى سوق الزواج أقل بكثير من صواحبها . . وكثيراً ما تلجأ الفتاة إلى هذه الحيلة لكى تتزوج من الرجل الذى تحبه ، وتتجنب الرجل الذى أختارته أسرتها ليكون بعلا لها .

الوفاة والجنازة :

يدفن الميت فى حفرة ويهال عليه التراب ، وتغطى الحفرة عند بعض القبائل (العطبرة) بحصى أبيض ومن حولها إطار من الحصى الأسود ، وأما الأطفال فلا يوضع على قبورهم سوى الحصى الأسود . وهذا الحصى الأسود لا يوضع على القبر إلا بعد أن تقرأ عليه آيات وتسبيحات .

ويحتفل بذكرى الفقيد ثلاث مرات إذا كان له بعض الخطر ، المرة الأولى بعد أسبوع من الوفاة ، والثانية بعد أربعين يوماً ، والثالثة بعد مضى عام . وبذلك ينتهى الحداد . . .

دق الطبول :

ومن عادة الأمرأر أن أقرب الناس إلى الفقيد يحرم على نفسه أن يجلس على فروة إذا ركب بعيره وذلك من مظاهر الحداد . فإذا كان الفقيد من الرؤساء أو من فى طبقتهم دق له الطبل مرة واحدة ، ثم لا يدق بعد ذلك عاماً كاملا ، ويطلق على الطبل اسم النحاس ، وهو الإسم الشائع فى السودان ، وذلك لأنه عادة يتكون من قاعدة كروية من النحاس شد عليها غطاء من الجلد ، ولا يدق الطبل عادة إلا فى ثلاث مناسبات : الأولى بعد وفاة فقيد عظيم ، والثانية للدعوة إلى الحرب ، والثالثه لحفلة عظيمة تهم القبيلة كلها . ولا يجوز مطلقاً أن يدق النحاس لسبب تافه ؛ لأن له تأثيراً شديداً فى نفوس الناس . ويتهيج له الجميع حتى الشيوخ الطاعنون فى السن . فلا يكاد الطبل يدق حتى تثور الحماسة فى القلوب وترهف الأعصاب ، وتجرد السيوف من أغمادها . ولكل قبيلة طريقة أو نغمة خاصة فى دق طبولها ، تميزها عن غيرها .

الحياة الاقتصادية

الزراعة :

ليس من المنتظر فى بيئة تغلب عليها الصفات الصحراوية فى معظم جهاتها أن يكون فيها للزراعة شأن كبير، ومع ذلك هنالك جهات متفرقة أمكن أن تنشأ فيها حياة زراعية. وبقطع النظر من التطورات الحديثة التى جاءت نتيجة لتنظيم الثروة المائية المحدودة لكل من خور بركة، واستخدامها فى رى نحو ٣٠,٠٠٠ من الأفدنة، وفى خور الجاش لرى مقدار معادل، وما ترتب على ذلك من نمو الزراعة فى منطقتى طوكر وكسلا، فإن البجه قد مارسوا الزراعة فى جهات متفرقة، وعلى الأخص فى الجنوب، وعلى ضفاف العطبره، وفى بعض الأودية والأخوار، وفى سهل البُطانة حيث يجود المطر من عام لعام، وإن كان من عادته أن يخلف الظنون فى بعض السنوات.

والزراعة بوجه عام لا تمارس بحماسة وإخلاص، شأن البجه فى ذلك شأن جميع الرعاة فى جميع الأقطار. ومن الجائز أنهم لم يكونوا يمارسونها مطلقاً، أو كانوا يكلون أمرها إلى الخدم والعبيد. ويمكننا أن نقسم الزراعة بحسب أنواع الحقول إلى أربعة أقسام :

١ — فى الأقاليم الوسطى الشبيهة بالصحراوية بقع منعزلة إذا جادها الوسمى، ألقى الزارع بالحب فى الأرض، ثم يعود إليه بعد ثلاثة أشهر لعل الطبيعة أن تكون قد قامت بالواجب فأنبتت الزرع فاستغلظ واستوى على سوقه. وهذه الزراعة وسط الفيافى، كثيراً ما تتعرض لها الإبل السائمة، فترى فيها مرعى شهياً خصباً فتلتهمها عن آخرها. فيصيح صاحبها ويضج بالشكوى مطالباً صاحب الإبل بغرامة كبيرة، وهذا من أهم أسباب التقاضى.

٢ — على ضفاف نهر العطبرة، يمكن للبجاوى إذا شاء أن يستفيد من فيضان النهر، فينتظر ريثما يهبط الفيضان، ويزرع الشواطىء والجزر، كما يحدث على طول نهر النيل. غير أن هذا العمل يتطلب مجهوداً زراعياً خاصاً، إذ لا بد له من تطهير

الأرض من الأعشاب ، وإعدادها إعداداً خاصاً . ولا يقبل على بذل مثل هذا المجهود إلا من اعتاد الإقامة على شواطىء النهر زمناً طويلا ، كما هى الحال فى إقليم النوبة . ولذلك يقوم البجاوى بواجباته الزراعية هنا فى شىء من التراخى .

٣ — لذلك نراه يؤثر الزراعة فى سهل البطانة نفسه ؛ وللشواطىء النهرية ميزة أنها لا تتوقف فيها الزراعة على المطر ، لأن الفيضان يدع التربة فى حالة من الرطوبة تمكن من زراعتها ، ولكن سهل البطانة له ميزاته ، وهى خصوبة التربة ، ووفرة المحصول لأقل مجهود يبذل ، بشرط أن يتوفر للزراعة مقدار — ولو معتدل — من المطر . والبشارى فى سهل البطانة متفائل دائماً ، وقد يهمل زراعة الأراضى الجزرية على شواطىء العطبرة ، أملا فى سقوط المطر وجنى محصول وافر فى سهل البطانة ، وقد يخيب ظنه فتفلت منه الزراعة فى الإقليمين معاً ، ويضيع عليه ما عساه أن يكون بذره من الحبوب . والسبب الأساسى ، الكامن وراء تفضيل السهل على الشواطىء هو بغض العمل اليدوى ، الذى يحتقره البدو عامة . وليس بمستغرب أن نجده لدى الأمرأر والبشاريين .

ويشبه الزراعة فى سهل البطانة ، تلك الأقطار الجنوبية المتاخمة لحدود الحبشة ، حيث المطر أغزر وأوفر ، وسقوطه أقرب احتمالا ، ولذلك نرى أن حظ الهدندوه وبنى عامر من الزراعة أكثر من حظ سائر البجه .

٤ — والفرع الرابع من الزراعة ، هو ما يجرى فى دلتا بركة والجاش ، وهنا الزراعة تكون على الفيضان . وقد نظمت الزراعة هنا حديثاً تنظيما خاصاً ، وبدأت زراعة دلتا الجاش فى عهد محمد على ، ثم استمرت فى النمو والزيادة بعد ذلك . ويقول الأستاذ نيوبولد إن الهدندوه فى إقليم الجاش يقبلون على الزراعة إقبالا لا بأس به ولو لم يكونوا زراعاً من الطراز الأول ، فإن ما يقومون به فعلا يعد تقدماً عظيما بالنسبة إلى أعمالهم قبل ذلك . وفرق كبير بين شعب اعتاد الزراعة منذ آلاف السنين ، وبين قبائل بدوية لم تكن تقبل على الزراعة إلا عن كراهية واضطرار .

وأهم ما يزرع هو الحبوب ، وعلى الأخص الذرة الرفيعة . وفى الأقاليم الشمالية ، حيث الزراعة قليلة والمحصول ضئيل ، نرى البشاريين وغيرهم مضطرين كل عام إلى

شراء حاجاتهم من الحبوب للطعام ، ولكى تستخدم بمثابة التقاوى عند الزراعة . أما فى الجنوب فإن البجه قلما يحتاجون إلى شراء الحبوب للقوت أو للزراعة .

ويصف لنا كلارك بعض المراسم المتبعة فى الزراعة ؛ ويقول إن البجه يقربون قرباناً فى الحقل قبل بذر الحبوب ، فيذبحون عجلا أو جملا أو كبشاً أو معزى ، تبعاً لمقدرة الزارع وسعة الأراضى التى يملكها ، وبعضهم ينصب هودجاً ، فتعدو حوله الرجال على ظهور الإبل ، والنساء تزغرد ؛ وبعضهم — ذوو النزعات الدينية — يلتزمون الصيام فترة من الزمن ، وآخرون يكثرون من الصلاة — صلاة الاستسقاء — والدعاء والتسبيح .

فإذا اقترب وقت الحصاد ، ضربوا لذلك موعداً لا يخلفونه ، وفى هذا العمل بالذات يبدى البجه نشاطاً كبيراً ، ويتسابقون أيهم يجنى غلته قبل صاحبه . ومن عادتهم أن من ينتهى من محصوله أولا يصيح بجاره : «الأرنب جاءتك» وهكذا حتى يبقى آخرهم وهو الذى وصلت إليه الأرنب ، فيضحك الآخرون منه . وربما كانت هذه بقية عادة قديمة . . وهكذا نرى أن البجه — إذا تقاعسوا وتكاسلوا فى أعمال الزراعة — يبدون نشاطاً هائلا وقت الحصاد .

الرعى :

على الرغم من احتراف الزراعة ، وتعدد أنواع المزارع ، وضرورة الغلات الزراعية لاستكمال التغذية ، فإن الرعى هو الحرفة الأساسية لجميع البجه ، على اختلاف قبائلهم وأوطانهم ، وقد ازدادت ضروب النشاط الاقتصادى تعدداً وتنوعاً فى الأزمنة الحديثة ، وأصبحت تتناول البيع والشراء ، والتجارة فى مختلف مظاهرها ، وتتناول استغلال بعض الغلات الطبيعية ، كما تتناول العمل فى الموانىء وفى الخدمة العامة (الجيش وما إليه) ، ولكن هذه النواحى المختلفة لم تستطع أن تخفى الحقيقة الأساسية وهى أن البجه شعب من الرعاة ، وإن تعددت وجوه النشاط فيه وتنوعت . ومن الممكن أن نتصور أنهم جاء عليهم حين من الدهر لم يكونوا يحترفون حرفة أخرى . بل كان جل اهتمامهم ونظام حياتهم مركزاً حول القطعان والعناية بها والدفاع عنها . فإذا ثار نزاع حول أرض ، فذلك لأنها مرعى لماشيتهم

أو فيها آبار لسقاية دوابهم ، وإذا أغاروا على جيرانهم فإن أهم أسباب الخصام الحصول على قطيع أو الثأر لعدوان على قطيع ، وإذا كانت الروح الحربية هى الخلق الذى يجب أن يربى فى كل فرد ، فذلك لأن حياة الرعى تتطلب التأهب الدائم للذود عن القطيع ، ورد العدوان عنه . والطمع والجشع ، لا يتخذ إلا صورة واحدة ، وهى الرغبة فى الاستئثار بأكبر عدد ممكن من الإبل . فالحياة كلها مركزة حول شىء واحد ، وإن ظهرت فى مظاهر مختلفة .

ومن المرجح أن البجه قد عرفوا الزراعة والزراع زمناً طويلا ، دون أن يمارسوا تلك الحرفة أو يقلدوا من يحترفها . ولا شك أنهم منذ زمن طويل جداً ، عرفوا فائدة الغلات الزراعية ، وعلى الأخص الحبوب ، وحصلوا عليها واستخدموها فى غذائهم ، دون أن يفكروا فى استنباطها بأنفسهم ، وحسبهم أنهم كانوا يحصلون عليها بإحدى وسيلتين : إما بالاغارة ، إذا كان الزراع — كما هى الحال فى كثير من الأحيان — جماعات مستضعفة ، متفرقة ليس بينها تضامن وتعاون ، ولا نظام دفاعى يمكنها من الذود عن أرضها ؛ وإما بالبيع والشراء ، بأن يعطوا ما يفضل عن حاجتهم من الماشية ويحصلوا فى نظيرها على حاجتهم من التمر أو الحبوب .

ظل البجه حيناً من الدهر يحصلون على حاجتهم من غلات الزراعة بإحدى هاتين الوسيلتين ، ولا تزال المبادلة عنصراً هاماً إلى اليوم فى حياتهم ، تمكنهم — وعلى الأخص سكان الشمال — من الحصول على جزء غير قليل من قوتهم الضرورى .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى ولا كيف أخذ البجه يمارسون الزراعة ، مقلدين جيرانهم ، من المستقرين ، الملازمين لحقولهم ومزارعهم ، ولكن ظاهر الأمر يدل على أن ممارسة البجه للزراعة ليست بالأمر القديم ، المعرق فى القدم ، لأن تقاليدهم وشعائرهم ومختلف عاداتهم ، كلها تشير بأن مجتمعهم موطد الأسس فى حياة الرعى . فالدية تدفع بالإبل ، وكذلك المهر ، وفى جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الأساسية ، نرى الإبل وسائر أنواع القطعان تحتل مكاناً هاماً ، فنحن إذن أمام مجتمع قد تطور فى العصور الحديثة بعض التطور ، ودخلته ألوان مختلفة من النشاط الاقتصادى ، ولكن أركانه الأساسية لا يزال قوامها الرعى والعنصر المهيمن عليها تلك القطعان الضخمة من الإبل والغنم والماعز .

والإبل بالطبع هى أهم هذه الحيوانات ، وأعلاها شأناً ؛ وليست القطعان الأخرى سوى أجزاء متممة للثروة الحيوانية . ولا وجه للمقارنة بينها وبين الإبل فى الأهمية . والقبيلة التى تنقص إبلها أو تبيد تتعرض لكارثة محققة ، ولن تلبث زمناً طويلا حتى تذهب ريحها ، ويضطرب كيانها ، ولا بد لها بعد ذلك من أن تندمج فى قبيلة أخرى أو تتعرض لفناء محقق .

والأرجح أن الإبل لم تأت إلى البجه عن طريق البحر الأحمر مباشرة ، فإن الاتصال بين جانبى البحر فى هذه المنطقة لم يكن ميسورا فى الأزمنة المتقدمة ، وأكبر الظن أن انتشار الإبل كان من الشمال إلى الجنوب ، أى أنها وصلت إلى بلاد البجه بعد أن وصلت إلى القطر المصرى ، وبعد انتشارها فى صحراء مصر ، فى عهود البطالسة والرومان .

وأيا كان الوقت الذى تعلم فيه البجه اقتناء الإبل — إلى جانب ما كان لديهم من الماشية قبل ذلك — فإن إدخال الإبل إلى بلادهم صادف تربة خصبة ، إذا صح هذا التعبير ، لانتشارها ورعايتها . وقد كان البجه بلا شك رعاة بارعين قبل أن تدخل الإبل ديارهم ، فلما أخذوا فى اقتنائها لم يلبثوا أن ألفوها ، وأبدوا فى تربيتها براعة فائقة لا تقل عما أبدته أى قبيلة عربية ، اشتهرت بتربية الإبل . ومن الجائز بالطبع أن البجه قد عرفوا بعض القواعد الأساسية لتربية الإبل من الجماعة أو الجماعات التى أخذوا عنها هذا النوع الجديد من الحيوان . لكن لا شك أنهم زادوا كثيراً على ما تعلموه ، وتخصصوا فى تربيتها على طريقتهم وأساليبهم ، وبذلك اختلفت طرقهم عما هو متبع لدى الكبابيش مثلا ، ولدى غيرهم من القبائل ذات الإبل التى تعيش فى الجانب الغربى من النيل .

لم يلبث البجه بعد أن اقتنوا الإبل أن أدركوا الصفات الأساسية التى تميز بعضها عن بعض ، وأن الوراثة عنصر هام فى تربيتها ، وفى تأكيد بعض صفاتها الممتازة . وهنالك بالطبع صفتان أساسيتان : السرعة من جهة ، والمقدرة على حمل الأثقال ، وأن كلا هاتين الصفتين لا بد من توافرهما . وكان من الجائز أن تتجه تربية الإبل نحو الجمع بين هاتين الصفتين ، بأن تكون الإبل ذات سرعة معقولة ، وفى الوقت نفسه تستطيع أن تحمل أكبر مقدار ممكن من الزاد والمتاع . غير أن نظرية

البجه فى تربية الإبل ، جعلتهم يدركون أن الجمع بين هاتين الصفتين على الوجه الأكمل يوشك أن يكون مستحيلا ، لأن إبل الحمل ، يجب أن تكون قوية العضلات ، ضخمة السنام ، وبالجملة ثقيلة الوزن إلى درجة بعيدة ؛ بينما الهجن السريعة العدو يجب أن تكون خفيفة ، قليلة الشحم ؛ حتى تكون سريعة الحركة إلى أبعد مدى .

لذلك نرى البجه قد اتجهوا فى تربية الإبل وجهتين : الأولى تربية الابل السريعة جداً ، والأخرى تربية الإبل القوية الثقيلة التى تحمل أمتعتهم إذا انتقلوا من مكان لآخر . فأخذوا يربون إبلهم بدقة وعناية حتى يصلوا ، بطريق التوريث ومراقبة التناسل ، إلى استنباط هذه الصفات . وبذلك انقسمت الإبل لديهم إلى هذين النوعين .

والإبل السريعة عند البجه تلقى عناية خاصة ، لعلها أعظم مما يبذل من العناية فى تنشئة النوع الآخر . وتبدأ العناية بها بمراقبة النسل ، فلا يسمح للناقة السريعة أن تنسل إلا من بكر سريع . وكل فصيل يولد تكون شجرة نسبه معروفة ومحفوظة والعناية التى تبدأ باختيار الوالدين ، تستمر بعد الولادة ، فى جميع المراحل ، إذ لا بد من تدريب الفصيل فى السنوات الأربع الأولى من عمره ، وإلا تعذر أو استحال تدريبه بعد ذلك . ومتى تم تدريبه أصبح صالحاً للركوب ولقطع المسافات البعيدة فى سرعة قد تبلغ أحياناً سرعة الخيل . واشتهرت الهجن البجاوية بذلك فى مصر والسودان ، وتحرص الحكومتان على اقتنائها لجميع الأعمال التى تتصل بمراقبة الحدود ، وكانت فيما مضى لها مكان فى نظام الجيوش . ولا شك أن الدافع الأكبر الذى حدا بالبجه إلى العناية بالسرعة ، هو ما لها من الشأن الأكبر فى الحرب وفى الكر والفر ، وفى الانقضاض الفجائى على العدو . فهى تقوم بالدور الذى تقتنى له الخيل فى البلاد العربية . وليس من السهل على البجه أن يربوا الخيل فى أوطانهم التى لا يتوفر فيها العشب إلا فى جهات متباعدة . والقبائل العربية التى تقتنى الخيل تضطر لأن تخصص لها عدداً من الإبل لتحمل القوت اللازم لها ، أثناء قطع المسافات البعيدة فى الصحراء ، ولا شك أن فى هذه تعطيلا لعدد كبير من الماشية ، وإذا أمكن أن تعمل الإبل عمل الخيل ، فإن هذا أوفق لبيئة البادية .

وهذه الإبل — عدا ما اشتهرت به من السرعة — تعد مطية سهلة الركوب ، لايحس راكبها نصباً ولا عناء ، ويستطيع أن يقطع المسافات البعيدة ويقضى على ظهرها الأيام الطوال دون مشقة ، لأنها عُوّدت منذ الصغر أن تمشى مشية مستوية سهلة ، فى خطاها السريعة أو المعتدلة . ونظراً لطبيعة البيئة التى تجمع بين المسالك الوعرة فى الجبال والفيافى الواسعة فى الصحراء ، اعتادت هذه الإبل أن تسلك الطرق الجبلية المنحدرة والممرات والثنايا الحجرية ، من غير مشقة ، وهى ثابتة الخطى ، لا يخشى عليها أن تزل بها الرجل أو تتعثر فى الأحجار والمنحدرات والشعاب الضيقة ، وهى ميزة قلما نجدها فى الخيل .

لا شك أن الإبل السريعة تحتل المكان الظاهر البراق من حياة البجه ، فالنشاط الحربى والرياضى والحفلات لها فيها المكان الواضح الممتاز . وهى أيضاً التى شكلت المجتمع ، بأن جعلته يجمع بين التفرق فى مختلف الأنحاء والأودية المنعزلة ، والتجمع السريع إذا كان هنالك حاجة للم شمل القبيلة وتجميعها لغرض من أغراض الحرب أو السلم . ولكن هذا يجب ألا ينسينا أن قوام الحياة الاقتصادية هو الإبل الأخرى ، التى تستخدم فى الحمل ، وهى التى تدر الألبان الغزيرة . وتساعد فى انتقال العشيرة من موطن إلى موطن . وهى العماد الأساسى للاقتصاد القومى ؛ وهى التى تستخدم فى نقل السلع والغلات الزراعية ، فوق حملها للخيام والأبراش والأمتعة والأوانى . وهى عماد النشاط التجارى ، يؤجرها البجه للنقل فى الصحراء للحكومتين المصرية والسودانية ، حيث تنعدم وسائل النقل الأخرى . وقد تؤجر للأفراد أو للبعثات ، وهى بذلك تكوّن مورداً من أهم موارد الرزق . ولذلك لا تقل عناية البجه بها عن عنايتهم بالإبل السريعة التى تستخدم فى الذود عن القطعان ، وحماية الممتلكات .

فالعناية بالإبل إذن تشمل النوعين ، وإن كانت الهجن السريعة أقرب إلى قلوب البجه ، لأنها موضع افتخارهم ، ولأنهم يصطحبونها ، وتلازمهم فى أسفارهم ، ويركبونها حتى فى غير أوقات الانتقال من مرعى إلى مرعى . وكثيراً ما يكون للرجل هجينه المفضل يعرفه باسمه ، ويصاحبه فى غدوه ورواحه . وبين الاثنين

علاقة وصلة ، لا يتسنى وجودها بين الرجل وبين الإبل التى تحمل الأثقال .

على الرغم من هذا كله يعنى البجاوى بإبله كلها ، ويعرف طباعها وخصالها ، وهو طبيب بعللها وأمراضها ، ويسميها فى كل مرحلة من حياتها باسم خاص ، كما يفعل العرب تماماً . ولكل قبيلة علامة تكوى على كل جمل أو ناقة ، وتعرف بالوسم ، يميز إبل كل قبيلة عن إبل القبائل الأخرى . وهى علامة واضحة لا يمكن إخفاؤها أو سترها . وقد تكون على العنق أو البطن أو أى جزء آخر من جسم البعير أو الناقة . وإلى جانب العلامة الأساسية الخاصة بالقبيلة ، تضيف كل جماعة أو أسرة علامة أخرى خاصة بها ، وكثيراً ما تكون هذه العلامة الإضافية هى لأسرة الأم إذا كانت الأم من قبيلة أو عشيرة أخرى ، وهذه بقية أخرى لنفوذ الأم بين البجه . وفى أثناء البيع والشراء والمبادلة تضاف علامات أخرى ، بحيث يمكن للخبير أن يطالع على جسد الجمل تاريخه فى صورة مصغرة [1] ، ولو أن بعض البشاريين يكتفون بعدد صغير من العلامات : علامة فى أعلا الساق ، وأخرى على العنق تحت الرأس مباشرة .

ويعالج البجه إبلهم بطرقهم البدائية ، حيث لا تتوافر وسائل العلاج الحديثة . والكى من أهم الوسائل التى يلجأون إليها . وقد يستخدمون السكين ، فى استئصال كتلة مريضة من اللسان أو أى جزء آخر من الجسم .

ورعى الإبل فى بيئة كالتى يعيش فيها البجه تستدعى بالطبع كثيراً من التنقل ، فإن الإبل على الرغم مما اشتهر من قدرتها على أن تقطع أياماً وليالى من غير طعام أو ماء . ليس معنى هذا أنها قليلة الطعام والشراب بوجه عام . والصحيح أنها يلزمها الكثير من الغذاء ، وقسط وافر من الراحة فى المرعى ، قبل أن تشرع فى رحلة طويلة . وإذا كثرت الإبل فسرعان ما تستنفد المرعى القريب ، ولا بد أن تساق إلى مرعى آخر . فإذا استنفدت المراعى القريبة فى موطن من المواطن ، فلا بد من الانتقال بها إلى موطن يبعد عن الأول بعشرات الأميال . ومن الجائز للقبائل القليلة التى تعيش على حافة نهر كبير كالعطبرة أن تظل قريبة من مواطنها

---

(١) راجع مقال كلارك المشار إليه فى S.N.R. لسنة ١٩٣٨ ص ٢١ .

الأصلية ، حيث لا تعدم الماء والمرعى . ولكن القبائل التي تقيم فى جوار الجبال ، وهى الجهات التى كان لها فضل كبير فى تشكيل حياة البجه الاجتماعية والاقتصادية ، لا بد لهم أن يتحولوا عن موطن إلى آخر تبعاً لما يقتضيه البحث عن المرعى .

وفى السهول الممتدة شمال العطبرة إلى القطر المصرى ، حيث يغلب الجفاف ، ويقل الماء الجارى أو ينعدم ، نرى الآبار بعيدة بعضها عن بعض ، وكثيراً ما كانت ملكية هذه الآبار مجالا للنزاع بين القبائل . ونظراً لقلة هذه الآبار نرى حولها زحاماً لا يكاد ينقطع ليلا أو نهاراً ، وعلى الأخص فى الليل . فلا تكاد تفرغ جماعة من رى ماشيتها ، وملء قربها ، والمضى فى سبيلها حتى تجىء جماعة أخرى . ولا ينقطع الغناء والنشيد أثناء هذا كله . ويزعم كلارك أن للبجه مئات من الأغانى ينشدونها وهم يسقون ماشيتهم ، ولكل نوع من الحيوان ، فى زعمه ، نشيده الخاص .

وإلى جانب الإبل يربى البجه قطعاناً كبيرة من الضأن والماعز . ويطلقون عليها اسم الماشية الدقيقة (الصغيرة الحجم) إذا قورنت إلى الماشية الجليلة وهى الإبل . والماعز كما هو معروف أكثر احتمالا لخشونة العيش من الضأن . ويقول كلارك إن البجه يربون الضأن ، بحيث يكون موسم الولادة فى الصيف حين يبدأ موسم المطر . ويأخذ النبات فى النمو ، فتمضى الحملان خلف الشياه وترعى معها . أما موسم الولادة للماعز فهو الشتاء ، حين تكون القبيلة أكثر استقراراً ، لأن الجدى الصغير يتعرض للضياع إذا ترك لكى يتبع أمه فى مواسم الانتقال . وتوقيت مواسم الولادة على هذه الصورة هو من عمل البجه أنفسهم ، ولكن لعل السبب الذى دعاهم إلى ذلك ليس ما يقوله كلارك من خوفهم على الجديان أن تضيع وهى تتبع العنزات ، بل إنهم أرادوا أن يجعلوا للضأن موسماً وللماعز موسماً ، حتى يكون لديهما موسمان لرعاية الصغار ، والعناية بها . وبالتالى يكون لديهم موارد للألبان واللحوم فى المواسم المختلفة .

ويربى البجه ، إلى جانب الإبل والضأن والماعز ، قطعاناً من البقر . وهذه الثروة الحيوانية ليست مقصورة على قبيلة من القبائل ، بل يشترك الجميع فى تربية البقر ، وإن كان بعضهم أغنى من البعض . وبديهى أن تربية البقر لا تتاح إلا

لسكان الأقطار التي يتوافر فيها المرعى فترة طويلة من السنة ، ولا سبيل إلى اقتناء البقر بواسطة سكان العتمور أو العتباى ، أو الأقاليم الشمالية بصفة عامة . ولكن نظراً لأن أوطان البشاريين قد اتسعت وامتدت إلى نهر العطبرة ، فإن هذه القبيلة أيضاً استطاعت أن تمتلك قطعاناً من البقر ، وإن كانت أقل بكثير مما يقتنيه الأمرأر أو الهدندوه أو بنو عامر ؛ أو القبائل الصغيرة من البجه مثل الحالنقا والأرتيقا . ولكنا مع ذلك لا نستطيع أن نسمى البجه رعاة بقر أو بقارة بالمعنى المعروف ، لأن البقر ليست هى الماشية الرئيسية لمعظمهم ، وأكثرهم لم يفكر فى اقتنائها إلا فى العهود الحديثة[1] . والجماعات التى تملك قطعان البقر ، هى فى العادة نفس الجماعات التى تمارس الزراعة . وكثيراً ما ترى قطعانهم فى سهل البطانة ترعى العشب ، وهى تشتمل على مزيج من الإبل والضأن والماعز والبقر والحمير . وهكذا نرى أن ماشية البجه أكثر تجانساً فى الشمال ، حيث تغلب تربية الإبل ، ثم تزداد اختلاطاً وتنوعاً كلما اتجهنا إلى الجنوب . . . ولعل فى تنوع الثروة الحيوانية فى الجنوب ، ما يفسر لنا تفوق البشارين الشماليين فى تربية الإبل على جميع البجه .

وللبجه عادات خاصة تتصل باللبن وحلب الماشية ، منها أن الرجال كما ذكرنا من قبل هم الذين يحلبون الماشية ، وينكرون من الزبيدية والرشايدة (وهم عرب من اليمن حديثو الهجرة إلى السودان) أنهم يسمحون للنساء بحلب الماشية . ومنها أنهم لا يحلبون فى أوعية من الفخار ، وإن كان لدى كثير منهم أوعية فخارية . والوعاء المفضل لحلب الألبان هو القرعة الجافة ذات القشرة السميكة ، أو أوعية الخوص ، وهى تصنع من الخوص الرفيع جداً . ويقول سلجمان إنهم ربما استخدموا قربة من الأدم لهذا الغرض أحياناً ، ولكن هذا نادر .

ومن عاداتهم أيضاً أن الرجل بعد الحلب لا يجوز له أن يذوق قطرة منه قبل أن يتناول منه شخص آخر جرعتين أو ثلاثة . ومن أكبر الوصمات أن يرتكب

---

(١) يقول الأستاذ سلجمان فى مقاله The Hamitic Problem (مجلة JRAI سنة ١٩١٣ ص ٦٥٤ وما بعدها) إن بعض البجه يعدون البقر ماشية حقيرة ، وهذا القول ينطبق بوجه خاص على الأمرأر . وقد يتعداهم إلى غيرهم .

رجل هذا الأمر المنكر ، مهما بلغ به الظمأ . وهم يصفون هذا العمل المستهجن ، بقولهم « فلان حلب وشرب »[١] .

الصناعات :

حياة البداوة وكثرة التنقل لا تساعد على نشوء صناعات كثيرة ، فالصناعة مقصورة على الأشياء الضرورية . ومن الجائز أن تصنع أشياء قلائل لكى تباع فى أسواق بعض المدن للراغبين فى اقتنائها . والمادة الأولية بالطبع محدودة ، وأكثرها مشتق من النبات أو الحيوان . وأهم النبات نخيل الدوم ، وشجر السنط ، وأهم الغلات الحيوانية الشعر والصوف والوبر والجلود . والألبان بالطبع لصناعة السمن ، وليس هنالك مجال كبير لزيادة الإتقان والتفنن فى الصناعة ، إذ كانت الهمة متجهة إلى الفائدة العملية دون سواها . ومع ذلك فإن الطبع البشرى لا بد أن يكون له أثره ، ولذلك لا يخلو الأمر من بعض العناية بالتجميل .

ومن أهم أنواع النسيج ، صنع الشملات . وهى تصنع عادة من شعر الماعز ، وأحياناً من صوف الغنم ، ولكن أكثر ما يستخدم فيه الصوف هو لتجميل الشملات أو الأوعية الجلدية . وهذه الصناعة كما سبق ذكره من أخص عمل النساء .

وقد اشتهر بعض الأمرأر فى صناعة البرذعات والأكوار للإبل ، وجميع البجه يعترفون لهم بالبراعة فى هذه الصناعة . كما اشتهرت بعض العشائر البشارية بالمصنوعات الجلدية ، وبدبغ الجلود ، وبعض هذه المصنوعات قد تجد سبيلها إلى أسواق أسوان .

ويستخدمون فى الدباغ القرَد ، المشتق من شجر السنط . فيقطعون فروع الشجرة التى تحمل القرد ويتركونها لتجف . ثم يتخذون أحواضاً من الطين ويملأونها بالماء ، ويجعلون فيها القرد بنسبة رطل من القرَد لكل قربة من الماء . وفى هذا المحلول يضعون الجلود ثلاثة أيام سويا ، ثم يغيرون الماء . وهذه العملية تتكرر ثلاث مرات . تستخرج الجلود بعدها وتغسل بالماء مراراً . ثم تملأ بالطين وتعلق على الشجر لتجف ، وبعد أن يتم جفافها تؤخذ من الشجرة وينفض عنها التراب

(١) سلجمان فى نفس المقال والموضع .

وتفصل وتخاط على شكل قرب . وتستخدم فى حفظ الماء ونقله من مكان إلى مكان ، ويبقى أثر الدباغة فى القربة فترة من الزمن ، ثم يزول بالاستعمال . ولا شك أن القرب المصنوعة على هذه الصورة من أحسن وأنسب الوسائل لحفظ الماء ونقله .

وإذا كانت الجلود تستخدم فى صنع أوعية لحفظ السمن ، فإنها علاوة على عملية الدبغ ، لابد لها من أن تعالج بواسطة نباتات أخرى تجعلها أشد اندماجا ، بحيث لا ينفذ منها الدهن .

والبجه بوجه عام شعب لا تزال تغلب عليهم الصفة العسكرية ، والطبع الحربى الذى أملته البيئة والكفاح للمحافظة على النفس والمال . وشجاعتهم وقوة احتمالهم مضرب الأمثال . وعلى الرغم من أن حكم القانون أخذ ينتشر ؛ وقل النزاع بين القبائل ، غير أن هذه الروح لا تزال سائدة فيهم ، متغلغلة فى نفوسهم . وسلاحهم الرئيسى هو السيف للهجوم ، والدرقة للدفاع ؛ وقلما يستخدمون الرمح . أو القسى والسهام ، ولكنهم يحملون فى منطقتهم خنجراً منذ الحداثة ، ويظلون محتفظين به وليس هناك دليل على أن هذه الأسلحة ، باستثناء الدرقة ، هى من صنع أيديهم ، وليس فى أوطانهم معدن الحديد . ولذلك لا بد لنا أن نقرر أنهم يشترون سيوفهم وخناجرهم عن طريق البيع والشراء . ويبذلون جهداً ملحوظا فى العناية بها ويحرصون على اقتناء أجودها وأحسنها ؛ ومن الجائز ، بل المرجح ، أن سلاحهم فيما مضى كان الرمح ، سلاح أهل الجنوب ، ولكن السيف جاءهم من الشمال ، أو من جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر ، فلم يلبثوا أن وضح لهم ميزة السيف على غيره من ضروب الأسلحة . فأقبلوا على اقتنائه . وكثيراً ما يطلق الواحد منهم على سيفه اسماً خاصاً ، كعادة فرسان العرب . ويروون قصصاً عن بعض السيوف وحدتها ، وكيف سقطت على الحجر ، فقطعته من أعلاه إلى أسفله وهلم جرا .

وتظهر النزعة الحربية للبجه حتى فى لهوهم ولعبهم . فيرقصون رقصاتهم الحربية على دقات الطبول ، وأناشيدهم وأغنياتهم تردد قصص أبطالهم . وإذا اجتمعوا فى المساء حول أكواخهم ، أو حول نار من حطب السنط ، أحاطوا برجل يضرب الرباب ، ويغنيهم الأناشيد الطويلة عن بطل من أبطالهم القدماء .

ومن رياضتهم المحبوبة أن يلقوا الحجارة على نصب من الخشب يضعونه على مسافة منهم ، ويختارون لهذه الرياضة الأحجار المبططة المستطيلة . ويبرعون فى هذا براعة تامة . ومع ذلك فإنهم لم يحولوا هذه المهارة إلى الرماية بالقوس والسهام ، ولكنهم كثيراً ما يصيدون الأرنب الوحشى بحجر يرمونه به عن بعد .

ولهم بالطبع براعة خاصة فى ركوب الإبل ، وكثيراً ما يتسابقون عليها ، وحفلاتهم العامة فرصة لكى يظهر كل منهم براعته فى ضروب مختلفة من الركوب والعدو فى مختلف الصور والأشكال .

***

هذه خلاصة عن البجه عامة ، وأقسامهم وتاريخهم وأسلوب معيشتهم . وفيما يلى فصول نخص كل فرع من الفروع الرئيسية للبجه بواحد منها ، ونتحدث فيه عن كل من تلك القبائل بشىء من التفصيل . على الرغم مما قد نضطر إليه من تكرار فى سرد بعض الصفات والأحوال الطبيعية أو البشرية .

الفصل الرابع

البشاريون (البشارين)

يحتل البشاريون النصف الشمالى من أوطان البجه ، متوغلين من جهة الشمال داخل الحدود المصرية ، وممتدين فى الجنوب إلى سهل البطانة ، فى مساحة تقرب من ٥٠,٠٠٠ ميل مربع ، منها جهات تشرف على البحر الأحمر ، وأخرى تتصل بإقليم أسوان ، وأخرى تبلغ العطبرة . وهى متنوعة تنوعاً كثيراً من ناحية التضاريس والمناخ ، كما هو منتظر فى هذه المساحة الهائلة التى تمتد من خط عرض ٢٤ شمالا إلى عرض ١٦ جنوبا . ويقسم ساندرز أوطان البشاريين إلى أربعة أقاليم رئيسية وهى(١) :

(أ) الجوينب Gwineb : وهو المنحدرات الشرقية لجبال البحر الأحمر ، والسهول الساحلية التى تليها ، وتشمل جميع الأراضى التى تنحدر مياهها ووديانها شرقا إلى البحر الأحمر ؛ ولا تدخل فيها المنحدرات الغربية التى تجرى سيولها — إذا وجدت سيول — نحو الغرب أو الجنوب الغربى ؛ أى إن هنالك خطا لتقسيم المياه الشرقية ، عن الغربية ، وهذا هو الذى يفصل الجوينب عن ما عداه من بلاد البجه (الأولب)(٢) ، ويلاحظ أن هنالك وادياً مستطيلا يجرى من الجنوب إلى الشمال فى فجوة منخفضة بين جبل علبة شرقا ، وبين الجبال الواقعة على حدود مصر والسودان . وفى هذا المنخفض يجرى الوادى المسمى باسم وادى دِئيب ، وهو « يصب » فى البحر ، الأحمر فى منتصف المسافة بين عيذاب والحدود المصرية .. وعلى

---

(١) مقال The Bishairn تأليف G.E.R. Sanders فى مجلة S.N.R لسنة ١٩٣٣ الجزء الثانى . أو فى مقال عن البشاريين فى متناولنا الآن ، ولذلك اعتمدنا عليه كثيراً هنا .

(٢) تسمية المنحدرات الشرقية باسم جوينب والمنحدرات الغربية باسم أولب يسرى على جميع أوطان البجه ، التى يتمثل فيها الإقليمان ، وليس الاصطلاح مقصوراً على بلاد البشارين .

الرغم من أن هذا الوادى يصب فى البحر الأحمر ، فإن معظم مجراه وروافده واقعة فى الأقاليم الغربية ، ولذلك لا يعد حوضه جزءاً من الجويئب .

وإقليم الجويئب يمتاز بأمطاره الشتوية التى تتساقط ما بين نوفمبر إلى مارس كما سبق ذكره ؛ ولا يصل إليها من الأمطار الصيفية إلا النذر اليسير ، حيث توجد فجوات وسط الإطار الجبلى تنفذ منها التيارات الجنوبية .

ومقدار المطر الذى يتساقط على هذه المرتفعات والمنحدرات الشرقية ، ليس كبيراً وإن كنا لا نستطيع أن ندلى بأرقام صحيحة شاملة عنه ، فالمطر فى جندوناب لا يزيد على ٤٠ ملليمترا ؛ وهذا الرقم قد يعدل كثيراً بعد إحصاء يتناول سنوات طويلة . فقد ثبت أنه قد يسقط فى بعض السنين أضعاف هذا المقدار . وفوق ذلك ليس لدينا محطات مناخية للجهات المرتفعة الجبلية . وهذه قد تكون أغزر مطراً من الساحل الذى سجل فيه ذلك الرقم . والمشاهد أن الجبال والأودية الجبلية ذات نبات غزير وأشجار كثيفة .

وهناك ظاهرة أخرى تؤثر فى النبات ونموه ، عدا ظاهرة المطر ؛ وذلك أن الرطوبة السائدة فى هذا الإقليم ، والندى المتساقط ، والضباب الذى يكسو هذه المنحدرات طوال فصل المطر ، كل هذا له تأثير مزدوج فى توفير قدر من الماء والرطوبة ، كما أن هذه الحالة تجعل التبخر قليلا ، بحيث يستفيد النبات فائدة كاملة من الأمطار المتساقطة على قلتها . ولا شك أن مجاورة البحر الأحمر هى العامل الأكبر فى تراكم الضباب والغيم المخيم على هـذه المنحدرات ، والرياح الشمالية (التجارية) التى تهب من البحر ، تحمل معها قليلا من الرذاذ المتشبع بملوحة مياه البحر ، وهذا له أثره فى النبات وطعمه بالنسبة إلى الإبل التى تتغذى منه ، والتى لابد لها أن تتعوده حتى تستسيغه . وهذا الأمر ينطبق بوجه خاص على الجهات الساحلية .

(ب) العتباى : هـذا الإقليم الثانى من أوطان البشاريين ، يمتد من قمم المرتفعات الشرقية فى الشرق ، إلى وادى قبقبة فى الغرب ، ومن الحدود المصرية شمالا إلى وادى عامور جنوباً ، وهو واد يجرى فى اتجاه شرق غربى ويصب فى النيل شمال الشلال الخامس ، فى منتصف المسافة بين بربر وأبى حمد .

والظاهرات « النهرية » — إذا استخدمنا هذه الكلمة بشيء كثير من التجاوز — التى تسيطر على هذا الإقليم هى من غير شك مجموعتان ، تكون الأولى منهما وادى دئيب الذى يصب فى البحر الأحمر ، ووادى العلاقى ، الذى يصب فى النيل فى الموضع الذى يطلق عليه اسم العلاقى ، الواقع شمال كرسكو بنحو خمسين كيلو متراً . وغنى عن البيان أن عبارة « يصب » فى البحر الأحمر أو فى النيل ، مستخدمة هنا بشيء كثير من التجاوز ؛ بل أن مصب العلاقى ، أصبح الآن يمتلىء بالمياه المشتقة من نهر النيل بسبب ارتفاع مستوى الخزان .

ومن الجائز بالطبع أن يجرى السيل فى كل من العلاقى ووادى دئيب ، ولكن مدة هذا الجريان قصيرة جداً . ومن المهم أن ننظر إلى هذين المجموعتين «النهريتين» بوصفهما ظاهرتين للتضاريس من جهة ، والوسيلة لتصريف مياههما ، حين تجرى فيهما مياه ، من جهة أخرى . ومما يؤسف له أن هذه الأودية لقلة ما تحمله من الماء ، لم تلق بعد العناية الكافية من السلطات الرسمية ، فلم تعن بتخيط مجراها وروافدها عناية تمكننا من تتبع خطوطها الرئيسية بشيء من الدقة ، ولهذا كان وصفنا لها وصفاً إجمالياً ، فأما مجموعة وادى دئيب ، فتتألف من أخوار تجرى من المرتفعات ، وتتجه نحو الغرب ، وذلك فى الجزء الجنوبى الشرقى من إقليم العتباى وهنالك روافد قليلة — أشهرها وادى كياو ، يجرى من الغرب إلى الشرق ويصب أيضاً فى وادى دئيب ، واتجاه وادى دئيب هو من الجنوب إلى الشمال ، حتى يخترق خط العرض ٢٢ فى فجوة تنقطع عندها المرتفعات كما ذكرنا ، ثم يجرى شمالا حتى ينتهى إلى البحر الأحمر ما بين عيذاب وحدود مصر ، وفى مجراه الأخير ، قد تصب فيه روافد آتية من المرتفعات ، وهذه الروافد تجرى فى هذا الموضع من الغرب نحو الشرق ، تغذيها الأمطار الشتوية ، وبذلك يجتمع فى مجرى الوادى مياه صيفية فى أعاليه ، وأمطار شتوية فى أسافله . وهى على كل حال عبارة عن سيول قليلة قصيرة مدة الجريان .

هذا هو المظهر العام لوادى دئيب ، الذى يمتد فى اتجاه جنوبى شمالى فى التخوم الشرقية للعتباى ، ملازماً لدرجة ٣٨ من درجات الطول ، أما وادى العلاقى ،

فواقع كله فى النصف الشمالى الغربى من العتباى ، ولا ينتفع بمياه المنحدرات الشرقية ولا بالأمطار الساحلية فائدة تذكر . ومع ذلك فإن مجموعة العلاق ، مجموعة تصريفية ذات شأن ، وذات حوض عظيم ، وتشمل مساحة واسعة من الأرض ، ويمكن تقسيم حوضها هـذا إلى قسمين غربى ، وشرقى ، فالغربى يجرى فيه رافده الكبير المسمى قبقبة ، وطوله يزيد على الثلثمائة كيلو متر ، ويجرى من الجنوب إلى الشمال فى الجانب الغربى من العتباى ، ويتغذى من روافد كثيرة العدد قليلة المياه جدا ، معظمها يأتى من مرتفعات فى الشرق من مجراه ، وليست بعيدة عنه ، أى أنه لا يأتيه شىء من المرتفعات العالية الملاصقة للبحر الأحمر ، بل كل ما يحصل عليه من الماء مستمد من مرتفعات فى اقليم العتباى نفسه .

أما القسم الآخر لهذه المجموعة ، فهو وادى العلاق نفسه ، وقد يكون من حيث الطول أقل من وادى قبقبة ، ولـكنه أكثر ماء ، لأن روافده العليا واقعة على المنحدرات الغربية من جبال البحر الأحمر ، وينتفع بمـا قد تحمله هذه الأودية من الأمطار ، وبعد أن يتلقى هذه الأودية ، يتجه نحو الشمال الغربى حتى يصب فى النيل كما ذكرنا .

والراجح أن هذه المجموعات التصريفية قد حفرت أوديتها فى وقت كانت الأمطار فيه أغزر مما هى اليوم ، وهذه الأودية تحكى فى جريانها ظاهرات التضاريس الأساسية للعتباى ، فهنالك المنحدرات الشرقية ، التى تجرى منها الأودية نحو الغرب ، وهـذه تتحول بالتدريج إلى سهول منبسطة ، تكسوها الحصا أو الرمال الثابتة . فالمرتفعات هنا فى الشرق، والمنخفضات تظهر بالتدريج فى الغرب . على عكس إقليم الجويتب ، ولـكن هذا الانحدار من الشرق للغرب ليس مطرداً ، بل تتخلله فى بعض المواضع كتل جبلية صغيرة المساحة قليلة الارتفاع كما هى الحال جنوب وادى العلاق الأعلى . ومعظم هذه الـكتل جرداء قليلة الشجر والنبات ، وإن كان بعضها قد تنبع منه أودية تتصل بالعلاق ، أو بوادى كياو .

والحياة النباتية تتبع الظاهرات المناخية ، فالمطر أكثر ما يكون فى المرتفعات ،

حيث يكثر العشب والشجر ، ثم يقل النبات تدريجياً ، حتى يكاد ينعدم فى السهول البعيدة ، كما تقل فيها الآبار أيضاً .

(حـ) والإقليم الثالث من مواطن البشاريين هو المسمى تماراب Tamarab ، وهو إقليم يحكى شكل مثلث قاعدته وادى عامور ، فى الشمال ، ورأسه فى الجنوب عند مشرع متاتب Mitateb ، على الضفة اليمنى لنهر العطبرة ، على بعد ٣٠ كيلو متراً إلى الشمال من قوز رجب . والتضاريس هنا تشابه من وجوه عديدة تضاريس العتباى ، أى أن الانحدار بوجه عام من الشرق للغرب ، مع شذوذ يبدو فى وجود كتل صخرية عالية وسط السهول ، كما أن الأستاذ ساندرز يشير فى مقاله الآنف الذكر إلى وجود سلسلة متقطعة من الكثبان الرملية تمتد من الشمال الغربى جنوب وادى عامور بالقرب من جراغابا (حيث توجد بئر مشهورة) فى انحناء نحو الجنوب الشرقى ، مارة بأوباك Obak وأجرين Ogrein (حيث تخترق السكة الحديدية) ثم تستمر حتى تصل إلى يَسْتْياى وستجوانب إلى الغرب من سكة حديد كسلا . هذه الكثبان الرملية تختلف عن الكثبان الصحراوية ، فى أنها أكثر ثباتاً واندماجا ، وبعد المطر يغزر حولها العشب ، والرمال تساعد على حفظ المطر . وكثيراً ما تحدق الكثبان بمساحة من الأض تجعلها بمثابة حوض من أحواض الزراعة ، مثل حوض يستياى ، فتتيسر زراعته . ونظراً لأن هذا الإقليم أقرب إلى الجنوب كان مطره أغزر من العتباى بوجه عام .

(ء) الأقليم الرابع هو أقليم « النهر » . وإذا ذكر النهر بالنسبة إلى البجه عامة والبشاريين خاصة ، فهو نهر العطبرة . وإقليم النهر أصغر الأقاليم الأربعة مساحة ، وهو واقع كله على الضفة الغربية للنهر . فى صورة مثلث منفرج الزاوية قاعدته نهر العطبرة نفسه ما بين قوز رجب ، وبلدة جرسى على بعد نحو ٥٠ كيلو متراً من المصب ، ورأسه فى داخل البطانة عند آبار أم شديدة .

وعلى ضفتى النهر تتوافر الأشجار التى تعطى مرعًى متوسط الجودة ، كما أن على الشواطىء والجزر مجالا للزراعة إذا انتفع به البشاريون ، وعلى النهر بعض السواقى لرفع الماء ولكنها قليلة ، وعيدان الذرة المتخلفة من الزراعة تهيىء للماشية

مرعى جيداً . وتمتاز التضاريس بالسهولة التامة ، فيما عـدا بعض الـكثبان الموازية للشاطىء الجنوبى للنهر . وبعد الأمطار يتوافر المرعى فى هذه السهول . ومعظمها أعشاب جيدة ، وهنا لك أشجار من السنط قليـلة الارتفاع مبعثرة فى المساحة كلها . ويتخلل السهول بعض الأخوار ، التى تجرى فيها مياه المطر ، وهى ذات قيعان ضحلة واسعة ، وتصلح للزراعة بعد المطر ، وإذا جاد المطر أتت بمحصول وافر ، ويفضلها البشاريون على الزراعة النهرية .

هذا وصف إجمالى لمواطن البشاريين ، اتجهنا فى تقسيمه إلى هـذه الأقسام الأربعة تبعاً للطريقــة التى سار عليها ساندرز . لأن هذا التقسيم يمكننا من الأدلاء بصورة أكثر وضوحا لهذه الأوطان ، وإن كانت هذه الأقاليم متصـلة من الناحية البشرية ، ولا تمثل تقسيما للوحدات والأقسام القبيلية ، إلا على وجه التقريب ، والبشاريون المقيمون حول المطبرة بوجه خاص لهم طابع وتاريخ يميزهم نوعا ما عن أقاربهم فى الجهات الشمالية .

***

فى هذه الأوطان المترامية الأطراف يعيش البشاريون ، وهم ليسوا جميعاً متصلى النسب والقرابة ، بل دخلتهم بعض العناصر غير البشارية واندمجت فيهم ، ولا تزال آثار هذا الاندماج واضحة فى أسماء بعض الجماعات « الدخيلة » وذلك بسبب التوسع الحديث فى القرون الثلاثة الماضية . وفيما عدا هذه الجماعات التى اندمجت فى البشاريين ينقسم هؤلاء بوجه عام إلى قسمين : وهما : (١) بشاريو أم على (٢) وأم ناجى .

(ا) والبشاريون المنتسبون إلى أم على يشتملون على أربعة أقسام رئيسية ، وهى العلياب والعمراب ، وحمدوراب وشانطيراب . هؤلاء جميعاً فى السودان ، وهنالك بعض فروع منهن فى داخل حدود مصر . فللعلياب حلة بجوار أسوان ، وللحمدوراب أخرى بالقرب من دراو .

فالعلياب يحتلون أعالى نهر العلاق ومعظم المنحدرات التى تجرى منها روافده ، يليهم العمراب من جهة الجنوب فى مساحة أصغر وأضيق . أما الحمدوراب والشانطيراب فيحتلون المنحدرات الشرقية ، والسهول التى تليها على البحر الأحمر .

(ب) أما البشاريون المنتسبون إلى أم ناجى ، فيحتلون جميع أقاليم العطبره والتماراب ، والأجزاء الجنوبية والغربية من العتباى ؛ ويمكن تقسيمهم إلى شُعبتين : الشمالية فى العتباى والتماراب وتشتمل على الإيرايلب ويعيشون فى الجانب الغربى . والمنصوراب فى الشرق ، والنافعاب Nafaab ، والعديلوباب ، فيما بينهما ، وفيما يليهما من الجنوب .

أما فى الجنوب فيميش القسم الآخر ، بشاريو العطبره ، وهم حمداب ، وإبراهيماب ، وويلاليلب ، وبطران ، وجاراب ، ومشبولاب ، ومدا كر . . وهذه الثلاثة الأخيرة لا تعد بشارية بالمعنى الصحيح ، ولـكنها هى والعديلوياب من القبائل التى اندمجت فى البشاريين ، وكانت بقايا لمجموعات أكبر .

وهذا القسم الجنوبى يطلق عليه أحياناً قسم العطبرة ولـكنه يحتل إقليم العطبره والنصف الجنوبى من إقليم تماراب . وإن كان الأمرأر قد احتلوا جزءاً منه غرب مسمار ، وعلى شواطئ النهر أيضاً .

وهنالك جماعة من البشاريين : تسمى هنار ، نتجت من اندماج بعض البشاريين والأمرأر ، وتعيش منعزلة على شاطىء البحر حول دنجوناب والجبال التى تليها غرباً . . وهذه الجماعة تعد جزءاً من بشاريى أم ناجى ، وإن بعدت مواطنها عن الأوطان الرئيسية لهم .

صلات النسب

رأينا كيف يصف المقريزى البجه بأنهم جيل من البربر . غير أن البشاريين اليوم لا يقرون مثل هذا النسب ، بل لا يكاد يخطر لهم ببال . ونحن نعرف أن البجه — سواء سموا بهذا الاسم ، أو باسم آخر — كانوا يقطنون هذا الإقليم منذ عهد طويل . وهم سكانه الأصليون وأن اسمهم « البجا أو البجاه » بضم الباء قد عرفوا به فى العهد العربى ، ولـكنهم اليوم يسمون أنفسهم البجه (بكسر الباء) . وليس فى هذا وجه غرابة ، لأن حركة الضم كثيراً ما تتحول على مضى الزمن إلى الـكسر . غير أن البجه اليوم ، مع اعترافهم بأنه قد سبقهم فى ديارهم شعب يدعى

البُجا ، يرى بعضهم أنهم يختلفون عنهم اختلافا كليا . والحقيقة أن نقطة الخلاف الوحيدة هى أن البجه فى هذا العهد الأخير مسلمون ، يدعون الانتساب إلى أصل عربى . ولاشك أنهم قد دخلتهم دماء عربية فى العهد الإسلامى ولكنها قليلة نسبيا لم تحدث بهم أى أثر من الناحية الجسدية الطبيعية . ولكن المؤثرات العربية ظهرت فى وضوح فى المقتبسات اللغوية التى دخلت لغة تبداوى ، والدين الإسلامى الذى أصبح شائعا بينهم . كما أن الاتصال بالعرب قد أثر فى حالتهم النفسية ، التى جعلتهم يفتخرون أو يؤكدون نسبهم العربى على حداثته ، ويرجحونه على نسبهم البجاوى العريق القديم . وسنرى فيما يلى أن هذا النسب العربى له أساس من الواقع .

يزعم البشاريون أنهم من نسل كاهل ، وأن كاهلا هذا يرجع بنسبه الى الزبير ابن العوام . وكاهل هو أيضاً جد الكواهلة الذين يعيشون فى كردوفان ، ويرجعون بنسبه أيضاً الى الزبير بن العوام [١] . والبشاريون يقولون أيضاً إن أجدادهم كانوا يعيشون فى جبل علبه الواقع على بعد عشرة أميال الى الغرب من عيذاب . ولعيذاب تاريخ مشهور سبق لنا شرحه . وقد ذكر ابن بطوطه فى رحلاته إلى عيذاب (سنة ١٣٤٨) أنه صادف فى رحلة جماعات من البجه ، ومن بنى كاهل متجاورين ، وأن بنى كاهل كانوا « مختلطين بالبجاه عارفين بلسانهم » . والكواهلة فى كردوفان يتفقون مع البشاريين فى بعض التفاصيل الخاصة بكاهل جدهم . وأنه كان له ثلاثة عشر ولداً من الذكور ، وأن أحدهم يدعى بشار . وهنالك اتفاق أيضاً فى أسماء ثلاثة آخرين من أبناء كاهل . ومع بعد الشقة بين القبليتين البجاوية والعربية لا شك أن هذا الاتفاق له مغزاه .

والظاهر أن العناصر العربية قد تم توغلها فى بلاد البجه فى القرن العاشر الميلادى ، وكان أكثرها ينتمى إلى ربيعه (العرب الشماليين) ، وقوى الاتصال بين الفريقين ، وأصهر العرب إلى شيوخ البجه ، وكثيراً ما كان للبجه اتصال وثيق بالرؤساء والحكام فى عيذاب . وكان أهم قبائل البجه التى يتحدث عنها المؤرخون العرب فى ذلك الوقت هم المسمون الحدارب أو الحداربة ، وهم مسلمون .

---

(١) بعض البجه يرجع بكاهل إلى الوليد بن المغيرة .

أما اسم البشاريين فلم يكن له أى وجود فيما نعلم ، ولـكن نستطيع أن نتصور أن بعض الأمراء من العرب قد أصهر إلى بعض البجه ، ثم ورث الامارة و الرئاسة فيهم ، ومن الراجح أن أحد الذين أصهروا إلى البجه على هذه الصورة كان فعلا ينتمى إلى بنى كاهل وإلى أحد أبنائه المسمى بشار أو بشارة ومنه اشتق اسم البشاريين .

ومهما يكن من شىء ، فان بشارا ليس الآن سوى مجرد اسم ، وليس بين الأخبار والسير شىء آخر يدل على أعماله أو صفاته ، ومثل هذا يقال أيضا عن معاصريه وأقاربه . وأول اسم له بعض الذكر فى تاريخ البشاريين هو اسم كوكا . أحد أبنائه أو احفاده . وتقول بعض الروايات إن بشارا له ولدان وبنت . فالولدان هما كوكا وكلبان والبنت تسمى فاطمة ، ولم يكن لـكلبان أى أهمية فى تاريخ البشاريين وإن كان هنالك جماعة صغيرة تحمل اسمه إلى اليوم ليست بذات خطر .

أما كوكا نفسه فكان رجلا فقيها وقاضيا وتاجراً فى آن واحد ، وكان يقضى الصيف فى جوار جبل علبة والشتاء عند مصب العلاقى ، والرواية التى نحن بصددها ترجع به إلى القرن الحادى عشر . والظاهر أنه كان يشتغل بالنقل والتجارة ما بين عيذاب ونهر النيل ، ولما زادت شهرته اتسعت رحلاته فشملت جهات أخرى من بلاد البجه ، وكان له سبعة أبناء لم يترك أحدهم أى أثر خطير فى القبيلة ، ولـكن خلفهم إلى اليوم لا يزال يدعى باسم جِنّا كوكا . أما أخته فاطمه فكانت تصاحبه فى رحلاته فى الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كانت تشغله واجباته كقاض فتقوم فاطمة بأعمال التجارة والبيع والشراء . والظاهر أنها اختطفت فى بعض الروايات وذهب بها خاطفها ، أو ذهبت هى معه حسب رواية أخرى ، إلى الجهات الشمالية فولدت من هذا العشيق أو الخاطف ولداً اسمه عنقو Anakw تقول الروايات إنه قد شب فتى وسيما فاتح اللون قوى الجسم طويل القامة ، وعندما كبر عاد إلى بلاده فانتزع ملك وادى العلاقى من غاصبيه وبسط نفوذه عليه ، واتخذ له زوجتين من أسر البجه وهما أم على وأم ناجى . ثم تزوج فاطمة بنت هنار .

أما كوكا نفسه فقد قضى نحبه بعد عمر طويل ودفن بموضع يدعى كوكيلاى فى وادى إيكيدى ، بالقرب من آرياب ، الواقعة شمال مسمار بنحو خمسين كيلو متراً

واسم كوكا اسم غريب ، ليس له نظير الآن بين البجه ، ولعله اسم بجاوى قديم .

وهنالك رواية أخرى يرويها البشاريون لا تذكر شيئاً عن أبناء بشار ولكن تذكر أنه كان له حفيد يدعى حسب الله ، وكان له أربعة أبناء : كوكا ، ومدكور ، وشبال ، وصالح ، ويجعلون لكوكا المكان الأول ، بينما الآخرون ليس لهم شأن ، ومن كوكا جاء بطريق التناسل الشرعى العادى حفيده المسمى عنقو Anakw وهكذا تلتقى جميع الروايات عند عنقو هذا . وسواء أكانت قصة الاختطاف لها أصل ، ثم حولت إلى غير ذلك تبرأ من الوصمة ، فعلى كل حال نرى أن هنالك ثلاثة أسماء بارزة فى التاريخ القديم للبشاريين وهى بشار الجد الأول ، ثم كوكا الجد الثانى ، ثم عنقو الجد الثالث . وإلى هذا الأخير يرجع الفضل فى تأسيس القبيلة بأقسامها الثلاثة التى نعرفها اليوم : وهى أم على ، وأم ناجى ، وهنار . وقد يسمون أنفسهم أحياناً باسم Anakwiabab عنقو ياباب تميزاً لهم عن جنا كوكا !

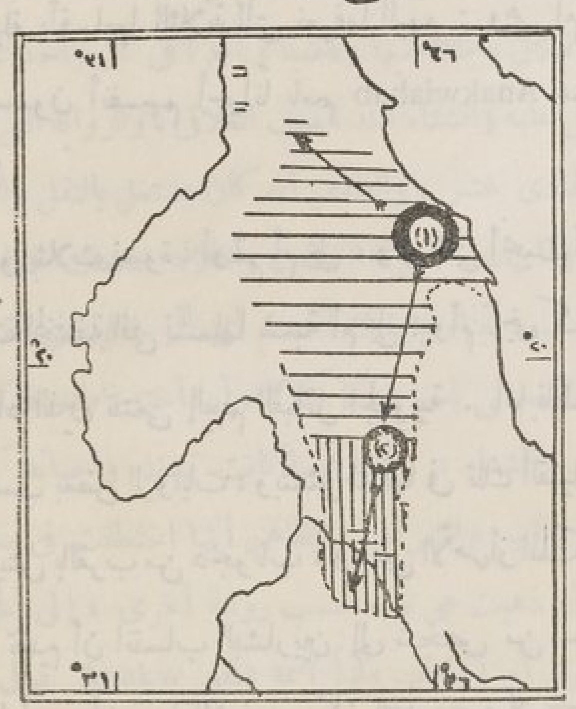
تزوج عنقو بثلاث نسوة ، أولهم أم على ، وهى التى أنجبت أبناء وأحفاداً سميت بأسمائهم الجماعات المختلفة التى تشملها شعبة أم على ؛ وأم ناجى كذلك هى التى أنجبت الأبناء والأحفاد الذين تنتمى إليهم القبائل الجنوبية . أما فاطمة بنت هنار فتنتمى إلى الأمرأر حسب بعض الروايات ، ويتمثل نسلها فى تلك القبيلة الضعيفة التى أشرنا إليها ، والتى تعيش بالقرب من دبجوناب ، ويدعى الأمرأر الملكية فى نصف نسبها .

ظاهر مما تقدم أن انتساب البشاريين إلى شخص من نسل كاهل ليس أمراً مستبعداً ، والراجح أن هذا الشخص كان اسمه — فعلا — بشاراً أو بشارة .. والراجح أيضاً أن الأشخاص الذين خلفوا بشاراً فى شجرة النسب كان منهم كوكا ومنهم عنقو ، وأن هذا الأخير هو الجد الذى تفرعت منه فروع البشاريين المختلفة . أما فيما عدا ذلك فلا نكاد نعرف من أمر هؤلاء الأجداد وظروف حياتهم وأعمالهم شيئاً .

المهاجرة والتوسع

تجمع الروايات المشتقة من مختلف المصادر على أن البشاريين جميعاً كانت نشأتهم إلى جوار جبل علبه ، وأن احتلال الأقطار الجنوبية وعلى الأخص إقليم العطبره لم يتم إلا بقوة السلاح فى العصور الحديثة ؛ والظاهر أن البشاريين يحكون فى نشأتهم وتطورهم جميع الظاهرات التى ننتظر أن نجدها فى الجماعات البادية ، وكيف يظهر بعضها على بعض ، ويندمج المغلوب فى الغالب ، ويعقد اللواء للقبيلة التى أمكنها أن تبسط نفوذها وتوسع سلطانها . وكل الشواهد تدل على أن تاريخ البشاريين ، عبارة عن أسرة نشأت فى جبل علبه منذ بضعة قرون ، ثم أخذت توسع

توسع البشاريين



شكل (٢)

يوضح انتشار البشاريين من وطنهم الأصلى فى جبل علبة الى الشمال والجنوب

سلطانها فى جميع الأنحاء وكان آخر مرحلة لهذا التوسع احتلالها لإقليم العطبره فى ظروف لا تزال تروى إلى اليوم ، لأنها لا ترجع لأكثر من أواخر القرن الثامن عشر (بين ١٧٦٠ و ١٧٨٠) .

وقصة التوسع نحو الجنوب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقصة قبيلتين من البجه ، هما كمالاب ومرْغماب . ويقال عن أصلهما روايات مختلفة . منها أنهما هاجرا من مصر فى القرن الرابع عشر ، ونزلا فى الإقليم الجنوبى من العتباى ثم انتقلا بالتدريج حتى وصلا إلى نهر العطبره واحتلا الجانب الغربى منه .

والظاهر أن كمالاب ومرغماب هما من القبائل البجاوية القديمة ، وكانا منفصلين تماماً عن البشاريين ، ولم تكن لهما بهم صلة . إلى أن اشتعلت حرب بين كمالاب ومرغماب من جهة ، وبين العرب المسّلمية من جهة أخرى ؛ فلما هزمت المسلمية استجارت بالبطاحين وهم من عرب البطانة ؛ فأصبحت الحرب بين المرغماب والكمالاب من جهة ، وبين البطاحين والمسلمية من جهة أخرى . وكان للمحاربين العرب الفوز فى معظم المعارك . فاستجار شيخ المرغماب بالبشاريين . ونزح نحو الشمال إلى جوار أرياب ؛ حيث ضرع إلى شيخ البشاريين أن يعينه هو وقبيله على البطاحين والمسلمية . . وكان شيخ البشاريين إذ ذاك : هو حمد بن عمران بن عيسى ابن أم ناجى . فلم يلبث حمد ود عمران أن حشد رجاله وانطلق نحو الجنوب ، واخترق العطبره إلى الضفة الغربية وهزم البطاحين . ثم ضم الإقليم الغربى من العطبره لغاية قوز رجب إلى الممتلكات البشارية وأنزل فيها جماعات الإبراهيماب والحمداب .

الظاهر أن بشاريى أم ناجى كانوا منذ زمن سابق لهذا الحادث يتطلعون إلى فرصة لكى يحتلوا الضفة الغربية ، فأتاح لهم هذه الفرصة النزاع بين المرغماب والبطاحين فانتهزوها . والظاهر أن المرغماب لم يسروا لهذه النتيجة ، لأنهم كانوا يظنون أن حمد عمران سيكتفى باحتلال الضفة الشرقية ، وحاولوا أن يثوروا على أتباع حمد ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، ورضوا هم والكمالاب بأن يكونوا جزءاً تابعاً للبشاريين أم ناجى فى إقليم العطبره .

هكذا اتسعت أوطان بشاريى أم ناجى فى أواخر القرن الثامن عشر حتى

شملت إقليما على الضفة اليسرى للعطبره . وهم يدعون أن هذه الأوطان كانت تمتد على ضفتى العطبره إلى نقطة « المقرن » أى حيث يلتقى بنهر النيل . وإذا صح هذا فمعناه أنهم فقدوا جزءاً من أراضيهم فى الطرف الغربى . أما من ناحية الجنوب ، فإنهم توسعوا توسعاً قليلا ، حتى وصلوا إلى الحدود التى يحتلونها اليوم .

وقد كانت السيادة أول الأمر لشعبة الحمداب ؛ وظلت كذلك إلى آخر القرن الثامن عشر ، ومنتصف التاسع عشر .

فى أوائل القرن التاسع عشر مرّ السائح بوركهارت بأوطان البشاريين من الشمال إلى الجنوب . ويقول إن البشاريين فى أقصى الشمال كانوا يعيشون هم والعبابدة فى شمال وجنوب حدود القطر المصرى ، يسود علاقاتهم الوئام والصفاء . ولكنه يروى أنه كانت هنالك عداوة مستحكمة بين البشاريين والحداربة . ومعلوم أن الحدارية هؤلاء لابد أن يكونوا بقية من الحدارب القدماء ، الذين جاء ذكرهم فى رواية المقريزى ، ومن الغريب أنهم لم يأت لهم ذكر فى أحاديث البشاريين عن آبائهم وأجدادهم . ولا بد أن الذين جاء ذكرهم فى كلام بوركهارت ما هم إلا البقية الباقية من هذه القبيلة البجاوية القديمة ، الذين لم يبق لهم اليوم فيما نعلم أى أثر اللهم إلا تسمية الرأس الواقع جنوب عيذاب باسمهم (رأس الحداربة)[1] .

ولا بد لنا أن نفترض أنهم كانوا يوما ما هم المهيمنون على كثير من الأقاليم التى يحتلها بشاريو أم على اليوم ، وعلى الأخص فى الجهات الساحلية ، وأنه قد دارت بينهم وبين البشاريين حروب طويلة ، دوختهم وأدالت من سلطانهم ، وأن البقية الباقية منهم قد اندمجت فى البشاريين اندماجا تاما . وهكذا طوت الأحداث ذكرى هؤلاء الحداربة ، الذين يكثر ذكرهم فى أوائل العهد الإسلامى ، والذين كانوا أكبر القبائل البجاوية التى اتصلت بالحكام العرب ، على حدود مصر وفى عيذاب ،

---

(١) يكثر المقريزى وغيره من ذكر الحداربة دون أن يذكروا أى علاقة بين هذا الاسم وبين الحضارمة ، ودون أن يشيروا إلى أن اسم الحداربة ما هو إلا تحريف للحضارمة (نسبة إلى حضرموت) ، ومع ذلك فإن بعض الكتاب الأوربيين (مثل هارولد ماكمايكل فى كتاب تاريخ العرب فى السودان) يذكر ذلك صراحة بالنسبة لبعض الجماعات التى تعيش بالقرب من سواكن ، ثم جمع — من غير مبرر ظاهر — بين حضارمة الجنوب وبين الحداربة الشماليين ، الذين أجمع كتاب العرب على أنهم من البجه . راجع الجزء الأول من ماكمايكل ص (٣٤٦)

وكانوا فيما يبدو أول جماعة بجاوية اعتنقت الإسلام ، ولعلها ساعدت كثيراً على نشر الدين الجديد بين طوائف أخرى من البجاه .

لا شك أن هؤلاء الحدارب قد احتملوا خسارة كبيرة ، حين تحولت التجارة والحج عن عيذاب إلى جهات أخرى ، مثل القصير فى الشمال وسواكن فى الجنوب . وصادفت هذه التطورات ، قيام البشاريين ، واشتداد شوكتهم بأن تولى زعامتهم سلسلة متتالية من المحاربين ذوى الكفاية والأطماع البعيدة . فأفضى تنازع البقاء إلى ذهاب الحدارب ، وظهور البشاريين عليهم .

ويحدثنا بوركهارت عن بشاريى العطبرة ، فيشهد بأن زعيم الحمداب كانت له السيادة العليا على الجميع ، وقبيلته أعظم قبائل أم ناجى . وأن الحرب كانت متصلة بين البشاريين والهدندوه ، والظاهر أنها كانت لمصلحة البشاريين ، لأن الحدود بين القبيلتين ، كانت فى زمن بوركهارت أبعد إلى الشمال بنحو ٢٥ كيلو متراً . كذلك كان بين البشاريين والشكرية عداء وحروب . ومع ذلك استطاعوا أن يثبتوا أمام هذين العدوين القويين وأن يوسعوا أراضيهم على حساب كل منهما . والظاهر أنه دارت بين الجعليين والبشاريين منازعات أيضاً ، أدت إلى انضواء بعض الجعليين تحت لوائهم . ولكن تراجع البشاريين فيما بعد عن نهر النيل ، يدل على أن الجعليين نجحوا فى إقصائهم وابعادهم عن أوطانهم .

ويقول بوركهارت أيضاً إن رؤساء البشاريين كانت لهم خيل ودروع يلبسونها فى القتال ، مما يشير إلى تقدم فى فنون الحرب لعله كان من أسباب غلبتهم على الطوائف الأخرى . كذلك تدل القرائن على أن البشاريين كانوا فى ذلك الوقت أكثر عدداً منهم اليوم . وقد اندمجت فيهم جماعات كثيرة ، واختلطت بهم جماعات من الجعليين ، وعلى الأخص القسم المسمى عبد الكريماب ، وقد حدث بين الفريقين تزاوج وامتزاج .

وظلت شوكة البشاريين قوية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وقد زارهم لينان دى بلفون فى حوالى عام ١٨٣٠ . ومن أهم ما يلفت النظر فى أقواله وقد زار زعيم الحمداب فى عاصمته بعلوك على العطبرة ، أن هذا الزعيم من قبيلة الحمداب ، لم

يكن معترفاً بسيادته على بشارين أم ناجى فحسب ، بل كانت أم على تدين له أيضاً . والأرجح أن هذا الخضوع كان اسميا ، لأن بعد الشقة يجعل من المستحيل أن يكون له سلطان قوى مفروض على الشعبة الشمالية . وان كان من الراجح أنه يكون له نفوذ كبير على بدنات أم على . كذلك يقول لينان إن البشاريين فى الجنوب كانوا خاضعين للحكومة ، ويؤدون الضرائب المفروضة عليهم .

والظاهر أنه بعد زيارة لينان بزمن قصير ، أى فى حوالى عام ١٨٤٠ انتقلت الزعامة من الحمداب إلى الابراهيماب جيرانهم . كأنما هدوء النزاع بينهم وبين القبائل الأخرى ، من الشكرية والجعليين والهدندوه قد دفعهم إلى إثارة نزاع جديد فيما بين القبيلتين الشقيقتين ، طبقاً للتقاليد البدوية المأثورة :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

ويبدو أن الحمداب قد صدرت عنهم مخالفات أحفظت رجال السلطة فى بربر والخرطوم ؛ ولذلك انحازت الشرطة إلى جانب الإبراهيماب . فتمت لهم الغلبة وأصبحت الرئاسة فيهم . ولا شك أن هذا أفضى إلى اضطراب الأمور فى بشاريى أم ناجى . فلم يبق بعد هذا الحادث ذلك التركز القوى للسلطة فى يد رئيس واحد . لأن زعيم الإبراهيماب لم يكن له ذلك النفوذ الواسع على جميع القبائل الشمالية ، بل أصبح نفوذه مقصوراً على البشاريين فى منطقة العطبرة ، ولم يكن له على الشماليين سوى نفوذ اسمى . وكان الشيخ الأول من الإبراهيماب يدعى محمد أبو عيسى .

وتدل قائمة الضرائب التى كانت تجبى من البشاريين فى ذلك الوقت ، على أن عددهم كان أكبر بكثير مما هم اليوم ، وثروتهم أعظم ، ونشاطهم الاقتصادى أوسع . ففى هذه القوائم أسماء تسعة أقسام بشارية لم يعدلها اليوم وجود . منها جماعة بنى قرب ، وكان ترتيبهم الثالث فى الثروة والجاه . والذى يزور إقليم العطبرة اليوم يرى أن هنا لك مواضع لسواق ونواعير قديمة لم يبق منها اليوم سوى ما يقرب من ٦٠ ساقية ، تعمل اليوم ، ولا بد أن كان فى ذلك الوقت أربعة أمثال هذا العدد .

والمعلومات التى تركها لنا لينان دى بلفون عن البشاريين الشماليين (أم على)

لا تزيدنا شيئاً كثيراً عما نعلمه اليوم . فالأقسام التى رآها لا تكاد تختلف إلا اختلافا يسيراً عما نعرفه الآن . وهو أيضاً يحدثنا أن العلاقات بين البشاريين والعبابدة كانت طيبة بوجه عام ، وأن أكثرهم ثراء هم قبائل حمدوراب وشنطيراب الذين يعيشون فى جبل علبه وعلى المنحدرات الشرقية ، فان طيب المرعى مكنهم من تربية سلالات ممتازة من الأبل ، كذلك كانوا يصيدون أنواعا من الوعل ibex ويبيعون الجلود بسهولة فى أسواق مصر والسودان . بل كثيراً ما كانوا يبيعونها للسفن التى ترسو على شواطئهم .

ولم تكن حياتهم بوجه عام تختلف كثيراً عما هى عليه اليوم ، سوى أنهم لم يكن لهم رؤساء ذوو نفوذ قوى يخضعون لسلطانهم . والنساء كن أكثر حرية . ولم يكنّ فى ذلك الوقت محتشمات فى زيهن كما هن اليوم . وقد دهش لينان لجمال النساء فى قبيلة بالجاب Baigab ، وقال إنهن أجمل نساء فى البشاريين جميعاً ولو أن العفة لم تكن متوفرة كتوفر الجمال ، ويقول الأستاذ ساندرز إن الوصف فى كلا الحالين لا يزال منطبقاً على هذه القبيلة إلى اليوم . ومن مظاهر الحياة عندهم فى ذلك الوقت — ولم يعدلها وجود اليوم — أنه كانت تزورهم من آن لآن جماعات من المبشرين من الحجاز ، تبصّرهم بأمر دينهم ، وتعلمهم تلاوة القرآن .

ويقول ساندرز عن بشاريى أم على إن الحكم المصرى كان رفيقاً بهم ، ولم يحاول قهرهم أو السيطرة التامة عليهم ، بل كان يكثر من مجاراتهم على أهوائهم ، ماداموا مسالمين بعيدين عن كل عدوان ، والضرائب المفروضة عليهم كانت خفيفة بل لم يكن هنالك تشدد كبير فى جمعها منهم .

وفى عهد المهدية كانت حالة البشاريين فى الشمال (أم على) ، تختلف اختلافاً كبيراً عن حالهم فى الجنوب (أم ناجى) . فالأولون كانوا بنجوة من سلطان المهدية من جهة ، حريصين على حريتهم واستقلالهم من جهة أخرى ، ولم تكن لهم زراعة تقيدهم بالأرض وتلزمهم البقاء فى قراهم . وعند ما اتسع نفوذ المهدية ، أرسلت بعثات عديدة لإخضاعهم ، فكانوا دائماً يتغلبون عليها ، وكثيراً ما سحقوها

عن آخرها . ولا شك أن بعد الشقة ووعورة المسالك مما ساعد البشارين (أم على) على النجاة من الوقوع تحت سلطان أتباع الخليفة .

أما بشاريو الجنوب (أم ناجى) ، فكانت حالهم مخالفة لهذا كل المخالفة . وظهور عثمان دجنة على رأس المهدية ، ومشايعته المهدية كانت من أهم العوامل فى التأثير فى البشارين ، وقد كان عثمان دجنة يعطف على الحمداب وشيوخهم ، ولذلك لم يلبث أن ناصرهم ، وقضى على زعامة الابراهيماب ، وأخضعهم لسلطان جماعة عبد الكريماب ، الذين كانت أراضيهم فى الجزء الأسفل من العطبرة ، واتخذ عثمان دجنة مركزاً حربياً فى أدراما ، وبذلك أخضع جميع البشارين فى الجنوب لسلطانه ، وجعلهم أحياناً يحاربون فى صفوفه ، وإن كان أكثرهم لم يفعل ذلك إلا مكرها .

وقد ترتب على ذلك كله أن ضعفت الصلات بين البشارين فى الشمال وفى الجنوب . وزاد هذه الظاهرة تأكيداً تقدم الأمرار وزحفهم نحو الغرب واحتلالهم إقليم مسمار .

وكانت حكومة السودان ترى أن من المفيد لها توحيد جميع القبيلة تحت رئاسة ناظر واحد : على الرغم من اتساع المساحة التى يحتلها البشاريون . وحاولت أن تجد رئيساً يقبله الجميع ، فقامت دون ذلك صعوبات عديدة . ويقول ساندرز إن رؤساء العشائر أنفسهم لم يكونوا متحمسين لذلك ، أو لم يريدوا أن يحتملوا تبعة اختيار رجل واحد يرضاه الجميع فى الشمال والجنوب . وبعد زمن طويل ، وتردد كثير ، رأت الحكومة أن تفرض عليهم ناظراً من الحمداب ، وهو أحمد كرار ، فعينته فى هذا المنصب فى سنة ١٩٢٨ ، وجعلت أخاه محمود كرار عمدة للبشارين ، فى إقليم العطبرة ، لكى يدع ذلك مجالا للناظر للعناية بشئون القبيلة كلها .

حالة القبيلة فى الوقت الحاضر

لا تزال حكومة السودان تعد البشارين قبيلة واحدة ، وذلك لتيسر على نفسها وسائل الاتصال بهم والتعرف عليهم . وهنالك بالطبع عناصر تشابه لا شك فيها . كالبداوة المنتشرة بدرجات متفاوتة ، واللسان التبداوى ، والاحتكام إلى الشريعة

على الطريقة التى يفهمها قضاتهم ، وإلى العرف الجارى بينهم ، وهم يحترمون كل رجل اشتهر بالتقوى والصلاح ويجلونه ويعظمونه ويخضعون لحكمه ، على الرغم مما يقال عنهم من قلة التدين . ولكن وجوه الشبه بين الأفراد والجماعات ، يقابلها بعض وجوه الاختلاف فى أساليب الحياة ، وفى درجة البداوة ، وغير ذلك من التفاصيل ، لأن البيئة الواسعة التى يعيشون فيها ، واختلاف مظاهرها الطبيعية ، قضت بفرض بعض الاختلافات المحلية فى أقسام القبيلة .

والبداوة عند البشاريين لها طابع خاص بهم ، وليست مشابهة للبداوة فى إقليم كردوفان أو فى سهل البطانة مثلا . لأن البداوة فى هذه الجهات الأخيرة تجرى تبعاً لسقوط المطر . فتتحرك القبيلة كلها نحو الشمال أو نحو الجنوب . تبعاً لموسم المطر . وفى ذلك الموسم ترى كلها وهى تتحرك فى اتجاه واحد . وطبيعة المناخ فى إقليم البشاريين أو فى معظمه تحول دون هذه الحركة الجماعية . ولذلك يكون انتقالهم جماعات صغيرة جداً ، لا تتجاوز خمس أو ست أسر ، لأن المراعى ليست واسعة حتى تتسع لأكثر من هذا العدد . وسقوط المطر — وعلى الأخص فى الجهات الشمالية — غير مطرد ولا منتظم ، وربما سقط فى مكان ولم يسقط فى مكان آخر . لذلك تنتقل كل جماعة صغيرة إلى المكان الذى يبلغها سقوط المطر فيه . وقد يجىء عام يغزر فيه المطر بصفة استثنائية . فى هذه الحالة ينتشر النبات ويكثر المرعى فى العتباى والتمراب . وفى مثل هذا العام قد تتحرك القبيلة كلها فى اتجاه مطرد . ولكن هذه الأحوال نادرة . وأكثر ما يحدث أن يسقط مقدار من المطر محلياً فى بعض الجهات فيؤمها عدد محدود من الناس بماشيتهم ..

والجهات الشمالية التى تتعرض لمطر غزير فى بعض الأعوام ، هى بوجه خاص الجهات الساحلية . وهنالك تتحرك جميع البدنات (من قسم أم على) نحو الساحل ولكن بشاريى أم ناجى لا ينتفعون بالإقليم الساحلى لأن إبلهم لم تتعود تلك المراعى الساحلية .

وبشاريو العطبرة ينزحون عن أوطانهم على شواطىء النهر فى الخريف ، عقب الأمطار ، بعضهم يذهب شمالا إلى منطقة الكثبان الرملية ، والآخر جنوبا إلى سهل البطانة وأخواره وأوديته .

ويصف لنا ساندرز فى مقاله المذكور حياة القبائل المختلفة وانتقالاتها ، وفيما يلى موجز لهذا الوصف :

العلياب والحمدوراب : كلاهما له شعبة تعيش فى القطر المصرى . فالعلياب لهم « مستعمرة » قد استقرت بالقرب من أسوان . وعددها يبلغ المائة . والآخرون لهم شعبة أصغر عدداً تعيش بالقرب من دراو . وكلا الفريقين له شعب تتصل بالعبابدة فى داخل حدود القطر المصرى ، وبينهم مصاهرة ، وعلى الأخص مع قبيلة « العشباب » التى ترابط فى الجزء الشمالى لوادى العلاقى .

وثروة العلياب تتركز بوجه خاص فى إبلهم ، ويربون أشهر سلالات الإبل البجاوية وأحسنها وهى المعروفة باسم كيلايواو "Kileiwow" . والعلياب أكثر البجه بداوة وانتقالا ، فيتحركون من الساحل إلى النهر ومن حدود مصر إلى العطبرة ، ولعل جودة إبلهم وسرعتها هى العامل المساعد على هذه الحركة الواسعة التى ليس لها نظير عند أية شعبة أخرى من شعب البجاه . ومما يؤكد بداوتهم أنهم لا يمارسون أية زراعة فى أى جزء من أقليمهم ، ويشترون حاجتهم من الحبوب من الأسواق المصرية أو السودانية .

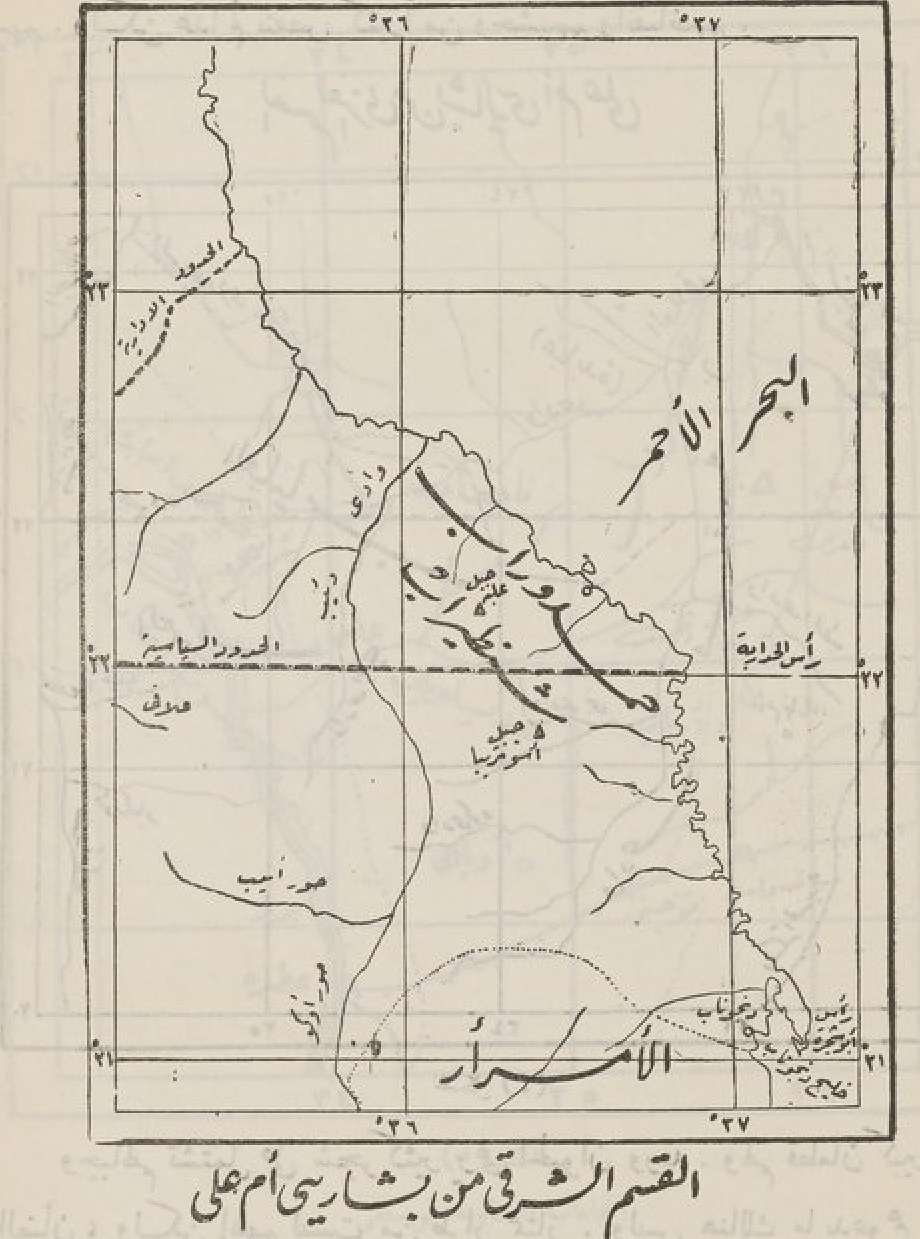
أما الحمدوراب ، فلهم زراعة قليلة جداً فى الجزء الأسفل من وادى دئيب ، ولهم أيضاً قطعان كبيرة من الإبل أشهرها نوع يسمى البناجر ؛ ويربون نوعا ممتازاً من الضأن الأبيض ، وأراضيهم أوفر مطراً وعشبا من أراضى العلياب ، وتشتمل على الأودية الخصبة التى تنحدر من جبل علبه نحو البحر الأحمر . وعلى الرغم من أنهم قد يصلون أحياناً فى رحلاتهم إلى نهر النيل والعطبرة ، فانهم أقل بداوة من العلياب . وانتقالاتهم الموسمية أضيق مدى ، وقد ساعدهم اتصالهم بمراسى السفن ومراكز الحكومة فى عيذاب وحلايب ، على توسيع تجارbهم ، فأصبحوا أكثر تفهما للحضارة واتصالا بها ، فالتحق كثير منهم بأقسام الحدود وقوات السواحل المصرية .

وأهم سلعة يبيعونها — وهذا ينطبق على العلياب أيضاً — هى الإبل والغنم . وأهم أسواقهم أسوان ودراو ، وربما استخدموا بور سودان أيضاً ، وقد يصنعون

ويبيعون بعض الفحم النباتى فى تلك الأسواق . وارتباطهم بوجه عام هو بالأسواق المصرية ، ولا يستخدمون أسواق السودان إلا قليلا .

والشنطيراب : يعيشون أيضاً على المنحدرات الشرقية ، ولـكن جبالهم أ كثر

شكل (٣)

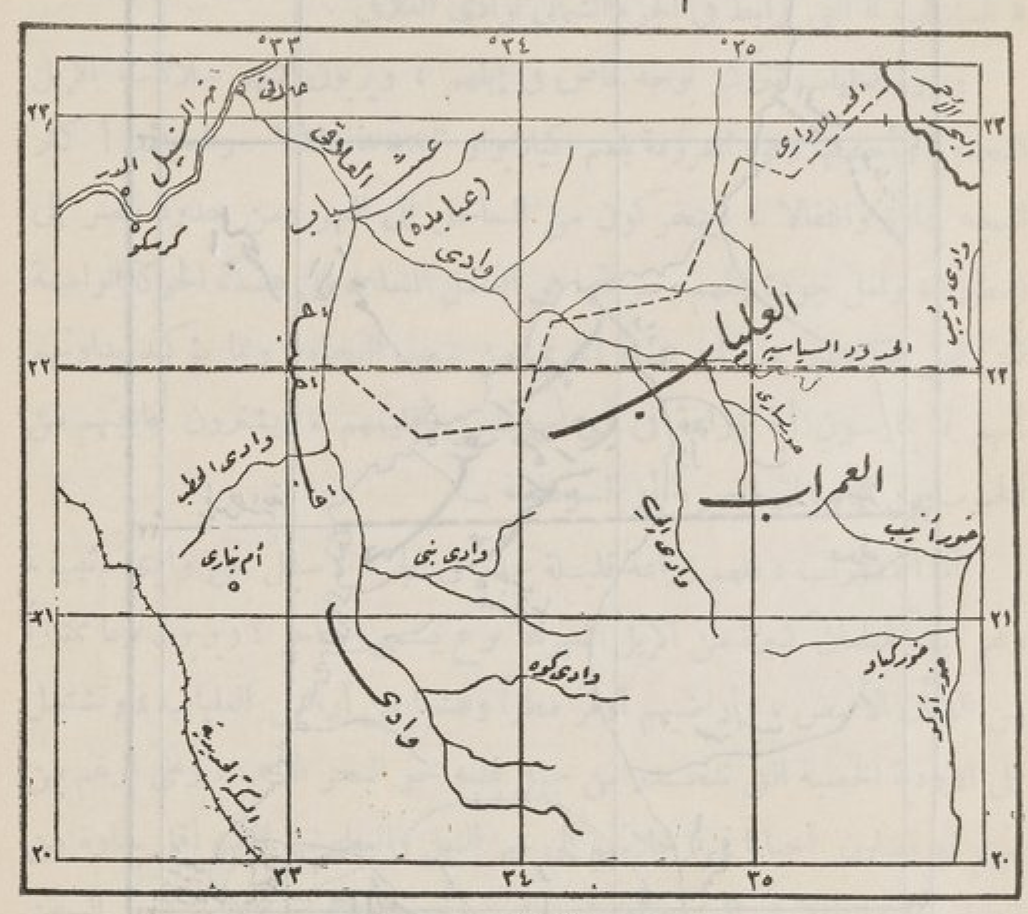


القسم الشرقى من بشاريين أم على

وعورة ، والسهل الساحلى أقل اتساعاً . ويسكنون أوطانهم هذه فى انقطاع شديد عن سائر القبائل ، وفى عزلة قل أن نجد لها نظيراً عند أية طائفة أخرى من البجه . وينفرون من الاختلاط ، ويتهربون من السلطان ، معتصمين بجبالهم . ويصفهم

ساندرز بأنهم أكثر البجه توحشاً ، وأقلهم ذكاء ، وهذا الحكم القاسى يمثل وجهة نظر الحاكم الذى يريد أن تصل يده إلى جميع السكان لأغراض الحكومة . والشنطيراب ظلوا زمناً طويلا بعيدين عن متناول الحكومة . وقد أنشىء فى سنة ١٩٢٥ مركز للإدارة فى نقطة سلالا ، بالقرب من أوطانهم فأمكن بذلك الاتصال بهم . ولكن هذا لم ينقص كثيراً من وحشيتهم وانقباضهم .

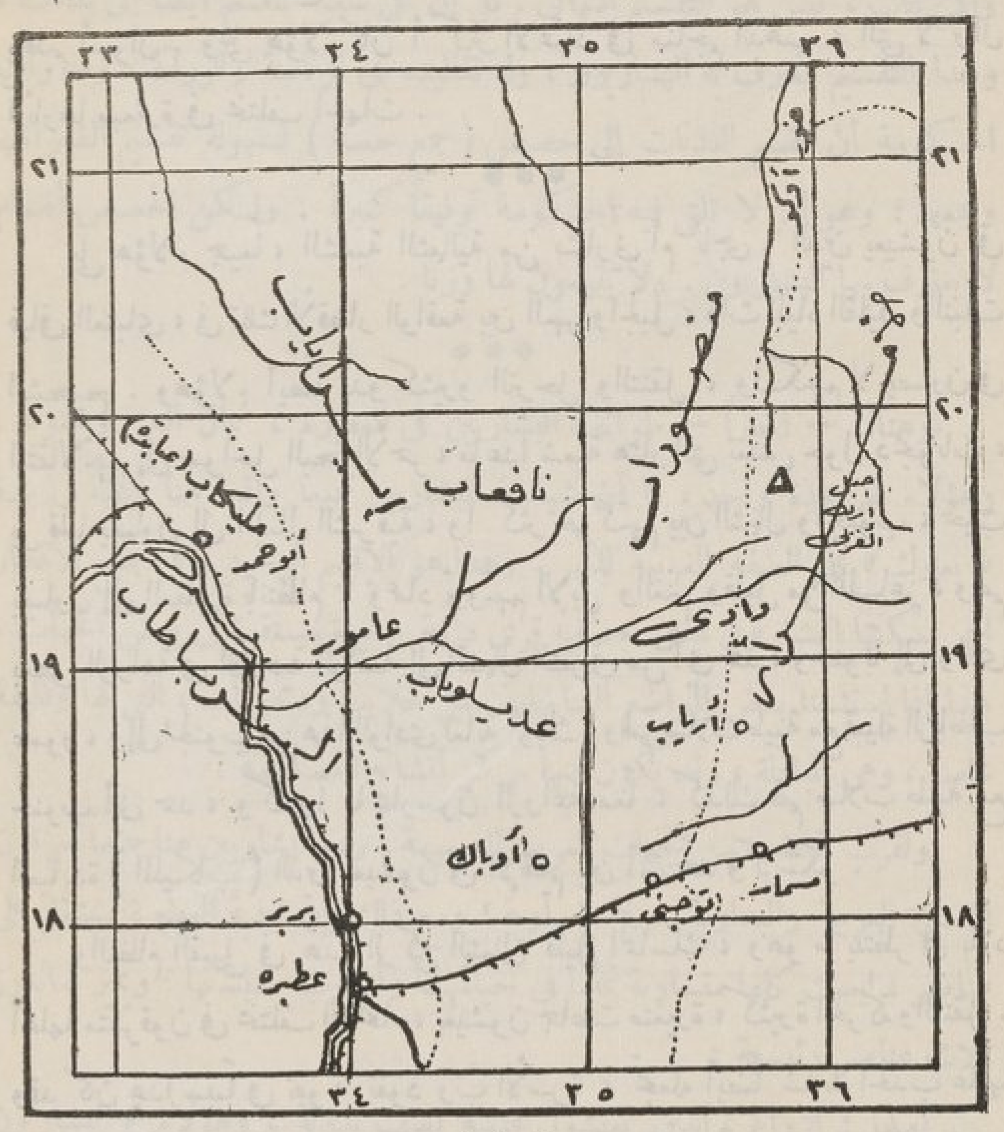
القسم الغربى من بشاريى أم على



شكل (٤)

وجبالهم تشتمل على شجر كثير يرعى الحيوان ورقه . ولهم قطعان كبيرة من الضأن ، ولكن إبلهم ليست من طراز ممتاز . وليس هنالك ما يدعوهم لتربية أصناف ممتازة ، لأن حركتهم وانتقالاتهم قليلة . وهم من أقل الطوائف البجاوية بداوة ، لشدة التزامهم لأوديتهم وجبالهم ، ولهم زراعة محدودة فى وادى دئيب ، الذى يختط أرضهم ، ولكنها على كل حال أكثر مما يمارسه الحمدوراب .

أما العمراب : وهم الشعبة الرابعة من البشاريين (أم على) فأقل الأربعة خطراً ، تعيش فى أوطانها الواقعة جنوب أوطان الشنطيراب والعلياب ، فى أرض قليلة الماء والزرع حول خور يدعى خور أُنيب ، وهو « رافد » من روافد وادى دئيب . وطبيعة بلادهم تدعوهم إلى الانتقال مسافات بعيدة أحياناً ، ولكنهم قلما



شكل (٥)

الجماعات البشارية الوسطى

يصلون إلى العطبره ، وقد يزورون أسواق بربر أحياناً ، ولكن معظم تجارتهم مع أسواق أسوان ، ويمارسون بعض الزراعة فى وادى دئيب ، وفى الجنوب فى وادى عامور ، حيث يجاورون بشاريى أم ناجى . ومما يمتاز به نشاطهم صناعة

الدباغة ، وإن كانت أقل جودة من إنتاج بعض الجماعات الأخرى . لأنهم لا يستخدمون ثمر السنط ، بل شجر السلم ؛ ومع ذلك لهم تجارة لا بأس بها فى الجلود المدبوغة يبيعونها فى أسواق أسوان .

وهكذا نرى أن جميع بشاريى أم على وجهتهم نحو الشمال ، واتصالهم الأكبر بإقليم أسوان . وعلى هؤلاء كان أكثر الاعتماد فى مناجم الذهب ، التى لا تزال آثارها مبعثرة فى مختلف الجهات .

***

يلى هؤلاء جميعاً ، الشعبة الشمالية من بشاريى أم ناجى ، الذين يعيشون فى فيافى العتباى ، فى تلك الأقطار الواقعة بين النهر والجبل ، ذات المياه القليلة والنبات الشحيح . وهؤلاء أيضاً بدو كثيرو الترحل والتنقل ، ولكنهم لا يصلون فى انتقالاتهم إلى سواحل البحر الأحمر ، ما عدا شعبة هنار التى تعيش حول دنجوناب ، بل قلما يصلون إلى الجبال الشرقية ، وأكثر حركتهم بين الشمال والجنوب ، حيث يصلون إلى العطبرة بانتظام . وعماد ثروتهم الإبل والغنم وقليل من الماعز ، ولهم بعض الزراعة فى الأودية الواقعة إلى الشمال الشرقى من أبى حمد ، وجنوباً إلى وادى عامور ، وإلى الجنوب من هذا الوادى لغاية أوباك ، ولهم صلات طيبة مع قبيلة الرباطاب جنوب أبى حمد ، وكثيراً ما يمارسون الزراعة معاً ، كذلك لهم صلات طيبة مع العبابدة (المليكاب) الذين يعيشون فى الإقليم بين أبى حمد وكرسكو .

والنظام القبيلى فى هذا الركن الشمالى قليل التماسك ، وهو ما ينتظر فى بلاد أهلها متفرقون فى مختلف الأنحاء ، يعيشون جماعات صغيرة ، كثيرة الحركة والتنقل . وقد كان هذا سبباً فى تقوية نفوذ رب الأسرة ، تجعله أيضاً شديد الحدب عليها والحرص على مصالحها . ومع أن لكل شعبة شيخها أو زعيمها ، المعترف به وبزعامته ، فإنه ليس له نفوذ مباشر بحيث يمكن الالتجاء إليه فى حل مشكلة ، أو الاحتكام إليه فى خصومة . وفى فض المنازعات يلجأون إلى مجلس رؤساء الأسر ، لا إلى رئيس الشعبة الذى قد يكون بعيد الدار وقتما يشجر النزاع . فمعظم الخصومات يقضى فيها أرباب الأسر المتخاصمة . فإذا لم يتفقوا على رأى ، التجأوا إلى شخص

آخر يثقون به ولو لم يكن من شيوخ شعبتهم أو من قبيلتهم . والوقت الوحيد الذى يلجأون فيه إلى زعيم الشعبة ، هو إذا جد الجد ودعا الداعى إلى جمع الجموع والتأهب للحرب .

وتقسيم البشاريين إلى شعب أو طوائف ، مثل العليساب ، والمنصوراب ، والإرايايب ، ليس هو التقسيم النهائى . بل إن كل شعبة تنقسم أيضاً إلى بدنات ، وهذا التقسيم يعترف به البشاريون ، وله تقاليده فى الرئاسة والوراثة ، وقد رأت الحكومة أن تقسم البدنات إلى حصص (جمع حصه) لسهولة تقسيم الضرائب وجمعها ؛ وهو أمر لا تلقى فيه الحكومة توفيقاً كبيراً . ولكن الحصص أقسام لا يعترف بها البشاريون . ولا يقيمون لها وزناً .

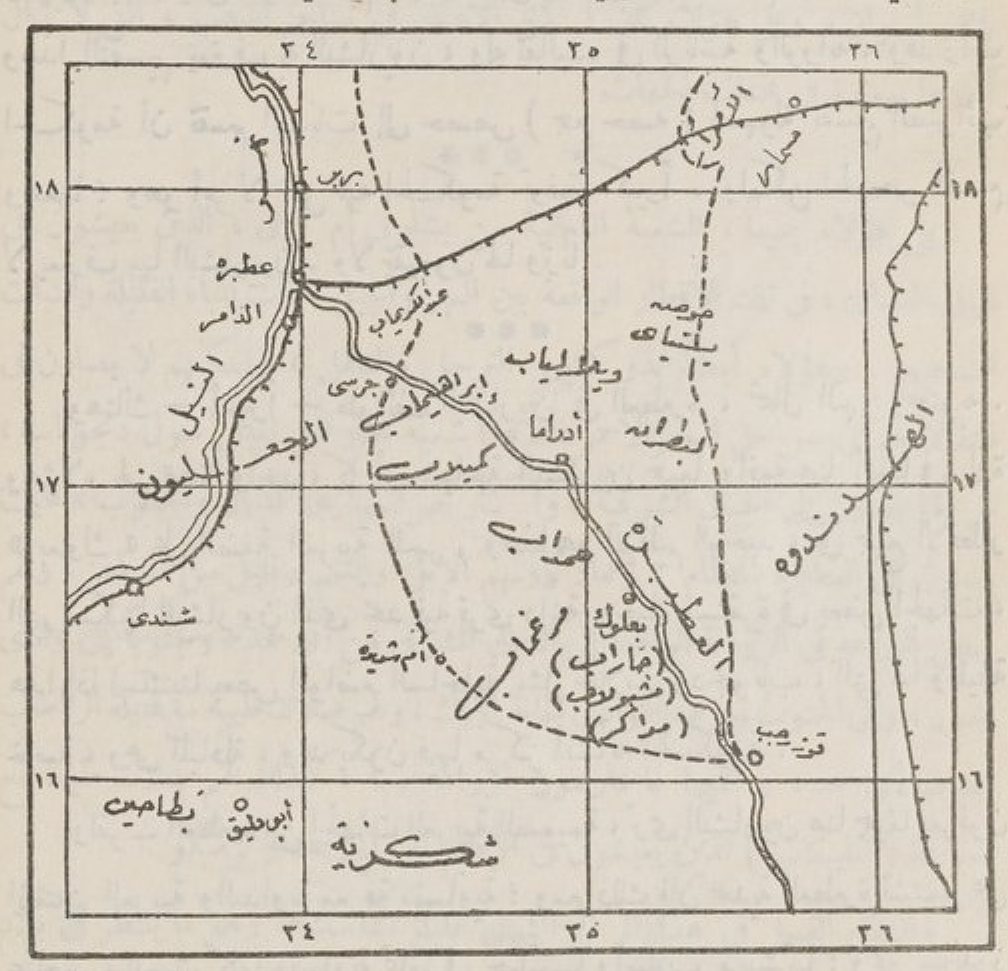
* * *

وهناك — أخيراً — طوائف البشاريين فى العطبره ، شمال النهر وجنوبه . وهؤلاء لهم عمدة واحد ، كما أن شياخة البشاريين جميعاً واقعة هنا أيضاً فى بلدة « بعلوك » على الضفة الغربية للنهر . وهذا هو الإقليم الوحيد ، فى جميع الأقطار التى يسكنها البشاريون الذى نجد فيه قرى دائمة وحياة مستقرة فى بعض الجهات ، هذا إذا استثنينا بعض المواضع الساحلية مثل حلايب ودنجوناب ، التى لها وظيفة خاصة ، وهى المبادلة ، وقد يكون فيها مركز أنشأته الحكومة .

ولقرب العطبره من الجهات العربية الصميمة ، نرى البشاريين هنا جميعاً يعرفون اللغتين العربية والبداوية معرفة متساوية ؛ ومع ذلك فإن عمدية العطبرة تشتمل على عناصر ، ليست كلها متساوية تماماً فى حياتها وأسلوب معيشتها ؛ ويميز ساندرز ثلاث عناصر رئيسية :

أولها : الزراع ، الذين يعيشون عيشة نصف بدوية ، وهؤلاء هم البشاريون الحقيقيون ومعهم بعض عناصر من البجه امتزجوا بهم مثل الكمالاب . وهؤلاء يزرعون الجزر فى النهر والأودية الواقعة شرقه وغربه والشواطئ التى تحف به . ولهم أيضاً إبل وبقر ، وغنم ، وقطعان الغنم بوجه خاص كثيرة ، أما الإبل والبقر فعددها قليل . وهؤلاء ينقسمون إلى شعبتين : سكان الجانب الغربى من الحمداب

والإبراهيماب ، ومن والاهم ، من الكمالاب وغيرهم ، وهؤلاء حركتهم ورحلاتهم نحو الجنوب ، أما سكان الجانب الشرقى ، فيتحركون نحو الشمال إلى منطقة الكثبان فى يستياى وما يليها شمالا . وقلما تذهب بهم هذه الرحلات إلى أبعد من ١٥٠ كيلومتراً ، وعادتهم أن يقيموا على النهر — الوطن الرئيسى — من أكتوبر إلى آخر فبراير . ويبتعدون عنه من يونيه إلى أكتوبر ، وفيما بين الفترتين ، يعيشون



شكل (٦)

البشاريون فى إقليم العطبرة

على بعد لا يزيد على الثلاثين كيلومتراً منه . ومعنى هذا أنهم يبتعدون عن النهر وقت فيضانه ، فإن الزراعة ليست متاحة حين يغطى الفيضان الجزر والجسور . وفى ذلك الموسم أيضاً تسقط الأمطار فليست هنا حاجة إلى التزام النهر .

العنصر الثانى : هم المرغماب ، وقسم كبير من الكمالاب ، وهؤلاء رعاة وأصحاب قطعان ، ولا يقيمون على النهر ولا يزرعونه . وزراعاتهم بوجه عام قليلة ، وأكثرها

مراكز فى أودية سهل البطانة . وعماد ثروتهم الإبل ، وقطعان أخرى من الضأن والماعز ، ومن أهم المواضع التى يستسقون منها آبار أم شديدة التى يدعى البشاريون ملكها ، وينازعهم فى ذلك قبائل أخرى .

العنصر الثالث والأخير : يشتمل على طوائف غير بشارية ، ولكنها تعيش مع البشاريين جنباً لجنب أكثرهم من الجعليين ، ويسكنون دائماً على النهر لا يغادرونه وحرفتهم الأساسية الزراعة ويبنون قرى من طراز ما يبنيه الجعليون . وهؤلاء زراع قبل كل شىء ، وليست لهم حركات انتقال أو هجرة . وعلى الرغم من أن لهم بعض القطعان ، كما يكون للزراع ، فان عمادهم الأساسى هو الزراعة . وهم مع ذلك يعيشون فى كنف البشاريين ، ويزرعون الأرض بإذن منهم ، ويدفعون لهم بعض الأجر نظير ذلك ؛ وقد أذن لهم البشاريون أيضاً أن يستغلوا شجر الدوم المنتشر على جوانب العطبرة ، وأن يجمعوه ويبيعوه . لأن البشارى قلما يرغب فى مثل هذا العمل . فهم يعيشون إذن تحت زعامة البشاريين . وبذلك تكون الشياخة البشارية تشتمل على نحو ثلاثة آلاف عربى .

***

هذا مجمل القول عن حياة البشاريين ، التى تمتاز اليوم بشىء كثير من الهدوء وفى المساحة الواسعة التى يحتلونها ليس من السهل أن تراقبهم الحكومة أو تتبع حياتهم فى الصغيرة والكبيرة . وعزلتهم فى جبالهم وفيافيهم تحبب إليهم الحرية وتبغض إليهم أى تدخل كثير فى شئونهم ، وهم ينفرون من دفع الضرائب . لأنه لا بد لهم من قطع مسافات طويلة لبيع حيوانهم ، ثم لا بد لهم من قطع مسافة أخرى إلى المركز الذى تدفع فيه تلك الضرائب . وفى العطبرة يمكن العثور عليهم بسهولة وقت نزولهم على النهر . أى فى موسم الجفاف . ولكن فى غير ذلك من الأوقات ليس من السهل العثور عليهم وتحصيل الضرائب منهم . ولا يكاد يظهر لهم شبح رجال الشرطة من بعيد ، حتى يختفوا عن الأنظار ومع ذلك فإنهم لا يضمرون عداء أو يقاومون رجال الحكومة أو يثيرون اضطرابا أو عصياناً ، وعلى كل حال ليست لديهم اليوم أسلحة نارية ، فلا يخشى أن يقوموا بعصيان مسلح جدى .

ويقول ساندرز إن أهم ما يميز أخلاق البشاريين التسامح والتسويف ، ولذلك نراهم يفصلون بسهولة فيما يشجر بينهم من خلاف أو نزاع ، ويحكّمون فى كل ذلك رؤساءهم وتقاليدهم الموروثة . وقد ازدادت الزراعة انتشاراً بينهم عما كانت عليه فيما مضى ، بسبب تذبذب الأسعار فى ثمن الإبل ، والماشية عامة .

وربما كانت خير وسيلة تتبع نحو البشاريين فى المستقبل ، هى أن تتخذ الحكومة بعض الوسائل لتوفير الماء ، وتحسين الآبار ، حتى يتحول عدد أكبر منهم إلى حياة الإقامة والاستقرار مع ممارسة الزراعة . وقد تهيأت الأسباب لمثل هذا التطور ، بسبب الحكم المنتظم ، والاختلاط بالسكان الآخرين من غير البشاريين والبجه ، ومن كثرة غشيانهم المدن واطلاعهم على وسائل وأساليب الحضارة والحياة المستقرة .

ويعد البشاريون جميعاً قبيلة واحدة ، ناظرها يعيش على العطبرة فى بعلوك ، ويزور الشعب الشمالية مرة فى كل عام فى شهر مارس ، حيث يجتمع بالعشائر الشمالية (أم على) ويفصل فيما بينها ، وهذا يجرى كله بالقرب من مرسى حلايب .

الفصل الخامس

الأمرأر

المجموعة الثانية من البجة، التى تلى البشاريين، إذا اتجهنا جنوباً وشرقاً، هى الأمرأر[1]، وهم اليوم أكثر عدداً وإن كانت أوطانهم أقل مساحة من البشاريين. وتوسع البشاريين نحو الجنوب جعلهم مجاورين لكل من الأمرأر والهدندوه ولكثير من القبائل العربية، ولولا ذلك لكانت مواطن البشاريين كلها أبعد إلى الشمال من مواطن الأمرأر. وقرب البشاريين من مصر، واحتلالهم للأقطار التى كانت معادن الذهب تستخرج منها، جعلهم أقرب إلى طرق الانتقال بين مصر والسودان، وأكثر اتصالا بالعالم الخارجى. ولذلك كانت أعمالهم وأخبارهم وأحوالهم معروفة للسائحين، الذين قلما صادفوا الأمرأر أو مكثوا بأرضهم زمناً طويلا. ولذلك لم تبرز أخبار الأمرأر ولم يتحدث عنها فى الأزمنة الماضية، كما برزت أخبار البشاريين. ونظرة عاجلة إلى أوطانهم المنعزلة، وبيئتهم التى يعيشون فيها كفيلة بأن توضح لنا السر فى ذلك.

القبيلة ومواطنها الحالية

اسم القبيلة — كما هو معروف الآن — مشتق من اسم جدها المزعوم أمر (والأرجح أنه محرف عن عمار أو عمرو) مضافاً إليه لفظ «أر» وهو فى اللغة التبداوية

(١) يراجع إلى جانب مقالة دائرة المعارف البريطانيه عن الأمرأر، مقالة فى مجلة National Geog. Magazine الأمريكية، لسنة ١٩٢٩، عنوانها Two Fighting Tribes of the Sudan، ومقالة ساندرز فى مدونات السودان لعام ١٩٣٥، وهى أهم ما كتب عن الأمرأر، وقد اعتمدنا عليها كثيراً فى هذا الفصل.

جمع كلمة « أر » : بمعنى ابن ؛ فالأمرأر إذن هم أبناء أمر [١] ، ويجيء ذكر الابن بعد ذكر الجد ، على الطريقة التى نجدها عند الإنجليز والاسكتلنديين ، فى جاكسون وجونسن . أو عند الصقالبة فى إيفانوف ، والأتراك فى لاظوغلى ، وكثير غيرها من اللغات التى تضاف فيها كلة الابن فى الآخر بدلا من وضعها فى الأول كما هى الحال فى اللغات السامية — والظاهر أن العادة الحامية فى إضافة المقطع إلى آخر الكلمة قد تسربت إلى العرب فى السودان ، بإضافة آب فى آخر الكلمة ، كما هى الحال فى العبدللاب والرباطاب ، (بنى عبد الله وبنى الرباط) ويبدو أن هنالك فرقاً بين آب وأر ، إذا أضيفت كل منهما لآخر الكلمة لأن آب تفيد معنى الأهل ، وأر معنى الأبناء ، ولكن الفرق طفيف .

ويطلق اسم الأمرأر فى الاصطلاح العام على القبيلة كلها ، وعلى أقسامها المختلفة . وهذا هو الاصطلاح الذى تواضع عليه الكتاب ، والذى يجرى به اللسان عند الكلام عليهم ، فى الأوساط العربية والمصالح الحكومية ، ولكن القبيلة نفسها ، بل وبعض جيرانهم من البجه ، يقصرون لفظ الأمرأر على شعبة واحدة من القبيلة ، وهى الشعبة المسماة الفضلاب . أما سائر القبيلة فيطلقون عليه اسم « عثمان » وسيجىء شرح ذلك فى الكلام على أقسام القبيلة . وإن كنا سنلتزم فى كلامنا الاصطلاح العام ، وهو اطلاق اسم الأمرأر على القبيلة كلها .

يحتل الأمرأر مساحة من الأرض تبلغ ٨٠٠٠ ميل مربع ، وهى ترتكز من الناحية الشرقية على البحر الأحمر ، ابتداء من خط العرض ٢١ فى الشمال إلى قرب بور سودان فى الجنوب . وليست بور سودان داخلة فى أوطانهم ، وإن كان فيها عدد غير قليل منهم ، والحد الغربى لبلادهم يمتد محاذياً لوادى دئيب ، ويحتلون الجزء الأعلى منه . وفى الطرف الغربى من بلادهم توسعوا جنوباً فى الأزمنة الحديثة حتى احتلوا الأراضى الواقعة غرب بلدة مسمار وجنوبها الغربى . ولكن هذا التوسع نحو الجنوب اتخذ صورة لسان ضيق ، يمتد من خط عرض ١٩° إلى ١٨° ، وفيما

(١) يبدو أن الاسم الأصلى للأمرأر هو أنهم أبناء عمار أو عمرو ؛ غير أن حرف العين لا وجود له فى لغة البجه ولذلك حور الاسم إلى صورته الحالية . ولا بد من استخدامها كما هى .

عدا ذلك نرى أن معظم أوطان الأمرأر واقعة شمال خط عرض ١٩ وجنوب خط عرض ٢١ : وهى أطول من الشمال إلى الجنوب ، وعرضها من الحدود الشرقية إلى الغربية يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ ميلا .

وعلى الرغم من أن مواطن الأمرأر لا تمتد على البحر الأحمر ، إلا إلى نقطة تبعد بنحو عشرة أميال شمال بور سودان ؛ فإن لهم اليوم مساحة محدودة على الساحل جنوب بور سودان ، تحتلها جماعة نوراب ، وهى بمثابة جزيرة من الأمرأر فى وسط أراضى الهدندوه ، فى منتصف المسافة بين بور سودان وسوا كن تقريباً ، وإن تكن أقرب إلى سوا كن . وفوق ذلك يحتل نوراب منطقة طوكر ودلتا خور بركه ، يجاورهم فيها جماعات أخرى من البجه ، وعلى الأخص بنى عامر .

والاقليم الذى يحتله الأمرأر يشابه الجزء الشرقى من أقاليم البشاريين ، أى أنه يشتمل على المرتفعات المجاورة للبحر الأحمر ، تختطه من الشمال للجنوب . وهى له بمثابة العمود الفقرى ؛ يجاورها من الشرق السهل الساحلى ، أو الجوينب ذى الأمطار الشتوية ، ومن الجانب الغربى المنحدرات التى تنخفض تدريجياً نحو الغرب ، وتسمى أولب . فهنالك إذاً ثلاثة أقاليم : السهول الساحلية ، والمنحدرات الشرقية والمنحدرات الغربية ذات الانحدار التدريجى . ويمتاز الإقليم كله بالوعورة الشديدة والأودية الضيقة التى تنحدر شرقاً وغرباً .

ويلاحظ أن توسع الأمرأر نحو الجنوب إلى منطقة السكة الحديدية غرب سمار ، قد ساعد عليه امتداد بعض المرتفعات الوعرة فى هذا الاتجاه . كأن الأمرأر قد ألفوا التزام المسالك الوعرة ، فلا يريدون الابتعاد كثيراً عن جبالهم ومرتفعاتهم .

ولكن إقليم الأمرأر يمتاز على نظيره فى الأوطان البشارية بأنه أقرب إلى الجنوب ، وحظه من المطر الصيفى أعظم من حظ الجهات الشمالية ، ومع أن وطن الأمرأر لا يدخل فيه إلا جزء يسير من العتباى والتمراب ، فإن هذا الجزء أيضاً أوفر مطراً من الجهات الواقعة فى أوطان البشاريين .

فالوطن الذى يحتله الأمرأر فى الوقت الحاضر يمتاز إذن بالوعورة فى جملته ، ولا تكتنفه السهولة إلا فى الأطراف الشرقية والغربية ، المتاخمة للبحر الأحمر من

جهة ، وللعتباى من ناحية أخرى ، والكتلة الوعرة أعظم اتساعاً فى الجنوب منها فى الشمال ، وفيها عدد من القمم العالية ، أشهرها — ولعله أعلاها جبل إربة ، الواقع إلى الغرب من محمد قل . ويقدر ارتفاعه بنحو ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر وهو القمة الشمالية فى سلسلة من القمم تمتد جنوبها إلى أن تحاذى السكة الحديدية إلى الشمال من تهاميم ، واتجاه السكة الحديدية هنا هو من الجنوب إلى الشمال ، والقمم واقعة غرب السكة الحديدية . وجبل إربة الشمالى هو أعلى هذه القمم كلها . وبعضها لا يزيد على ألف متر فى الارتفاع ، وهنالك جبلان آخران باسم إربة أحدهما إلى الشمال من سنكات ، وغرب المحطة المسماة باسمه ؛ وهنالك جبل آخر منفرد اسمه إربة[1] فى أعالى وادى دئيب ، وهو على خط عرض بور سودان (١٩,٤٠) وهو منعزل عن سائر الجبال السابق ذكرها .

ويوشك ألا يكون فى بلاد الأمرأر فرجة وسط الجبال ينفذ منها نهر يخترق الكتلة المرتفعة من الشرق إلى الغرب ليصب فى البحر الأحمر على نحو ما رأيناه فى وادى دئيب ، فإن ارتفاع الكتلة متصل تقريباً من الشمال إلى الجنوب ، إلى ما بعد بلاد الأمرأر ، حتى تبلغ الانفراج الأكبر الذى يقع فيه مجرى خور بركة ، أما الأودية الكثيرة التى تكتنف هذه المرتفعات ، فتنحدر طائفة منها شرقا إلى البحر الأحمر ومن أشهر هذه الأودية وأطولها وادى أربعات ، وبعضها ينحدر غرباً إلى رافد وادى دئيب المسمى بوادى أوكو ، أو إلى وادى عامور ، ومن السهل تتبع خط تقسيم المياه فى معظم الأحوال، ولو أن تخطيط هذه الأودية على الخرائط التى فى متناولنا ليس دقيقاً الدقة المطلوبة ، بل هو فى معظم الأحوال بعيد عن الدقة كل البعد .

ونظام المطر فى هذه الجهات كلها ، هو ما نتوقعه : أمطار أغلبها شتوى على الساحل والمنحدرات الشرقية ، وأخرى أغلبها صيفى فى المنحدرات الغربية . والمطر الصيفى أغزر .

---

(١) الراجح أن لفظ إربة وعلبة المتقاربين فى النطق وفى المدلول مشتقان من أصل واحد ومعنى واحد فى لغة البجه ، وكذلك نجد لفظ إربة مضافا إلى لفظ آخر نسبة لبعض الجبال مثل Akareirirba الواقع فى الغرب من النقطة التى تنحنى عندها السكة الحديدية نحو الشرق إلى بور سودان .

وليست هنالك محطات ساحلية فى قلب أوطان الأمرأر ، ولـكن دنجوناب واقعة على حافتها الشمالية ، وبور سودان على حافتها الجنوبية ، وأرقام هاتين المحطتين تظهر لنا التدرج فى توزيع المطار من الشمال إلى الجنوب ، وهى بالمليمتر .

	يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	الجملة
دنجوناب	١	٢	٠	٠	٢	٠	٠	٠	٠	٩	١٢	١١	٣٧
بورسودان	٧	٤	١	١	١	٠	٦	٤	٠	١٤	٤٥	٢٦	١٠٩

فالأمطار الساحلية جلها شتوى ، وفى الجهات الجنوبية ينفذ قليل من المطر الصيفى إلى الساحل ، وهو لايتجاوز عشر ما يتساقط من المطر كله . ومن الجائز أن المنحدرات العالية نوعاً يصيبها مطر أكثر ، إذا كان موقعها ملائماً . أما المطر على المنحدرات الغربية ، فمطرها صيفى دائماً ، ولا يكاد يصيبها من المطر الشتوى شىء ، ولا نستطيع أن نوازن بين الجهات الشمالية منها والجنوبية ، لأن المحطات كلها واقعة فى الجنوب ، ويمثلها سنكات (ومقدار المطر السنوى فيها ١٢٤ ملليمتر وجبيت ، ومقدار مطرها السنوى ١١٩ ملليمتر . والذروة فى كلا الحالين واقعة فى شهر أغسطس .

وارتفاع هذه الأقطار وانخفاض الحرارة فيها تبعاً لذلك من جهة ، والرطوبة الناشئة عن مجاورة البحر من جهة أخرى ، كانت سبباً فى نقص البخر نقصاً محسوساً ، و إلى انتشار الرطوبة فى الهواء ، مما كان له أثر فى غزارة الحياة النباتية فى المرتفعات ، حيث نجد أنواعاً مختلفة من الحشائش والشجر ؛ أما المنحدرات والسواحل الشرقية ، فتنبت فيها أنواع من شجر السنط والابخ ، والحشائش المرة ، التى تمتاز بها الجهات الساحلية على البحر الأحمر . والمنحدرات الغربية يقل نبتها وشجرها ، كلما اتجهنا غرباً ويتخللها شجر السنط .

والزراعة ليست سهلة فى هـذه المنحدرات الوعرة ، ولـكنها تكثر نوعاً فى الأخوار والأودية الغربية ، وبوجه خاص فى وادى أوكو Oko ، المتجه من الجنوب إلى الشمال وهو أهم رافد لوادى دئيب ؛ والأودية التى تأتيه من الشرق وتصب فيه مثل وادى هايت ، الذى ينبع غرب بور سودان بنحو ٤٠ كيلو متراً .

والجزء الأسفل من هذه الأودية هو وحده الصالح للزراعة ، ومقالة ساندرز عن الأمرأر تفيد أن الزراعة على المنحدرات الشرقية قليلة جداً ، أو هى فى حكم المعدومة ، اللهم إلا فى دلتا وادى أربعات .

أقسام القبيلة وفروعها

سبقت الإشارة إلى أن الأمرأر أنفسهم ، بل وكثير من البجه يقصرون اسم الأمرأر على شعبة واحدة من القبيلة ، وهؤلاء هم الأمرأر القح Amar'ar Proper أما الشعبة الأخرى التى تسمى العثمان ، فإنهم يمتون أيضاً بالنسب إلى أمرأر ولكن عن طريق المصاهرة .

والشعبة الأولى تضم البدنات التى يطلق عليها إجمالا اسم فضلاب ، وهى تحتل ثلاث مواطن منفصلة .

١ — الموطن الأول وهو الأكبر ويمتد من منطقة السكة الحديدية حول محطة سلوم ، ويشمل الجزء الأوسط من مجرى وادى أربعات ، والجزء الأعلى من وادى عامور ، وهو كبير الامتداد من الشرق إلى الغرب ، محدود من الشمال للجنوب ، وبعض البدنات فى هذا الإقليم يطلق عليها اسم محمداب .

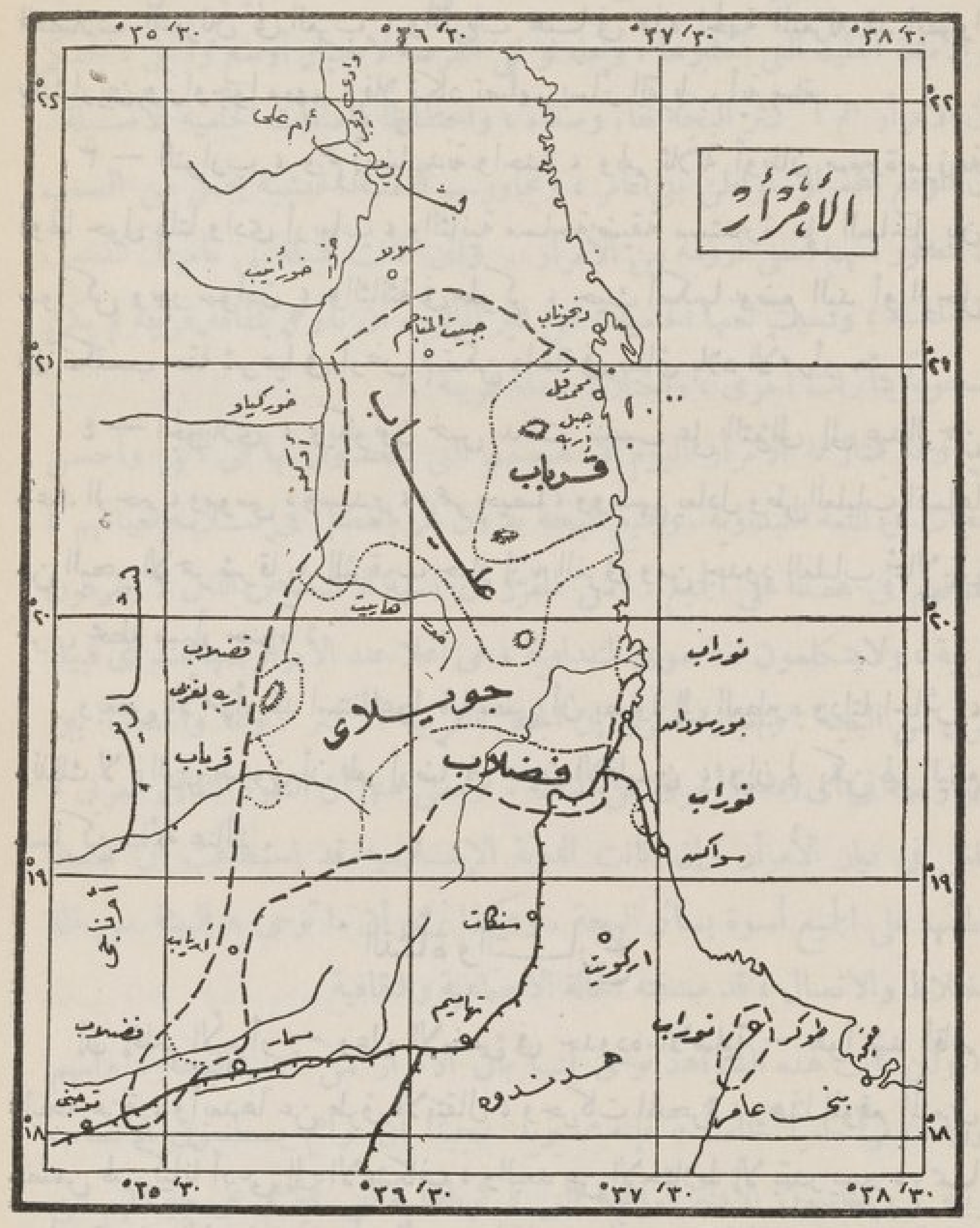
٢ — الموطن الثانى مساحة محدودة حول جبل إربه الغربى ، منفصل تماماً عن الإقليم الأول .

٣ — الموطن الثالث ، مساحة محدودة أيضاً ، فى إقليم الخط الحديدى غرب مسمار وحوالى محطة توجنى Tojny ، وهذا أيضاً إقليم منفصل ، وهو آخر امتداد للفضلاب نحو الجنوب ، ويطلق على جماعة الفضلاب فى الإقليمين الأخيرين اسم عشباب وواضح من هذا التوزيع أن الوطن الثانى والثالث ، منفصل عن الوطن الأول بواسطة مساحة عظيمة يحتلها جماعات جويلاى ، وهذا مما يحمل على الظن بأن أوطان الفضلاب كانت متصلة ، حتى فصل بينهما امتداد هذه الجماعات نحو الجنوب ، واحتلالها أقطاراً كانت فيما مضى ملكا للفضلاب .

***

أما الشعبة الثانية ، المسماة عثمان فتحتل الشطر الأكبر من مواطن الامرأر، وتنقسم هذه الشعبة إلى أربعة أقسام رئيسية وهى :

١ — العَلْياب : وتشتمل على خمس بدنات ، تحتل مساحة كبيرة فى



شكل (٧)
أقسام الأمرأر (عن ساندرز وغيره)

الشمال الغربى من أوطان الأمرأر ، ولهم مساحة ضيقة تمتد شرقاً حتى البحر الأحمر .

٢ — القرباب ، وهم يمثلون بدنة واحدة ، ويحتلون مساحة مربعة فى الشمال

الشرق من مواطن القبيلة ، ويحيط بهم البشاريون من الشمال ، والعلياب من الغرب والجنوب .

ولهم فوق ذلك مساحة صغيرة منقطعة جنوب جبل إربه الغربى ، أى جنوب الفضلاب المنعزلين فى الغرب ، والقرباب هنا فى هذه الجهة المنعزلة قد اتصلوا بالبشاريين وتزاوجوا معهم ، فلا تكاد تصلهم بسائر القرباب أية صلة .

٣ — النوارب ، وهم أيضاً بدنة واحدة ، ولهم ثلاثة أوطان صغيرة موزعة أولها حول دلتا وادى أربعات ، والثانية مساحة ضيقة مستديرة على الساحل بين سواكن وبور سوادن ، والثالثة فى طوكر ، حيث أمكنها بوضع اليد أو الرجل أن تكتسب حقاً شرعياً فى أرض لم تكن داخلة فى نطاق بلاد الأمرأر .

٤ — الجويلاى ، ويكونون خمس بدنات تنتسب على التوالى إلى عبدالرحمن وعبد الرحيم ، وموسى ، وسندير ، وعمر حيصا ، ووطنهم يعادل وطن العلياب اتساعاً من البحر الأحمر شرقاً ، إلى قرب جبل إربه الغربى ومن حدود العلياب شمالا إلى غربى محطة مسمار جنوباً .

وبعض الأمرأر قد استطاعوا فيما مضى أن يصلوا إلى المطبره ودلتا الجاش ، ولذلك لا يزالون يدعون أن لهم أرضاً فى هذين الإقليمين ، وإن لم يكن لهم اليوم مساكن دائمة هناك .

النشأة والتاريخ

إن إقليم الأمرأر — وعلى الأخص فى حدوده الأصلية — هوأشد أقاليم البجه عزلة ، وأبعدها عن طرق الانتقال ، وحركات الهجرة ، وهذا الموقع المنعزل يضمن لهم كياناً أدعى إلى الاعتكاف ، والبعد عن الإختلاط إلا بقدر يسير ، ومما يساعدهم على الامتناع على أعدائهم ، واتقاء عدوانهم . وإذا سلمنا بأن البجه سكنوا أوطانهم هذه منذ زمن مديد ، فلا شك أن الأمرأر قد ضمن لهم موقعهم الجغرافى حياة متصلة مستمرة فى مدى آلاف من السنين ، ومكنهم — إذا شاءوا ذلك — أن يحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم أكثر من أى قسم آخر من البجه . وقد

وضع سلجمان ، فى مقالة عن المشكلة الحامية فى السودان ، الأمرأر فى المكان الثانى بعد بنى عامر ، من حيث نقاؤهم وبعدهم عن الاختلاط بعناصر غريبة بخلاف الهدندوه والبشاريين ، واعتمد فى حكمه هذا على الصفات الطبيعية التى لاحظها فى الأمثلة القليلة التى اختبرها ، ولعله لو لقى الفرصة لاختبار أوسع وأشمل ، لحكم بأن الأمرأر هم أكثر البجه نقاء وصفاء ، واحتفاظاً بالصفات الحامية الأصيلة . فإن الموقع الجغرافى لمواطن بنى عامر ، ومجاورتهم للهضبة الحبشية يجعل من الصعب أن نتصور أنهم أصفى أرومة من الأمرأر . ولئن كانت قبيلة بنى عامر اكتسبت لغة الخاسة ، ونسيت لغتها الحامية ، فمن غير المألوف أن تأثرهم بثقافة غريبة لم يكن مصحوباً بتأثرات أخرى ، واختلاط بدماء غريبة .

ومما يمتاز به الأمرأر اليوم أن لهجتهم التى يتحدثون بها هى أنقى وأحسن اللهجات فى اللغة التبداوية . وجميع البجة يقرون لهم بالفضل فى سلامة لسانهم ، وتفوقهم فى هذا على الجميع . ومن المقرر أن نسبة الأشخاص الذين لا يعرفون العربية ، ولايتكلمون لغة سوى التبداوية ، هى أعلا عند الأمرأر منها عند أى قبيلة أخرى من البجة . وبعبارة أخرى إن الجهل بالعربية أكثر ذيوعاً وانتشاراً بين الأمرأر منه فى أى جماعة أخرى من البجة . ومعنى هذا أن النفوذ الثقافى العربى لم يتغلغل فى ديار الأمرأر وإن كانت الديانة الإسلامية قد استطاعت أن تبسط سلطانها على الجميع أسوة بسائر البجة . وهكذا نرى أن ما توحى به البيئة من قلة الاختلاط والاتصال ، قد صدقته الحالة الاجتماعية والثقافية .

ولئن كانت هذه الشواهد توحى لنا بأن الأمرأر من صميم البجة ، وأنهم يمثلون عنصراً حامياً خالصاً ، فإنه مما يزيد عجبنا أن نراهم يصطنعون الأنساب العربية ، ويتنافسون الأدلة الواضحة التى ذكرناها والتى تميزهم على جيرانهم من العرب ، ولهم بالطبع فى ذلك عذر ، كما أن البشاريين لهم عذر فى انتسابهم للكواهلة كما رأينا من قبل ، لأن النسب العربى مهما كان متأخراً فى زمنه ، وضيقاً فى حدوده ، فإن الإسلام قد رفع من شأن هذه النسبة ، وأكسبها لوناً براقاً لم يلبث أن طغى على المجد القديم ، والنسب الحامى العريق . ولعل البجة

لو ذكروا أنهم من أقدم وأعرق القبائل فى السودان ، لأدركوا أن فى ذلك من أسباب الفخر ما يجعل للخئولة الحامية مقاما ، قد لا يقل خطراً عن العمومة العربيـة .

والأمرأر قد لايقلون فى عراقتهم عن البشاريين ، غير أن معلوماتنا عنهم أقل . وهم مثل البشاريين ينتسبون إلى الـكواهلة ، وأن جدهم أمركان أحد أبنـاء أو أحفاد كاهل ، وكان أخاً شقيقاً أو أخاً من الأب فقط لبشار جد البشاريين . ذلك ما يزعمه الأمرأر ، والبشاريون أنفسهم يسلمون ببعض هـذه القرابة ، ولـكنهم ينكرون أن أمر كان أخاً لبشار ، بل إنه أحد أبناء العمومة البعداء ، وأنه عاش بعد بشار بأجيال عديدة ... وليس بمعروف عن أمر هذا أية أنباء أخرى .

ولـكن الشواهد تدل على أنه كان زعيما ذا خطر ، وأنه كان أخاً شقيقاً لمرغُم « جد المرغماب » وأخا من الأب لـكمال وكُميل جد الـكمالاب والـكميلاب . ولم يحدثنا الرواة بشيء عن والد هؤلاء الأبطال الأربعة ، ولعله كان رجلا خطيراً ، وربما كان فحلا من قبيلة عربية ، وأنه أمكنه بالمصاهرة أن يؤسس هـذه القبائل الهامة بين البجة .

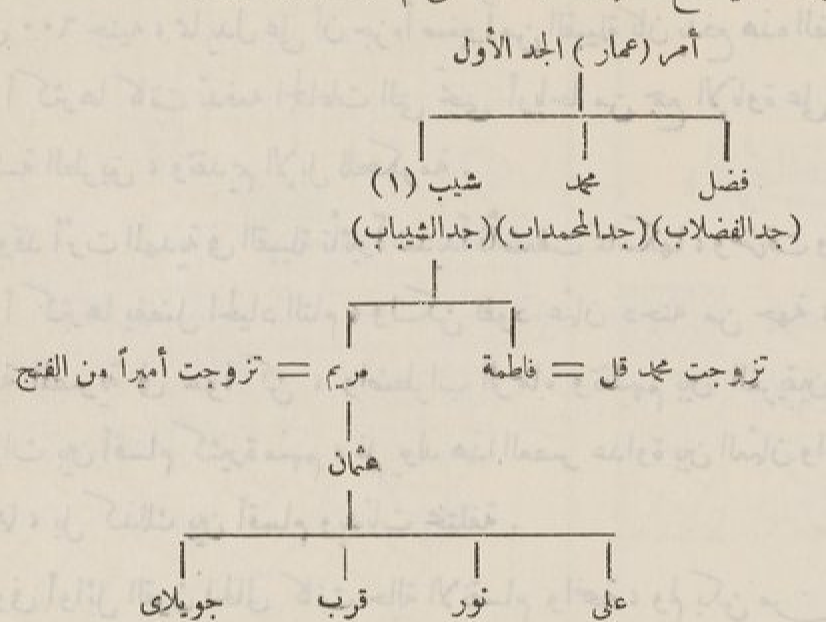
وصفوة القول ، أن كل ما نستطيع أن نستنتجه من هذه الروايات أنها تأييد للقصة المشهورة التى لا شك فى صحتها بأن الـكواهلة قد نزلوا على شواطئ البحر الأحمر ، واتصلوا بالبجة ، وكانت بينهم مصاهرة . وأن نتيجة هذه المصاهرات ليست مقصورة على البشاريين بل تناولت الأمرأر أيضاً . أما أن الأمرأر قد اخترعوا هذه النسبة تقليداً للبشاريين كما يشير ساندرز فى مقاله فأمر مستبعد .

وتتفق الروايات على أن أمر أنجب خمسة من الذكور منهم فضل ومحمد وشيب ، الذين تنتسب إليهم الجماعات التى تحمل أسماءهم والتى سبقت الإشارة إليها . وأن إحدى حفيداته تزوجت من رجل يدعى محمد قل ، الذى يسمى باسمه المرفأ الواقع شمال بور سودان بنحو مائة ميل ، وكان مقره الأصلى سواكن . وأن حفيدته الأخرى مريم تزوجت رجلا من عظماء الفنج فى سواكن ، فأنجبت منه ولداً ، سمى عثمان . وأن عثمان هذا تزوج امرأة من الأمرأر ، وأنجب منها أربعة أولاد : على ،

ونور، وقرب، وجويلاى، الأجداد الأربعة للفروع الأربعة التى تنتمى إلى عثمان.

وكان جويلاى أصغر أبناء عثمان سناً، وأكثرهم حيلة وأقواهم مراساً، فالرواة يزعمون أنه تزوج خمساً من النساء، لم تكن منهم واحدة من الأمرار، بل كلهن من البشاريين أو الارتيقا أو الهدندوه أو بنى عامر، ولا شك أن هذه الرواية ترسم لنا الصورة التى تم بها للأمرار عامة، وللجويلاى بوجه خاص، التوسع على حساب القبائل الأخرى عن طريق الزواج والمصاهرة، وإذا كانت مصاهرات جويلاى المختلطة جاءت عن عمد وخطة مرسومة، ولم تكن نتيجة الصدفة المحضة، فإن هذا مما يؤكد حسن سياسته وبعد نظره.

وهكذا نستطيع تبسيطاً لهذه الروايات الكثيرة أن نرسم شجرة النسب للأمرار على الصورة الآتية مع استبعاد الأسماء التى لم تترك أثراً هاماً:



وهكذا نرى كيف تفسر لنا الروايات انقسام الأمرار، إلى الفضلاب وإخوتهم وإلى العثمان وفروعهم الأربعة، وأعظمها بلا شك الجويلاى. والظاهر أن عثمان كان يعيش حوالى ١٦٠٠ — ١٦٥٠؛ وقد أمكن لشعبة عثمان، بفضل حسن سياستها ودهاء قادتها أن تصبح لها الزعامة على جميع قبيلة الأمرار، بما فى ذلك

(١) أنجب شيب المذكور أبناء لا خطر لهم، وابنتين فاطمة ومريم والثانية هى أم عثمان.

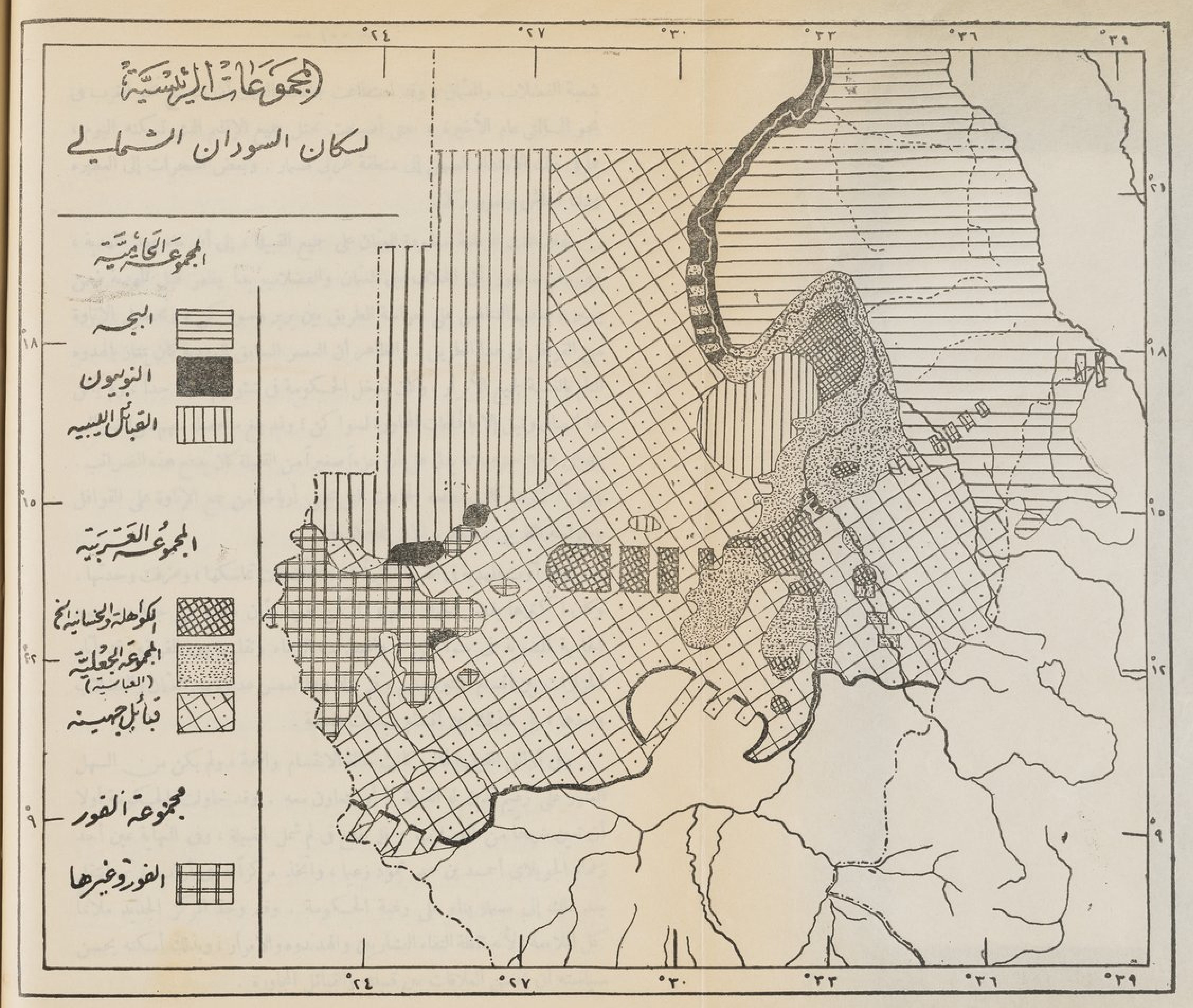
شعبة الفضلاب والعمان ، وقد استطاعت جماعات العمان أن تتوسع نحو الغرب فى نحو المائتى عام الأخيرة ، حتى أصبحت تحتل جميع الإقليم الذى تسكنه اليوم ، بما فى ذلك الامتداد الضيق إلى منطقة غربى مسمار . وبعض الهجرات إلى العطبره ودلتا الجاش وخور بركة .

وقد ظلت الزعامة معقودة للعمان على جميع القبيلة ، إلى أن جاء عهد المهدية ، وفى زعم ساندرز أن الخلاف بين العمان والفضلاب بدأ يظهر قبل المهدية بزمن يسير ، بسبب التنافس على حراسة الطريق بين بربر وسواكن ، وتحصيل الإتاوة من القوافل فى هذا الطريق . والظاهر أن العصر السابق للمهدية كان يمتاز بالهدوء التام بالنسبة لجميع الأمرأر ، وكان تدخل الحكومة فى شئونهم قليلا جداً ، ولم يكن لها اتصال وثيق إلا بالجماعات المجاورة لسواكن ؛ وقد بلغ ماتحصله منهم من الضرائب حوالى ٦٠٠ جنيه ، مما يدل على أن جزءاً صغيراً من القبيلة كان يدفع هذه الضرائب . ولعل أكثرها كانت تدفعه الجماعات التى تجنى أرباحا من جمع الإتاوة على القوافل وحراسة الطريق ، وتقديم الإبل للحكومة .

وقد أثرت المهدية فى القبيلة تأثيراً شديداً فأضعفت تماسكها ، ومزقت وحدتها . وكان أكثرها يفضل الحياد التام ، ولكن نفوذ عثمان دجنه من جهة ، ووجود الحامية المصرية فى سواكن ، واضطراب الزعماء وتقلبهم بين الفريقين قد أثار الحزازات بين أقسام كثيرة منهم ، فلم يولد هذا العصر عداوة بين العمان والفضلاب وحدهما ، بل كذلك بين أقسام وبدنات مختلفة .

وفى أوائل القرن الحالى كانت حالة الانقسام واضحة ، ولم يكن من السهل العثور على زعيم تدين له القبيلة ، أو تتعاون معه . وقد حاولت الحكومة أولا أن تعين شيخاً من الفضلاب ، فلم يفلح فى لم شمل القبيلة ، وفى النهاية عين أحد زعماء الجويلاى أحمد بن حمد محمود زعيما ، واتخذ مركزاً له فى أرياب ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مسمار بناء على رغبة الحكومة . وقد وجد المركز الجديد ملائماً كل الملاءمة ، لأنه نقطة التقاء البشاريين والهدندوه والأمرأر ، وبذلك أمكنه بحسن سياسته أن يحسن العلاقات بين قبيلته والقبائل المجاورة .

(ص ٩١)


المجموعات الرئيسية
لسكان السودان الشمالي
المجموعة الحامية
البجه
النوبيون
القبائل الليبية
المجموعة العربية
الكواهلة والحسانية الخ
المجموعة الجعلية
(العباسية)
قبائل جهينة
مجموعة الفور
الفور وغيرها

(شكل ١٤)

الحالة العامة للقبيلة فى الوقت الحاضر

نلخص فيما يلى الصفات العامة للأمرأر كما وصفهم الأستاذ ساندرز مع بعض التعديل :

لايختلف الأمرأر فى مظهرهم العام عن سائر البجه ، وصفاتهم الجسدية هى السائدة بين نظرائهم من الحاميين ، وإن كانوا يعدون أصفى جوهراً من غيرهم ، ولذلك يمتازون بمظهر أكثر ملاحة ورشاقة من الباقين . وزواجهم الكثير ومصاهراتهم لجيرانهم من البجة ، وأحياناً غير البجة لم يؤثر فى سحنتهم وصورهم ، لأن مثل هذه المصاهرات محدودة ومقصورة على الزعماء . ولغتهم كما سبق أن ذكرنا ، هى أنقى اللهجات وأقلها اقتباساً من العربية ولهجتهم معتبرة فى نظر جميع البجة أحسن اللهجات التبداوية ، وهم أبرع فى الحرب وأشدجرأة من سائر البجة ، ولذلك يتحامون جانبهم قدر الطاقة . وهم برغم دماثة طباعهم شديدو الإحساس بكرامتهم ، سريعو الغضب إذا توهموا أقل إهانة ، حتى ولو لم تكن مقصودة . ومعيشتهم فى بيئتهم ، والتزامهم هذه البيئة عودهم الصبر على الجوع والعطش وطول احتمال المكاره . وصحة أبدانهم جعلتهم مع ذلك أقدر من غيرهم على الاضطلاع بالأعمال الشاقة الجسدية مثل حرفة الحمالين وغيرها من الحرف التى تلزم لها الطاقة الجسدية العظيمة .

وغذاؤهم المألوف هو اللبن والذرة ، وقليل من اللحم . ولا يأكلون السمك ، اللهم إلا عدد قليل من القرى يشتغل أهلها بالصيد ، ويكتفون بالسمك عن اللحم . وقد ألفوا عيشة الجبال واعتادوها . ونساؤهم يتمتعن بقسط وافر من الحرية ؛ ويقول ساندرز أيضاً إنهن عادة يستخدمن هذه الحرية استخداماً تاماً .

ويقدر عددهم كما ذكرنا من قبل بنحو ٥٠٠٠٠ ، منهم نحو ٤٠,٠٠٠ من العمان ، و١٠,٠٠٠ من الفضلاب . وأكثر هؤلاء يعيشون فى الجهات الجبلية السابق وصفها . ولكن منهم نحو ٥٠٠٠ من النوراب يعيشون فى طوكر ، كما أن هنالك عدداً منهم فى بور سودان يبلغ أيضاً نحو ٢٠٠٠ ، معظمهم لا يقيم

بصفة دائمة فيها ، بل يعود إلى بلده ويجئ غيره فيحل محله . ومنهم أيضاً نحو ٣٠٠٠ قد استوطنوا إقليم العطبره ، ولا شك أن القبيلة قدازداد عددها ازدياداً كبيراً فى المائة عام الماضية . فقد كان البشاريون منذ مائة عام أكثر منهم عدداً وأوفر ثروة وقوة وأعظم خطراً . واليوم قد أصبحوا ثلاثة أمثال البشاريين فى العدد ولا يقلون عنهم فى الأهمية . ومع أن البشاريين قد نقص عددهم فى الزمن الأخير ، غير أن هذا السبب وحده لا يكفى لتعليل هذا الفرق الكبير بين القبيلتين . بل السبب على الأرجح هو أن الأمرأر زاد عددهم بتوسعهم نحو الغرب واندماج وحدات أخرى فيهم ، وحبهم للمصاهرة خارج القبيلة ، وهو ما يسمى فى علم الأجناس بالاغتراب .

وهجراتهم وانتقالاتهم الموسمية محدودة . وفى المنحدرات الشرقية لا تتجاوز ٢٠ أو ٣٠ ميلا . وينزلون إلى السهل الساحلى فى شهر نوفمبر وديسمبر ، حين يبدأ ظهور الحشائش عقب الأمطار الشتوية ثم يعودون إلى سفوح الجبال فى مارس ، وإلى المرتفعات فى ابريل ومايو ، حيث يمكن تغذية الماشية من براعم الطلح والسنط . أما فى المنحدرات الغربية ، فلا بد من النزوح إلى السهول الغربية فى الصيف ، لتغذية الإبل بالأعشاب والحشائش بعد مطر الصيف ، ويظلون فى هذه الجهات إلى شهر نوفمبر ، ثم يعودون إلى السفوح والمنحدرات ، حيث الآبار أوفر ماء منها فى فيافى العتباى . ويمكثون فى السفح إلى شهر مارس أو ابريل ثم يصعدون إلى المرتفعات بعد ذلك لتغذية ماشيتهم من براعم الطلح والسنط فأشهر إبريل ومايو ويونيه ويوليه ، هى الأشهر التى يتفق فيها الجميع فى سكنى المرتفعات .

والهجرات فى الجهات الغربية أطول وأوسع مدى ، وقد تصل بالأمرأر أحياناً إلى الجنوب حتى العطبره . وقد تبلغ هذه الرحلات ٦٠ أو ٧٠ ميلا ، أو ثلاثة أمثال الهجرات الشرقية ، وقلما نجد بين الأمرأر جماعة تجمع فى رحلاتها بين المراعى الساحلية فى الشرق ، ومراعى العتباى فى الغرب ، لأن الإبل فى الجهات الغربية لا تستسيغ الأعشاب الساحلية ، ذات الطعم المملح ، وإنما تستسيغها الإبل التى اعتادتها .

وهنا لك فرق واضح فى الحياة الاجتماعية بين سكان الشرق والغرب ، وهو فرق

قضت به البيئة . ذلك أن البدنات فى الجهات الشرقية تعيش متقاربة طول السنة وفى مختلف المواسم . فإذا أنجدوا أو أتهموا كان صعودهم ونزولهم فى مواسم متقاربة وكانت صلاتهم دائماً متقاربة ، ولذلك كانت وحدة البدنة أو الشعبة محافظا عليها ، والزعيم له اتصال دائم ببدنته طول السنة .

أما الجهات الغربية ، فإن التوسع فى مدى الرحلات ، والانتشار فى السهول الغربية مسافات بعيدة ، وتوزع الرعاة بين الآبار القريبة والبعيدة ، وانقطاع بعض الأسر للزراعة فى جهات قد تكون خارج حدود القبيلة ، كل هذه الأعمال جعلت من الصعب على شيخ الشعبة أو البدنة أن يكون دائم الاتصال بشعبته ، ولذلك قويت سلطة زعيم الأسرة .

ومن أخص ما امتاز به الأمرأر أن الجماعة منهم قد تتحول عن موطنها ، وتنزل موطناً جديداً بين أقوام غرباء ، ومع أنهم يثورون إذا اعتدى غريب على أرضهم ، فإنهم لا يجدون بأساً فى النزوح عن أرضهم والنزول فى أرض غريبة . وهذه من غير شك هى النزعة — أى نزعة التوغل السلمى فى الجهات المختلفة — التى مكنتهم بمضى الزمن من التوسع واحتلال الاقطار الكثيرة التى يعيشون فيها اليوم . ولا يعرف عن الأمرأر أى فتح أو غزو منظم كالذى قام به البشاريون . ولكنهم بوسائلهم السلمية والدبلوماسية قد تمكنوا من توسيع رقعتهم على حساب جيرانهم ، وهكذا نراهم قد نزلوا طوكر وخور الجاش والعطبره ، وجاوروا الهدندوة والبشاريين وبنى عامر ، من غير مشقة — ولم يلبثوا أن ادعوا الحق فى الجهات التى يحتلونها — ومنهم فى الأزمنة الحديثة من هاجر إلى القضارف وبربر بل وأسوان أيضاً[1] .

وعادة الأمرأر إذا نزلوا فى أرض غريبة ، وهم عادة قليلو العدد جداً ، بحيث لا يتأذى من وجودهم أصحاب الأرض ، أن يبادروا بمصاهرة جيرانهم الجدد . وبذلك يكون لهم حق التمتع بالماء والمرعى ، ولكنهم متى كثر عددهم وأصبحوا يعادلون السكان الأصليين فى الثروة والعدد ، أخذوا يطالبون بحقوق لم تكن لهم ، وبذلك تنشأ الحزازات والخلافات التى لايزال كثير منها قائماً إلى يومنا هذا .

(١) هذه النزعة إلى التوسع سنراها أيضاً فى صورة أعظم عند الهدندوه .

ويرى مستر ساندرز أن العامل الاقتصادى له الشأن الأكبر فى هذه الهجرات لأن البيئة الجبلية التى استوطنها الأمرأر هى بوجه عام فقيرة المرعى . ولا تلبث القطعان إذا كثر عددها أن تتطلب مراعى جديدة ، وهذا يضطر الأمرأر إلى الارتحال والبحث عن وطن جديد .

وقد أصبح للأمرأر بعد توسعهم بيئات عديدة ، يختلف بعضها عن بعض نوعا ما . وهذا الاختلاف له أثره فى حياة كل شعبة ، فالقرباب مثلا سكان جبال ، وبين مراعيهم فى الساحل وفى المرتفعات مسافة قصيرة ، وشيوخهم لهم نفوذ كبير فيهم . وأكبر ثروتهم قطعان الماعز وهى من نوع جيد كبير الحجم وهم أيضاً يربون أحسن أنواع الإبل الجبلية ، وهى سلالة صغيرة الحجم نوعاًما ، خفيفة ، بطيئة ، ولكنها تستطيع أن تسلك أوعر المسالك الجبلية وأشدها انحداراً ، وتتسلق الثنايا الوعرة وحمولتها على ظهرها . وليس فى بلادهم أرض تصلح للزراعة ، وهم يحصلون على حاجتهم من الحبوب بالعمل فى ميناء بور سودان ، وبيع الألبان ومنتجاتها هناك . ومنهم جماعة نزلت فى محمد قل ، وتعلمت صيد اللؤلؤ .

أما النوراب ، فهم فى حالة انتقال سريع من الرعى إلى الزراعة والاستقرار ؛ وهذا نراه بوجه خاص فى مواطنهم فى دلتا وادى أربعات ، وفى طوكر والجاش ، وهم الوحيدون بين الأمرأر الذين يربون البقر بمقادير محسوسة ، وقد بدأوا صلاتهم فى الجهات التى نزلوها ببيع ألبانهم إلى الزراع . وهم الآن يمونون طوكر باللبن ، وفى الوقت نفسه أخذوا أيضاً يشتغلون بالزراعة .

ويرى ساندرز أن العلياب هم أكثر الجماعات البجاوية توحشاً ، وليس لهم نظام يجمعهم ، وسواء فى أوطانهم الشمالية أو فى الجهات التى نزلوها بالعطبرة ، فإن علاقتهم مع أنفسهم ومع جيرانهم لا تبعث على الارتياح . وعماد ثروتهم الضأن ، ويربون منها أنواعاً طيبة فى المراعى الجيدة الواقعة شرق جبل ديرورباه Deirurba وفى بلادهم منجم الذهب فى جبيت[١] ، وقد أمكن استخدامهم فى التعدين ، وبعد أن كانوا ينفرون نفوراً شديداً من العمل تحت الأرض ،

(١) جبيت المناجم واقعة إلى الشمال بخلاف بلدة جبيت المشهورة ، الواقعة فى بلاد الهدندوه .

أصبح كثير منهم يرتزق من هذا المورد ، وكذلك يجنون ربحاً طيباً من بيع اللبن واللحوم والسمن للمشتغلين بالتعدين فى جبيت .

والجويلاى هم أكثر جماعات الأمرأر نشاطاً وأوسعهم حيلة ، وهم بوجه خاص الذين قادوا حركة التوسع نحو الغرب ، ونشطوا فى الميدان الزراعى نشاطاً ملحوظاً ، ومع ذلك يربون قطعاناً صالحة من الإبل ، وهم يعملون فى الزراعة إلى جانب الهدندوه والبشاريين فى العطبره ، وفى إقليم مسمار . وهم أبرع الأمرأر فى معاشرة جيرانهم بحيث قلما يشجر خلاف بينهم وبين الهدندوه أو البشاريين .

وصفوة القول أن الأمرأر فى حالة توسع مزدوج ، فهناك حركتان : من الجبل إلى السهول ، ومن الشرق إلى الغرب ، والجنوب الغربى ، ولكن حالة التوسع هذه مشرفة على نهايتها ، ومجالها اليوم أصبح أضيق مما كان فيما مضى .

الفصل السادس

الهدندوه (١)

تعد الهدندوه أحدث الوحدات البجاوية ظهوراً ، وأكثرها عدداً ، ولظروف تاريخية خاصة ، أوسعها شهرة فى العهود الحديثة . ومركزهم فى الاقتصاد الوطنى — بحكم موقع أوطانهم واتساعها — أهم من مركز أية جماعة بجاوية . وفى أوطانهم تقع مدينتان لهما شأن خطير فى تاريخ السودان ، وهما سواكن وتاكا (كسلا) . ولكن على الرغم من مركزهم وأهميتهم ، فإن نشأتهم غامضة ، وتاريخهم القديم يحيط به ظلام كثيف . ولم يكن لهم إلى وقت قريب أية نباهة أو ذكر . ومع أن كثيراً من هذا الوصف ينطبق على الأمرار ، غير أنه فى الهدندوه أظهر وأبلغ ، وعلى نطاق أوسع .

ولا شك أننا هنا أمام ظاهرة قد سبق وصفها فى البشاريين والأمرار ، وليست بالأمر غير المألوف فى الشعوب البادية ، التى تظهر فيها بعض وحداتها ، ثم تنمو وتقوى على حساب الوحدات الصغيرة التى تندمج فيها فى زمن وجيز ، حتى تكبر تلك الوحدة وتحتل المكان الأول . وقد امتص الهدندوه فى المائتى عام الأخيرة عدداً كبيراً من وحدات البجه الصغيرة ، وربما اندمجت فيهم أيضاً وحدات من غير البجه حتى أصبحوا اليوم قبيلة عظيمة تعدادها نحو الثمانين ألفاً أو أكثر ، وتعيش فى إقليم تبلغ مساحته العشرين ألفا من الأميال المربعة . وإن لم تكن هذه المساحة كلها خالصة لهم ، بل يشاركهم فى القليل منها جماعات أخرى من البجه وغير البجه .

تمتد أوطان الهدندوه امتداداً عظيما من الشمال إلى الجنوب من شمال خط العرض التاسع عشر إلى جنوب الخط الخامس عشر . فأوطانهم تمتد إذن من الشمال

---

(١) قد يكتب البعض اسم الهدندوه بالألف الممدودة أو المقصورة فى الآخر ، ولكن كتابته بالهاء أكثر انتشاراً بين الهدندوه أنفسهم ، والمفرد هدندوى .

إلى الجنوب مسافة تزيد على ٢٨٠ ميلا ، ومن الشرق إلى الغرب تبلغ المائة ميل أو تزيد فى الشمال ، ولـكنها تضيق فى الجنوب بين حدود الارتريا ونهر العطبرة . فهى إذن فى صورة مستطيل ينتهى فى الجنوب بما يشبه المثلث ، وسكة حديد كسلا، من أول خشم القربة إلى شمال سنكات تجرى فى ديارهم وأوطانهم .

وليس للهدندوه على البحر الأحمر سوى مساحة قليلة تبلغ نحو خمسة وثلاثين ميلا ، تتوسطها مدينة سواكن ، وإن لم تـكن هذه المدينة داخلة فى الأوطان البجاوية الصميمة . والحدود الشرقية للهدندوه تبدأ جنوب سواكن بنحو عشرين ميلا ثم تمتد نحو الجنوب بين خور بركة وخور لانجب ، حتى تصـل إلى الحدود الأرتيرية ، ثم تتبع هذه الحدود فى انحراف نحو الجنوب الغربى إلى خشم القربة ، وهنا الحد الجنوبى لأوطان الهدندوه . أما الحد الشمالى فيبدأ شمال سواكن ثم يمتد غرباً مخترقا السكة الحديدية شمال سنكات ، إلى نقطة فى شمال شرق آرياب . ومن هنا تتجه الحدود نحو الجنوب فى شبه خط مستقيم ، مخترقة خط السكة الحديدية غربى مسمار ، وممتدة نحو الجنوب إلى أن تتصل بنهر عطبرة عند قوز رجب ، ثم تلازم هذا النهر إلى خشم القربة .

يتبين من هذا أن الهدندوه قد احتلوا شطراً من الضفاف الشرقيـة (اليمنى) للعطبرة يمتد إلى نحو المائة ميل ، وخور الجاش يجرى فى ديارهم . وبذلك أصبحوا مجاورين للهضبة الحبشية فى أطرافها الشمالية ، كما أنهم جاوروا بعض الأنهار والجداول التى تنحدر منها ، ولو فى حيز ضيق . وليس من السهل أن نقسم بلاد الهدندوه إلى المنحدرات الشرقية (الجويئب) والمنحدرات الغربية (أولب) كما هى الحال فى بلاد الأمرأر ، لأن المرتفعات فيها تتناول أقطاراً أخرى ، خلاف منحدرات البحر الأحمر؛ والمنخفضات أيضاً أكثر تنوعاً مما نجده فى أوطان الأمرأر . ومع ذلك فمن الممكن تقسيم أوطان الهدندوه إلى مرتفعات ومنخفضات ، وأن نميز الأنواع المختلفة التى تدخل فى كل من هذين القسمين .

فالمرتفعات ليست متصلة بعضها ببعض ، ومن الممكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام مختلفة ؛ أولها مرتفعات البحر الأحمر ، وهى فى بلاد الهدندوه أقل ارتفاعاً منها فى

بلاد الأمرأر ، وتمثل هضبة متوسطة الارتفاع يزيد ارتفاعها بوجه عام على الألف متر . ويمثل هذه الهضبة تمثيلا حسناً بلدة إركويت ويبلغ ارتفاعها ١٠٩٤ متراً فوق سطح البحر . وفى هذه الكتلة العالية عدد من القمم مثل جبل أرباب وهو إلى الجنوب من إركويت ، وارتفاعه نحو ١٨٠٠ متر ، ويليه من جهة الجنوب رؤوس عديدة تضارعه أو تدنو منه فى الارتفاع . وهذه الكتلة تنحدر انحداراً سريعاً نحو الشرق ، وانحداراً تدريجياً نحو الغرب . وتنتهى هذه الكتلة بفجوة منخفضة ، فى أطرافها الجنوبية . فتنحدر الأرض بالتدريج نحو الجنوب ، حتى تنخفض إلى مستوى لا يزيد ارتفاعه على ثلثمائة متر .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن مرتفعات البحر الأحمر تكتنفها الفجوات من آن لآن ، وهذه الفجوة الواقعة جنوب أرض الهدندوه هى من أشهر هذه الفجوات ، وهى التى تفصل بين تلك المرتفعات وبين هضبة الإرترية المتصلة بهضبة الحبشة . وفى هذه الفجوة يجرى خور بركة مخترقاً الهضبة الإرترية إلى سهل طوكر .

وليس خور بركة هو الوحيد الذى يجرى فى هذا الإقليم ، بل يجاوره إلى الشمال خور آخر أقل منه ماء لأنه لا يستمد من الهضبة الحبشية ماء كثيراً ، وهو خور لانجب ، وهو الذى يجرى فى أرض الهدندوه ويحف بالمرتفعات الشمالية ، أما خور بركة فلا يجرى فى أرض الهدندوه ، مع أن خور لانجب يعد من روافده ، ولكن أكثر مجراه منعزل عن مجرى خور بركة . وبين الخورين كتلة جبلية مستطيلة ضيقة محدودة المساحة ، وهى تمثل القسم الثانى من مرتفعات أرض الهدندوه ، ويزيد ارتفاعها بوجه عام على الألف متر . وفيها جبل واحد بارز وهو جبل أدارِباب ، ولا يزيد طولها من الشمال للجنوب على الخمسين ميلا ، وعرضها على العشرة الأميال .

هذه هى الكتلة الثانية من الأراضى المرتفعة فى مواطن الهدندوه . أما الكتلة الثالثة فعبارة عن مساحة من الأرض المرتفعة نسبياً تحيط بالحدود الجنوبية لأوطان الهدندوه ، والحدود الجنوبية الشرقية الملاصقة لبلاد الإرترية ، وهى مرتفعات يتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ من الأمتار ، وهى فى الحقيقة بمثابة السفوح الغربية للهضبة الإرترية .

أما المنخفضات ، فهى أيضاً تقبل التقسيم إلى ثلاثة أقسام تعادل أقسام المرتفعات ، وأولها السهل الساحلى المحاذى للبحر الأحمر ، الذى تتوسطه بلدة سواكن ، مما يلى الكتلة الجبلية الشمالية . وهو لا يكاد يختلف عن نظيره فى بلاد الأمرأر ، اللهم إلا أنه يصيبه مقدار أكبر نوعاً من الأمطار . والإقليم المنخفض الثانى هو تلك الفجوة الضيقة التى يجرى فيها وادى لانجب ، وهى الواقعة بين الكتلة الجبلية المنعزلة ، حول جبل أدارباب ، وبين المرتفعات المحاذية للبحر الأحمر . وفى هذا المنخفض الضيق يجرى وادى لانجب ، فى اتجاه من الجنوب إلى الشمال ، حاملا ما يستطيع جمعه من الماء المنحدر من المرتفعات الإرترية ، والمرتفعات الشمالية ، وهى على كل حال مياه قليلة تنساب نحو سهل طوكر ولا تصل إلى البحر .

أما القسم الثالث من الأراضى المنخفضة فعبارة عن سهل فسيح يشغل الجانب الغربى والجنوبى من بلاد الهدندوه ونهايته فى الجنوب فى إقليم كسلا ، وهو عبارة عن الامتداد الجنوبى لسهل العتباى أو التمراب . وتجرى فيه طائفة من الأخوار يزداد ماؤها كلما اتجهنا جنوباً .

والظاهرات المناخية فى بلاد الهدندوه توافق النظام الذى رأيناه فى بلاد الأمرأر ، فالمطر شتوى على السهل الساحلى والمنحدرات الشرقية ، ويتسرب إليه مع ذلك مقدار قليل من المطر الصيفى . وتوزيع المطر فى طوكر على مدى السنة هو كما يلى :

يناير	فبراير	مارس	أبريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	المجموع السنوى
٢٢	٤	١	١	٣	٢	٤	٣	٠	١٠	١٧	٢١	٨٨ ملليمتراً

وفى سواكن :

يناير	فبراير	مارس	أبريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	المجموع السنوى
١٧	٧	١	١	١	٠	٨	٧	٠	٢٦	٧١	٤٢	١٨١ ملليمتراً

أما المنحدرات الغربية فى جبال البحر الأحمر ، فخير مثال لها بلدة سنكات فطرها صيفى ولا يصيبها من المطر الشتوى شىء والمقدار السنوى ١٢٤ ملليمتراً مركزة حول شهر أغسطس الذى يسقط فيه مايقرب من ٦٠ ملليمترا .

والسهول الغربية يمثلها مناخ كسلا ، ولكن بشىء من التطرف ، لأنها واقعة

فى الطرف الجنوبى من بلاد الهدندوه ، ومطرها أغزر من سائر جهات تلك السهول . وتوزيع المطر فيها كما يلى .

يناير	فبراير	مارس	أبريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفبر	ديسمبر	المجموع السنوى بالمليمتر
٠	١	٢	١١	٣٠	٩٣	١٢٥	٥٧	٩	٠	٠		٣٢٨

وقرب كسلا من المرتفعات الأرتيرية سبب فى ازدياد أمطارها ، لا عن الجهات الأخرى فى السهول الغربية من بلاد الهدندوه فقط ، بل إن مطرها أغزر بكثير من الجهات الواقعة على نفس خط العرض فى إقليم نهر النيل ، حيث نجد أن الخرطوم الواقعة على نفس خط العرض لايزيد مطرها السنوى على ١٦٠ ملليمتراً ، أو أقل من نصف ما يسقط فى كسلا .

وليس هنالك محطة لقياس المطر فى الجزء الشمالى من السهول الغربية ببلاد الهندندوه ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن هذا المطر الغزير نسبياً فى كسلا ، يتناقص بسرعة كلما ابتعدنا نحو الشمال ، حتى لا يكاد يبلغ الثمانين ملليمتراً فى الأطراف الشمالية لتلك السهول ؛ وأقرب مثال نستدل به على المطر فى تلك الجهات الشمالية هو بلدة تَلْجُوارِبْ وهى واقعة على السفوح الغربية لمرتفعات البحر الأحمر ، على حافة السهول من جهة الشمال ، ومطرها لايزيد على ٧٥ ملليمتراً مركزاً حول شهر أغسطس .

ومع ذلك فإن المطر بوجه عام أكثر فى أوطان الهدندوه منه فى أراضى البجه الشمالية . وإلى جانب المطر يشارك الهدندوه فى الاستفادة من نهر العطبرة فى جزء غير قليل من مجراه . ولهم فوق ذلك دلتا خور الجاش الذى يقذف بمياهه فى مساحة واسعة شمال كسلا ، وقبل أن ينظم فيضان الجاش لكى يستفاد به فى الزراعة الحديثة ، كانت هذه المياه مورداً منتظماً للرعى ولبعض الزراعة . وكانت تكتنف الإقليم نباتات وأشجار كثيرة ؛ وكانت تأوى إليه ضروب من السباع . والحياة النباتية بوجه عام أغزر فى إقليم الهدندوه تبعاً لازدياد الأمطار ، وإلى جانب الحشائش والمراعى فى السهول والمنحدرات الشرقية والغربية ، تنمو أشجار السنط والطلح ونخيل الدوم وغيرها من ضروب الشجر .

فى هذه المساحة الكبيرة تعيش قبيلة « الهدندوه » ، ومن التواضع أن نصفها

بأنها قبيلة ، وهى التى يزيد تعدادها على ٨٠,٠٠٠ نسمة . وتوشك أن تكون شعبا ، وعددها لا يزال آخذاً فى النمو . ومهما يكن من شىء ، فهى قبيلة تتألف من عدة عناصر بجاوية صميمة ، إندمج بعضها فى بعض والتحمت أعضاؤها وأوصالها التحاماً قويا ، ومع ذلك لا تزال محتفظة بمقدرتها على النمو وامتصاص عناصر جديدة .

وليس من شك فى أن الهدندوه — وإن دخلهم بعض الدماء غير الحامية — من أصل بجاوى صميم ، والكثرة العظمى من العناصر التى تدخل فى تكوين الهدندوه عناصر حامية ، يشهد بذلك طابعهم الحامى الذى يغلب على جميع الأفراد .

ومع ذلك لم يكن بد من أن يجارى الهدندوه جيرانهم من الأمرار والبشاريين فى الانتماء إلى أصول عربية أو إلى نسب عربى ، وهى دعوى لا بد أن يكون لها أساس من الحقيقة ، إذا ذكرنا أن بلدة سواكن ، كانت دائماً مجالا لنشاط عربى مصدره جزيرة العرب من جهة والقطر المصرى من جهة أخرى .

والرواية التى يذكرها مستر أوين فى مقاله(١) ، ولا تكاد تختلف عما رواه بعض زعماء الهدندوه للمؤلف تتلخص فيما يلى :

يرجع أصل الهدندوه إلى أمير بجاوى عظيم يدعى شكايتل (أو شكايتلو) ، لا نعرف مع الأسف عن تاريخه ولا عن أعماله شيئاً ، سوى أنه كان ملكا على البجه أو على الأقل على النصف الجنوبى منهم ، وإلى الغرب من سنكات جبل ارتفاعه نحو ١٧٠٠ متر يحمل اسم هذا الجد القديم إلى يومنا هذا .

وقد هاجر من الحجاز إلى أرض البجه شريف عربى يدعى محمد هداب ولم يلبث أن تزوج أميرة من أحفاد شكايتل وأنجب منها فتى يدعى محمد مبارك ، الذى لم يلبث أن أطلق عليه الهدندوه اسم محمد براكوين أى محمد الجرىء الذى لا يهاب شيئاً .

وهنا نلاحظ أن اسم الشريف العربى محمد هداب نفسه يتألف من كلمتين : محمد وهو اسم عربى ، وهداب ومعناه الأسد فى اللسان التبداوى ولعلهم ترجموا اسمه العربى

---

(١) T.R.H. Owen : The Hadendowa, S.N.R. Vol. XX. 1937, Part II

وهذه المقالة على ما بها من قصور أو فى ما لدينا من المراجع عن هذه القبيلة .

إلى لغتهم ، أما نجله محمد مبارك ، فقد استطاعوا أن يحولوا كلمة مبارك العربية إلى لفظ تبداوى يدل على الشجاعة المتناهية ، وساعدهم فى ذلك سهولة تحويل اسم مبارك إلى برا كوين .

والرواية تقص علينا أيضاً أن محمداً الجرىء هذا لم يكفه أن يكون من أب عربى وأم تنتمى إلى أشرف البيوت البجاوية ، بل تمكن هو أيضاً من الزواج بفتاة عربية شريفة الأصل ، تدعى هدات بعد أن قدم لوالدها الشريف العلمى خدمات جليلة ، لم يكن أقلها انقاذ ابنته هذه من مخالب خاطفيها من الفنج : ولم تلبث هذه السيدة العظيمة أن أنجبت له سبعة أولاد[1] ، وهؤلاء قد تأصلت فيهم الدماء العربية عن طريق أمهم وجدهم .

والرواية التى بين أيدينا تشير إلى أن الفنج أرادوا أن يأخذوا بالثأر فأحاطوا بالحصن المنيع الذى كان يحتله محمد برا كوين ، فى جبل أوكور ؛ وأرادوا اقتحامه ، غير أنه استطاع أن يحمل عليهم حملة شديدة وأن يشتت شملهم ، وبذلك استقام له الأمر وعاش فى دعة وأمن . وجبل أوكور هـذا واقع إلى الجنوب الغربى من سنكات لا يزيد ارتفاعه على ١٦٠٠ متر ، ولعل فى هذه الرواية ما يشهد بأن الموطن الأول للهدندوه هو هـذا الجبل والأراضى التى تحيط به ، كما أن أصل البشاريين إلى جوار جبل علبه .

ولا تزال هنالك آثار فى هذا الجبل يقول الهدندوه إنها قبر محمد برا كوين وآثار أخرى تدل على قبر هدات .

ولا شك أن هذه الرواية تستند إلى حقائق تاريخية ، وإن حاك الخيال حولها بعض التفاصيل . فنحن نعلم من غير مصدر واحد أنه كان بين العرب النازلين على البحر الأحمر وبين البجه مصاهرات عديدة ، وأن هذه المصاهرات قد اكسبت بعض الأسر البجاوية تجارب رفعت من شأنها ووطدت مركزها بين البجه .

واسم الهدندوه هو على الأرجح نسبة إلى هداب « الأسد » أى قبيلة الأسد

---

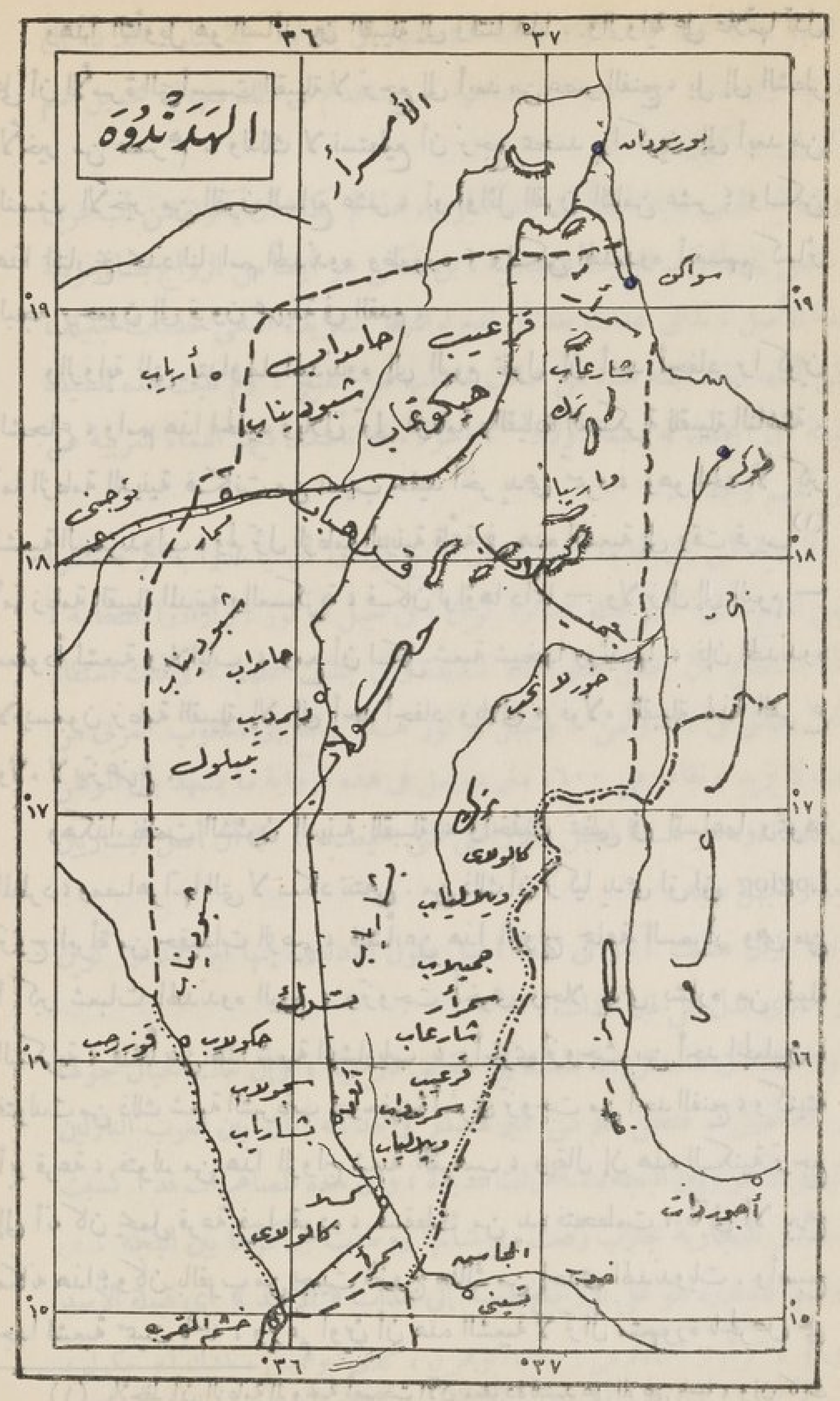
(١) ذكرأوين أسماءهم هى : نعتاب أبوبحرين ، كلاى أبوهميس ، باشك أبو حكول ، اشبادين أبو جميل ، وقورهب أبو هدل ، أى الأسود وحملاب أبو قايد وويل محمد أبو سمر ، وروايته مطابقة لما ذكره بعض الهدندوه للمؤلف .

وهذا التأويل هو السائد بين القبيلة إلى وقتنا هذا . والرواية على علاتها تدل على أن الأسرة التى أسست القبيلة لا ترجع إلى أبعد من عصر الفنج ، بل إلى الشطر الأخير من عصرهم . ولذلك لا نستطيع أن نرجع بمحمد براكوين إلى أبعد من النصف الأخير من القرن السابع عشر ، أو أوائل القرن الثامن عشر ؛ ولكن هذا التاريخ يحدد لنا اسم الهدندوه وظهوره ؛ ولكن الهدندوه أنفسهم كسائر البجه يرجعون إلى قرون عريقة فى القدم .

والرواية التى يتداولها الهدندوه إلى اليوم تقول إن أحد أحفاد براكوين الشجاع ، واسم هذا الحفيد ويلالى تولى الزعامة والقيادة العسكرية للقبيلة الناشئة . أما الزعامة الدينية فكانت من نصيب حفيد آخر يدعى سَمره ، وهو الجد الأكبر لشعبة السمرندواب ، ولم تزل الزعامة الدينية قائمة فى هذه الشعبة إلى وقت قريب[1] أما زعامة القبيلة المدنية والعسكرية ، فكان لواؤها دائماً — ولا يزال إلى اليوم — معقوداً لشعبة ويلالياب ، ومع أن لكل شعبة شيخها ورئيسها ، فإن الهدندوه لا يسلمون بزعامة القبيلة إلا إلى أحد أحفاد ويلالى ، فولاء القبيلة لهذا الفرع ولاء لا يتزعزع .

وهكذا نظمت الشئون الدينية للقبيلة ، وأخذت تمضى فى اتساعها ونموها المطرد ، ومصاهراتها التى لا تكاد تنتهى . من ذلك أن تركيا يدعى لق لق Loglog تزوج امرأة من حفيدات الزعيم ، فنشأ عن هذا الزواج جماعة السمرأر وهى من أكبر شعبات الهدندوه اليوم ، وتزوجت أخرى رجلا يدعى بشاره من قبيلة الشكرية ، فنشأ عن هذا شعبة البشارياب ، وأخرى تزوجت من أحد الجعليين ، فتولدت من ذلك شعبة الشرعاب ؛ وحفيدة أخرى تزوجت من أحد الفنج ، وكنيته أبو قرعة ، فتولد من هذا الزواج شعبة القرعيب ، ويقال إن هذه الكنية ترجع إلى أنه كان يحمل قرعة فيها نقوده ، فسقطت من يده فتحطمت . فآلى ألا يبرح مكانه هذا ؛ وكان بالقرب من جبيت فتزوج هناك من إحدى الهدندويات . وأصبح جدا لشعبة سميت باسمه . ويزعم أوين أن هذه الشعبة لا تزال مشهورة بالحرص على

(١) يلاحظ أن الزعامة الروحية أصبحت الآن معقودة للسيد على المرغنى باشا ، وإن كانت هذه الشعبة لا تزال مشهورة بالتدين .



شكل (٨) أقسام الهندوه

دراهمها . وعلامة إبلهم دائرة تشبه الريال . وهى الشعبة الوحيدة ، التى يسمح رجالها للنساء باقتناء وتربية الدجاج ، ثم يبعن البيض ويحصلن بذلك على الدراهم اللازمة لهن ، بدلا من أن يأخذنها من الأزواج[١] .

وهكذا أخذت القبيلة تنمو وشعبها تتكاثر . ولكن لم يكن توسعهم كله بالمصاهرة . وقد كانت ماشيتهم أول الأمر قليلة ، ومواطنهم فى الجبال الشمالية محدودة ؛ فلم يلبثوا أن رأوا أن توسعهم يجب أن يتجه نحو الجنوب . حيث المرعى أغزر والماشية أوفر . ولا بأس من الالتجاء إلى النهب والسلب إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أمكن لبعض الشعب أن تطرد بنى عامر من إركويت وتدفعهم نحو الجنوب ؛ وشعبة أخرى زحزحت البشاريين نحو الغرب بقدر الإمكان ، واشتهر ويلالى محمد (ولعله عاش حوالى ١٧٦٠) بالتوسع نحو الجنوب ، على حساب الفنج ، الذين أخذ سلطانهم يضمحل وعلى الأخص فى هذه الأطراف الشمالية ، وكلما انكمش سلطانهم نحو الجنوب ، تركوا فراغاً ولم يلبث الهدندوه أن ملأوا ذلك الفراغ .

وجاء ابنه وحفيده من بعده يتبعان سياسة الوالد والجد ، حتى أمكنهم فى نهاية القرن الثامن عشر (حوالى سنة ١٨٠٠) أن يحتلوا دلتا الجاش وهى أغنى بقعة فى جميع بلاد الهدندوه ، وجعلوا عاصمتهم فى بلدة فلياك ، وقد استدعى هذا التوسع التغلب على جماعات كثيرة من بنى عامر والحالَنْقَه وملهتكناب . وهذا الامتداد إلى الجنوب لم يصحبه توسع نحو الغرب ، ولعل مقاومة البشاريين وشدة بأسهم حالت دون هذا التوسع .

وهكذا لم يكد الربع الأول من القرن التاسع عشر أن يتكامل حتى كان الهدندوه قد بسطوا سلطانهم كقبيلة موحدة متماسكة فى الإقليم الذى يحتلونه اليوم . ونظراً لقربهم من مراكز الحكم ، ولأن الطريق من سواكن إلى بربر يمر من أرضهم ، وهو من أهم الطرق التى كانت تستخدم بعد اتصال السودان بمصر ، لذلك لم يكن بد من أن يكون للهدندوه اتصال بالحكومة أكثر مما كان للأمرأر . وقد استغلوا

---

(١) من القرعيب صديقنا الشيخ عمر أبو آمنة عمدة جبيت . وهو من أكرم الناس وأسخاهم يداً . ولا شك أن أوين مبالغ فى وصفه هذا .

هذا الاتصال لمصلحتهم بما كانوا يحصلون من الإتاوات من القوافل المارة ببلادهم ، وينتفعون ببيع بعض الماشية والغلات للحكومة . كما ساهموا فى التقدم الزراعى فى منطقة الجاش الذى بدأ فى منتصف القرن الماضى ، ولكنهم كانوا كسائر الشعوب البدائية يبغضون أشد البغض أن تطالبهم الحكومة بدفع ضرائب ، وكانوا يتفننون فى التهرب من دفعها بمختلف الوسائل السلمية والعدوانية . وكانت هذه عادتهم أيضاً فى الربع الأول من القرن العشرين . وإلى وقت قريب كانت جباية الضرائب هى سبب النزاع الأكبر بين الحكومة والرعية . إلى أن ظهر سبب آخر وهو محاربة الحكومة لتجارة الرقيق فأثار هذا حفيظة بعض المشايخ ممن يشتغلون بهذه التجارة .

لذلك كان للهدندوه فى الثورة المهدية دور أكبر وأخطر مما كان لسائر البجه . فقد رأى المهدى أن الطريق من سواكن إلى بربر من أخطر الأمور التى تهدد سلطانه . وهداه الحظ إلى رجل يستطيع أن يكل إليه قطع هذا الطريق . وشاءت الصدفة أن يكون هذا الرجل موتوراً لأن سفينة انجليزية استولت على بعض مراكب كان له ولأهله فيها تجارة عظيمة أهمها الرقيق الذى كانت تحمله . فأصيب وأسرته بخسارة فادحة . هذا الرجل الذى يحتل مكانا واضحا من صفحات التاريخ ، وهو عثمان دجنه ، يرجع نسبه فى القرن السابع عشر إلى رجل من الأكراد هاجر إلى سواكن ، بعد أن استولى عليها الأتراك ، ولم يلبث أن حدثت المصاهرات بين أسرة دجنه وبين الهدندوه وغيرهم من البجه ، ولم يتبوأ أحد أفرادها مكاناً ممتازاً بين البجه من قبل ، ولكن عثمانا بفضل ذكائه واستغلاله للعاطفة الدينية أمكنه أن يقود عدداً كبيراً من أبناء القبائل . وأن يكون شوكة فى جنب القوات المرابطة فى سواكن وفى شرق السودان زمناً طويلا ، ولم ينته خطره إلا بالقبض عليه وهو فى كهف مظلم فى جبال واريبا ، وحمله أسيراً إلى رشيد ، ثم إلى وادى حلفا حيث ظل فى الأسر إلى أن توفى عام ١٩٢٦ .

وليس هذا المقام بمتسع لسرد أعمال هذا الرجل ، الذى ملأت أعماله فصولا كثيرة ، لأن أنباءه معروفة فى كتب التاريخ ، ولم يكن فى الحقيقة قائدا للهدندوه ،

بل لطائفة من المحاربين المتحمسين جمعهم من مختلف القبائل . حتى كان فى نهاية أمره يعتمد على بعض التعايشة لتدعيم سلطانه فى كسلا وإقليم العطبرة . فحديثه وأن كان له مكانه فى تاريخ السودان الحديث ، فإنه قليل الاتصال بتاريخ الهدندوه كقبيلة . اللهم إلا ما كان لهذه الاضطرابات والثورات من الأثر السيئ فى تماسك القبيلة وإضطراب أمورها .

وبعد انتهاء عهد المهدية ظل الهدندوه قبيلة تعوزها الوحدة ، ومما ساعد على ذلك أن بلادهم كانت مقسمة بين مديريتين ، فلما أنشئت مديرية كسلا سنة ١٩٢٥ واشتملت على جميع بلاد الهدندوه ، وصادف ذلك أيضاً التوسع فى استغلال دلتا الجاش بواسطة شركة كسلا للقطن ، وبعد سنتين وفقت الحكومة لاختيار ناظر جديد ، من رجال شعبة ويلالى العريقة ، وامكنه أن يكتسب ثقة القبيلة بالتدريج ، فماد للهدندوه عيش الهدوء والتقدم . وأصبحوا القبيلة المبرزة بين جميع البجه .

حالة القبيلة فى الوقت الحاضر

لدينا أوصاف للهدندوه من أقلام كثير من السائحين الأجانب ، وعلى الأخص من الإنجليز ، تشتمل على كثير من الظلم وقلة الإدراك لحقيقة أحوالهم ، فقال عنهم جوان دى كاسترو البرتغالى وهو يكتب فى سنة ١٥٤٠ ، إنهم يعبدون محمداً وعاداتهم دنيئة وقذرة . ووصفهم بركهارت ، وكانت زيارته لبلادهم فى أوائل القرن التاسع عشر ، فقال إنهم يجمعون الصمغ فى دلتا الجاش ويصدرونه إلى سواكن ، وأن لهم ماشية (أى بقرا) من النوع ذى السنام . وأن هذه الماشية كثيراً ما كانت فريسة السباع التى تغير على دلتا الجاش ، والظاهر أن الأحوال قد تغيرت كثيراً منذ زيارة بركهارت ، لأن هذا النوع من الماشية ليس له اليوم وجود ، كما أن أشجار الصمغ اليوم قليلة جداً عندهم .

ثم يمضى بركهارت فى وصفه فيقول ، بعد أن أشار إلى وجود السباع الضارية حول خور الجاش ، «غير أن أشد الوحوش شراسة هو البجاوى نفسه .»[1] ووصفه

(١) راجع الطبعة الثانية من رحلات بركهارت (لندن سنة ١٨٢٢) فى صفحة ٣٠١ وما بعدها .

بأنه كسول ، نفور من الناس ، لايجيب على سؤال يوجه إليه ، وكذلك زعم بركهارت أنهم قد يشربون الدم المتجمد بعد أن يضيفوا إليه قليلا من الملح والسمن . ويقول أوين إن هذا كله صحيح ، وإن كانت عادة تعاطى الدم قد انقرضت . ولكن بركهارت لا يكتفى بهذا بل يزعم أن الهدندوىّ بخيل شحيح نحو الغرباء وإن كان كريماً نحو أبناء جنسه ، يميل إلى السرقة والسكر ، وأن نساء الهدندوه تمتاز بالجرأة وقلة العفة ، ويرى أوين فى هذا الوصف ظلماً للهدندوه ، ويؤكد أن الهدندوى على شدة نفوره من الناس ، كريم لايمنع القرى عن الضيف ، وليس من معتادى السرقة اللهم إلا فى إغاراته أحياناً على الماشية . ولا يكاد يمس الخمر منهم سوى بعض سكان المدن . وإذا استثنينا شعبة صغيرة تعيش فى أقصى الشمال بالقرب من بور سودان ، فإن نساء الهدندوه على جانب كبير من العفة . ويفسر أوين وصف بركهارت المزرى بالهدندوه بأنهم كانوا يعبثون به كعادتهم . ولكن من الجائز أيضاً أن حكم عثمان دجنة لهم ، وإصراره على مراعاة أحكام الدين ، وقسوته فى معاقبة من يرتكب أقل جرم ، قد كان له أثره فى تهذيب الهدندوه ورفع مستوى السلوك بينهم ، حتى أصبحوا أرقى فى هذه الناحية من سائر البجه .

ووصفهم آخرون ، فقال عنهم صمويل بيكر إنهم قبيلة رديئة جداً ، وقال عنهم تاجر انجليزى فى عصر المهدية إنه لاشىء يحسن من شأنهم سوى أن يمحوا من الأرض . ووصفهم انجليزى آخر بالكسل والكذب ، وهذه الأوصاف كلها مصدرها التحامل والجهل . فأما الكسل الذى يوصفون به ولا يرى أوين بأساً فى التصديق على هذا الوصف ، فيرجع إلى أنهم يطالبون بأعمال لا يرغبون فى أدائها ، وأما توحشهم ونفورهم من الناس ، ومن الغرباء بوجه خاص . فرده إلى بيئتهم فى الجبال التى تفرض عليهم العزلة وقلة الاختلاط ، وقد سرى هذا الخلق فى دمائهم حتى لازمهم بعد أن نزلوا السهول وعاشوا وسط الناس ؛ ومارسوا الزراعة وسكنوا القرى فى دلتا الجاش .

وقد كتب أحد فضلاء الهدندوه — بناء على طلب المؤلف — وصفاً لبعض

أخلاقهم وأحوالهم ، يقول فيه : إن الهـدندوى فنوع صبور إلى أقصى حدود الصبر ، يحتمل المشاق ويستهين بالصعاب ، ويصبر على الحرمان ، ولا يشكو مهما بلغ به الألم . وهو — كسائر البجه — شجاع إلى درجة الاستماتة . ولا يميل إلى المزاح . وهو يثور ويغضب بسرعة . ولذلك كثرت العداوات بين القبائل والبطون .

وهو أقرب إلى الشك فى الناس وإساءة الظن بهم حتى يعرفهم ، ولذلك لايبوح بشىء أو بأمر من أموره ، إلا لمن يثق بهم ، ولا يثق بشخص حتى يجربه مرتين أو ثلاث مرات ، فإذا آمن بك ، فلن يتحول عن إيمانه مهما سمع عنك من الأقوال والتهم ، ولشدة نفورهم من الغريب — سواء أكان من الهدندوه أوغيرهم — ليس من السهل التفاهم معهم ؛ وإن كان لهم مع ذلك شغف كبير باستقصاء الأخبار من كل إنسان حتى من الغرباء ، كما يبدو من العادة الشائعة عندهم . والتى يسمونها « سَكَنَاب » . والسكناب بلغتهم الخبر ، أو النبأ ؛ واستقصاء الأخبار من كل قادم عمل شائع عند الهدندوه يحرصون عليه أشد الحرص ، حتى يلموا إلماماً دقيقاً بكل مايجرى ، فى بلادهم والبلاد المحيطة بهم .

ويقول الكاتب إن طريقة تبادل السكناب طريقة قديمة تتخذ دائمة صورة خاصة : فيسأل الواحد منهم القادم بلغته التبداوية . « مرحباً ! سلامات ! كيف أحوالك وأحوال قبيلتك . وأحوال البلد ؟ .. هات السكناب ! من أين قمت ومتى ، وماذا رأيت وسمعت ، وهل قابلت أحداً فى الطريق ، وهل مررت فى طريقك على سكان ومنازل ، وهل مررت بماء وهل رأيت شيئاً من الدواب ، وهل سمعت خبراً من أحد الناس فى الطريق .. ؟

فيجيب المسئول عن هذا كله ليس عندى خبر ، حتى يكرر السائل سؤاله مرتين أو ثلاثاً ، ويأنس إليه المسئول شيئاً فشيئا ، فيبدأ بذكر الأشياء القليلة الأهمية ، ويستغرق فى ذلك وقتاً طويلا ، ويسكت من آن لآن لكى يأخذ نفساً من « السكدّوس » ، أوغليون التدخين ، الذى يحشونه بنوع خاص من الطباق يسمى السكركوج : وقد يستغرق السكناب ساعة أو ساعتين . ولكن السائل

لاينفذ صبره ، لأنه يعلم أن الأخبار الهامة لا تجىء إلا فى النهاية ، بعد أن يزداد التعارف بين السائل والمسئول .

وهذا السكناب بين الغرباء ، يجرى وهم على ظهور دوابهم ، أو واقفين على قارعة الطريق . ولكن أهم سكناب هو ما يجرى بين أشخاص بينهم معرفة سابقة ، حول حلقة « الجَبَنه » أو القهوة . وفى هذه الأحوال يطول الحديث ، فى هدوء واطمئنان .

وللقهوة عندهم شأن أى شأن . لأنها عند البجه عامة ، وعند الهندوه بوجه خاص بمثابة الغذاء بل أكثر من الغذاء . ولها قواعد وأصول وآداب يحافظون عليها أشد المحافظة ، فهى تعمل دائماً على قدر الجماعة الموجودين ، وإذا أقبل قادم جديد ، فلا بد له أن ينتظر حتى يعد له نصيبه . ولعل مجاورة البجة للحبشة جعل للقهوة تلك المنزلة الهامة ، التى تجدها للشاى عند القبائل الليبية .

هذه خلاصة الوصف لبعض طباع الهدندوه ، كما رواها واحد من زعمائهم ، وهو يرى أن الهدندوى قلما يتحدث بصراحة إلى الغريب ، حتى لو سألته عن البطن أو البدنه التى ينتمى إليها ، فإنه لا يزيد على أن يقول إنه هد ندوى ، حتى يعرفك تمام المعرفة .

***

ويصف لنا مستر أوين حياتهم الاقتصادية وصفاً نلخصه فيما يلى :

فى الجهات الشمالية التى تغلب عليها الصفة الجبلية تعتمد القبيلة على رعى الإبل والماعز بوجه خاص ، وقلما تسمح الظروف الطبيعية بتربية أى نوع آخر من الماشية وإن كانت الصور المنقوشة على الصخر تشير إلى احتمال وجود البقر فى عصر لعل المطر كان فيه أغزر مما هو اليوم . والزراعة فى هذا الإقليم الشمالى قليلة ، وأكثرها فى بطون الأخوار .

أما الإقليم الجنوبى عامة ودلتا الجاش بوجه خاص . فالحالة الطبيعية فيه تسمح برعى البقر والغنم ، وبنشاط زراعى أكثر . وإن كانت الماشية هى العماد الأكبر للثروة .

وعلى منحدرات الجبال الشمالية تكون حركة الرعاة فى طلب الكلأ من الجبل إلى السهول وبالعكس ، على الصورة التى رأيناها عند الأمرأر . أما فى الجنوب ، فالحركة والانتقال يكون بين الشمال والجنوب ، وهى فى كلا الحالين حركة محدودة ، ومقصورة على الطوائف التى تشتغل — أكثر ما تشتغل — بالرعى .

وفى العصر الحديث . بعد التوسع الزراعى فى الدلتا ، نشأت قرى كثيرة مستقرة سكانها لا يكادون يبرحونها . ومع أن الهجرات الموسمية محدودة عادة ، فإنه نظراً لما امتازت به الجهات الجنوبية من وفرة المطر والنبات ، ربما نزح بعض سكان المنحدرات الشرقية الشمالية . فى السنين القليلة المطر ، وانتقلوا إلى جهات الجنوب طلباً للكلأ والمرعى .

وقلما تعنى القبيلة بالصيد — لا صيد البر ولا صيد البحر — على قلة ما لديهم من الزاد ، وجل غذائهم من الألبان ، وقليل من لحوم الحيوانات التى يغتنمونها بالإغارة والنهب ، وقد ينتفعون بثمار الدوم ، فيمضغون قشورها . أما حرفة التجارة فلم يعيروها اهتماما كثيرا ، وكل ما عناهم منها تحصيل الأتاوة من القوافل التى كانت تمر ببلادهم ، أو تأجير إبلهم أو بيعها للتجار . ومعظم هؤلاء من جزيرة العرب .

وحبهم للعزلة جعلهم ينفرون من الاختلاط بغيرهم — حتى بأبناء جنسهم — ومن التجمع إلا لغرض مؤقت ، وجل همهم أن يتركوا لأنفسهم لا يتعرض لهم أحد ، ولا يتعرضون لأحد . ذلك كان دأبهم وطبعهم ، غير أن العالم الخارجى بمشاكله وحضارته ونزعاته لم يدعهم لأنفسهم ، وجاءت السلطات تريد التقرب منهم والاتصال بهم ، سواء أرغبوا فى ذلك أم لم يرغبوا . ورسمت خطة لاستغلال بلادهم ، ولمشروعات زراعية على نطاق واسع لم يألفوه . ولكن الهدندوه قد أدركو بما فطروا عليه من الذكاء أن فى هذا مصلحة لهم ، فبذلوا جهداً محموداً لكى يلاءموا بين أنفسهم وبين الحياة الجديدة التى امتدت إلى بلادهم ، فأقبلوا على الزراعة ، حتى على زراعة أصناف جديدة مثل القطن .

وعلى الرغم من أنهم لم يصبحوا مهرة فى زراعة القطن — وحداثة العهد بهذا الأمر تكتفى لتفسير ذلك — فانهم على كل حال لم ينفروا من هذه الغلة الجديدة

الغربية ، كما ينفرون من الغرباء الفضوليين ، بل أقبلوا على ممارستها جهد طاقتهم . وأصبح البجه أكبر المشتغلين فى الزراعة فى دلتا الجاش ، إذ يبلغون نحو ٧٥ ٪ من مجموع الزراع ، و ٥٥ ٪ من الزراع جميعاً من الهدندوه وأخذ مستوى الزراعة عندهم فى التحسن حتى بات قريباً من مستوى الجماعات الأخرى فى الدلتا ، وأكثرها من سكان غرب إفريقية ، ممن مارسوا الزراعة زمناً طويلا . وللهدندوه فوق ذلك نشاط زراعى ملحوظ فى منطقة طوكر ، على الرغم من وقوع هذه المنطقة خارج بلادهم .

وإلى جانب القطن ينتفع الهدندوه باستغلال ثمر الدوم ، بأن يبيعوا الحب ، بعد جمعه ، فى الأسواق وهو يستخدم بوجه خاص فى صناعة الأزرار ، ويسميه بعض الكتاب العاج النباتى . ونخيل الدوم ينمو نمواً طبيعياً ، وهو واسع الانتشار فى بلاد الهدندوه الجنوبية ، وهذا النشاط الاقتصادى أيسر خطباً وأكثر ملاءمة لطبع الهدندوه . ولذلك يقبلون عليه عن رغبة صادقة . فليس هنا لك فلاحة ولا رى ولا تطهير للأرض من الحشائش ، ولا تدخل من المفتشين أو الحكام ، ومع ذلك فإن هذا النشاط الاقتصادى حديث العهد أيضاً ، فعلى الرغم من أن نخيل الدوم منتشر فى البلاد منذ قرون بعيدة ، غير أن الأسواق التى تستهلكه بكثرة جديدة ، فازداد شأنه بازدياد الحركة التجارية فأصبح مورداً جديداً للثروة لم يكن معروفاً لقدماء البجه .

وقد استدعى استغلال الدوم نشوء صناعة جديدة عند الهدندوه لا تخلو من المهارة ؛ وهى صناعة استخراج الحبة من باطن الثمرة ، وذلك بطرقها بالحجارة بمهارة حتى تتحطم القشرة الخارجية . وتخرج الحبة من باطنها ، فيطرح الهدندوى القشر للماعز ، ويستبقى الحبة لبيعها . وفى وسع الشخص المدرب أن يستخرج ألف حبة فى اليوم الواحد ؛ وهو ما يعادل ثلثى قنطار من العاج النباتى . وقد يصل ثمن القنطار إلى خمسين أو ستين قرشاً .

ويقول مستر أوين إن الهدندوه أكثر تأخراً وأشد تمرداً على النظام من سائر البجه . وأن لهجتهم أكثر خشونة ، وأسلوب النطق أقبح أسلوب بين جميع

البجه . وأن نسبة القتل والمشاجرة عندهم أكثر ؛ كما أنهم أكثر البجه نفوراً وانطواء على أنفسهم . حتى إنهم يحتقرون الجماعات التى تخضع للنظام مثل بنى عامر ، ومع ذلك فإنهم قد أثبتوا أنهم وإن كانوا أكثر البجه تأخراً ، أسرعهم إلى الأخذ بأسباب التقدم . وقد أمكنهم بعد أن توفرت لهم القيادة الصالحة من رؤسائهم أن يتحدوا ويؤلفوا نظاماً قبلياً قوياً . واستطاعوا أن يحتلوا مكانهم وسط الجماعات التى تزدحم فى منطقة كسلا ، وهى جماعات متعددة اللهجات والسلالات . ومع ذلك أمكن للهدندوه أن ينظموا علاقاتهم بتلك الجماعات ، ومنهم من هو غريب عن السودان ، مثل المهاجرين من غرب إفريقية . وهم دائماً حريصون على حقوقهم ومكانتهم ، شديدوا الحساسية لأقل شىء يتوهمون أن فيه اعتداء على حقوقهم .

ونظراً لأنهم قدأصبحوا وحدة كبيرة منظمة ، لهم عصبية وشوكة ، فإن معظم القبائل البجاوية الصغيرة المنتشرة بين خور بركة والعطبرة قد انضمت إليهم وانضوت تحت لوائهم . وهكذا نرى الهدندوه لا يزالون يدمجون فى صفوفهم القبائل الصغيرة بالوسائل السلمية وحدها . ولعله لن يمضى زمن طويل حتى يكون اسم الهدندوه شاملا لجميع البجه الجنوبيين ؛ وإن كان كثيراً من الحالنقه والأرتيقا والاشراف لا يزال متمسكا بوحدته وتقاليده .

النسبة التقليدية للهدندوه

مبارك (الشريف) = ابنة شكايتل ملك البجه

محمد مبارك (براكوين) = هدات (ابنة الشريف العلوى)

- نعتاب (أبو بحرين)
  - كالولاى
  - ويلاليلاب (١)
  - غالبة أقسام ترك
  - هيكوتاب
- شبادين أبو جيل
  - جميلاب (٢)
  - ابنة = أحد الشكرية
    - بشارياب
  - شبودييناب
- حملاب أبو قايد
  - قايداب
- باشك أبوحكول
  - ابنة = لقلق (تركى)
    - سمرأر
  - ابنة = أحدالفنج أو الجعليين
    - قرعيب
  - ابنة = أحد المكابراب (جعلى)
    - الشارعاب
  - حكولاب (٣)
- قورهب أبو هدل
  - قرهاب
- كلاى أبو هميس
  - تيتى سمرندواب (٤)
  - حامداب
  - هميساب
  - عميراب
- ويلحمد أبو سمر

تبين شجرة النسب هذه الشعب الثمانى عشرة التى تتألف منها قبيلة الهدندوة ، وتفيد علامة = بعد كلمة ابنة ، أنها تزوجت من الشخص المذكور بعدها ؛ ويلاحظ تنوع المصاهرة مع العرب والترك والفنج

(١) كانت هذه الشعبة دائماً مركز الزعامة لجميع الهدندوه

(٢) اشتهر أعضاء هذه الشعبة بالفروسية

(٣) أجاويد القبيلة والهيئة الاستشارية لها

(٤) كانت فيهم الزعامة الدينية قبل انتشار الختمية

الفصل السابع

بنى عامر

يذكر اسم بنى عامر دائماً على هذه الصورة ، سواء أكان سياق النحو يتطلب الرفع أو النصب ، ولعل السبب فى هذا غلبة العامية ، وليس هنالك سبب يمنع من استخدام صيغة الرفع برغم العرف الشائع .

وبنو عامر هم القبيلة البجاوية التى تحتل آخر أقاليم البجه من جهة الجنوب . وكما أن البشاريين لهم أوطان فى السودان ومصر ، كذلك لبنى عامر أوطان فى السودان والإرتريا : ولكن القياس مع الفارق ، لأن البشاريين فى القطر المصرى قليلو العدد ، بينما بنو عامر فى أرتريا يبلغون الستين ألفاً ، أو ما يقرب من ضعف عددهم فى السودان ؛ والمساحة التى يحتلونها فى السودان محدودة ، لعلها لا تزيد على خمسة آلاف ميل مربع ، وهى فى أقصى الجنوب الشرقى من مواطن البجه ، فى صورة مثلث ، أحد أضلاعه ساحل البحر ، من حدود إرتريا إلى جنوب سواكن بنحو ١٠ ك م . والضلع الثانى خط يمتد من ساحل البحر الأحمر ، فى اتجاه شمالى جنوبى مخترقاً سلسلة جبال أداريباب ، إلى أن يلتقى بحدود إرتريا ؛ والضلع الثالث هو الخط المتعرج الذى يمثل الحدود الأرترية السودانية فى هذا الإقليم .

أهم مظاهر التضاريس فى هذا الإقليم السودانى من أوطان بنى عامر ، هو السهل الساحلى ، وهو هنا أكثر اتساعاً منه فى أى جزء آخر من السودان . وذلك بسبب تراجع الجبال نحو الغرب من جهة ، وبسبب تقطعها الذى سبقت الإشارة إليه من جهة أخرى . هذا السهل هو أوسع ما يكون فى الشمال حيث تتوسطه مدينة طوكر ، ثم يضيق بالتدريج نحو الجنوب ، بالقرب من حدود إرتريا ، وفيما وراء مرفأ عقيق ، حيث نجد كتلة جبلية بارزة تحتل هذا الركن البعيد من السودان وتستمر إلى ما وراء حدود إرتريا وهى كتلة جبل أدراو ، التى يربو ارتفاعها على ٢٧٠٠ متر فوق سطح البحر .

وهنالك كتلة جبلية سبقت الإشارة إليها وهى كتلة جبل أداريباب ، ولكنها أضيق وأصغر وأقل ارتفاعاً ، وبين الكتلتين يجرى خور بركة إلى السهل الشمالى ، ووادى بركة نفسه تغلب عليه السهولة والاتساع .

وهكذا نرى أن أوطان بنى عامر فى السودان تشتمل على أربعة مظاهر تضاريسية : سهل ساحلى ، ينحدر إليه واد نهرى ، وهذا النهر ، أى خور بركة ، يعد بالنسبة لهذه الأقاليم نهراً عظيم الخطر ، وإن كان فى ذاته ضئيلا إذا قيس إلى الأنهار عامة ؛ ثم جبل عظيم فى الجنوب الشرقى ، وآخر أصغر منه فى الطرف الغربى .

ويجوز لنا أن نعتبر خور بركة هو المحور الذى تتألف حوله بلاد بنى عامر فى السودان ، بل وفى بلاد الإرتريا نفسها ، ونظراً لأن هذا الخور يجرى نحو الشمال ، ويلتى بمائه فى صورة دلتا فى إقليم طوكر ، فقد احتل بنو عامر جزءاً كبيراً من هذا السهل الشمالى أيضاً .

وأوطان بنى عامر فى إرتريا تزيد فى مساحتها على أوطانهم فى السودان ولعلها تبلغ الضعف أو أكثر . وإن كانت كلها تقريباً مركزة حول وادى بركة وروافده ، وهو الإقليم الذى يطلق عليه هناك اسم أغوردات ، وقد يصلون فى رحلاتهم وجولاتهم فى طلب المرعى إلى التوغل فى الجنوب صيفاً إلى وادى مارب (أعالى خور الجاش) وهى على كل حال لا تبعد كثيراً عن أعالى خور بركة .

وبلاد بنى عامر ينالها كلها تقريباً نصيب من الأمطار الشتوية ، التى تأتى مع الرياح الشمالية ، وهذا يتزايد كلما اتجهنا من الشمال إلى الجنوب فبينما المطر فى طوكر لا يزيد على ٨٨ م م إذا هو يصل فى عقيق إلى ١٣٨ م م ؛ وفى كلا الحالين يتساقط قليل من المطر فى الصيف على السهول الساحلية . غير أن هذا المطر الصيفى يزداد ويصبح هو الظاهرة المناخية الهامة إذا صعدنا فى وادى بركة وتوغلنا جنوباً إلى إقليم المرتفعات ، ذات المناخ الحبشى الملطف ، حيث يصل المطر إلى ما يقرب من ٤٠٠ و ٥٠٠ م م . وقليل من المطر الشتوى يصل أيضاً إلى الهضبة الإرترية . وقد شمل بعض أوطان بنى عامر هناك . ولئن كان من الصعب تحديد مدى انتشار الأمطار

الشتوية ، فإن السهل الساحلى فى إرتريا يناله النصيب الأكبر منها . ولذلك ينزح بنو عامر نحو الشرق فى الشتاء لرعى ماشيتهم .

وظاهر من هذا الوصف الموجز أن أوطان بنى عامر لموقعها الجنوبى ينالها من المطر نصيب أوفر ، ويزداد نبتهـا وعشبها وشجرها تبعاً لذلك ، وإن لم يكن المطر من الوفرة بحيث يساعد على الاستقرار التام . ولذلك كانت الحرفة الغالبة هى الرعى وإن أمكنت الزراعة فى بعض الجهات الملائمة ، بقطع النظر عن المشروعات الخاصة التى تمت فى منطقة طوكر ، ومكنت لكثير من بنى عامر وغيرهم من البجه أن يعيشوا عيشة الاستقرار فى أكمل مظاهره .

إن موقع بلاد بنى عامر يعرضهـا لطائفة من المؤثرات الخارجية ، فالإقليم الساحلى ، كما هى الحال فى الشمال ، يقابل هضبة العسير واليمن ، ويتعرض لجميع المؤثرات التى تتخذ طريقها فى البحر الأحمر . والهضبة الحبشية تمتد نحو الشمال حتى تتاخم بلاد بنى عامر . وهى تنحدر انحداراً تدريجياً من الجنوب إلى الشمال ، مما يجعل أوطان بنى عامر عرضة للتأثر بالمؤثرات المختلفة ، ثقافية أو اجتماعية ، التى مصدرها الهضبة الأثيوبية ، وعلى الأخص الأطراف الشمالية منهـا . فإذا كان بنو عامر فيما مضى شعبة خالصة من الجماعات البجاوية ، يشاركون غيرهم من البجه فى ثقافتهم وتقاليدهم ، وكانت أوطانهم الأصلية فى الأودية المحيطة بخور بركة ومرتفعات البحر الأحمر ، فإنهم على مضى الزمن قد تأثروا بالاختلاط بسكان السواحل ، وأكثرهم من جزيرة العرب . وبوجه خاص تأثروا بالهضبة الأريترية فى لغتهم وثقافاتهم . وتنازعتهم هـذه المؤثرات من الشرق والجنوب ؛ وكانوا هم الشعبة الوحيدة البجاوية التى تسربت إليها جميع هذه المؤثرات . ولاشك أن هذا التأثير لم يكن مقصوراً على اقتباس لغة أو ثقافة غريبة فى الأصل عنهم ، بل تناول أيضاً اختلافاً جنسياً ، تسربت به عناصر لم تكن كلها قوقازية إلى بعض طوائف بنى عامر فى آخر أوطانهم من جهة الجنوب . وربمـا كان بنو عامر فى السودان أكثر نقـاء وأبعد عن الاختلاط بالعناصر الغريبة ممن سكنوا إريتريا . ولذلك وجـد بينهم سلجمان خير أمثلة البجه النقيين ، الذين يشبهون المصريين القدماء أقرب المشابهة .

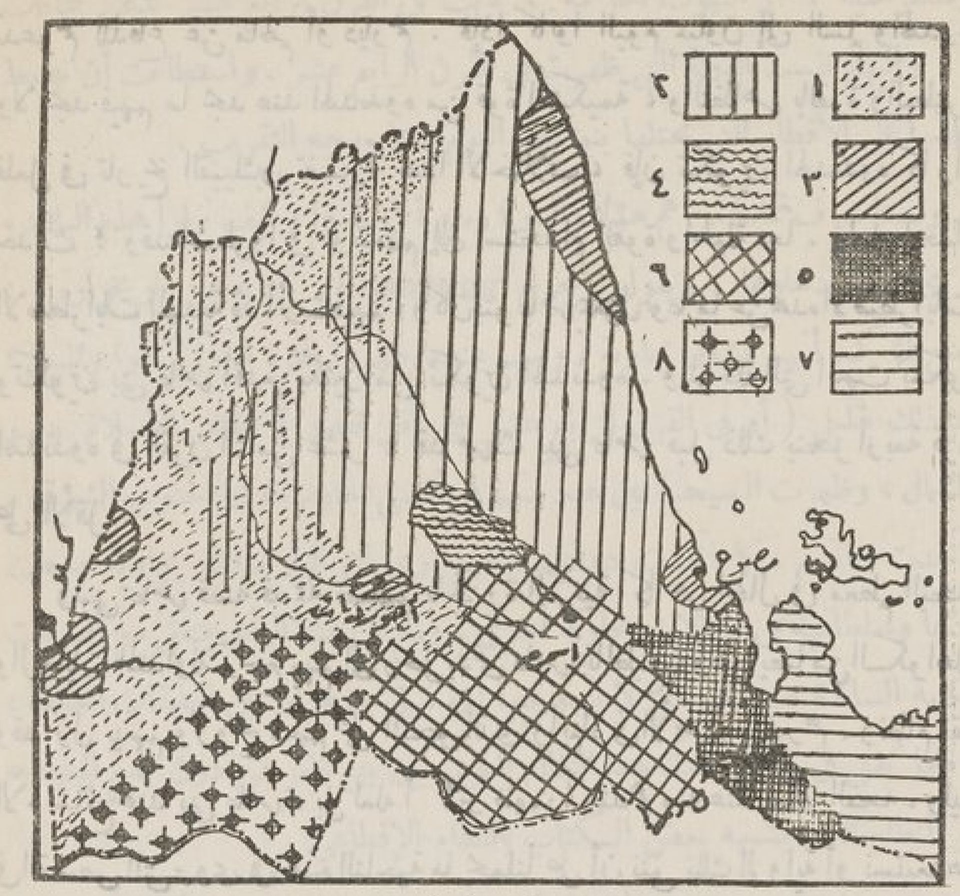
ولئن كانت المؤثرات الحبشية مصدرها الأول جزيرة العرب وإقليم اليمن ، فإن الهضبة الحبشية لم تكن قبل ذلك خالية من السكان ، بل كان فيها عناصر حامية وأخرى زنجية ، ثم جاءت الهجرات الحبشية ، تتدافع كالموج من الجنوب إلى الشمال ، وكل موجة تحمل معها عناصر جديدة تدفع العناصر التى كانت قبلها نحو الشمال . ولذلك كانت اللهجات الشمالية فى الهضبة الحبشية والأرترية أقدم من اللهجات الجنوبية ، وهذه اللهجات القديمة ، ومعها بعض السكان القدماء ، هى التى أثرت فى بنى عامر .

ومن أقدم اللغات السامية التى دخلت الهضبة لغة الجعز ، وتشبه اللغة الحميرية اليمنية ؛ واللهجة السائدة فى شمال أثيوبيا اليوم وهى اللغة التجرينية ، مشتقة من لغة الجعز القديمة . ولما كان مركز السلطان والحكم فى أثيوبيا فيما مضى فى الشمال ، كانت هذه اللغة ذات نفوذ واسع ، وصل إلى إقليم البجه ، وأثر فيهم وترتب على هذا التأثير نشوء لغة جديدة ، وهى خليط من الحامية والتجرينية ، وتسمى هذه لغة الخاسة أو لغة تجرة . وهى تختلف عن لغة شمال الحبشة اختلافاً جوهرياً ، بحيث يتعذر التفاهم بين سكان شمال الحبشة وبين بنى عامر ومن حولهم من القبائل التى تتكلم لغة تجره . من أجل هذا يرى بعض الكتاب تجنبا للبس أن نسمى اللغة السائدة فى شمال أثيوبيا اللغة التجرينية ، ولغة بنى عامر ومن حولهم من القبائل لغة تجره أو لغة خاسة نسبة إلى قبيلة من بنى عامر تعيش بالقرب من طوكر .

وهكذا نرى أن من بنى عامر جماعات تتكلم لغة تبداوى ، ولهجتهم فيها تقرب من لهجة الهدندوه ، وجماعات تتكلم لغة تجره ، وبعضهم يتكلم اللغتين ، وكثير منهم يجمع إلى هذا الإلمام بالعربية أيضا .

يختلف بنو عامر عن سائر البجه كما قدمنا بأن ديارهم موزعة بين السودان والأرترية ، وهذه حالة لا حول لهم فيها ولا حيلة . وهم أيضاً يختلفون عن سائر البجه بأنهم — فى الوقت الحاضر — أكثر جنوحاً إلى السلم والهدوء . وقد اغتر سلجمان بهذا المظهر فوصفهم بأنهم تنقصهم صفات الشجاعة وشدة المراس التى تبدو عند

سائر البجه ، أو التى كانت لهم فيما مضى(١) : ولا شك أن سلجمان مخطىء فى أن يصف نزعتهم السلمية بنقص الشجاعة ، وهو أكثر خطأ حين يصرف هذا الوصف



شكل (٩)
توزيع اللغات فى ارتريا (عن لنجرج)
(١) تبداوية (٢) تجره (٣) عربية (٤) بلين
(٥) ساهو (٦) تجرينية (٧) دنا كل (٨) زنجية

إلى الماضى أيضاً ، فقد أبلى بنو عامر بلاء حسناً فى الدفاع عن أوطانهم فى ارتريا أمام هجمات المغيرين من شمال الهضبة الحبشية . ولم يستطع النجاشى بسطوته وسلطانه فى القرن السادس عشر والسابع عشر على الرغم من غارات مجهزة ومتكررة أن يخضعهم ، واضطر فى النهاية أن يدعهم وشأنهم(٢) . وقد احتفظ بنو عامر بسلاحهم

(١) "Seemed to lack those qualities of courage and truculence that the other tribes still show or once possessed : S.N.R Vol XIII,. 1930, pt. 1. p. 83 "Note on the History and present Condition of the Beni Amer."

(٢) Longrigg, A Short History of Eritrea, 1948, p. 68. ff.

التقليدى وهو الرمح والدرقة ، ولم يقتبسوا استخدام السيف ، الذى تقدم فى السودان من الشمال مع تقدم الإسلام . ومع ذلك لم تنقصهم الشجاعة إذا طرأت ظروف تدعوهم للدفاع عن مالهم أو ديارهم . فإذا كانوا اليوم يميلون إلى السلم والهدوء ، ولا نجد فيهم ما نجد عند الهدندوه من قوة الشكيمة ، والتظاهر بالقوة والبطش ، فلعل فى تاريخ القبيلتين تفسيراً لهذا الاختلاف ، فإن تكوين الهدندوه كما رأينا حديث ؛ وقد اضطروا فى توسعهم إلى استخدام القوة والحيلة معاً . ولعل أحداث الاضطرابات المهدية قد أثرت فيهم ، وكان بنو عامر بمعزل نوعا ما عن هذه الاضطرابات . وتكوين بنى عامر أقدم بكثير من تكوين الهدندوه . والمرحلة التى انتهت بتكوين الهدندوه فى القرن الثامن عشر ، قد مرت ببنى عامر قبل ذلك بنحو أربعة قرون على الأقل .

ولبنى عامر قصة قديمة تصلهم بالجزيرة العربية كما هى الحال فى معظم البجه . والروايات المتداولة ترجع بهم إلى رجل يدعى عامراً بالطبع ، وهو أيضاً من الكواهلة . وقد نزل بينهم وتزوج منهم على النحو الذى رأيناه فى الأمرأر وغيرهم . ونظام نفوذ الأم شائع عند بنى عامر ، بل لعله أكثر ظهوراً عندهم منه عند سائر البجه . وليس فى القصص التى تروى فى هذه الناحية ما يحملنا على أن ننفى تلك الرواية أو نستبعدها ، فالنفوذ العربى عن طريق الساحل الشرقى للسودان وإرتريا واقع لا سبيل إلى إنكاره .

ومع أن وجود عامر هذا يفيدنا فى تفسير اسم بنى عامر ، فإنه لا يفيدنا فى استقصاء أصلهم وتاريخ تكوينهم . فإن ظهوره — حتى ولو سلمنا بأنه حادث تاريخى — إنما جاء بعد أن تكونت القبيلة فى أوطان لا تختلف كثيراً عن أوطانها الحالية . وكانت لها دولة تضم بيوتها وعشائرها ، وزعيم ، إن لم يكن حاكما مطلقاً ، فقد كان له من مظاهر الزعامة والملك الموروث بقدر ما تسمح بذلك تقاليد البجه ، وإن كان التنظيم السياسى والاجتماعى لبنى عامر أكثر دقة منه عند سائر البجه ، والأخبار التى بين أيدينا تدل على أن بنى عامر تكونت لهم « دولة » أو شبه دولة فى القرن الرابع عشر ، ولكنها لم تكن تسمى دولة بنى عامر بل دولة البِلُو Belu .

ومن النظام السائد بين بنى عامر إلى وقتنا هذا ، أن لهم عشائر تمثل طبقة

أرستقراطية ، وهى متغلغلة فى الأقسام المختلفة التى تنقسم إليها القبيلة ؛ وهذه الطبقة الأرستقراطية ، أو البيوت الحاكمة ، كانت فى القرن الرابع عشر تدعى جماعات بلو ، وإليهم تنسب الدولة التى ظهرت فى القرن الرابع عشر . واستطاعت أن تبسط سلطانها على الأقطار التى يحتلها بنو عامر اليوم ، على وجه التقريب .

ولسنا نعرف تماماً من هم هؤلاء البلو ؛ ومن أين جاءوا و كيف نزلوا هذه البلاد ، وفى أى عصر دخلوها . ويقول لونجرج Longrigg فى كتابه عن تاريخ إرتريا : إنه من المؤكد أنهم عشائر بجاوية ، وأنهم عندما ظهروا للمرة الأولى كانوا وثنيين ؛ وبعد ذلك بقليل (أو فى القرن الرابع عشر على أقل تقدير) انتشر الإسلام بينهم فى الشمال ، وظهرت المسيحية بين عدد منهم فى أقصى الجنوب ، أو الجنوب الشرقى . ثم اتحدت دياناتهم ، كما اتحدت دولتهم . فهو يرى أن البلو سلالة بجاوية بسطت نفوذها وسلطانها على سلالات بجاوية أخرى . ومع أن هذا الرأى يتفق مع الصفات الشكلية السائدة بينهم ، والتى لا يبدو فيها أى فرق جوهرى بين الطبقات المختلفة ، فإنه قلما يُغنى فى تفسير نشأة هذا النظام الطبقى بين بنى عامر من دون جميع البجه ، وهو النظام الذى يشبهه بعض الكتاب بالنظام الإقطاعى .

ويزعم راينش Reinisch أن الهدندوه الذين قابلهم ، ويزعمون أنهم عرب من أصل عربى ، يستخدمون كلمة بلاوى بمعنى عربى ، بخلاف كلمة بجاوى ، التى تثبت الانتساب إلى البجه[1] . وعلى فرض صحة ما زعمه راينش ، ولم يكن أساء الفهم أو النقل ، فليس من دليل على أن كلمة بلاوى هذه لها صلة بالبلو القدماء . ولكن هنالك شاهد آخر يرويه سلجمان نقلا عن كتاب ألفه رجل برتغالى مجهول ، ونقل إلى اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر . وموضوع الكتاب « موجز فى وصف نهر النيل » ، جاء فيه أن جزيرة سواكن يسكنها مائة من الترك ، ويقيم بها الباشا ، خارج نطاق الامبراطورية (لعله يقصد العثمانية) ، وهى (أى سواكن) فى الأصل تابعة لملك قوى محارب ، تسمى مملكته دولة بللو ، واسمها القديم نجران ؛ وجميع

---

(١) كما ورد فى مقالة سلجمان نقلا عن قاموس راينش المسمى :
Wörterbuch der Bedawie Sprache ص ٤٩

سكانها من العرب Moors . وهذه الرواية يضيف إليها سلجمان نقلا عن الأب لوبو بأن مملكة بلو الإسلامية كانت منتشرة إلى الغرب من سواكن فى القرن السادس عشر . وكان بينها وبين الأتراك نزاع طويل ، انتهى بالاتفاق بين البلو والترك على اقتسام الأموال التى تجبى من تجارة جزيرة سواكن . ويقول منزنجر فى كتابه « دراسات عن شرق أفريقية »(١) ، عند ما استولى الترك على مصوع فى القرن الخامس عشر(٢)! ، وجدوا البلو فيها ، وقد خلفوا حامية من الجند لم تلبث أن اختلطت بالسكان .

إذا تأملنا هذه الروايات ، لم نجد فيها ما يدل على أن البلو من العرب سوى إشارة البرتغالى المجهول الذى يصف البلو بأنهم Moor ، وهو اللفظ الذى اعتاد سكان شبه جزيرة إيبريا أن يصفوا به سكان المغرب . ثم اعتادوا أن يصفوا به كل جماعة تمتاز بالتقاطيع القوقازية والبشرة السمراء . ونستطيع أن نطمئن إلى أن هذا هو المعنى الذى قصد إليه الكاتب ، وأنه لم يدر بخلده أنه يصف جماعة عربية النشأة . ولكننا نقف مترددين قليلا عند ما نجده يصفهم بأن الاسم القديم لدولة البللو هو نجران . فهل كان من المصادفة البحتة أن يكون هذا الاسم القديم للدولة مطابقاً للقطر العربى المواجه لبلاد ارتريا ، أى البلاد التى ندعوها الآن العسير ، شمالى اليمن ؟

من الجائز أن هذا التطابق يرجع إلى الصدفة المحضة ؛ لأن من الصعب أن نفترض أن جماعات البلو ، عبارة عن قبيلة من نجران أسست دولة فى القرن الرابع عشر ، بعد أن هاجرت من الجزيرة العربية إلى السواحل الغربية للبحر الأحمر ، وبسطت نفوذها فى البلاد التى يحتلها بنو عامر اليوم . لأن هذه الهجرات على أحسن الافتراضات قد تمت فى القرن الثالث عشر ، أو قبل ذلك بقرن أو اثنين . فلا يعقل أن تكون هذه الجماعة أو الجماعات هاجرت من نجران حتى فى القرن العاشر ، وكانت

(١) ص ١٤٢ : Munzinger Ost-afrikanische Studien

(٢) هذه بلا شك هفوة من منزنجر ، لأن توغل الترك فى البحر الأحمر ، جاء بعد فتح سليم فى القرن السادس عشر .

مع ذلك قبائل وثنية . بعد أن انتشر الإسلام وتوطدت أركانه فى نجران وغيرها من البلاد العربية . وذلك بالرغم مما يقال بأن بلاد العسير لم تكن تخلو من بقايا الوثنية حتى القرن السابع عشر .

لذلك يبدو لنا أن البلو كانوا قبيلة بجاوية الأصل ، وربما جاز أن نظن أن قبيلة أو بيتاً من نجران نزل بينهم ، وساعد فى نشر الإسلام فيهم ، وسميت الدولة أول الأمر دولة نجران ، ثم غلب عليها اسم البلو أو اسم الشعب الأصلى بعد ذلك ، كما حدث فى سلطنة الفور ، وهذا يوضح أن البلو أنفسهم كانوا جماعة بجاوية تسربت إليها مؤثرات عربية ، وبسطت نفوذها على جماعات أخرى بجاوية تخالطها بعض الدماء الأجنبية .

ومهما يكن من شىء ، فإن وجود جماعة أرستقراطية بين بنى عامر ، دون سائر البجه ، ظاهرة تتطلب بعض الإيضاح . وإذا أردنا أن نحكم فى هذا الأمر بالقياس إلى نظائره فى أقطار أخرى ، لا بد لنا أن نفترض أن غزواً منظماً قد حدث ، بواسطة جماعة متماسكة منظمة ، لم تلبث أن فرضت سلطانها على جماعة أخرى كانت تحتل هذا الإقليم من قبل . وليس فى هذا وحده ما يدل على أن تلك الجماعة لم تكن بجاوية ، بل يكفى أن تكون هنالك قبيلة بجاوية تعيش فى إقليم محدود ، تأثرت بنظام خاص ، أو بمؤثرات خاصة ميزتها فتكونت لها شخصية قائمة بذاتها ، وجعلتها تحس بوحدتها ، وبما بينها وبين سائر الجماعات من الاختلاف ، على نسق يقرب مما حدث فى تكوين دولة الفنج . ومن الراجح أنها تأثرت بمؤثرات مصدرها الجزيرة العربية[1] . ثم أخذت هذه الجماعة الممتزة بوحدتها وكيانها الخاص ، تغزو الأقطار

---

(١) هنالك بعض شواهد تدل على أن البلو تعرضوا فى أثناء تكوينهم كجماعة مستقلة لمؤثرات تختلف عما تعرض لها سائر البجه . فيقول ما نسفيلد پاركنس Mansfield Parkyns (١٨٥٣) : إن البجه فى جوار مصوع كانوا يمثلون طبقه المحاربين ، ومن السهل تمييزهم عن غيرهم ممن حولهم من الرعاة ، بأنهم كانوا يحلقون شعر رءوسهم ، بينما الجماعات الأخرى تصفف شعرها فى صورة كتلة متجمعة على رأسهم . وليس هذا الوصف مقصوراً على المقيمين حول مصوع . وقد ذهب الأستاذ نادل Nadel (فى S.N.R. لسنة ١٩٤٥) إلى أن النبتاب ، الذين خلفوا البلو ، من أصل عربى ، وسائر السكان من البجه . وقد لاحظ أن الطبقة الأرستقراطية تحلق رأسها وتلبس العمامة ، بينما عامة البجه — ويسميهم تجرة — يرسلون شعرهم فى خصلات مضفورة على الطريقة البجاوية (ص ٧٩) .

التى تجاورها ، حتى أسست دولة تحتل سواحل البحر الأحمر من جنوب مصوع إلى شمال سواكن ، وتمتد فى الداخل إلى المجرى الأوسط لخور الجاش ؛ أى أنها احتلت مساحة تزيد كثيراً عن التى يحتلها بنو عامر فى الوقت الحاضر .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى نشأت دولة بلو ، ولكنها كانت قائمة بلا شك فى القرن الرابع عشر : وربما تم تكوينها قبل ذلك بنحو قرن ؛ وقد ناقش بعض الكتاب الرأى القائل بأن البلو كانوا فى الأصل نصارى ثم اعتنقوا الإسلام بالتدريج . وبنو عامر أنفسهم ينكرون هذا الزعم كل الإنكار ، وهذا طبيعى لأنهم يريدون أن يرجعوا نسبهم إلى العرب وينسون أو يتناسون تاريخهم الأول . والذى دعا إلى الظن بأن البلو كانوا نصارى قبل أن يعتنقوا الإسلام ، وجود إشارات فى بعض الروايات القديمة ومعظمها من مصدر حبشى ، ولعلها لا تنصرف إلا إلى الجنوبيين منهم ؛ ومن جهة أخرى يرى بعض الكتاب أن الحصيرة التى تحمل للمرأه من بني عامر عندما تتزوج تحمل رسم الصليب فى وسطها . وقد فسر كروسلاند ذلك بأن إشارة الصليب علامة سهلة ، ومن السهل على صانع الحصير أن يلجأ إليها كحلية ، دون أن يكون لذلك أى صلة بالتقاليد الدينية . ولكن سلجمان يرجح أنها من مخلفات العصر المسيحى[1] : ومن الجائز أن تكون هذه العلامة مقتبسة من جماعة مسيحية ، دون أن تكون دليلا على أن البلو أنفسهم كانوا مسيحيين وعلى الأخص القسم الشمالى منهم ، ولعل الأرجح ما ذهب إليه لونجرج Longrigg فى كتابه عن إرتريا ، أن البلو كانوا وثنيين عند ما بدأوا يبسطون سلطانهم على الإقليم الذى استولوا عليه ، وأن الشعبة الجنوبية منهم تعرضت للمؤثرات المسيحية ، التى مصدرها شمال الهضبة الحبشية ، على أيدى غزاة من قبيلة حباب ، بينما خضعت الشعبة الشمالية للنفوذ الإسلامى عن طريق موانئ البحر الأحمر . ثم كانت الغلبة للدين الإسلامى بعد ذلك عند جميع بنى عامر ، كما ذكرنا من قبل .

---

(١) راجع المجلد الأول والثانى من (مدونات السودان S.N.R. لسنة ١٩٣٠ — ويرى بول (مدونات السودان سنة ١٩٥٠) أن النصرانية والنظام الارستقراطى معاً دخلا عن طريق الحبشة الشمالية بواسطة قبيلة حباب الارستقراطية ، وأما البلو فكانوا فى نظره تغلب عليهم الدماء العربية ، ودينهم الإسلام .

هكذا تكونت دولة « البلو » بطبقتها الأرستقراطية ونظامها الإقطاعي ، وبيتها الحاكم وملكها الوراثي ، ولا شك أن القبائل المتفرقة « الخاضعة » لها كانت تتمتع بكثير من الاستقلال في ذلك الزمن كما هي اليوم . ولكنها كانت على الأرجح تدفع اتاوة للبيت الحاكم ، وربما أدت له خدمات أخرى . ومهما يكن من شيء ، فقد ظلت سيادة البلو قائمة من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر . وأمكن للبلو أن يثبتوا أمام القبائل التي تعيش في الهضبة الإرتيرية ، وأن يستولوا أحياناً على أطراف بلاد تجره الشمالية .

وامتداد دولة البلو من سواحل البحر الأحمر شمال سواكن إلى إقليم تجره ترتب عليه من غير شك أن امتد نفوذ البلو إلى جماعات تتكلم لغة تجره ، وهي كما ذكرنا لغة تشابه لغة الجعز القديمة ، كما أنها تشابه اللغة التجرينية السائدة في شمال الحبشة وجنوب ارتريا ، ولكن لهجة تجره متميزة عنهما ، ويطلق عليها أحيانا إسم لغة الخاسة نسبة إلى شعبة من بني عامر تعيش الآن حول طوكر وتدعى بهذا الاسم . وذكر المقريزي أنهم في عصره كانوا يعيشون بالقرب من سواكن ، وأنهم يدينون بالاسلام[1] .

وهكذا بسط البلو سلطانهم على قبائل يتكلم بعضها لغة تجره ، ويتكلم بعضها اللغة البداوية ، ولعل الأرجح أن لغة تجره قد امتدت إلى الشمال حتى جاوزت الحدود الحالية للسودان في عصر متقدم ، وحلت محل اللغة الأصلية للسكان في أنحاء مختلفة . فالشواهد كلها تدل على أن لغة تجره دخيلة على بني عامر ، لأن اشتقاقها من لغة الجعز ، وهي لغة سامية نقلها مهاجرون من اليمن ، نزلوا الهضبة الحبشية ، وتقدموا شمالا حتى نزلوا الأودية التي تؤدي إلى السودان . فنشروا لغتهم في وادي بركة وروافده عَنْصِيبَة ، حتى وصلت إلى إقليم طوكر وسواكن .

وليس مما يفيدنا الآن كثيراً عند ما ندرس خريطة توزيع اللغات اليوم (شكل ٩) أن نحاول أن نستخلص من هذا التوزيع أي اللغتين سبقت الأخرى ، وأيها كان أقدم في إقليم بعينه . لأن اضطراب القبائل البادية ظاهرة معروفة ، وقلة استقرارها من أهم مميزاتها . ولكنا نعلم أن دخول اللغات السامية الجنوبية

(١) الجزء الأول من الخطط (طبع مصر سنة ١٣٣٤ هـ) ص ٣١٩

متأخر ، وأن اللهجات البداوية ترجع إلى عصر حامى قديم .

والتوزيع الحالى — على علاتة — يرينا أن الجانب الغربى من بلاد بنى عامر لايزال تسوده اللغة البداوية ؛ وفى الجانب الشرقى (الساحلى) وعلى الأخص فى ارتريا تسود لغة تجره ، وتمتد غربا إلى وادى عنصيبة وخور بركة . غير أننا نجد فى هذين الواديين وفى الجهات الشمالية أن القبائل تعرف اللغتين ، وهذا ظاهر بوجه خاص فى خور بركة نفسه ، وفى المنطقة الجبلية الواقعة على حدود السودان وارتريا شرق وغرب خور بركة ، وفى الوقت الحاضر تمتد لغة تجره فى الشرق إلى جنوب مصوع وشمال أسمرة ، أى حيث لايوجد الآن شعبة من قبائل بنى عامر ، وإن كانت هذه الجهات داخلة فى دولة بلو القديمة . . .

وقد دامت دولة بلو كما ذكرنا إلى القرن السابع عشر ؛ ولكن فى أثناء القرن القرن السادس عشر أخذ يتطرق إليها الضعف من ناحيتين ، ظهور الأتراك على الساحل فى أوائل هذه الفترة ، ثم ظهور دولة الفنج من الجانب الغربى فى أواخرها .

وقد تأثرت دولة البلو بكلا المؤثرين ، ولكن التأثير التركى لم يكن بعيد المدى بل مقصوراً على الساحل ، وأدى إلى شىء من المشاركة فى جباية الأتاوات من السفن والقوافل ؛ أما تأثير الفنج فكان أبعد مدى . ولعله كان من أسباب الضعف التدريجى الذى تسرب إلى طبقة البلو . والأرجح أن نفوذ الفنج لم يؤد إلى إخضاع بنى عامر لسلطان الفنج ، أو إلى زوال دولة بلو ، بل جعل رئيس الدولة يسلم للفنج بالسيادة ، ويرسل إلى مندوبهم الهدايا بانتظام . ومن آثار نفوذ الفنج أن أصبح زعيم بنى عامر يدعى باسم الدقلال ، وهو لفظ مشتق من اصطلاحات الفنج ؛ ولا يزال هذا اللقب قائماً إلى اليوم . فإذا كان نفوذ الفنج كبيراً ، فإنه لم يؤد إلى زوال دولة بلو بشكلها ونظامها المألوف . ولكن تغييراً آخر حدث فى القرن السابع عشر ، وهو أن اسم البلو زال من الدولة ، ولم يعد لهذه الطبقة الحاكمة تلك السيادة التى لازمتها زهاء الأربعة القرون . بل اختفت فجأة ، وانتقلت السيادة إلى طبقة حاكمة جديدة ، لها اسم جديد وهو النبتاب Nabtab مع بقاء نظام الطبقات كما هو .

ولا تزال النبتاب إلى يومنا هذا هى الطبقة الحاكمة بين بنى عامر :

حدث هذا الانقلاب فجأة فى غضون القرن السابع عشر ، وفى وقت امتداد نفوذ سنار ؛ ولكن لا يعرف أن هنالك صلة بين زوال نفوذ البلو ، وحلول النبتاب محلهم . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما سبقت الإشارة إليه من أن البلو طبقة من المحاربين ، إلى جانب توليهم مناصب الزعامة القبيلية . فهذا يفسر لنا أنهم إذا اشتبكوا فى حرب ، ودامت هذه الحرب زمناً غير قصير ، وكان نصيبهم الهزيمة إثر الهزيمة ، فلا بد لهم بعد ذلك أن يزول نفوذهم تماماً ، وأن يسرف عدوهم فى الانتقام منهم حتى يبيدهم عن آخرهم .

ومع ذلك فليست لدينا عن هذا الحادث الخطير سوى رواية تكاد تشبه الأساطير ، يرويها بنو عامر إلى وقتنا هذا . وهذه الرواية — على علاتها — تحدثنا أن فقيهاً عالماً ورعاً من قبيلة الجمليين[1] ، وفد من النيل الأبيض ونزل فى ديار بنى عامر . فالتف حوله خلق كثير ، كما هى العادة ، ولم يلبث أن أصبح يتمتع بنفوذ كبير بين أتباعه وأنصاره ؛ بل فى بلاط الملك نفسه . وهنا مرة أخرى نفتش عن المرأة البجاوية . فإن هذا الفقيه الورع تاقت نفسه إلى الزواج بامرأة من البلو ولم يرض ، حسب بعض الروايات بما دون حفيدة الملك نفسه ، ولعل هذا الزواج تم بغير رضى أهلها أو بعضهم . فلم يمض على هذا الزواج شهر أو بعض شهر ، وفى بعض الروايات بضعة أيام ، حتى كان هذا العنصر أو الشخص الساخط على هذه الزيجة الجملية ، قد ازداد سخطه ، ولم يلبث أن جمع عصابة من أنصاره وأغار على الفقيه فقتله ، ولاذت زوجه بالفرار .

ثم تجرى القصة بعد ذلك فى مجراها المألوف — وقد رأينا مشابهاً لها عند البشاريين وغيرهم — فإن هذه السيدة البلوية لا تلبث أن تلد فتى يفوق الفتيان بأساً وعزماً ، فلا يلبث أن يبلغ أشده حتى يعرف ما حل بأبيه ، فيبادر إلى طلب الثأر ولا يزال يشن الحرب على البلو حتى يوقع بهم الهزيمة إثر الهزيمة . وينتهى به الأمر إلى تأسيس طبقة حاكمة جديدة وهى النبتاب ، التى لا تلبث أن تحل محل البلو ،

(١) هذا التقى الورع يدعى حسب أشهر الروايات على أبو قاسم ، واسم ملك البلو ، الذى زوجه ابنته أو حفيدته ادريس محمد ، ويفسرون اسم النبتاب بأن أبو قاسم وصف نفسه بأنه نبت من الأرض . (راجع مقال Paul المذكور ص ٢٢٤) .

وتصبح لها السيادة والزعامة فى جميع قبائل بنى عامر وشعبها فى ارتريا والسودان .

وأيا كانت الظروف التى استولى بها النبتاب على زمام الأمور ، فإن النظام القديم ، لم يتغير بأكثر من تغير اسم الطبقة الحاكمة . أما النظام نفسه فقد ظل قائماً كما كان . وقوام هذا النظام وجود طائفة ممتازة ، منتشرة بين جميع شعب بنى عامر ، وهذه الطائفة هى المعترف لها بالسيادة والحكم ، وما سواها من أبناء الشعب ، هم الرعية . والرئيس الأعلى أو الدقلال ، هو الزعيم المعترف بزعامته لجميع قبائل بنى عامر .

والأستاذ لونجرج يرى بحق أن وجود هذه الطبقة الحاكمة من النبتات كان قوة لها أثر فعال فى توحيد بنى عامر ، وجمع كلمتهم ، بصورة لا نجدها عند سائر البجه ، وهذا الاتحاد كان يشمل القبيلة وشعبها المختلفة فى ارتريا والسودان ، وقبل استيلاء الإيطاليين على ارتريا ، وقيام حدود سياسية بين شعبتى بنى عامر ، لم يكن للقبيلة سوى دقلال واحد : ولكن فى أول القرن العشرين ، عند ما فصلت الحدود بين السودان وإرتيريا رأت إدارة السودان من المصلحة أن يكون لبنى عامر دقلال فى السودان ولو أن إدارة السودان لا تدعوه دقلالا بل ناظراً ؛ وهو وإن كان من نفس الأسرة التى ينتمى إليها دقلال أرتيريا ، فإن سلطانه مقصور على شعبة بنى عامر التى تعيش فى السودان ، وعلى الرغم من هذا الانقسام يعترف جميع بنى عامر بقرابتهم وبالأواصر التى تربط بينهم ، على رغم الحدود السياسية التى شطرتهم شطرين . وليس بين الشعبتين عداوة أو خصومات ، كما كان بين بنى عامر والهدندوه . ولكن اختلاف الحكومتين ، اللتين تنتمى إليهما كل شعبة ، قد وجه كلا منهما وجهة مستقلة فى الحياة ، فاشترك بنو عامر فى السودان فى المشاريع الزراعية فى منطقة طوكر وكسلا ولم يقبل على هذا من شعبة ارتريا أحد إلا فى القليل النادر . وكثير من سكان إرتيريا قد ينتقلون للرعى أو التجارة إلى سهول السودان ، ولكنهم يعودون إلى أوطانهم فى ارتريا . أما الشعبة السودانية فإن انتقال أفرادها إلى إرتريا قليل جداً .

ويتحدث الأستاذ سلجمان عن النبتاب ومركزهم الممتاز فى قبائل بنى عامر ،

فيقول[1] : إنه يجدر بنا ألا نحكم على هذا المركز الممتاز بما نشاهده فى الوقت الحاضر ، نظراً لأن الحكومات القائمة لا تشجع هؤلاء الزعماء على الاحتفاظ بكل ما لهم من السلطان . ثم يروى نقلا عن منزنجر أن النبتاب كانت لهم السيادة الحقيقية ، ويتطلبون الخضوع التام من سائر الطبقات . وكانت لهم حقوق فيما تملكه هذه الجماعات من الماشية ، ولهم نصيب مما يحصلون عليه من الغنائم فى غاراتهم ، وكان لهم حق الحكم بالموت ، وإذا قتل واحد منهم فرداً من الرعية ، لم يطالب بدفع دية .

ويقول سلجمان إن النبتاب إلى وقت قريب ، وأقاربهم من جماعة عد هسرى كانوا الوحيدين الذين يملكون الإبل ؛ وحتى فى العصور الحديثة لم تقتن البدنات الأخرى من بنى عامر سوى القليل منها ، وأكثر ماشية هذه الجماعات الضأن والماعز والبقر . ونظراً لما للإبل من القيمة الممتازة عند البجه على سائر أنواع الماشية ، فلا شك أن تملكها والاستئثار بها من علامات الثروة والجاه . وكذلك يشير سلجمان إلى احتمال أن هنالك علاقة بين امتلاك الإبل ، وبين ادعاء النبتاب أنهم من أصل عربى ، لأن الجماعات صاحبة الإبل تنظر باحتقار إلى الآخرين الذين لا يملكون إبلا ، وتصفهم بأنهم رعية أو رقيق . ولا شك أن سلجمان مخطىء فى هذا ، فإن تملك الإبل أمر شائع عند جميع البجه ، وإذا كان النبتاب قد حرموا على غيرهم امتلاك الإبل واستأثروا بها فإن هذا لا صلة بينه وبين النسب العربى . ومع التسليم بأن النبتاب ينظرون إلى الطبقات التى يحكمونها على أنها أحط منهم منزلة ، فإنهم لا يفعلون ذلك لأن هذه الطبقات قليلة الإبل ، فقلة الإبل ليست سبباً بل نتيجة لتسلط النبتاب واستئثارهم بالحكم .

ويورد سلجمان أقساماً كثيرة لبنى عامر ، مستقياً معلوماته من شيخ من النبتاب فى بلدة عقيق جنوب شرق طوكر . وعدد هذه الأقسام ثمانية عشر ، وكل قسم كبير فى بنى عامر يدعى عَدْ أو بيت ؛ وأحياناً يدعى القسم بدنة (الجمع بدنات) ؛ كما هى الحال عند سائر البجه ، بل وكثير من القبائل العربية ، وكل عد مقسم إلى

---

(١) راجع مقاله فى مدونات السودان S.N.R. لسنة ١٩٣٠ ص ٩٦ وما بعدها .

حصص (جمع حصة) . وأقسام سلجمان تتناول البجه فى السودان وإرتريا . ولكن الظاهر أن أقسامه الثمانية عشر لاتستوعب جميع قبائل بنى عامر ، لأن لونجرج الذى قصر بحثه على إرتيريا قد أورد أسماء لنحو ٢٥ أو ٢٦ قسما ؛ وذلك فى إرتيريا وحدها . وأقسامه تختلف من حيث الحجم ، فبعضها مثل الداجا ، وهم الطبقة التى تشتمل على معظم النبتاب ، يبلغون نحو ١٢,٠٠٠ نسمة ، وبعض الشعب مثل عد على لا يزيد على ٣٠٠ .

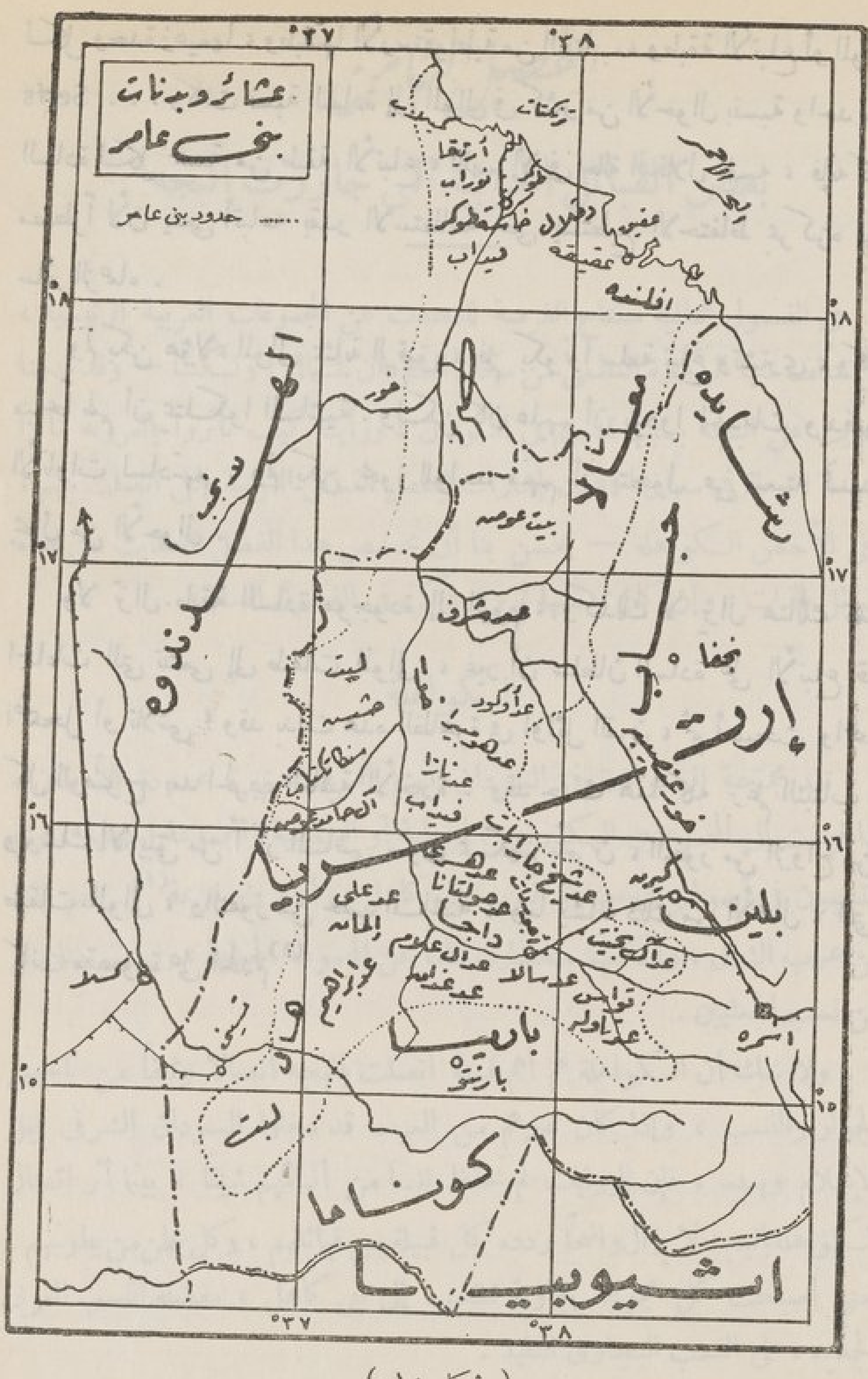
ويرى الأستاذ نادل[١] أن تقسيم بنى عامر إلى بدنات وحصص ، إنما يتناول طبقة النبتاب وحدها دون طبقة الموالى ، الذين لا يحسب لهم حساب ؛ وهو يرى أن طبقات الموالى تكونت من عناصر مختلفة بعضها من البلو الذين غلبوا على أمرهم ، وبعضهم من جماعات أخرى تنتمى للهدندوه أو لبعض القبائل التى خضعت ودانت للنبتاب . وأكثر الموالى بقايا قبائل قديمة انمحت آثارها ، وضاعت معالمها بسبب خضوع أفرادها زمنا طويلا لحكم النبتاب .

وبنو عامر يمارسون الزراعة بدرجة محدودة فى بعض الأودية . ولم يتوسعوا فيها إلا فى ظروف خاصة ، كما هى الحال فى طوكر . وهنا أقبلوا على الزراعة إقبالا شديداً ، وأبدوا فيها تفوقا على الهدندوه فى كسلا ، وزراعتهم فيما عدا ذلك قليلة . ولا تزال حرفة الرعى هى السائدة بينهم ، ولهم انتقالات موسمية ، فى طلب الكلأ . فمع أن أوطانهم الرئيسية متجمعة حول خور بركة وروافده ، فإن لهم انتقالات فى الشتاء إلى المنحدرات الشرقية ، وفى الصيف إلى الجهات الغربية ، وذلك بالطبع تبعاً لمواسم المطر .

ولا بد من الإشارة إلى أنه على الرغم من الوصف السائد لبنى عامر بأنهم قبيلة واحدة ؛ فإن عددها الكبير ، والنظام الإقطاعى الذى كان سائداً بينها ولا تزال آثاره قائمة ، يجعل وصفنا إياهم بقبائل بنى عامر أقرب إلى الصواب ؛ لأن كل عد يبلغ تعداده فى كثير من الأحيان تعداد قبيلة كاملة ، ولذلك وصفهم بعض الكتاب بأنهم عبارة عن اتحاد قبائل ، وخصوصاً أن المجموعة كلها تتألف من وحدات قبلية ،

---

(١) مقاله السالف الذكر ص ٥٦ ، ٥٧



عشائر وبدنات
بني عامر
حدود بني عامر
٣٧°
٣٨°
١٨°
١٧°
١٦°
١٥°
زنكتات
أرتيقا
فيداب
عقيقة
الفلنمه
بيت عوصه
نجفا
إرتريا
بلين
عد علي
المانه
داجا
توابس
باريا
بارنتو
كوناما
أشيوبيا
أسمره

(شكل ١٠)

لكل وحدة زعيمها ، وطبقتها الأرستقراطية من النبتاب ، وطبقة الأتباع أو الموالى Serfs . . . وكانت نسبة السادة إلى الموالى فى كثير من الأحوال بنسبة واحد من السادة لكل خمسة من طبقة الأتباع ، اللهم إلا فى حالة الدقلال نفسه ، فإنه كان مضطراً لأن ينمى أتباعه بقدر الاستطاعة حتى يستطيع الاحتفاظ بمركزه بين سائر الزعماء .

ولم يكن هؤلاء الموالى بمثابة الرقيق ، فلم يكونوا سلعة تباع وتشترى ، وكان مباحاً لهم أن يمتلكوا الماشية . ولكن كان عليهم أن يؤدوا الخدمات ويدفعوا الأتاوات لسادتهم . ولم يكن يجوز للواحد منهم أن يتحول عن تبعيته لسيده بحال من الأحوال .

ولا تزال طبقة السادة موجودة إلى اليوم ، وكذلك لا يزال هنالك تلك الجماعات التى تنتمى إلى طبقات الموالى ، غير أن سلطان السادة على الأتباع قد اضمحل أو تلاشى ؛ وقد بدأت هذه الظاهرة فى أوائل القرن ، ثم أصبحت واضحة كل الوضوح بعد الحرب العالمية الأخيرة . وقد حدث هذا كله برغم النبتاب ، ويوشك ألا يبقى من آثار الماضى سوى تمسكهم بأمرين ، النفور من الزواج من طبقات الموالى ، والنفور من حلب الماشية ، وما يشابه ذلك من الأعمال ، التى كانت مقصورة على الخدم[١] .

---

(١) راجع مقالة مستر ا . پول فى S.N.R (الجزء الثانى من مجلد ٣١ (١٩٥٠) صفحة ٢٢٧ وما بعدها . وكذلك مقال الأستاذ نادل فى سنة ١٩٤٥ من تلك المجلة .

الفصل الثامن

بعض القبائل العربية التى جاورت البجه

فى الفصول التالية ستتاح الفرصة للتحدث عن المجموعات العربية الرئيسية ، التى تتألف منها الكثرة العظمى من سكان السودان الشمالى ؛ ولكننا — وقد قدمنا الحديث عن البجه بسبب قدمهم فى السودان ، ورأينا كيف تأثروا بالعروبة تأثراً شديداً ؛ وجاء فى سياق الحديث إشارات لبعض القبائل العربية التى اتصلت بهم ، وعلى الأخص الكواهله — يحسن بنا أن نخصص هذا الفصل للحديث عن هذه القبائل بالذات ، وإن كان بعضها لم يرد ذكره فى الفصول السابقة .

الكواهلة

تعد مجموعة الكواهلة فى السودان اليوم مجموعة صغيرة محدودة الأوطان ، إذا قيست إلى المجموعتين الكبيرتين : الجعلية أو العباسية والمجموعة الجهنية ، وهم ينتسبون فى أصولهم فى جزيرة العرب إلى كاهل بن أسد بن خزيمة[1] . فهم إذن من عرب الشمال ، ولكنهم منفصلون تماماً عن المجموعة الجعلية ، ونسبهم منفصل عن نسب الجعليين .

ولا شك أن الكواهلة هم أهم قبيلة اتصلت بالبجه اتصالا وثيقاً من ناحيتى الجوار والنسب ، وإذا كان غيرهم من العرب قد دخلوا السودان الشرقى قبل الإسلام وبعده ، فإن الروايات لم تحفظ لنا من أنبائهم شيئاً ، بينما أثر اتصال الكواهله بالبجه لا يزال واضحاً تردده كل قبيلة من قبائلهم ، وكل بطن من بطونهم ، حتى أصبحت كل مجموعة بجاوية تنتسب إلى بنى كاهل ، مفضلة النسب العربى الجديد ، على النسب البجاوى التليد .

---

(١) قبيلة أسد وبطونها ، هى القبيلة التى كان يحكمها حجر أبو امرىء القيس الشاعر ، والتى ثارت عليه وقتلته لظلمه . وكانت مواطنها فى شمال نجد ، وقد انتقلت بعد ذلك إلى غرب الجزيرة العربية بالتدريج ، ومن هذا الجانب الغربى دخلت السودان .

والأمر الوحيد الذى يعجب له المتأمل فى توزيع القبائل والبطون فى السودان اليوم ، أن الكواهلة لم يبق لهم فى السودان الشمال الشرقى مكان يستحق الذكر ، وليس هنالك وحدة قبلية من بنى كاهل تعيش اليوم وسط البجه ، ولولا أن الكواهلة قد اتخذوا أوطاناً أخرى فى السودان ، لكانوا اليوم مجرد أحاديث تروى ، بعد أن اندمجوا فى البجه كل الاندماج .

ومن دواعى الأسف أن المعلومات التى دونت عن الكواهلة بوجه عام قليلة . برغم ما لهم من المكان الواضح فى التطور التاريخى لبعض القبائل[1] ، وبرغم انتشارهم الواسع فى شرق السودان قديما ، وفى الوسط والغرب بعد ذلك . ويكاد أن يكون من المؤكد أن الكواهلة — أو معظمهم — قد دخلوا السودان من الشرق ، ووصلوا إليه من الجزيرة العربية مباشرة . وبدأوا حياتهم فيه باحتلال الإقليم الساحلى . أو جزء عظيم منه . من سواكن إلى عيذاب ، حيث اختلطوا بالبجه وتعلموا لسانهم وصاهروهم . وربما كان لهم الأثر الأكبر فى نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم . وكان لهم أثرهم أيضا فى تنظيم التجارة والقوافل بين وادى النيل والبحر الأحمر .

وليس للكواهلة اليوم — كما ذكرنا — أوطان فى أرض البجه ؛ وأوطانهم اليوم مبعثرة فى جهات متعددة ، أخصها إقليم النيل الأبيض ، وأواسط كردوفان ، ولم يحاول أحد من الكتاب أن يجد صلة بين الكواهلة الذين يعيشون فى أوطانهم الحالية ، وبين تلك القبيلة التى اتصلت بالبجه وصاهرتهم واندمجت فيهم . غير أن الشواهد التى بين أيدينا تدل كلها على أن جميع الكواهلة — بما فى ذلك القبائل التى تفرعت عنهم ودعيت بأسماء أخرى — قد كانت لهم هجرة واحدة من مصدر واحد ، وأنهم انتشروا على مدى القرون من الشرق إلى الغرب ، انتشاراً تدريجياً .

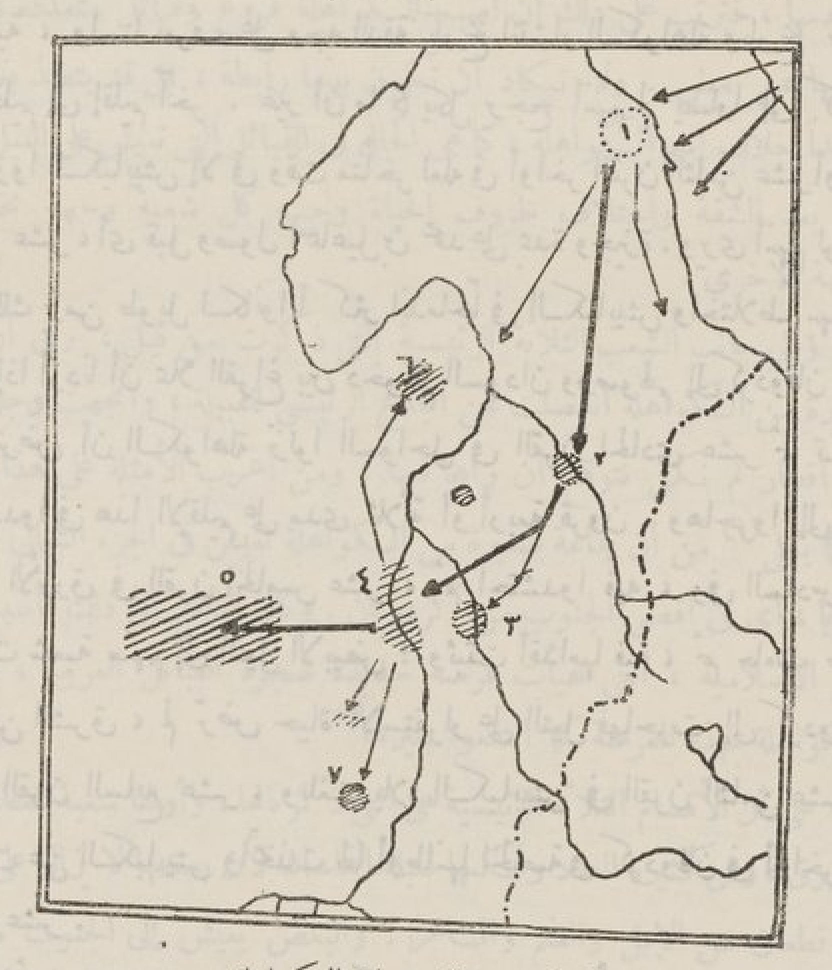
فمنازلهم الأولى فى السودان كانت السواحل الشرقية ، وما يليها من الأقاليم ، وقد عاشوا فيها زمناً ، وازداد عددهم ، ثم أخذت بعد ذلك بطون منهم تنزح عن

---

(١) يراجع ما كتبه ماكمايكل فى كتابه عن تاريخ العرب فى السودان ، وكتابه عن قبائل كردوفان . وهنالك بحث أوفى عن الكواهلة فى اقليم النيل الأبيض فى مقال المستر ريد فى مدونات السودان S,N,R, لسنة ١٩٣٠ ص ١٤٩ وما بعدها ، عنوانه Some Notes on the Tribes of the White Nile Province

تلك الأقاليم ، وتتحول نحو المغرب ، فنزلوا بإقليم العطبرة ، والنيل الأزرق ، ثم ارتحل منهم خلق كثير إلى النيل الأبيض ، واحتلوا جزءاً كبيراً منه على الضفتين الشرقية والغربية . ثم أخذوا يتوغلون فى بلاد كردوفان الوسطى والشمالية ، وخالطوا الكبابيش فترة من الزمن ، ثم ارتحلوا عنهم واتخذوا لهم أوطاناً مستقلة فى النصف الشمالى من كردوفان .

وهكذا يبدو أن من الممكن أن نقسم تاريخهم فى السودان إلى مراحل :



(شكل ١١) هجرات الكواهلة

(١) الوطن الأول (٢) بعض الكواهلة على العطبرة (٣) النيل الأزرق (٤) الكواهلة والحسانية الخ على النيل الأبيض (٥) فى شمال كردوفان (٦) الحسانية فى بيوضه (٧) الكواهلة فى تقلى

الأولى : نزولهم بالجهات الساحلية واستقرارهم فيها . وهذا قد تم فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر ، لأن ابن بطوطة يحدثنا أنه وجدهم مخالطين للبجه ،

عارفين بلسانهم فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى (١) . وقد زال أثر الكواهلة فى هذه الأقاليم كما ذكرنا ، بسبب اندماجهم التام فى قبائل البجه .

والثانية : تمثل نزوحهم إلى جهات عطبره وخور الجاش وسنار ، ولا تزال لهم أوطان محدودة فى هذه الجهات .

والثالثة : نزوحهم إلى النيل الأبيض ثم إلى كردوفان وبيوضه وغيرها . وهكذا تعددت أوطانهم فى مختلف الأنحاء . وإن كانت قد زالت من الجهات الساحلية الشرقية ، ولسنا نعرف على وجه الدقة تاريخ انتشار الكواهلة وتاريخ نزوحهم من إقليم إلى إقليم آخر . غير أن ما كما يكل يرجح أنهم لم يصلوا إلى كردوفان ويجاوروا الكبابيش إلا فى وقت متأخر لعله فى أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل التاسع عشر ، أى قبل وصول اسماعيل بن محمد على بمدة وجيزة . ويرى أنهم لو دخلوا قبل ذلك بزمن طويل لكانوا أكثر اندماجاً فى الكبابيش واختلاطاً بهم .

فإذا أردنا أن نملأ الفراغ بين دخولهم السودان ووصولهم إلى كردوفان أمكننا أن نفترض أن الكواهلة نزلوا السواحل فى القرن الحادى عشر ثم تكاثروا واحتشدوا فى هذا الإقليم على مدى ثلاثة أو أربعة قرون . وهاجروا إلى عطبره والنيل الأزرق فى القرن الخامس عشر ، ثم احتشدوا فيه ، وفى السادس عشر هاجرت شعبة منهم إلى النيل الأبيض ؛ وثبتت أقدامها فيه ، ثم جاءت طوائف منهم من الشرق ، لم ترض حياة الاستقرار على النيل فهاجرت إلى كردوفان فى أواخر القرن السابع عشر ، وبلغت بلاد الكبابيش فى القرن الثامن عشر ، ثم انفصلت عن الكبابيش واتخذت لها أوطانها الخاصة فى كردوفان فى أواخر القرن التاسع عشر .

والأنباء القليلة التى لدينا عن الكواهلة ، تشعرنا بأن لهم ميزة خاصة امتازوا بها ، وهى سهولة اختلاطهم بغيرهم من القبائل ، ونجاحهم فى استعمار أقطار بالاختلاط بأهلها . وبسط نفوذهم عليها بعد ذلك . ومقدرتهم على استيعاب عناصر غريبة عنهم .

---

(١) راجع مهذب رحلة ابن بطوطة (بولاق ١٩٣٧) الجزء الأول ص ١٨٨ و ص ٢٢٢ ؛ ويشير ابن بطوطة إلى وجود جماعات عربية أخرى فى بلاد البجه ، مثل كنانة ودغيم ، وبعض بنى جهينة ، وهؤلاء جميعاً لا وجود لهم بين البجه اليوم .

فالأصل فى الـكواهلة أنهم من العرب العدنانيين ، ويرجعون بنسبهم إلى الزبير ابن العوام ، وهو من بنى هاشم . وعلى الرغم من نسبهم العدنانى ، نراهم فى ظروف متعددة يحتضنون جماعات من قبائل أخرى ، بعضها من أصل قحطانى ، وبعضها مثل العبابدة أقرب إلى البجه . ولقد كان لهذه السياسة بعض الفضل فى الإكثار من عددهم واتساع سلطانهم ، غير أن التوسع الـكبير الذى انساقت إليه القبيلة ، وما أدى إليه من احتلال أقطار متباعدة قد جعل من المستحيل عليها أن تحتفظ بوحدتها ، فترتب على ذلك أن أصبح للـكواهلة فروع وقبائل متعددة ، منفصل بعضها عن بعض . ولا تـكاد أن تكون بينها رابطة ، بل قد يتخذ بعضها اسماً جديداً خلاف اسم الـكواهلة ، كما هى الحال فى القبائل التى تعيش على النيل الأبيض لأن بعد الشقة واختلاف ظروف الحياة وجـه كل شعبة وجهة تختلف عن وجهة الأخرى .

وإلى جانب الشعب الثلاثة الرئيسية التى ذكرت من قبل ، نرى أن جماعات صغيرة من الـكواهلة انفصلت عن الجذع الرئيسى للقبيلة ، واتجهت وجهة مستقلة إلى أقطار لم نكن نتوقع أن نراها فيها . ومن أغرب الأمثلة على هذا ما ذكره ماكمايكل(١) من أن جماعة صغيرة من الـكواهلة تعيش فى الجزء الشمالى من جبال النوبا ، أى فى أقصى الجنوب من كردوفان . وكان الدافع إلى ذلك تأسيس مملـكة تقلى الإسلامية ، التى هيأت فرصة جديدة لهجرة القبائل العربية ، وقد انتفع الـكواهلة بهذه الفرصة كما انتفعوا بغيرها(٢) .

على أن الأقسام الثلاثة الرئيسية هى التى ذكرناها . وأولها شعبة العطبرة والنيل الأزرق ، وهى كثيرة العدد ولـكنها قليلة التماسك لأن بعضها لا يزال على البداوة ، وله قطعان من الإبل والغنم والماعز . والبعض يعيش إلى الجنوب من سنار ، شرق وغرب النيل الأزرق ، وعلى نهرى رهد ودندر . وكثير من هؤلاء قد جنح إلى الزراعة وحياة الاستقرار .

أما القسم الثانى الذى يعيش حول النيل الأبيض فلدينا عنه معلومات أوفى ،

---

(١) فى كتابه قبائل كردوفان Tribes of N, & C, Kordofan p, 204

(٢) راجع مقالة مستر R. J. Elles عن مملـكة تقلى فى مدونات السودان S. N. R لسنة ١٩٣٥ الجزء الأول .

وإن كانت فى ذاتها قليلة . وهم أكثر الأقسام عدداً على الرغم مما تكبدته من الخسائر فى زمن المهدية . ونحن مدينون بالقليل الذى نعرفه عنهم إلى مقال مستر ريد عن قبائل النيل الأبيض(١) .

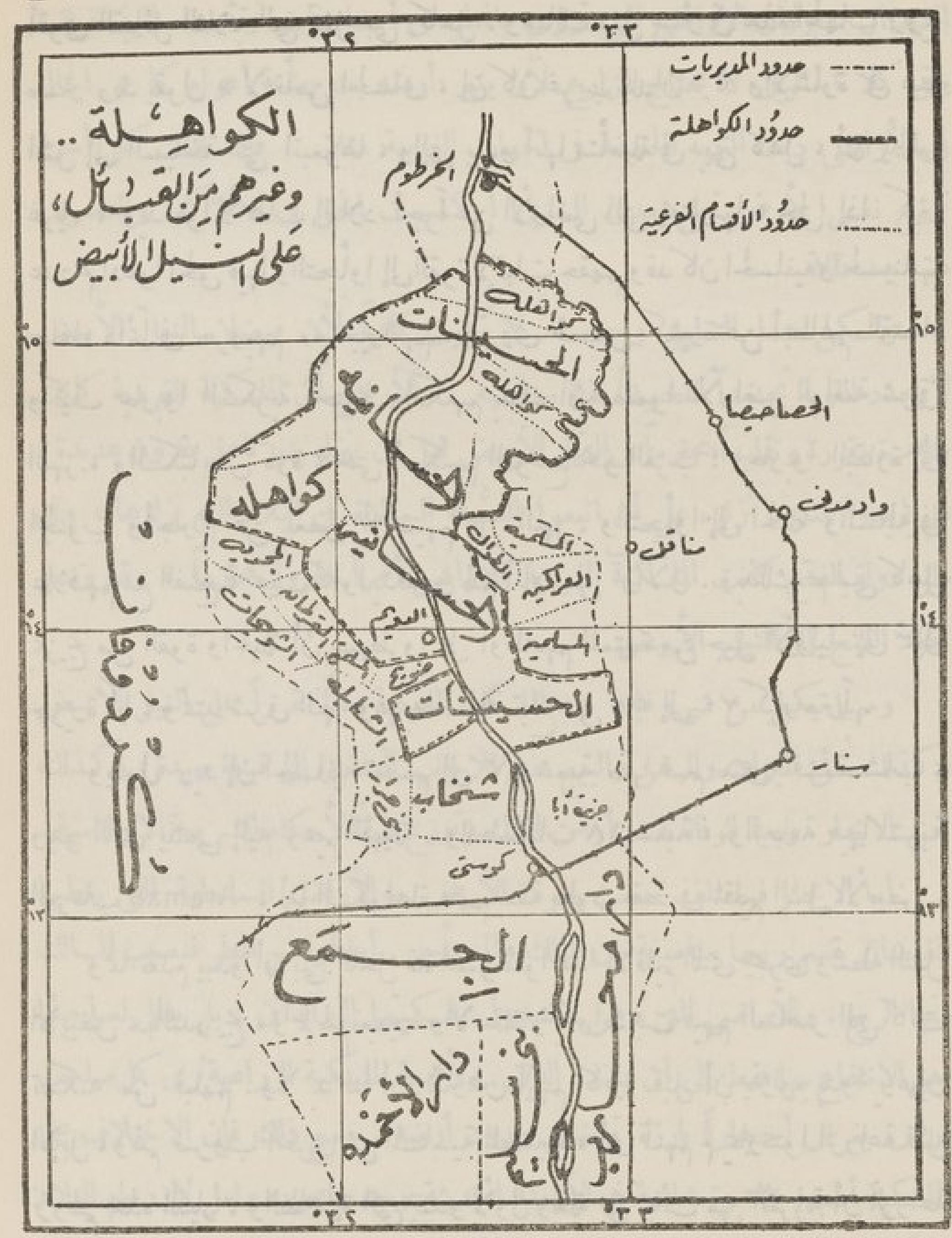
وعلى الرغم من أن قسما واحدا من القبائل العربية على النيل الأبيض يسمى « الكواهلة » . فان هنالك قبائل أخرى مثل الحسانية والحسينات تنتسب أيضاً إلى بنى كاهل . وكذلك هنالك قبائل أخرى يصفها ريد بأنها من البقارة ، وهى أيضا متأثرة بالكواهلة . والظاهر أن الكواهلة كان لهم أثر كبير فى الاستقرار العربى على ضفاف النيل من خط العرض الثانى عشر جنوبا إلى اقليم جبل الأولياء شمالا : أى مسافة تتراوح بين ٣٥٠ و ٤٠٠ كيلو متر ، وهذه المنطقة هى أبعد توسع للنفوذ العربى على ضفاف النيل الأبيض نحو الجنوب . ويقسم المستر ريد هذه المساحة إلى قسمين متساويين تقريبا ، ويخصص النصف الشمالى منها للكواهلة والنصف الجنوب للبطون الجملية والبقارة ، وهذا النصف الشمالى موزع بين ثلاث قبائل : الكواهلة ، والحسانية ، والحسينات . وهم موزعون من غير نظام مطرد فى هذه المساحة غرب النهر وشرقيه ، فالكواهلة مثلا منهم شعبة فى الشمال وأخرى فى الشمال الغربى وثالثة فى الغرب بعيدة عن النهر . والحسينات لهم أوطان فى الشمال وأخرى فى الجنوب ، والحسانية أوطانهم أكثر تجاورا وتحتل الجزء الأوسط ، وأكثرها إلى غرب النهر (شكل ١٢) .

والظاهر أن نزول بنى كاهل فى هذا الإقليم ، كان جزءاً من هجرات اتجهت نحو الغرب ، على مدى أجيال عديدة . فأما البطون الغنية بإبلها فلم تطب لها الإقامة على ضفاف النهر ، واستأنفت أو تابعت هجرتها نحو الغرب . وأما الذين قلت إبلهم فالتزموا النهر ومارسوا الزراعة .

كذلك لا بد لنا أن نذكر أن بنى كاهل لم يجدوا أوطانهم على النيل الأبيض خالية من السكان ، بل وجدوا فيها عناصر بعضها قوقازى والبعض مولد . وقد تمكنوا بالحيلة والحرب من توطيد أقدامهم حتى تمت لهم السيادة فى هذا الإقليم . وأول من نزل هذا الإقليم فريق من بنى كاهل ينتمى إلى الشعبة التى تدعى عرواب :

(١) المقال السابق ذكره .

وهؤلاء نزلوا الأطراف الشمالية . ثم جاء من بعدهم الحسينات ، وزاحموهم فى هذا القسم الشمالى ، وصالحوهم على تعويض دفعوه لهم من الإبل . وعلى أثر الحسينات جاءت الحسانيـة . ولعلهم جاءوا أول الأمر لمساعدة الحسينات فى حروبهم مع



(شكل ١٢) بعض قبائل النيل الأبيض كما أوردها مستر ريد

المسـلمية . أو لعل المسلمية استنجدت بهم لمساعدتهم فى الحرب مع قبائل الجنوب . فلما تم النصر بفضل تدخل الحسانية ، زاحموا المسلمية فى أوطانهم ثم دارت حروب

كان فيها الحسانية والحسينات حلفاء وكان لهم فيها الفوز على المسلمية وغيرهم من القبائل التى تحتل ضفاف النهر .

وعلى الرغم من أن الحسانية جاءوا بعد أبناء عمهم الحسينات ، فإنهم أصبحوا أقوى القبائل الثلاثة التى تمثل بنى كاهل . وهنالك مثل سائر فى هذه الجهات يرويه مستر ريد يقول « لا تأمن الحسانى ، إن كان غريب بلدان . » والاشارة فى هذا المثل إلى السياسة التى اتبعوها ، والتى يبدو أنها متأصلة فى بنى كاهل ، أن ينزلوا غرباء ، ويدفعوا لأصحاب البلاد أجراً عن الأراضى التى يحتلونها ، حتى إذا كثر عددهم ادعوا الحق فيها والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم وقد كان الحسانية والحسينات حلفاء دائماً فى حروبهم مع جيرانهم . وتروى قصص كثيرة عن أبطالهم القدماء وكيف حاربوا الشكرية أحيانا وامكنهم بذلك أن يضموا الأراضى الواقعة شرق النهر ، والكبابيش تارة ، حتى أمكنهم التوسع نحو الغرب ؛ وحاربوا البقارة إلى الجنوب وأجلوهم عن بعض أراضيهم على النهر . والتجأوا إلى الحيلة والمسالمة فى علاقتهم مع الفنج ، بحيث كانوا يدفعون لهم أتاوة من آن لآن . وبذلك تم لبنى كاهل بمزيج من القوة والحيلة أن يسيطروا على أوطانهم الممتدة من جبل الأولياء إلى شمال جزيرة آبا ، وتمتد شرق النهر وغربه مسافة تبلغ من ٥٠ إلى ٧٠ كيلو متراً .

ويقول ريد إن الحسانية تنقسم إلى ٢٧ شعبة منها قسم يدعى قُشْقَشاب ، وهو الذى ينتمى إليه زعيم القبيلة . وللحسينات ١٨ شعبة ، والزعامة فيها لشعبة العرماب Aramab ، أما الكواهلة فلهم ستة بطون فقط فى اقليم النيل الأبيض .

ومما تقدم يبدو أن بنى كاهل قد استوطنوا هذا الاقليم الذى يجرى وسطه النيل الأبيض ، بالتدريج ، وتم لهم تعميره والاستئثار به واندمجت فيهم العناصر التى كانت تسكنه من قبلهم . ولا بد لنا أن نفترض أنهم كانوا قبل أن ينزلوه بدوا يرعون الإبل ، ولهم ضروب أخرى من الماشية الصغيرة ، أى أنهم لم يمارسوا الزراعة قبل نزولهم هذه الديار ، والظاهرة التى تبدو لأول وهلة على جانب من الغرابة أن الزراعة وما يتصل بها من عرف وعادة تبدو متأصلة فيهم ، وليست عادة مقتبسة فى عصر حديث ، فليست الأرض الزراعية ملكا مشاعاً للقبيلة كلها ، وليس هنالك دليل على أنها كانت كذلك فى أى وقت من الأوقات ، بل الملكية الفردية وحق

التصرف فى الأرض ، بمختلف الطرق ظاهرة واضحة ، وحق مقرر . ويعلل مستر ريد ذلك بأن القبيلة عندما احتلت الأرض أخذت كل أسرة تعنى بزراعة قطعة منها عاماً بعد عام ، دون أن تتحول عنها ، لأن الأرض تتجدد تربتها كل سنة بواسطة الفيضان ، ولأن الأراضى التى تروى بالمطر هى أيضاً ذات تربة صلصالية ثقيلة ، وفى كلا الحالين لا يحتاج الزارع لأن يغير أرضه بعد بضعة أعوام كما هى الحال فى الأراضى ذات التربة الخفيفة فى الجهات الغربية مثلا . فإذا ظلت كل أسرة تزرع نفسا لأرض على مدى السنين اكتسبت الحق فى امتلاكها والتصرف فيها بعد ذلك .

ولكن هذا التعليل وحده قد لا يكون كافياً لأن فيضان النيل الأبيض لا يجدد التربة تجديداً ملحوظاً لقلة رواسبه ، والأرجح أن الملكية الفردية كانت ظاهرة مقررة وتقليداً محترماً فى النيل الأبيض قبل أن ينزله بنو كاهل بقرون عديدة . فلم يزيدوا عند ما نزلوه على أن اتبعوا السُّنة السائدة فى البلاد التى نزلوها ، وفى ظل دولة الفنج كانت الملكية الفردية للاراضى أمراً مقرراً محترماً ، وقد وصل نفوذ الفنج إلى النيل الأبيض .

ومهما يكن من شىء فإننا نجد الملكية الفردية حقاً مقرراً على النيل الأبيض وكذلك حق الميراث والرهن والبيع حتى للاجانب المنتمين إلى قبيلة بعيدة ، وكذلك حق الايجار . وبعد الوفاة تقسم أرض المالك وتوزع طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية .

أما الإيجار فيختلف حسب جودة الأرض . والأراضى الساحلية التى يغطيها الفيضان يقسم ريعها مناصفة بين المالك والمستأجر . أما أراضى المطر فنصيب المالك منها الربع . والأراضى التى ترهن لا تتحول ملكيتها إلى الدائن : بل يظل لصاحبها حق الانتفاع بها فقط إلى أن يسدد الدين . ولأهمية الملكية الزراعية نرى كل صاحب أرض يغرس أحجاراً بارزة توضح حدود أرضه . ومع ذلك فإن الاختلاف على الملكية أصبح ظاهرة شائعة فى الأزمنة الحديثة بوجه خاص ، ولعل لازدحام البلاد بالسكان دخلا فى ذلك .

وإلى جانب الزراعة لا يزال لبنى كاهل عناية خاصة بإبلهم . ولألبانها ووبرها ولحومها مكان فى توفير غذائهم وثيابهم ومساكنهم . وهم يربون الإبل لألبانها ،

ويراعون ذلك فى انتخاب الفحول . ولذلك تكون إبلهم من الطراز الثقيل . وعلى الرغم من أنهم يستخدمونها فى حمل أثقالهم من بلد إلى بلد ، فإنهم لا يربون إبلا سريعة للركوب . والحقيقة أن إبل الركوب الجيدة قلما تربى فى الجهات الغربية من السودان ، وإذا وجدت فإن أصحابها فى الأكثر قد اقتنوها بالشراء من أسواق بربر أو من الأقاليم الشرقية .

وبنو كاهل يسقون إبلهم من النهر أو الآبار أيام الجفاف ، وتظل بذلك قريبة من ديارهم ، ولكن عند ما يبدأ موسم المطر ، ترسل الإبل إلى الجنوب للتغذى بالعشب الطرى . ولا تعود إلى الجهات النهرية إلا بعد أن يجف العشب ويزول .

وبسبب تغير منازلهم بين الظعن والإقامة ، نرى لبنى كاهل ضروباً مختلفة من المنازل ، منها بيوت الشعر التى يكون نسجها من وبر الإبل وشعر الماعز ، وبيوت من الطين والعشب على ضفاف النهر ، ونوع آخر يدعى القوطية وهو مثل التكل السائد فى جنوب السودان . ولا شك أن بيوت الشعر قد أدخلها بنو كاهل وتمثل عهد بداوتهم . أما البيوت المبنية من الطين فمن صنع الذين سبقوهم فى هذه الديار ، وقد ورثوا الصناعة عنهم . كذلك الإبل التى يقتنونها اليوم ، ورعيها حرفتهم القديمة . أما البقر وقد أصبح لهم منه عدد لا بأس به فلم يقتنوه إلا بعد نزولهم على ضفاف النيل الأبيض . أما الماعز والضأن فمشتركة بين البدو والحضر ، وبين الجهات القليلة الماء والتى تتوفر فيها المياه .

هؤلاء هم بنو كاهل فى أوطانهم النيلية[١] ، التى استقروا بها منذ نحو ثلاثة قرون . أما القسم الثالث من الكواهلة ، ولعله اليوم هو أشهر قسم فيهم ، فهم الشعبة الغربية ، التى استوطنت شمال كردوفان ، وتمتاز بالتماسك واتحاد الكلمة . وليست لهم زراعة مطلقاً ، بل ثروتهم إبلهم الكثيرة جداً ، وما يتبعها من الماشية الصغيرة . ومواطنهم فى شمال كردوفان حول خط العرض الخامس عشر ، إلى الجنوب مباشرة من ديار الكبابيش ، ومن الصعب أن نصف الجهات التى يتنقلون

(١) هنالك جماعات أخرى من الحسانية ، يعيش بعضهم فى صحراء بيوضة والبعض بالقرب من شندى .

فيها بأنها أوطانهم ، لأنهم إنما ينتقلون فيها من موسم لموسم وينزلونها برضى سكانها ، الذين قد يتقاضون منهم بعض الأجر نظير استخدامهم للآبار فى بعض الجهات — ويروى ما كمايكل أن الكواهلة فى شمال كردوفان يقضون الشتاء ، أو فصل الجفاف (من ديسمبر إلى شهر يونيه) فى منطقة الخيران ، حول مركز بارا . وهذه الخيران (جمع خور) ليست أخوارا تجرى فيها المياه اللهم إلا فترة قصيرة من الزمن . وإنما تمتاز بوفرة مياهها الباطنية القريبة ، بحيث لا تزيد أعماقها على ثلاثة أو أربعة أمتار . وأصحاب هذه الخيران يزرعون شطراً منها ، ويدعون شطراً للمراعى ، التى ينتفع بها الكواهلة بدون مقابل ، ولكنهم يؤدون ثمناً عن المياه التى يستخرجونها من الآبار . وعند ما تتساقط الأمطار ينزح الكواهلة إلى أعالى وادى الملك بإبلهم وقطعانهم ، ويظلون هناك حتى يستنفد المرعى . ورحلة الصيف هذه تحملهم أيضاً إلى بلاد غير بلادهم ، إلى بلاد الكبابيش .

وهذه الحال التى تعيش عليها الكواهلة : وفرة فى القطعان ، وقلة فى الأراضى والآبار التى يستطيعون أن يدعوا ملكيتها تؤكد نزوحهم الحديث إلى هذه الجهات والظاهر أنهم عند ما هاجروا إلى الغرب صاحبوا الكبابيش حيناً من الزمن ، ورافقوهم ، وسمحوا لأنفسهم أن يكونوا شعبة منهم ، حتى كثر عددهم وقويت شوكتهم ، وعند ما ظهر المهدى ، انضم إليه زعماء الكواهلة . ومنذ ذلك الحين أصبح لهم كيانهم المستقل . ولكنهم منذ انفصالهم عن الكبابيش لم تعد لهم دار خاصة بهم . بل يرعون قطعانهم فى أرض واسعة أكثرها تابع لغيرهم ، للكبابيش فى الشمال ، وللبقارة فى الجنوب ، ومما يدل على مرونة الكواهلة التى رأينا أثرها غيره مرة فى تاريخهم ، أنهم قد أدخلوا فى عدادهم شعبة من قبيلة من البقارة ، تدعى دار حامد ، ورضوا بأن يكون زعيمهم منها .

هذه خلاصة قصة الكواهلة الذين رأيناهم يتصلون بالبجه فى أقصى الشرق أول أمرهم ، ويتصلون آخر الأمر بالكبابيش والبقارة فى أقصى الغرب فى القرون الحديثة ، وقد اضطرنا سياق الحديث لأن نتبع الكواهلة إلى ديار بعيدة جداً عن بلاد البجة ، ولم يكن من ذلك بد حتى نصل الكواهلة القدماء بالمحدثين .

الشكرية

ينتمى الشُّــكرية . حسب التقسيم الحالى للقبائل العربية إلى الجانب القحطانى ويضعهم النسابون ، ويتبعهم ما كما يكل ، فى إحدى مجموعات جهينة ، وهم أنفسهم مع تسليمهم بأنهم من جهينة يفضلون أن يرجعوا بنسبهم إلى قريش ؛ ولهم جد بعيد يدعى شكر ، هو الذى من أجله اتخذوا اسم الشكرية ، وفى بعض الروايات أن هذا الجد يدعى يشكر . والظاهر أنهم نزلوا السودان منذ زمن بعيد ، ولـكن لا يمكن تقديره فى شىء يقرب من الدقة ، والأغلب أنهم كانوا فيما مضى جماعة قليلة الخطر لأن أخبارهم وأشعارهم ، التى يروونها اليوم يرجع معظمها إلى الفترة الثانية من عصر الفنج ، فى الوقت الذى أخذ فيه الهمج يتمتعون بالسلطة : أى فى أواسط القرن السابع عشر ومن الممكن أن نفترض أن وقت نموهم وتكوينهم يسبق هذا التاريخ بنحو قرن آخر أو أكثر قليلا ، بحيث لا يعدو القرن الخامس عشر .

يعيش أكثر الشكرية فى إقليم البطانة ، وينتقلون فيه بإبلهم شمالا وجنوبا ، وفى الماضى كانت انتقالاتهم تبلغ بهم إلى جوار شندى ، ولم يخل الأمر من بعض الاحتكاك بينهم وبين الجعليين . وجنوبا يصلون أيضاً إلى النيل الأزرق ، حيث يعيش زعيمهم الآن فى بلدة رفاعه . (شمال وادى مدنى بنحو خمسين كيلو مترا) ، ومن أهم مراكزهم بلدة أبو دليق إلى الجنوب الشرقى من شندى على دائرة العرض السادسة عشرة . ويحتل جبل جيلى ، الواقع جنوب أبى دليق ، مكانا واضحاً فى رواياتهم وأخبارهم ، وعلى قمته مقبرة لبعض رؤسائهم القدماء .

وهم يجاورون البشاريين (أم ناجى) فى سهل البطانة . كما أن لهم فرعا صغيرا بالقرب من كسلا ، له اتصال بالهدندوه أيضاً . وهم رعاة إبل وغنم وماعز ، وزراعتهم قليلة . وقد مرت بهم فى تاريخهم أحداث كثيرة ، فارتفع شأنهم فترة من الزمن ثم قاسوا الويلات فى أزمنة أخرى . وكانت لهم حروب مع كثير من جيرانهم ، وفى أخبارهم ما يشير إلى أنهم كانوا يتحدون سلطة الفنج ، وأن أحد رؤسائهم استطاع أن يتزوج من ابنة ملك سنار .

ولكن العصر الذهبي للشكرية كان من غير شك هو من عهد محمد على إلى الثورة المهدية . فقد كان للشكرية أسرة حاكمة يتزعمها الشيخ أحمد أبو سن ، وقد كان من سياسة ذلك العهد محاسنة الرؤساء واكتساب ثقتهم ومعرفتهم ، وكان الشيخ أحمد هذا من أعظم المقربين من المشايخ فى ذلك العصر ، وكان موضع ثقة الحكومة ولا شك أنه كان رجلا ذا شخصية عظيمة ، وقد وصفه صمويل بيكر بالنبل والكرم ، وجميع المآثر والفضائل التى اشتهر بها العرب فى جميع العصور .

وفى عصر المهدية لم يكن بد أن يكون الشكرية أعداء لزعمائها . وأن يعانوا من جراء ذلك عذابا وبلاء شديدين ، وقد صادف أيضاً أن كانت سنة ١٨٨٩ من سنى الجدب والجفاف فعانت القبيلة ضروبا من الجهد والمشقة ، إلى جانب ما تكبدته بسبب البغى والاضطهاد .

وتحسنت أحوالهم بعد ذلك كثيرا وعاد إليهم مجدهم القديم ولعلهم اليوم أعظم قبائل البطانه شأنا .

وقد قسم هارولد ما كايكل الشكرية إلى ثلاثة عشر بطنا ، وكثير من هذه البطون تنتهى اسماؤها بلفظ آب ، مثل نوراب ونايلاب الخ ولكن ليست بناحاجة لأن نستنتج من هذا أن لهذه القبيلة أية صلة نسب بالبجة ، فان الرأى الذى ذهب إليه سلجمان ، بأن كل اسم ينتهى بآب يدل على تأثير بجاوى ، رأى سطحى ، ولو جاريناه فيه لما كان هنالك عرب خالصون فى جميع السودان فيما عدا دارفور وكردوفان لأننا لا نكاد نجد قبيلة عربية ليس بين بطونها بطن أو أكثر له هذه الصفة ، وكلها ليس لدينا دليل على أنها من أصل بجاوى . وعلى فرض أن هذا الاصطلاح من أصل بجاوى او حامى ، فان هذا لا يمنع أن يشيع وينتشر بين العرب لسهولته وسهولة تداوله .

الرشايدة

من أهم القبائل العربية التى تعيش فى وسط البجه وتجاورهم قبيلة الرشايدة . وهم يمثلون أحداث الهجرات من الساحل الشرقى للبحر الأحمر (من الجزيرة العربية) إلى الساحل الغربى (السودان) . والراجح أن هجرتهم ترجع إلى أبعد من القرن

التاسع عشر ، وقد نزلوا من إقليم طوكر إلى حدود أرتريا ، ثم انتقل بعضهم مغرباً إلى إقليم عطبرة .

كذلك نزحت شعبة منهم إلى أرتريا فى منتصف القرن الماضى ونزلت الإقليم الساحلى شمال مصوع ، وهم مثل أقربائهم رعاة إبل وبقر وضأن وماعز .

ولا تزال شعبة من الرشايدة تعيش فى جزيرة العرب على الأقاليم الساحلية .

وقد اضطهدوا وأوذوا فى زمن المهدية ، ففضل أكثرهم أن يهاجر إلى إرتريا بجوار أقاربهم الذين كانوا يعيشون هناك شمال مصوع ، وبعد زوال عهد المهدية عاد كثير منهم إلى السودان . وعددهم الآن قد يبلغ نحو ألفى نفس أو يزيد قليلا ، ولعلهم القبيلة العربية الوحيدة المنتشرة وسط البجه وإن لم ينشأ بينهم مصاهرة أو مودة . وكلا الفريقين محتفظ بتقاليده وعاداته ، وأسلوبه فى الحياة ، فالرشايدة يعيشون فى بيوت من الشعر والوبر ، مظهرها يختلف تماماً عن الأبراش التى تبنى بها بيوت البجه ، وكثيراً ما نجد فيما يكتب عن البجه مقارنات بين أسلوبهم فى الحياة وبين مظاهر الحياة عند الرشايدة ، وقلما تكون المقارنة فى صالح البجه .

الحُمْران

من القبائل الصغيرة نسبياً التى تجاور البجه ، وعلى الأخص الهدندوه وبنى عامر ، فى الوقت الحاضر ، قبيلة الحمران ، ويجب ألا نخلط بينها وبين الحَمَر والحُمْر ، الذين يعيشون فى غرب السودان وإن كانت بعض الروايات تجعل بين الثلاثة صلة نسب بعيدة . ومواطن الحمران بالقرب من نهر ستيت (تكازى) حيث يلتقى بالعطبره . وقد كانت بينهم وبين الهدندوه ثارات ، وهم أيضاً رعاة إبل ، وكانت لهم خيل كثيرة فيما مضى ، وقد وصفهم صمويل بيكر بأن ملامحهم قوقازية ، وشعرهم مستطيل ، ولهم دروع مستديرة من جلد الخرتيت أو غيره من الحيوان . وسلاحهم السيف المستقيم ذو الحدين ووصفهم بالجرأة والشجاعة الهائلة ، والمهارة فى صيد الحيوانات والوحوش ، حتى الفيلة والأسود ، بالسيف ، وكثيراً ما يصيدون وهم على ظهور الخيل .

وقد فتك بهم الدراويش فتكا ذريعاً ، ولا شك أنهم اليوم أقل عدداً مما كانوا : إذ أصبحوا لا يزيدون على بضع مئات .

وزعم باركنس Parkyns أنهم بشاريون من أصل بشارى . ولا شك أنه فى هذا واهم . ولعل هذا ظاهر فى قوله : إنهم بشاريون يتكلمون الهدندوه ، وهم على كل حال يقولون إنهم عرب ، وأنهم أنقى وأصفى سلالة عربية .

وقد جعل ما كمايكل الحمران جزءاً من المجموعة الجهنية الكبيرة ، وهم على كل حال قبيلة صغيرة ، وإن كانو قد أحرزوا بعض الشهرة بسبب ما كتبه عنهم صمويل بيكر ، عند ما نزل بلادهم ، فأكرموه فنوه بكرمهم فى كتابه عن الروافد الحبشية للنيل .

وللحمران شهرة أخرى فى السودان ، بسبب قصة تاجوج ، التى اشتهرت وشاعت بسبب ما اشتملت عليه من مغزى روائى مسرحى . ولا بأس من أن نورد هنا خلاصة لهذه القصة ، لأنها تشتمل إلى جانب مغزاها الروائى ، على إيضاح ما بين الحمران والهدندوه من الصلات .

يعيش الحمران فى أوطانهم وأكثر عملهم رعى الإبل والماشية الدقيقة وبعض البقر ، ومع ذلك فهم على قلة عددهم مولعون بالفروسية والصيد . وقد اشتهروا رجالا ونساء بالجمال ، غير أن تاجوج كانت ذات جمال فاتن يضرب به المثل . والظاهر أنها كانت تعيش فى الربع الأول من القرن التاسع عشر .

وكان بين الحمران والهدندوه غارات وحروب ، وأمكن للحمران أن يحرزوا فيها النصر مراراً بسبب شجاعة وبراعة بطلهم المحلّق . وكان المحلق مغرماً متيما بتاجوج ، ينظم فيها الأشعار ، معلنا غرامه للناس . فغضب والد الفتاة لهذا التشهير بابنته وأبى أن يزوجه منها ، وقد كان هنالك آخرون يرغبون فى الزواج منها ، من بينهم بطل هدندوى يدعى أكاد .

وكاد المحلق أن يموت كمدا ، لولا تدخل زعماء القبيلة وإلحاحهم على والد الفتاة حتى قبل أن يزوجها منه . فلم يكد أكاد يسمع بذلك حتى أسرع إلى المحلق يطالبه بالقتال والنزال فدارت بين الاثنين معركة هائلة ، لم يلبث البطل الهدندوى أن لقى

فيها حتفه ، فمات وهو يردد اسم تاجوج .

ولعل تاجوج كانت تميل إلى الفتى الهدندوى ، لأن زواجها من المحلق لم يكن زواجا ناجحا ولم تلبث أن اضطرته لأن يطلقها ، وفاء بوعد قطعه على نفسه أن لا يرد لها طلبا . فلما بانت عنه حبيبته لم يلبث أن ركبه السقم وقضى نحبه .

وجاء الهدندوه ليثأروا لقتل بطلهم أكاد فلم يستطع الحمران أن يثبتوا لهم بعد أن فقدوا قائدهم فى الحرب . وفى إحدى هذه الغارات الموفقة وقعت تاجوج سبية فى أيدى الهدندوه .

وشجر الخصام بين أبطالهم : أيهم تكون السبية الفتانة من نصيبه ، وكدت الدماء تجرى ، وثمرات النصر تضيع هباء . فاجتمع شيوخ الهدندوه لتدبر الأمر وبينهم شيخ هرم طلب أن يؤتى بتلك الأسيرة لكى يتعرف على سبب الفتنة فلم يكد يراها مقبلة حتى امتشق حسامه وفتك بها قبل أن يتحرك أحد من مكانه .

وهكذا قضت تاجوج ، ودفنت فى قبر بين كسلا وجبل يدعى أبو كمال ، وسط غابة من النخيل . ولقصتها كما ذكرنا شهرة واسعة [١] .

***

هذه أهم القبائل العربية التى لها صلة جوار فى الحاضر أو فى الماضى بالبجه ، وهنالك قبائل أخرى عربية اتصلت بهم مثل الجعليين ولكن قصتهم أطول من أن تذكر فى مثل هذا المقام .

---

(١) كانت قصة تاجوج موضوع رواية قصصية ألفها الأستاذ عثمان محمد هاشم ، وأخرى مسرحية مثلت مرارا فى الخرطوم . وكتب عنها مستر هاروود مقالا بالانجليزية فى مدونات السودان S.N.R لسنة ١٩٤١ ص ١٩٧ .

الفصل التاسع

الجعليون

لقد رأينا فى الفصول السابقة ، كيف تنزل القبائل العربية على سواحل السودان ، آتية من الجزيرة العربية مباشرة ، فتتخذ من الشمال الشرقى للسودان وطناً لها فترة من الزمن ، مخالطة لسكانه ، مؤثرة فيهم وفى ثقافاتهم ، ثم تجعل من هذه الأوطان مجالا ومنبعثاً تنتشر منه نحو الغرب ، وتتوغل فى أنحاء متعددة ، متخذة لها أوطاناً جديدة . ولعل قصة بنى كاهل هى خير مثال لهذا التأثير العربى ، الآتى من الجزيرة العربية مباشرة ، والذى اتخذ اتجاهاً من الشرق إلى الغرب . ويحق لنا ، إذا تأملنا فى الكواهلة وقصتهم فى أدوارها المختلفة ، أن نتساءل عما إذا كانت هذه القصة فريدة فى نوعها ، أم أنها مثال حديث المهد ، لهجرات مشابهة حدثت فى مختلف العصور ، قبل الإسلام أو بعده . ولكن هذا التساؤل لن يذهب بنا بعيداً ، لأننا وإن رجحنا أن هجرة الكواهلة لا يمكن أن تكون الوحيدة من نوعها فإننا عاجزون — لقلة ما بأيدينا من الأدلة التاريخية أو ما يقرب منها — أن نورد أمثلة أخرى .

وحسبنا أن نقرر أن هذا الجانب الشرقى من السودان ، كان واحداً من الأبواب ، التى دخلت منها الدماء العربية ، ومعها الثقافة العربية ، إلى السودان . وأن تأثيرها لم يكن مقصوراً على الجهات التى تقابل الجزيرة العربية ، بل تجاوزتها إلى السودان الأوسط والسودان الغربى أيضاً .

هذه الأبواب التى كانت مدخلا للجماعات والثقافات العربية ، هى ثلاثة أبواب ، يفضى كل منها إلى طريق للهجرات ، وإلى أوطان وأماكن للاستقرار . ولا بد أن تلتقى هذه الطرق فى النهاية — على الأقل فى بعض الأحيان — ويجتمع الوافدون من الشرق مع الوافدين من الشمال ، فى بعض الجهات .

والباب الثانى الذى كان مدخلا للقبائل العربية ، هو الباب الشمالى فى وسط

السودان ، الذى يفضى إلى مجرى النيل ، والذى أدى إلى تكوين القبائل العربية التى تعيش حول نهر النيل فى شمال ووسط السودان .

أما الباب الثالث ، فهو الطريق الشمالى الغربى ، أو الطريق الليبى ، الذى كان مصدرا لكثير من الهجرات قديماً وحديثاً ، ولعل هذا الباب لم يكن مصدراً للثقافة العربية إلا بعد الإسلام .

والباب الثانى ، أو الأوسط ، الذى كان له تأثيره القوى فى القبائل التى تلازم النهر شمال الخرطوم وجنوبها هو بلا شك من أقدم الطرق ، وهو الذى أدى فى النهاية إلى تكوين مجموعة القبائل الجعلية ، التى تحتوى الجمليين وغيرهم ، وهم أعظم القبائل العربية فى السودان خطراً ، وأعزهم نفراً ، وأكثرهم عدداً . ولا نعدو الحقيقة إذا قررنا أن هذا الباب الأوسط ، هو أهم الأبواب الثلاثة ، التى دخلت منها الثقافة العربية إلى السودان وزحت بواسطته القبائل العربية إلى مواطنها الحالية فى السودان الشمالى ، كما أن له الفضل الأكبر فى نشر العروبة فى السودان .

هذا الطريق لا يتبع نهر النيل فى كل جزء منه ، ولا يلازم النهر من مصر إلى السودان ؛ بل يتابع النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو أو قبلها ؛ ثم يخترق صحراء العتمور مباشرة إلى أبى حمد ، حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلازمه نحو الجنوب ، وعلى الرغم من أن طريق العتمور هذا طويل ، يقرب من مائتى ميل ، وتغلب عليه الوعورة والجدب ، فإنه أقصر بكثير من الطريق النهرى ، ويتجنب الأقاليم النوبية ، الكثيرة السكان ، والتى لا بد لمن يختارها طريقاً لهجرته أن يخضع لما يفرضه سكانها من الشروط ، أو يخضعهم لسلطانه ، وهذا لم يكن بالأمر السهل . والطريق وإن غلب عليه الجفاف والوعورة ، لا يخلو من أخوار وأودية ، ينالها شىء يسير من المطر ، وبها بعض العشب ، وعلى كل حال لا تخلو من المياه الباطنية ، التى يمكن أن تساعد على حفر آبار ، يكفى ماؤها لكى تتزود القوافل بحاجتها من هذه المادة النادرة الثمينة . وقد سلك هذا الطريق حتى فى العصور الحديثة عدد كبير من الرحالة وتركوا لنا من أنباء رحلتهم ما يدل على أنها لم تكن شاقة مجهدة بدرجة لا تطاق . وفى كتاب رحلة بركهارت ما يدل على أن هذا الطريق كانت تمر منه القوافل باطراد وانتظام طوال الأعوام .

ولعل غلبة المشقة والجفاف على هذا الطريق لم تخل من فائدة ، لأنها جعلته مسلكا خالياً ، أو يكاد أن يكون خالياً ، من السكان المستقرين ، بحيث تستطيع القافلة أن تجتازه دون أن يكون فى عملها هذا اغتصاب لحق بعض القبائل ، ودون أن تخشى أن تطالب بدفع أتاوة ، وإذا كانت تتعرض أحياناً لغارة أو عدوان من جماعة تقطع الطرق ، فلا شك أن كل قافلة تتخذ لمثل هذا الأمر أهبته ، وتعد له عدته(١) .

وطريق العتمور قديم معرق فى القدم ، ولا شك أنه استخدم فى العصور المصرية القديمة ، والاتصال بين مصر وبين الأقطار التى يحتلها الجعليون اليوم ، حقيقة يشهد بصحتها ألف دليل ، فعاصمة الجعليين اليوم فى شندى ، ما هى إلا خليفة مروى القديمة ، والآثار الفرعونية حول شندى من أروع وأغزر الآثار المصرية فى أى جهة من جهات وادى النيل ، وقد كان الاتصال المستمر بين الشمال والجنوب أمراً عادياً مألوفاً .

فالطريق الشمالى الأوسط إذن من أقدم — بل لعله أقدم — الطرق للاتصال بين الشمال والجنوب ، ويمتاز على الطريق الشرقى الذى وصفناه من قبل ، بأنه لا تعترضه قبائل مثل البجه ، التى لا تكاد أوطانها أن تصل إلى هذه الأطراف الغربية .

وقد كان هذا الطريق هو السبيل إلى تعمير الإقليم النهرى بالثقافة والدماء العربية التى تبدو لنا اليوم ممثلة فى المجموعة الجعلية ، ومن الصعب أن نتصور أن تأثير هذا الطريق على مدى القرون ، ظل مقصوراً على هـذه الشقة من النهر ، أو الجهات التى تليها شرقاً وغرباً ، بل لم يكن بد من أن يتجاورها إلى نواح أخرى من السودان ، فى سهل البطانة شرقاً ، وفى كردوفان ودارفور غرباً ، ولـكن المركز الأساسى والمحور الرئيسى ، والمواطن الثابتة ، التى نشأت فى هذا الطريق ، هى تلك الأقطار التى تحتلها المجموعة الجعلية .

---

(١) لعل من الطريف فى رحلة بركهارت أن خطر الإغارة والسلب والنهب لم يظهر إلا عند ما اقتربت القافلة من أبى حمد ، وتعرضت لغارات الزعيم نعيم الرباطابى ، ولذلك اضطرت إلى الابتعاد عن النهر والذهاب مباشرة إلى بربر .

وقبل أن تنفذ المؤثرات العربية إلى هذا الإقليم ، كان بلا شك وطناً لعناصر حامية ، شأنه فى ذلك شأن وادى النيل فى مصر ، ولم يكن بدٌّ أن يتأثر بما يتأثر به الوادى الشمالى ، بعد أن ظهر الإسلام فى مصر ، وتوطدت أركانه واشتد بنيانه .

وبوصول المؤثرات العربية ، بعد اختراق صحراء العتمور ، إلى أبى حمد ، ينفتح أمامها طريقان معبدان ، أحدهما إلى الجنوب الشرقى ، والأخرى إلى الجنوب الغربى ، وكلا الطريقين يلتزم النهر ، الذى رسم من أبى حمد طريقين : نحو عطبره والخرطوم من جهة ، ونحو مروى والدبة ، والبلاد النوبية الجنوبية من جهة أخرى . وكلا الطريقين كان معروفاً مسلوكا منذ العصور القديمة ، فلقد كان هنالك مركزان للحضارة القديمة مشهوران ، أحدهما فى نبتا ، بجوار مروى الحديثة ، والآخر فى مروى القديمة ، المجاورة لشندى . فكان من الطبيعى أن تسلك المؤثرات العربية كلا الطريقين وأن تطبع بطابعها كلا الإقليمين ، متبعة بذلك الطرق التى كانت تسلكها المؤثرات الثقافية المختلفة فى جميع العصور ، ومتى توغلت الثقافة العربية نحو الجنوب ، إلى ملتقى النيل الأبيض والأزرق ، انفسح أمامها المجال للمضى فى الأقطار الجنوبية ، تلازم النهر أحياناً ، وتبتعد عنه أحياناً إلى الغرب أو الشرق .

وهذا الإقليم كله من دنقلة إلى جنوب الخرطوم لم يكن بالطبع خالياً من السكان حينما نزحت إليه القبائل العربية ، بل الثابت الذى لا يحتمل أدنى شك أنه كان عامراً بالسكان منذ عصور بعيدة ، وليس من الممكن عمل إحصاء دقيق يوضح هذه العناصر أو صفاتها الأصلية ، وثقافاتها على مدى القرون ، ومع ذلك يجب أن نسلم بأن السكان الأصليين من السلالة القوقازية ، التى نجدها ممثلة فى شمال السودان ، وبلاد النوبة ومصر العليا أحسن تمثيل ، ولم تكن الثقافة السائدة فى العصور القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه فى مصر العليا ، وكذلك كانت المؤثرات النوبية ذات مكان قوى فى هذا الإقليم كله . إذ من الثابت أن للنوبيين آثاراً واضحة فى أرض الجزيرة نتبينها فى أسماء كثير من الأماكن (١) ولكننا لا نستطيع أن نغلو فنقول إن هذا الإقليم كان كله نوبياً لحماً ودماً وثقافة منذ العصور القديمة ،

(١) راجع رسالة شاطر بصيلي بالإنجليزية عن المؤثرات النوبية واليونانية فى وادى النيل الأزرق (طبع واد مدنى فى ١٩٤٥)

مع كل هذا الاتصال بين الشمال والجنوب ، لأن بعض العلماء يرى أن اللغة النوبية من اللغات السودانية القديمة ، وإذا عثرنا على آثارها فى أسماء بعض الأماكن البعيدة ، فإن هذا لا يدل دائماً على وجود سكان تربطهم بالنوبيين أواصر القرابة والدم كذلك لا نستطيع أن نستبعد أن وادى النيل فى السودان الشمالى كان خالياً تماماً من العناصر البجاوية ، لأن آثار هذه العناصر قد تبينها بعض العلماء فى بعض جهات كردوفان ، لدى بعض القبائل مثل الكبابيش .

أما الدماء الزنجية الجنوبية ، فليس هنالك دليل واضح على أن السودان الشمالى كان فى يوم من الأيام وطناً لها ، على الرغم من السخافات السياسية التى نسمعها من بعض غلاة الاستعمار الأوربى ، بأن العربى دخيل مغتصب وأن أصحاب السودان الحقيقيين هم القبائل الجنوبية ، مع أن الكثير من هذه القبائل لم يدخل السودان إلا فى زمن متأخر .

وصفوة القول أن الثقافة العربية ، شأنها فى السودان كشأنها فى مصر تماماً ، دخلت بلاداً عريقة فى الحضارة والعمران ، فطبعتها بالطابع العربى ، وأدخلت فيها الدماء العربية بكثرة وغزارة ، تجعلنا على حق تماماً فى أن تصف هذه البلاد بأنها عربية لحماً ودماً وثقافة .

وهكذا تألفت وتكونت فى السودان الشمالى تلك المجموعة العربية العظيمة ، التى دعوناها باسم المجموعة الجعلية ، نسبة إلى الجعليين ، وهم أكبر وأهم قسم فيها . وقد رأى هارولد ماكايكل أن يدعوها باسم المجموعة الجعلية الدنقلاوية . لأن بعض فروعها يعيش فى مديرية دنقله ، يوم أن كان هنالك مديرية بهذا الاسم ، والآن وقد ضمت هذه المديرية إلى كل من مديريتى حلفا وبربر وأصبحت كلها تدعى باسم المديرية الشمالية ، لم يبق هنالك ما يبرر تسمية هذه المجموعة باسم الجعلية الدنقلاوية . خصوصاً أن هذا يحدث اضطراباً فى التسمية ، لأن الدناقلة فى الاصطلاح الجنسى ، هم فرع من السلالة النوبية ، وليسوا مجرد سكان مديرية دنقله ، وهؤلاء الدناقلة يتكلمون لهجة نوبية ؛ ومع التسليم بأنهم دخلتهم الدماء العربية ، فإن هذا أيضاً يصح فى الكنوز والمحس ، والأوفق مع ذلك أن ننظر إلى كل منها

على أنه فرع من السلالة النوبية ، لأنه ظل محتفظاً بلغته الأصلية ولم يتحول عنها ، بخلاف المجموعة الجعلية التي ليس لها لغة أو ثقافة سوى العربية .

هذه المجموعة الجعلية إذن تركزت على نهر النيل ما بين الخرطوم وبلاد النوبة ؛ ثم انتشرت من هذا المركز العظيم فى شعب وفروع ، نحو البطانة والنيل الأزرق ، ونحو النيل الأبيض جنوب الخرطوم ، ونحو الغرب إلى كردوفان ، وفى الشمال قد توغل بعضهم حتى أصبح (مثل الجوابره والركابية) يعيش وسط الجماعات النوبية .

وإلى جانب هذه المجموعات التى نشأت عن هجرات موازية للنهر ، من المركز الأوسط المذكور ، هنالك أمثلة قليلة للتوغل من شمال أسوان ، مع التزام النهر إلى بلاد النوبة ؛ ومثل هذه الهجرة تتبين لنا فى قبيلة الجعافرة ، الذين نزلوا جنوب القطر المصرى بين قوص وأسوان ، ثم انتشروا جنوباً إلى بلاد المحس ؛ ومع ذلك فإن لهم شعبة الآن تعيش فى كردوفان ، وتتصل بالجوامعة ، وهذه على الأرجح سلكت الطريق الآخر ، أى طريق العتمور إلى النيل ؛ أو هاجرت من بلاد النوبة إلى كردوفان فى زمن متأخر .

وهكذا تألفت المجموعة الجعلية ، التى تشتمل على الكثرة العظمى من العرب العدنانيين ، بخلاف المجموعة الجهنية التى تشتمل على الكثرة العظمى من العرب القحطانيين ، ولكن المجموعة الجعلية لا تشتمل على جميع العدنانية ، بل هنالك مجموعات أخرى صغيرة مثل الكواهلة والرشايدة ، ليسوا من جهينه ولا من الجعليين ، بل لهم نسبهم الخاص ، كما أن هنالك قبائل قليلة ، مثل الأحامده على النيل الأبيض ، تنتسب تارة إلى بنى كاهل وتارة إلى الجعليين ، والأغلب أنها مزيج من الاثنين .

والجعليون ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بجعل ، وهو حسب الروايات ، ابن سعد بن فضل بن عبد الله بن عباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، فالجعليون إذن ينتسبون من ناحية جدهم إلى الأرومة الهاشمية ، ولذلك يطلق عليهم أحياناً اسم المجموعة العباسية . ومن العبث أن يحاول بعض الكتاب — كما فعل ما كايكل — الزراية بهذه النسبة ، أو الشك فى حقيقتها ، فقد سبق أن رأينا الكتاب يشكون فى انتساب البشاريين وغيرهم إلى بنى كاهل ، ثم أظهرت الأدلة التى لا تنكر والتى

تستند إلى حقائق تاريخية ، أن لهذه النسبة أساساً من الواقع . ولذلك يجدر بنا أن نسلم بأن انتساب الجد الأكبر للجعليين إلى العباس أمر واجب التقرير ، ما دام لم ينهض بخطئه دليل ، ويقول ما كمايكل فى كتابه عن تاريخ العرب فى السودان ما ترجمته :

« من البديهى أن هذه النسبة أو الرواية ، إذا لم تكن اختراعاً خالصاً ، فإن أقصى ما تدل عليه هو التجمع ، تحت قيادة رجل واحد يدعى الانتساب إلى بنى العباس ، لخليط من القبائل المتباينة الصفات »(١) .

وهكذا لا يكتفى ما كمايكل بأن يشكك فى انتساب ابراهيم جعل لبنى العباس ، بل ويصف أتباعه بأنهم خليط من مختلف القبائل المتنوعة ، ويرى أن هذا كله من البديهيات . ولسنا ندرى كيف استطاع أن يحكم على قبائل ذلك الزمن بأنها خليط وأنها متنوعة الصفات . مع أننا لا نعلم إلا القليل عن الجماعات التى كانت تعيش على ضفاف النيل فى السودان الشمالى عندما نزح العرب إلى ذلك القطر وعمروه ، حتى نصفها بالتنوع والاختلاط .

ومع التسليم بأن الإقليم لم يكن خالياً من السكان ، غير أن الجماعات العربية التى نزلت به على مدى الحقب ، كانت قوية كثيرة العدد ، ولذلك غلبت عليه الصبغة العربية ، والثقافة العربية ، وزال عنه كل أثر للثقافات السابقة . بخلاف ما حدث فى بلاد البجه ، التى لم يتوغل فيها النفوذ العربى إلا بمقدار ، فالمؤسس للثقافة العربية لم يكن رجلا واحداً التفت حوله قبائل متباينة ، بل أسس الثقافة العربية جماعات عربية عديدة فى هجرات متوالية ، وهى عربية لحماً ودماً ، وليس لدينا دليل واحد يدعونا لأن ننكر نسبة هذه الجماعات ، أو على الأقل نسبة عدد كبير منها ، إلى بنى العباس .

كذلك ليس لنا أن نشك فى أن الجد الأكبر للجعليين ، أى الأمير الأول ، الذى تزعمهم فى مواطنهم الحالية على النيل الأعظم ، كان يدعى ابراهيم . والروايات تحدثنا أنه كان رجلا كريماً وجواداً مضيافاً . وأنه كان يقول للجماعات الوطنية

(1) Obviously, in so far as the tradition is anything but a pure invention, it only indicates the collection under the leadershig of a single man who claimed to belong to Beni' Abbas' of a more or less heterogenous medley of tribesmen. ,'P.197, of Vol. 1 of the History of Arabs in the Sudan,"

التى تنضوى تحت لوائه « جعلناكم منّا » وهذه العبارة ليس معناها We have made you «لقد خلقناكم » كما يزعم ماكما يكل ، بل معناها انكم أصبحتم منا ، أو جزءاً منا . لكم مالنا وعليكم ما علينا ؛ والظاهر أنه كان كثير الترديد لهذه العبارة ، كلما شمل برعايته جماعة من السكان الأصليين ، حتى صار مشهورا بهذا اللفظ ، وليس هنالك مايدعونا لأن نشك فى صحة هذه العبارة . وهى قد تفهم بأنها تدل على أن التوغل العربى كان كله أو جله سلميا ، مبنياً على التودد إلى السكان الأصليين ، وأخذهم بالرفق واللين .

ونحن لا نعرف على وجه التحقيق فى أى قرن نزل إبراهيم جعل هذا على ضفاف النيل الأعظم ، وأسس الشعب الذى أصبح يهيمن على السودان الشمالى اليوم ولكننا — إذا قدرنا الزمن الذى استغرقه توسع هذه القبائل ، وانتشارها ما بين الخرطوم ودنقله ، وما تم لها من التوسع فى النيل الأبيض والجزيرة وكردوفان ، وكيف توطدت أركان الثقافة العربية والديانة الإسلامية فى كل هذه الأقطار — لا بد لنا أن نرجع بإبراهيم جعل إلى زمن متقدم لعله يرجع على الأقل إلى القرن العاشر الميلادى . (١) وسابق ببضعة قرون على فتح بلاد النوبة نفسها ، الذى لم يتم إلا فى القرن الرابع عشر .

* * *

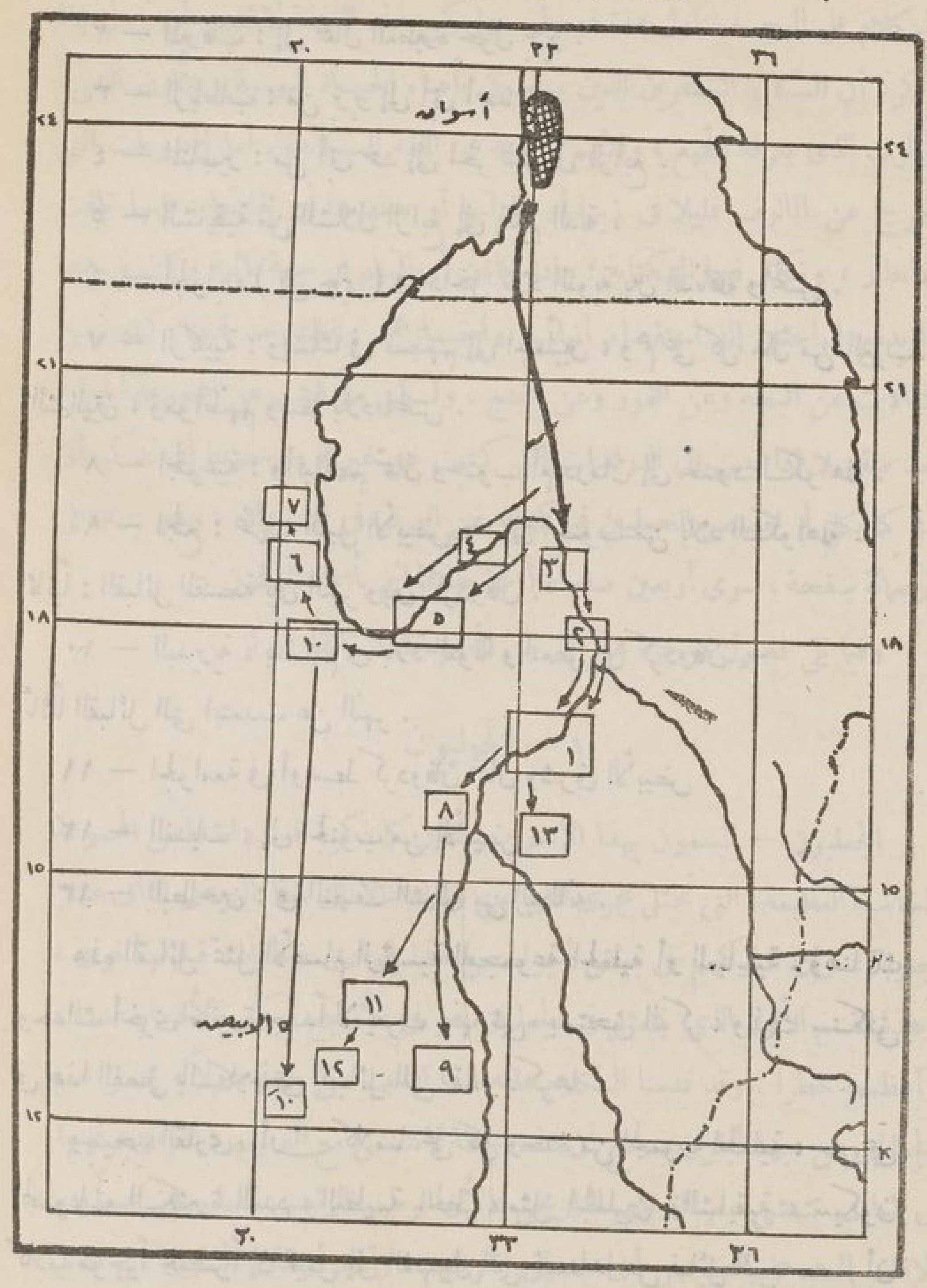
بعد أن تم للقبيلة العربية الأولى توطيد مركزها على ضفاف النيل الأعظم ، وأخذت تنمو فروعها فى الشمال والجنوب لم يكن بد من أن تتعدد القبائل بتعدد الأوطان ، وأن يتعذر ، بل يستحيل المحافظة على وحدتها ، من أجل ذلك أصبحنا لا نتحدث عن قبيلة الجمليين ، بل عن قبائل الجمليين أو مجموعة القبائل الجعلية أو العباسية .

هذه المجموعة تشتمل على عدد كبير جداً من القبائل ، ولكن بعضها صغير

---

(١) ان النسبة السابق ذكرها التى تجعل ابراهيم جعل هو ابن سعد بن فضل بن عبدالله ابن عباس ؛ أى تجعل بينه وبين النبى أربعة أجيال فقط ، ينقصها من غير شك بعض الأسماء ، وإن كانت لا تطعن فى نسبة ابراهيم إلى بنى العباس .

العدد قليل الخطر ، ولم أجد بين الكتاب من حاول تقصى جميع هذه الفروع .
لذلك لا بد لنا أن نكتفى بالأهم المشهور منها ، وهى : أولا : القبائل النهرية :



(شكل ١٢)
لمحاولة إيضاح المصدر الأول (مظالل) وطرق الهجرة وانتشار القبائل
الجعلية الرئيسية فى السودان والأرقام تدل على مواطن القبائل كما هى موضحة فى الصفحة التالية

١ — الجعليون الذين ليس لهم أى اسم آخر : وهم من غير شك أهم أقسام المجموعة ومواطنهم تمتد من خانق سبلوقه إلى العطبره .

٢ — الميرفاب : إلى شمال العطبره حول بربر .

٣ — الرباطاب : من بربر إلى أبى أحمد .

٤ — المناصير : من أبى حمد إلى آخر الشلال الرابع .

٥ — الشايقية من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة .

٦ — الجواره (بنى جابر) فى داخل بلاد النوبة بين الدناقلة والمحس .

٧ — الركابية : ويشك فى نسبتهم إلى الجعليين ، وهم على كل حال من العرب الشماليين ، ومواطنهم وسط بلاد المحس .

٨ — الجموعية : وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان إلى حدود الكواهلة .

٩ — الجمع : غرب النيل الأبيض — إلى الجنوب من بلاد الكواهلة .

ثانياً : القبائل المقسمة بين النهر وبين كردوفان .

١٠ — البديرية . بعضهم فى بلاد النوبة والبعض فى كردوفان .

ثالثاً القبائل التى ابتعدت عن النهر .

١١ — الجوامعة فى أواسط كردوفان شمال وشرق الأبيض .

١٢ — الغديات : إلى الجنوب من الأبيض .

١٣ — البطاحين : فى النصف الشمالى من البطانة .

هذه القبائل تمثل الأقسام الرئيسية للمجموعة الجعلية أو العباسية ، وهنا لك وحدات أخرى صغيرة جداً لا يعرف عنها شىء يستحق الذكر ، ولذلك سنكتفى فى هذا الفصل بالكلام على القبائل التى تقدم ذكرها .

وسيجد القارىء أن كلامنا على كل وحدة من المجموعة الجعلية ، حتى على المجموعات الكثيرة العدد ، العظيمة الخطر ، مثل الجعليين والشايقية ، سيكون كلاما موجزاً مختصراً إذا قيس إلى الفصول التى قدمناها عن قبائل البجه . مع أن المجموعة الجعلية تمثل القسم الأكبر من سكان السودان الشمالى ، وتنهض بالعبء الأكبر فى حياته المدنية والاقتصادية والاجتماعية . وهم يعيشون فى الأقاليم النهرية

التى تشتمل على المراكز الرئيسية للحياة بمختلف مظاهرها . ولذلك قد يبدو لأول وهلة غريباً أن يكون الكلام عليهم موجزاً مركزاً فى فصل واحد ، مع أن الكلام على البجه تناول عدة فصول . ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تزول إذا ذكرنا أن السكان المستقرين الذين ينهضون بأعباء الحياة اليومية ، يمثلون الشىء المألوف الذى يعرفه الجميع ، ولغتهم العربية هى اللغة السائدة . أما المجموعات التى تخرج عن المألوف قليلا فى زيها أو عاداتها أو مظهرها أو ثقافتها ، فإنها تلفت الأنظار ، وتكثر فيها الكتابة ؛ وإذا كانت أوطانهم فى جهة نائية ، كان فى هذا ما يدفع الباحثين إلى استقصاء أنبائهم وأخبارهم . ولذلك نجد لدينا كثيراً من المقالات عن البجه وعن الفور وعن الفنج ، ولكن ما كتب عن المجموعة الجعلية يعد ضئيلا إذا قيس إلى الدراسات التى كتبت عن غيرهم . وحسبنا أن نذكر أن ماكايكل لم يخصص للجعليين فى كتابه عن العرب فى السودان ، وهو يربو على أربعمائة صفحة ، سوى أربعين صفحة أكثرها قوائم بأسماء البطون .

وفيما يلى فصول موجزة عن كل من المجموعات السابقة الذكر .

١ — الجعليون

الجعليون — المسمون بهذا الاسم — يمثلون كما ذكرنا قسما واحدا من المجموعة العباسية العظيمة ، التى تحتل مجرى النيل من دنقله شمالا إلى خط العرض الثانى عشر جنوبا ، وإن شاركهم فى بعض أجزاء من هذا الوادى وحدات قبلية أخرى ، وهذا القسم الأول الذى يتمثل فى الجعليين هو فى الأرجح أكبر الأقسام عددا ، وأعظمها خطراً . وقد قدمنا الكلام عليه لهذا السبب من جهة ، ولأنه يحمل اسم الجعليين من جهة أخرى . ومع أن هذه الخطة لا تتمشى مع الترتيب الجغرافى ، فإنها فى الغالب تتمشى مع الترتيب التاريخى ، لأن الوطن الرئيسى للعباسيين جميعاً هو الإقليم الممتد على النيل من أبى حمد إلى الخرطوم . وتمتد أوطان الجعليين من خانق سبلوقه فى الجنوب إلى العطبرة فى الشمال وتتناول الضفتين الشرقية والغربية . غير أن الجعليين منتشرون فى كثير من جهات السودان ، ويعيش عدد كبير منهم فى

العاصمة المثلثة ، وعلى الأخص فى أم درمان ، كما يعيشون فى مدن وجهات أخرى عديدة . وعاصمة الجعليين شندى ، حيث مقر ناظر القبيلة . وإن كانت المتمة ، المقابلة لها على الضفة اليسرى ، تمثل مركزاً رئيسياً لهم أيضاً .

وفى زعم ماكمايكل أنهم أحدث القبائل الجعلية تكوينا ، فان صح هذا الزعم جاز لنا أن نعجب كيف تكون أحدث القبائل الجعلية هى الوحيدة التى تحمل هذا الاسم . وهو يزعم أن تكوينهم لايرجع إلى أكثر من ٤٥٠ سنة مضت . ولكن ليست بنا حاجة لأن نجارى ماكمايكل فى زعمه هذا ، لأن كل ما يستند إليه هو الرجوع بزعماء القبيلة فى الوقت الحاضر إلى جد يدعى غانم ، وابنه دياب أو دؤاب ولكن قدم الأسرة الحاكمة شىء ، وقدم القبيلة شىء آخر ، ولذلك لا حاجة بنا لأن نعلق أهمية كبيرة على هذه الحجة .

وقد مر بركهارت ببلاد الجعليين فى الربع الأول من القرن الماضى ، وكان الرئيس الأعلى مك نمر مقيما فى شندى . ومدح السائح السويسرى أهل شندى وهو الذى لم يكن من السهل أن يرضى عن أحد ، ولكنه بعد تجاربه القاسية فى بربر رأى فرقا كبيراً بين أهلها وأهل شندى وأهم شىء أعجبه أن حكومة الجعليين لم تكن تجبى أتاوة من التجار والمسافرين بل تترك القوافل تمر فى الذهاب والإياب دون أن تطالب بشىء وإن جرت العادة على تقديم هدية زهيدة لبعض الزعماء . وبسبب هذا التسامح كانت شندى مركزاً عظيما للتجارة بين الشمال والجنوب ، وإن لم يكن جميع التجار من الجعليين ، بل كان كثير منهم من الدناقلة ، الذين وصفهم بركهارت بأنهم يتولون كثيراً من أعمال الوساطة ، ووصفهم بأنهم يلعبون نفس الدور الذى يتهم به اليهود فى المجتمع الأوربى وغيره . وإلى جانب التجارة التى كانت من أكبر مظاهر النشاط كان الناس يشتغلون بالزراعة والرعى . وأخص زراعتهم الذرة والدخن وقليل من القمح . وكذلك يزرعون البصل والخضروات المختلفة والبطيخ ونحو ذلك من الغلات . ويزعم بركهارت أن الجعليين كانوا يستخدمون كثيراً من العبيد فى الزراعة التى كانت تمارس فى الجهات التى تحف بالنهر وإلى جانب الزراعة التى كانت تبعث على الإقامة والاستقرار ، كانت هنالك

عشائر من الجبلين تشتغل برعى الإبل والبقر ، وهى من نوع جيد ، والضأن والماعز . والرعاة بالطبع بدو يرعون دوابهم فى سهل البطانة أو فى السهول الغربية ، وقد لاحظ بركهارت أن البدو من الجعليين أصفى ألواناً من المستقرين ، وأن تقاطيعهم القوقازية مشابهة لتقاطيع القبائل العربية فى شمال جزيرة العرب ، كما رآهم بركهارت فى بادية الشام وغيرها من الجهات ، وهذا على الأرجح صحيح ، لأن المستقرين على ضفاف النيل ، تكثر فى بلادهم تجارة الرقيق ، وقد وصف بركهارت هذه التجارة وصفاً مسهباً ، ولا شك أن وفرة الرقيق تدعو إلى تسرب بعض الدماء الغريبة . وكثيراً ما تبدو الصفات غير القوقازية فى الأسر الغنية ذات الحول والطول أكثر مما تبدو فى العامة والأسر الفقيرة ، وليست هذه الظاهرة مقصورة على الجعليين ، وستراها واضحة عند الجوعية .

ولاحظ بركهارت أن الجعلين أيضاً يمارسون الصيد وأنهم يصيدون بالقرب من أوطانهم طائفة من الحيوان ذكر منها الأيل والتيتل والنعامة والزرافة[١] .

ولا يزال الجعليون فى أوطانهم الأصلية يمارسون الزراعة والرعى كما كانوا فى عهد بركهارت ، وإلى جانب استخدام الساقية للرى ، قد أنشئت مشروعات عديدة ، تستخدم فيها طلمبات قوية لرى مساحات واسعة من الأراضى ، وقد أظهر الجعليون كفاية ومقدرة فى هذا الضرب من النشاط ، غير أن للجعليين كما ذكرنا جاليات عديدة منتشرة فى السودان ، وكثير منهم يشتغل بالأعمال الحرة ، وعلى الأخص التجارة ، التى أظهروا فيها دائماً ميزات واضحة ؛ وليس هذا بمستغرب ممن كانوا بحكم الموقع الجغرافى لبلادهم ، هم الواسطة بين الشمال والجنوب .

والنظام القبلى لا يزال يشمل أفراد القبيلة الذين يعيشون فى الوطن الرئيسى بين المطبره وسبلوقه ، والأراضى التى حوله فى سهل البطانة ، أما الذين هاجروا إلى جهات نائية ، فإنهم وإن ظلوا محتفظين بنسبهم فإن بعد الشقة لا يساعد على دوام الاتصال بينهم وبين المراكز الأصلية للقبيلة .

ويقول بركهارت إن الجعليين فى زمانه أو قبل وصوله بقليل كانوا فى حرب مع الشايقية ولم يكن النصر دائماً حليفهم ، غير أن الشايقية اضطروا إلى مهادنة

(١) راجع النسخة الانجليزية لرحلات بركهارت (الطبعة الثانية) ص ٢٧٧ وما بعدها .

الجعليين ، لـكى يتفرغوا لمحاربة المماليك وكذلك كان هنالك نزاع أحياناً مع الشكرية فى سهل البطانة وغيرهم وليس شىء من هذا بمستغرب .

والنيل يجرى فى بلاد الجعليين فى مجرى خال من العقبات سهل الملاحة ، والشلال السادس إلى الجنوب منه ، والشلال الخامس بعيد نحو الشمال ، وفى هذا تيسير للملاحة ، مما ساعد على سهولة الاتصال النهرى بين الجهات الشمالية والجنوبية ، والأراضى التى تحف بالنهر تمتاز بالسهولة بوجه عام ، وهنالك سهول فيضية فى كثير من المواضع تغمرها مياه الفيضان ، ولـكننا إذا ابتعدنا شرقاً فى سهل البطانة بدت الأرض وعرة وظهرت فيها كثبان من الخرسان تارة ومن الصخور البللورية تارة أخرى ، والمطر الصيفى يقل كلما اتجهنا شمالا ، وهو لا يكفى للزراعة ، وقلما يستخدم لهذا الغرض ، ولـكنه ساعد على نمو الأجم وأنواع من شجر السنط والسيال والأراك وقد تطعم الماشية من أوراقها ، بعد أن تجف الأعشاب وتزول .

وقد اصبحت بلاد الجعليين كلها داخلة فى المديرية الشمالية ، بل أصبحت إحدى المدن الجعلية وهى الدامر ، الواقعة إلى الجنوب من مصب العطبره ببضعة أميال ، هى عاصمة المديرية الشمالية ، والـكلام على الجعليين لا يكمل دون أن نشير إلى مدينة الدامر هذه ، وإلى وظيفتها الخطيرة فى حياة الإقليم ، لا لأنها عاصمة المديرية الشمالية بل لظروف أقدم من تكوين هذه المديرية بأجيال وقرون ، فإن الدامر ، وإن لم تكن مركز الحـكم بالنسبة للجعليين ، فإنها كانت دائماً العاصمة الروحية لهم ، بل ولـكثير من جهات السودان .

وقد دهش بركهارت عند ما انتقل من بربر إلى الدامر ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٨١٤ ، وشاهد الفرق الهائل بين البلدين ، وأعجبه من الدامر أنها بلدة نظيفة ذات شوارع منظمة ، يسودها الأمن والطمأنينة ، ولم يحاول أحد أن يجبى منه أتاوة أو أن يرهقه فى بيع أو شراء ورأى البلدة يسودها جو من التقوى والصلاح ، وعلم أن الفضل فى ذلك يرجع إلى أن الرئاسة والسيادة فى الدامر لرجال الدين ، الذين ينتمون جميعاً إلى أسرة كبيرة سماها خطأ أسرة المجدولين ، والصحيح أنها أسرة المجذوبين أو المجاذيب ، والمجذوب فى عرف الصوفية — كما هو مشهور —

اسم يعبر عن التناهى فى الزهد والتقوى والإيمان ، وقد أطلق هذا الاسم على جد الأسرة ، ولعل الأولى أن ندعوها العشيرة ، وهو الفقيه حامد بن محمد المجذوب وربما كان تاريخه يرجع إلى القرن الخامس عشر ، والمجاذيب على كل حال قسم من الجعليين ، وأن كانوا من أشهر أقسامهم ، وقد نما عددهم على مضى القرون ، حتى أصبح يبلغ نحو أربعة آلاف[1] منتشرين فى مختلف أنحاء السودان ، وإن كان مركزهم الرئيسى لا يزال فى الدامر ، وقد اتسع نشاطهم حتى شمل طوكر وبور سودان وسواكن والقضارف وغيرها من الجهات .

وقد كان لهذه العشيرة فضل كبير فى نشر التعاليم الإسلامية فى السودان وكان كثير من أبنائها يسافرون إلى القاهرة ومكة للتحصيل فى الأزهر ؛ ثم يعودون إلى الدامر ، حيث ابتنوا مسجدين كبيرين . إلى جانب الزوايا الكثيرة ، التى كانت تتخذ إلى جانب منازل رؤسائهم . وكان المسجدان والزوايا الصغيرة مدارس ومعاهد للتعليم ، وكانت تفد الطلاب من دارفور بل والبلاد الواقعة وراء دارفور غرباً ، وبالطبع من جميع أنحاء السودان ، لكى يتلقوا علوم الدين على أبناء هذه العشيرة ، ثم يعودون إلى بلادهم بما حصلوه .

وهذه العشيرة هى التى أنشأت مدينة الدامر منذ نحو أربعة قرون على أقل تقدير ، وقد كان موطنهم قبل ذلك فى قرية صغيرة تبعد عن موقع الدامر بنحو عشرة أميال ؛ ولم يلبثوا أن بنوا فيها مسجداً عظيما . وعمرت المدينة وازداد سكانها ، فاضطر فقهاؤها إلى بناء مسجد آخر ، إلى جانب الزوايا الكثيرة المنتشرة بها .

واليوم أصبحت العاصمة الروحية للجعليين ، بل ولكثير من جهات السودان ، عاصمة للمديرية الشمالية للسودان ، فأضيف النشاط السياسى والإدارى ، إلى ما اشتهرت به من النشاط الدينى والروحانى .

***

---

(١) راجع مذكرة Lorimer عن المجاذيب فى الدامر ، فى مدونات السودان لعام ١٩٣٦ الجزء الثانى ص ٣٣٥

٢ – الميرفاب

إذا اخترقنا نهر العطبره ، من الجنوب إلى الشمال ، عند مصبه فى النيل ، انتقلنا من بلاد الجعليين إلى بلاد الميرفاب ، التى تمتد على ضفتى النيـل من مصب العطبره إلى بلدة عبيدية حيث يبدأ الشلال الخامس ، مسافة لا تزيد على الخمسين ميلا أو ربع المسافة التى يحتلها الجعليون . وإذا اخترقنا العطبره ، قابلتنا المدينة المسماة بهذا الاسم ، وهى ، وإن كانت داخله فى إقليم الميرفاب ، غير أنهـا ليست ، فى صورتها الحالية ، من صنعهم . وإنما هى وليدة حركة النقل بالسكة الحديدية ، وقد اختارتها الإدارة لتكون المركز الرئيسى للمواصلات الحديدية . وبذلك نشأ فيهـا نشاط مستحدث زاد فى عدد سكانها وفى عمرانها واحتشد فيها النـاس من قبائل وبلاد شتى . فهى بلدة خلقتها ظروف المدنية الحديثة ولم ينشئها سكان البـلاد وهم فى حالة الفطرة يمارسون أعمالهم التى ألفوها ، والتى أملتها عليهم بيئتهم .

أما المدينة التى أنشأها الميرفاب والتى أصبحت عاصمتهم ، فهى بلدة بربر الواقعة على العرض الثامن عشر ، والتى تتوسط الإقليم الذى يعيشون فيه ، ويمارسون فيه حرفهم المختلفة من تجارة ورعى وزراعة ، وتمتاز بربر من حيث موقعها بأن الطريق منها إلى البحر الأحمر ، لا يخترق نهر العطبره ، بل يذهب إلى الساحل مباشرة . وقد اشتهر طريق سواكن — بربر ، فى أثنـاء حكم محمد على وإسماعيل ، وكان يستخدم أكثر من أى طريق آخر لنقل الغلات من شواطىء البحر إلى وادى النيل فى السودان ، ومن الممكن للسفن أن تحملها بعد ذلك إلى الخرطوم ، دون مشقة كبيرة لأن جنادل سبلوقة ليست عائقاً خطيراً للملاحة .

وقد أساء بركهارت كثيراً إلى سمعة الميرفاب بما كتبه عنهم ، وتحامل عليهم تحاملا شديداً . ومن الغريب أن ماكايكل فى كتابه عن تاريخ العرب فى السودان يكتفى بتلخيص ما ذكره السائح السويسرى ، دون أن يضيف شيئاً من عنـده . ويتهم بركهارت زعماء الميرفاب بالتعسف وإرهاق التجار أو « الجلابة » بالضرائب الكثيرة ، فى كل مرحلة من مراحل رحلتهم ، منذ اقترابهم من المدينة إلى أن يبتعدوا عنها وطول مدة إقامتهم بها . وقد كان دفع الضرائب من الأمور التى ينفر

منها بركهارت أشد النفوز ، ولعل هذا هو السبب الأكبر فى تحامله وإسرافه .

وليست الميرفاب من القبائل الجعلية الكبيرة ، ولكنهم يوصفون بشدة المحافظة على أنسابهم ؛ وتقاطيعهم القوقارية واضحة ، وقد وصفهم بركهارت بأنهم لا يتزوجون من غيرهم .

ونظراً لأن بربر بلدة تجارية وسوق من أهم الأسواق ، فقد نزلت بها جماعات غير سكانها الأصليين ، وفيها الآن كثير من العبابده ، كما يؤمها جماعات من قبائل أخرى تنزلها لمدة قصيرة أو طويلة .

وقد بدأ بركهارت سياحته النوبية من مصر عند بلدة دراو ، ثم اخترق مع القافلة صحراء العتمور ، وقد اضطروا لأن يبتعدوا عن النيل بالقرب من أبى حمد ، خوفاً من إغارات نعيم ، ولم يصلوا إلى النهر إلا عندما اقتربوا من بربر . وبذلك تجنبوا إقليم الرباطاب كله . فلم يستطع بركهارت أن يتحدث إلينا عنهم .

٣ — الرباطاب

يعيش الرباطاب على ضفتى النيل الأعظم من شمال عبيدية ، حيث يبدأ الشلال الخامس ، إلى أبى حمد ، ثم إلى امتداد النهر غرب أبى حمد بنحو خمسين كيلو متراً إلى موضع يدعى شمخية .

يحتل الشلال الخامس جزءاً عظيما من هذا الإقليم ، حيث يجرى النهر متدفقاً سريعاً . تكتنفه جزر كثيرة العدد فى النصف الجنوبى من مجراه ، وفى الجزء الشمالى جزيرة مجرات . ومعظم هذه الجزر يتألف من قاعدة صخرية مكونة من الصخور البلورية القديمة ، ولكن كثيراً منها تراكمت عليه بعض الرواسب ، ونما عليه العشب والشجر .

وقد قطع النهر بمجراه السريع وادياً مرتفع الجوانب ، ولذلك كانت المساحة التى يفيض عليها النهر ، حين يرتفع ، وينحسر عنها حين ينخفض ، مساحة ضيقة ضئيلة فى معظم الإقليم ، وهى عبارة عن شريط يمتد متقطعاً ، شرقاً وغرباً ، محاذياً للنهر ؛ لا يزيد اتساعه فى معظم المواضع عن بضعة أمتار ، ولكن هذه

المساحة ، على قلتها ، تبدو زاهرة يانعة غزيرة النبات والشجر ، إذا قورنت إلى الهضبة المجدبة التى تليها شرقاً أو غرباً ؛ والتى لا يكثر فيها النبت إلا حيث تجرى الأخوار ، مثل وادى عمور ، منحدرة إلى النهر .

فى هذه المساحة الضيقة على ضفتى النهر يزرع النخيل ، وتنمو أشجار السنط والطلح ، وبعض الحشائش والعشب ، ويزرع الفلاحون ما يستطيعون زرعه من الغلات ، على أثر هبوط الفيضان ، وبالاستعانة بالسواقى والنواعير . وعلى الجزر كثير من الآثار للعهد القديم والإسلامى . والإقليم كله ملىء بتلك الآثار ، أسوة بالجهات التى تليه فى الأجزاء العليا والسفلى من النهر .

ووراء الشاطىء من الناحية الغربية ، ترتفع الأرض ويكسوها الحصا ، إلى مسافة تتراوح بين نصف كيلومتر ، إلى أربع كيلومترات ، ثم تنتهى إلى مرتفعات صخرية داكنة اللون ، معظمها من صخور بللورية قديمة . أما الجانب الشرقى ، فيتعرض للرياح الشمالية الشرقية ، التى تسفى الرمال ، وتحيلها كثباناً تحدق بالنهر فى مواضع عديدة ، وتكاد تصل إلى مجراه ، ولذلك كانت الزراعة فى الجانب الشرقى أقل كثيراً منها فى الجانب الغربى .

وفى هذا الإقليم يزرع نخيل التمر كما قدمنا ، وها هنا آخر امتداد لهذه الزراعة من ناحية الجنوب ، ولا يعد التمر هنا معادلا فى الجودة لما ينتجه الإقليم النوبى فى الشمال .

والرباطاب ، الذين يعيشون فى هذا الإقليم ، ينتسبون بالطبع إلى بنى العباس . وهم يفخرون بنسبهم العربى الصميم ، ولا يعترفون بأن فى تكوينهم دماء أخرى نوبية أو سواها ؛ ويرجعون بنسبهم إلى جد يدعى رباط ، ويصلون بين أنسابهم وبين كل من الميرفاب والجعليين من جهة ، وبين الشايقية والمناصير من جهة أخرى .

وتتألف القبيلة من سبع عشرة فرقة أو شعبة[1] ، بين كبيرة وصغيرة ، وأكثرها ينتهى بالمقطع اب ، كما هو مألوف . ويقول لوريمر إن هنالك شعبة

---

(١) راجع مقالة Lorimer عن الرباطاب فى مجلة S.N.R. لسنة ١٩٣٣ (الجزء الأول) ص ١٦٤

أخرى ، تدعى أنها من الرباطاب ، واسمها العبابسة ، تزعم أنها تنتسب إلى هرون الرشيد . وهو لا يظن أنهم من الرباطاب حقاً ، بل يمثلون هجرة متأخرة ، انضم أفرادها إلى الرباطاب . ويعيش أكثرهم حول بلدة أبي حمد ؛ وهذا وحده دليل على حداثة هجرتهم . وليس لدينا معلومات وافية عن تاريخ الرباطاب ، منذ نزلوا هذا الإقليم ؛ ومع ذلك فلا شك أنه كان من أقدم الأقاليم التى غزتها الثقافة العربية فى السودان . وبلدة أبو حمد فى شماله ، بحكم موقعها الجغرافى على نهاية طريق العتمور ، هى من أول الجهات التى تستقبل المؤثرات الشمالية ، وبفضل هذا الموقع كان لإقليم الرباطاب ، وبالتالى للقبيلة نفسها دور كبير فى تاريخ هذه الأقطار الشمالية كلها ، ونستطيع أن نؤكد أنه لولا فقر الإقليم(١) لكان للرباطاب شأن آخر من حيث القوة والجاه .

وأقصى ما نعرفه عن تاريخ الرباطاب ، يرجع إلى زمن الفنج ، وقد امتد نفوذ سلاطينهم إلى هذه الجهات ، ولكنه كان نفوذاً اسمياً إلى درجة بعيدة ، وكان للرباطاب فى عهد الفنج زعيمان ، واحد فى الشمال وآخر فى الجنوب ، وفى القرن التاسع عشر زاد العدد إلى ثلاثة ثم تركزت الرئاسة حديثاً فى ناظر واحد مركزه أبو حمد وهو ينتمى إلى شعبة البديراب .

والزراعة هى الحرفة الأساسية على قلتها ، والظاهر أن الرباطاب فيما مضى كانوا يعتمدون على استخدام الرقيق ، لأن الزراعة شاقة مجهدة ، وحفر السواقى قد يضطر المرء إلى قطع الصخر الصلب الذى يغطيه الطين . ولذلك يرى لوريمر أن الزراعة نقصت اليوم عما كانت عليه فيما مضى ، وأن كثيراً من الرباطاب قد اشتغلوا بالتجارة وبمختلف الأعمال ، عدا الزراعة ، ونزح كثير منهم إلى بلاد أخرى فى السودان .

والتمر أهم الغلات ، ويبدو أن للرباطاب نحو مائتى ألف نخلة ، ولهم قطعان ، ولكنها قليلة . ومن الصعب زراعة غلات أخرى ، لأن رفع المياه عمل شاق مجهد .

(١) يروى الرباطاب قصة طريفة يعللون بها فقر أقليمهم . ذلك أن جدهم رباط ، وكان الابن الأكبر جمع إخوته بعد وفاة الوالد ، وقال لهم إن من الواجب ألا يشجر بينهم خلاف على الميراث ، وضرب لهم المثل الصالح بأن اختار أفقر الجهات . ويقولون إن هذا هو التفسير الصحيح لما يشاهد من فرق شاسع بين بلادهم وبلاد الجعليين والشايقية .

٤ — المناصــــير

يطلق على هذه القبيلة اسم المناصرة أحياناً ، وأحياناً المناصير . والمفرد فى كلا الحالين منصورى ، ولعل هذا هو السبب الذى دعا إلى الرأى بأن أصلهم من مدينة المنصورة عاصمة الدقهلية ، غير أن أنصار هذا الرأى قليل ، ومع ذلك فإن تقرير النسب الصحيح للمناصير ليس بالأمر السهل ؛ وقد رأى ما كمايكل أن يحشرهم فى زمرة الجمليين ، ولا شك أن مواطنهم على النيل ، وتقاليدهم وصفاتهم الطبيعية تجعل من الصعب أن نضمهم إلى مجموعة أخرى ، ولـكن بعض النسابين يرجعون بالقبيلة إلى منصور الكاهلى ، أى أنهم يردون نسب القبيلة إلى بنى كاهل وإلى الزبير بن العوام أسوة بالعبابدة والـكواهلة ، أى أنهم لا يرجعون بنسبهم إلى العباس ، كما يفعل الجمليون .

وتأييداً لهذا الرأى يزعم بعضهم أن أوطانهم الأصلية فى كردوفان (حيث يعيش الـكواهلة الآن) ، وأنهم هاجروا إلى أوطانهم الأصلية لقلة المرعى فى تلك البلاد ، وهذا الزعم يصعب التسليم به . فإن مراعى كردوفان أغزر وأوفر ، من بلاد المناصير المحدودة ، وفوق ذلك فإن وجود الـكواهلة فى كردوفان شىء حديث جداً .

ولعل تفسير هـذا التناقض والتضارب فى الأنساب ، أن بعض العناصر من الـكواهلة قد هاجرت فعلا إلى بلاد المناصير ، ولذلك اختلطت الأنساب العباسية بالأنساب الكاهلية ، ومجاورة الحسانية فى صحراء بيوضة ممـا يؤيد ذلك .

وقد كانت بينهم وبين جيرانهم الرباطاب والشايقية منازعات وحروب ، بسبب التزاحم على الديار المحدودة التى يعيشون فيها ، ومن الجائز أن هـذه هى الظروف التى جعلتهم يقبلون مساعدة بعض الـكواهلة ، الذين أيدوهم ونصروهم ، فأدى ذلك إلى اختلاط انسابهم بأنساب الـكواهلة .

أما وجودهم فى كردوفان فجاء متأخرا نسبياً . ويذكر ما كمايكل [1] أن شعبة من المناصير هاجرت منذ مائتى عام من أوطانهم على النيل إلى إقليم دارفور ، وبعد ذلك نزحوا إلى غرب كردوفان ، إلى جوار قبيلة الحمر ، الذين استعمروا هذا الإقليم ،

(١) الجزء الأول ص ٢٠٩ .

واستعانوا على الحياة فيه بتجويف شجر التبلدى وملئها بالماء المدخر من أيام المطر لأيام الجفاف . فأصبح للمناصير مستعمرة صغيرة فى غرب كردوفان ، انضم إليهم فيها معظم أقاربهم الذين كانوا فى دار فور ، وعدد آخر من الوطن الأصلى على النيل ولم يبق منهم فى دار فور سوى عدد قليل جداً ، ويقول جاكسن(١) إن كلا من الرباطاب والشايقية يعدون المناصير « دخلاء » ، ويرجح بسبب ذلك أن للمناصير أحدث عهداً فى أوطانهم من الرباطاب والشايقية ، ولعل الأوفق ألا نعلق أهمية كثيرة على هـذا التنابذ والتشاتم ، الذى قد يكون سببه رغبة المناصير فى التوسع شمالا وجنوباً على حساب جيرانهم ، خصوصاً بعد أن عاد كثير منهم من كردوفان إلى الوطن الأصلى .

وصفوة القول أن جميع الشواهد تدل على أن المناصير هاجروا من النيـل إلى كردوفان ، وأن العكس غير صحيح ، إلا على اعتبار عودة بعضهم إلى الوطن الأصلى . وهنالك أمثلة عديدة للهجرة من النيل إلى دارفور ، وعلى الأخص من هذا الإقليم بالذات . كما هى الحال فى البديرية والنوبة أنفسهم . وقد دام النزاع بين المناصير وجيرانهم إلى وقت محمد على ، فتدخل الحكام بينهم ، وأقروا المناصير فى أوطانهم . التى يحتلونها اليوم . وهى تبدأ إلى الغرب من جزيرة مجرات إلى نهاية الشلال الرابع . وينقسم المناصير حسب ما ذكره جاكسون إلى ستة أقسام ، وهم : الوهّابات و Kagubab (لعله يقصد يعقوباب) وسليمانية ، والخبرا ، والحمامير Hamamir والدقيساب Degisab . ويقول إن سكان الإقليم النهرى على اتصال بأقاربهم فى كردوفان ، يكاتبونهم ويزورونهم أحياناً ويحملون إليهم الهدايا . ولو أن أقاربهم فى كردوفان حريصون على أن لا يؤكدوا هذه الروابط ، خوفاً من أن يتهموا هم أيضاً بأنهم دخلاء فى أوطانهم .

والحياة فى إقليم المناصير لا تكاد تختلف عنها فى إقليم الرباطاب ، وإن كانت أشد قسوة ، لأن موارد الإقليم أقل ، والعزلة فيه واضحة ، إذ ليس لبلاد المناصير

---

(١) فى مقاله A Trek in Abe Hamed Distrid, S.N.R. 9, 1926 ص ٤ وما بعدها .

ذلك الموقع الجغرافى ، الذى يجعل من إقليم أبى حمد موقعاً تجاريا هاماً ، لوقوعه على طريق القوافل .

والضفة اليمنى للنهر — وهى تسمى دائماً الضفة الشرقية ، فى بلاد المناصير والشايقية . برغم وقوعها فى الغرب — تكاد تكون خالية من الزراعة ، إذ تمتد الرمال الصفراء ، تتخللها الصخور ، إلى حافة النهر ؛ وهذا من أثر هبوب الرياح الشمالية . أما الضفة اليسرى فتمتاز بشريط ضيق من الرواسب النيلية ، قد يصل اتساعه إلى مائة متر أو أكثر ، ولكنه فى المتوسط دون ذلك بكثير . وقد يضيق أحياناً حتى يكاد يختفى تماماً . وفيما يليها من الجنوب ترتفع الأرض ويكسوها مزيج من الحصا والرمال ؛ حتى نصل إلى صحراء بيوضه ، التى تمتاز ، على الأقل فى الجزء الأوسط منها — ببراكين مبعثرة ، ترجع إلى عصر جيولوجى حديث ، وهى الآن خامدة ووجودها مما يساعد على سقوط بعض المطر .

والمطر على كل حال قليل جداً ، وهيهات أن يبلغ حتى فى إقليم البراكين خمسين ملليمتراً ، ومع ذلك فإنه يكفى ، لتركزه حول شهر أغسطس ، لتكوين سيل وحفر أودية ، ولإنبات شجر شوكى قصير ، من نوع السلم والسيال وضروب من الأعشاب الصالحة لرعى الإبل والضأن والماعز .

فى هذه البيئة الفقيرة يعيش المناصير حياتهم المحدودة ، يمارس بعضهم الرعى ، ويعيشون عيشة البدو ، ويحترف بعضهم الزراعة ويلتزم حياة الاستقرار . وقد يكون بعض أفراد الأسرة الواحدة بدواً والآخرون زراعاً . وأهم الغلات عندهم التمر — كما هى الحال عند الرباطاب — ولكن النوع ليس ممتازاً . ويقول جاكسن إنه يوشك ألا يكون فى السودان كله إقليم يعانى فيه الزارع من المشقة ما يعانيه فى مركز أبى حمد . وإلى جانب النخيل يحاول الأهالى زراعة محصول ضئيل من الذرة الرفيعة ، ومن آن لآن بعض القمح . والصعوبات التى يعانيها الرباطاب فى حفر السواقى ، هى بعينها عند المناصير ولذلك تسود الإقليم مظاهر الفقر والحاجة ، وفى هذا يقول جاكسن :

« يبلغ من فقر الأهالى ، أن أى نوع من أنواع الحلى مهما كان رخيصاً ،

يوشك أن يكون معدوماً . وأكل اللحم أمر نادر جداً . وأهم غذاء لهم التمر . والقليل جداً من الحبوب ، يصيبون منها — حسب تعبيرهم — بقدر ما تصيبه الفراخ الصغيرة ، ويبذلون جهداً شديداً لكى يشتروا القليل من السكر ، وذلك بأن يسيروا على أقدامهم مسافات طويلة ، لأن الحمير القليلة التى لديهم مسخرة فى أعمال الزراعة ، حتى يصلوا إلى بعض الأسواق ، ومعهم بعض التمر أو الحصير المصنوع من ألياف الدوم . فيبيعون هذه السلع ويشترون بها حاجاتهم المحدودة . »

وليس بمستغرب والحال هذه أن كثيراً من السكان قد اجتذبتهم الأعمال الجديدة فى السكك الحديدية وغيرها ، حيث يستطيعون الحصول على أجر أكبر لعمل أيسر وأهون . ومعظم الرجال يرحلون فى طلب الرزق . ولكن بعضهم يعود بعد ذلك إلى وطنه ، لأن المناصير يحنون إلى بلادهم ، على فقرها ، ولا يتركونها إلا على كره منهم .

ووجود الآثار الكثيرة فى إقليم المناصير والرباطاب ، وفى الأول بوجه خاص ، يدل على حالة من الرخاء فيما مضى أكثر مما نراه اليوم . ومع أن احتمال تغير يسير فى الأحوال المناخية ليس بالأمر المستحيل ؛ غير أنه ليس من الضرورى أن نلجأ لهذه الأسباب العنيفة لتفسير ما طرأ على الإقليم من التغيرات . بل يكفى لتفسير التغيرات التى طرأت أن نرجع إلى الظروف السياسية والاجتماعية ، فى العصور القديمة ، وما كانت عليه من الاستقرار ، واتحاد الإقليم كله تحت سلطة واحدة عليا . والارتباط بينه وبين الأقاليم التى تليه فى الأجزاء العليا والسفلى من النهر . وإلى الكراهية المعروفة عند الشعوب التى ألفت حياة البادية ، لكل عمل زراعى مرهق . كل هذه الظروف البشرية كافية لتفسير نقص العمران فى هذا الإقليم وعلى الأخص بعد إلغاء تجارة الرقيق ، وامتناع الأيدى العاملة التى كان يمكن تسخيرها لهذا العمل الكريه .

٥ — الشايقية

ينتسبون إلى شايق ، وهو أخو غانم جد الجعليين ؛ وعلى الرغم من الجد المشترك نرى الشايقية معتزين بأنفسهم ومكانتهم ، وفى البعد بين الوطنين ما يقوى هذه

النزعة الاستقلالية . وتمتد أوطان الشايقية على ضفتى النيل من نهاية الشلال الرابع إلى مصب وادى المِلْك ، فى مسافة تزيد على مائتين من الكيلومترات ، وفى نهاية أوطانهم فى الجنوب يلتوى النهر مرة أخرى ، لكى يستأنف اتجاهه نحو الشمال ؛ ومن نقطة الالتواء هذه تمتد نحو الجنوب الغربى فياف تتخللها أخوار وأودية وينالها بعض المطر الصيفى ، وهذه المساحة يتوغل فيها الشايقية أيضاً ، فيرعى فيها بعضهم إبله . . وفى هذا الإقليم تصب فى النيل أودية عديدة أهمها وادى أبو الدوم ويصب عند مروى ووادى مقدم عند كرتى ووادى الملك عند الدبه ؛ ولكن ليس للشايقية فى هذه الأودية مواطن ، اللهم إلا فى أطرافها السفلى القريبة من النيل .

ويمتاز هذا الإقليم باعتدال مجرى النهر ، واتساع واديه ؛ وقد ساعد بطء جريان النهر على الإرساب فتكونت سهول فيضية صالحة للزراعة بواسطة الحياض والسواقى ، ورفع المياه هنا أيسر وأسهل بكثير مما هو فى بلاد الرباطاب والمناصير . ولذلك أمكن لحياة قوامها الزراعة أن تتوطد وأن يعمها الاستقرار والعمران ، وأن تنشأ فيها المدن فى العصور القديمة والحديثة . والآثار القديمة منتشرة انتشاراً واسعاً ، وكذلك الكنائس وبقايا الأديرة من مخلفات العهد المسيحى . وهذا العمران القديم له نظيره فى الحياة الاقتصادية التى تسود الإقليم اليوم . حيث لا نجد تلك الشدة والمشقة التى نجدها فى أقاليم الرباطاب والمناصير .

ويزعم ماكمايكل أن الأساس الجنسى ، وإن كان واحداً عند كل من الجمليين والشايقية ؛ فإن الظواهر تدل على أن عنصراً غريباً قد أضيف فى حالة الشايقية ، إلى العنصر الأصلى المشترك ، فكان هذا العنصر الإضافى مميزاً للشايقية فى مظهرهم ، عن أبناء عمومتهم . ولعله يقصد بهذا أن الشايقية أصفى دماً وأبعد من الاختلاط من الجمليين . وبذلك يكون التفسير الحقيقى لاختلاف مظاهر القبيلتين وأشكالهم راجعاً إلى أن مواطن الشايقية أكثر عزلة وأبعد عن الاختلاط بالعناصر الجنوبية . وبذلك لا يكون الشايقية هم الذين أضيف إليهم عنصر غريب .

ويصف ماكمايكل الشايقى فى مظهره بأنه شاحب الوجه ، نحيف الجسم ، خفيف

الحركة ، مكب على الشراب ، والقمار ومفطور على الكذب (a born liar)[١] ، والصفات الثلاثة الأولى يسهل التسليم بها . أما الثلاث الأخيرة فمن الظلم أن تطلق على شعب بأسره من غير تمييز . ويصفه أيضاً بأنه يمتاز على جميع القبائل السودانية ، بأنه أكثر ميلا للمغامرة ، والمشاجرة ، وبوجه خاص أنه مستعد دائماً لكى يحترف كمقاتل مأجور (مرتزق) عند أى قائد يستخدمه . وفى مظهره يصعب تمييزه من « المولدين » ، الذين لهم أب « تركى » وأم سودانية أو العكس ؛ وينقل ما كما يكل وصف الرحالة الألمانى ڤرن للشايقية ، وما يتضمنه هذا الوصف من نظريات يعلل بها شكلهم ، الذى يختلف عن النوبيين والجعليين فى آن واحد . وفيما يلى خلاصة ما شهد به هذا السائح الألمانى ، الذى زار هذه البلاد فى أواسط عهد محمد على .

من السهل أن يتعرف المرء لأول وهلة على الشايقى ؛ ولكن ليس من السهل أن نفسر لماذا يختلف كل هذا الاختلاف عن سائر العرب . الوجه طيب (good ولعله يقصد بذلك أنه معتدل التقاطع) نحيل واضح القسمات والطبقة العليا تمتاز بملامح وسيمة (fine features) . الجبهة عالية والعيون حادة واسعة ، والأنف محدب وطرفه مدبب (وهذا يميزهم على النوبيين ذوى الملامح الصغيرة) . والشفاه معتدلة ، وشعر اللحية خفيف ، ولون البشرة أسمر ، أو أسمر داكن . والقوام نحيل ، ولكنه متناسب ، مما يساعد على جميع ضروب النشاط الجسدى ، وهم جميعاً مولعون جداً بالشراب ، وملامحهم تدل على أنهم أقرب إلى العرب منهم إلى النوبيين ؛ ولكنهم ينكرون نسبتهم إلى العرب أو إلى النوبيين[٢] ، ويزعمون أنهم مستقلون استقلالا تاماً ، وأنهم أصحاب هذه الأرض منذ أقدم العصور . ويمثلون الطبقة المحاربة . ذلك ما فهمته من قادتهم وزعمائهم ؛ أما رجال الدين فيؤكدون غير ذلك ويعترفون بأن القبيلة من أصل عربى ، ولكن هذا يرجع إلى أن رجال الدين وحدهم ينتمون إلى أسر عربية . ومن الجائز أن اسم الشايقية مشتق من زعيم دينى عربى .

---

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان ص ٢١٣ ولا شك أن مكما يكل بنى حكمه هذا على أمثلة قليلة ممن اتصل بهم فى البوليس أو الجيش ولهذه الأمثلة نظائرها بين الجنود فى جميع أنحاء العالم .

(٢) من الغريب أن يكون هذا ما فهمه ڤرن ، لأن الشايقية جميعاً يؤكدون أنهم عرب .

ولكن أليس من الجائز أن الشايقية يمثلون طبقة المحاربين من المصريين القدماء ، أو أنهم نسل أولئك المحاربين الثائرين ، الذين هاجروا إلى الجنوب ، فاستقبلهم ملوك أثيوبيا بالترحيب[١] ومما يؤيد هذه النظرية موقع بلادهم ، وقربها من مروى القديمة (؟)[٢] ، التى حموها من غارات برابرة الجنوب ، وروحهم الحربية . وكونهم غير خاضعين لزعيم واحد ، بل كانوا دائماً يعيشون أحراراً فى ظل ملوك صغار ، ولعل الأسر الحاكمة فيهم يمثلون طبقة السادة المصرية القديمة ، التى لم تعترف بسلطان أحد سوى ملوك أثيوبيا ، فلما زال ملكهم أصبحوا أمراء مستقلين كما حدث لقواد الإسكندر المقدونى ، بعد وفاته . ومن الملاحظ فى الشايقية أنهم يقصرون شعر رأسهم كما هى عادة المصريين ، وطبقاً لدواعى النظافة ، بخلاف العادة السائدة عند العرب والنوبيين ، ولكنهم مع ذلك يشاركون العرب والنوبيين فى أنهم يشلخون وجوههم . والشلوخ عند الشايقية خطوط أفقية .

هذه العبارة المقتبسة من رحلات ڤرن ، نسوقها هنا على علاتها ، ولا شك أن وصفه لمظهر الشايقية هو الجزء الذى نستطيع الاعتماد على صحته ، أما نظرياته ففيها مجال للقيل والقال وليست بنا حاجة لأن نؤمن بصحتها وإن كان وجود عنصر مصرى قديم فى جميع سكان السودان الشمالى ليس بالأمر الغريب . والسلالات فى كلا الحالين واحدة ومتقاربة .

ويروى ما كايكل تأييداً لرأى ڤرن ، مشاهدات للرحالة كايو ، الذى رأى الشايقية فى إقليم الجزيرة يقيمون نصباً على صورة إنسان ، يعين حدود الجهات التى غزوها . ويقول ما كايكل إنه مما لا شك فيه أن هذه العادة مقتبسة من الفراعنة الذين كانوا يقيمون تمثالا على حدود فتوحهم ، ولكن اقتباس عادة من العادات لا يبرر الزعم بوجود صلة دم وقرابة نسب .

ومع أن ما كايكل لا يميل إلى قبول نظرية ڤرن عن انتماء الشايقية إلى أصل مصرى ، فإنه يسوق نظرية أخرى يفضلها . وهى أن الشايقية مولدون من الجنود

(١) إشارة الى ما جاء فى الكتاب الثانى من تاريخ هيرودوت عن جماعة من المحاربين ثارت وأبت العودة إلى مصر . وقد كانت هذه القصة مثاراً لتأويلات عديدة .

(٢) مروى القديمة أقرب إلى شندى وبلاد الجعليين ، والقريب من أوطان الشايقية هو العاصمة القديمة نبتا .

المرتزقة من الترك والألبان والبشناق ، الذين كانوا يؤلفون الحاميات والحرس فى بلاد النوبة منذ الفتح التركى لمصر ، كما نزل اليونان المرتزقة أرض مصر فى عهد إبسماتيك الأول . ولا يكتفى ماكايكل بهذا بل يزعم أن هذا التزاوج استمر حتى فى عهد الأسرة العلوية إلى سنة ١٨٨٢(١) .

ومما يؤسف له أنه ليست لدينا دراسة للشايقية بواسطة رجل من علماء الأجناس ، حتى نستطيع بالدراسة العلمية للمقاييس ، وعلى الأخص مقاييس النسبة الرأسية أن نحكم على وجه الشبه بين الشايقية وأولئك الجنود ؛ الذين إذا كانوا حقيقة لهم نسب ألبانى أو تركى أو بشناق فإن هذا كفيل برفع النسبة الرأسية . ومثل هذا الاختلاط يتنافى مع ما نعرفه من صفات الشايقية الجسدية . كنحول الجسم والوجه وشكل العيون . أما بروز الأنف فمعروف لدى كثير من العرب حتى فى السودان نفسه . وقد لاحظته لدى الحسانية فى إقليم بيوضة (كما يرى فى الصورة) وكذلك لدى بعض الدناقلة والكبابيش . ولا يسع المرء إلا أن يقرر أنه إذا لم يكن بد من الاختيار بين الرأيين ، فإنه لن يختار رأى ماكايكل . الذى لا ينهض به دليل ، وإن يكن الرأى الأول لا يرقى عليه كثيرا ، لأنه يستند إلى أن المصريين القدماء كانت فيهم طبقة محاربين . وكانت فيهم سلالة للقيادة أو جنس متزعم « Leader—Race » ؛ وهى فكرة جرمانية تذكرنا بالعبارات التى كانت سائدة فى العهد النازى . وإذا كان رجل مثل ڤرن السابق لعهد هتلر بمائة سنة يستخدم هذه المصطلحات ، فلا شك أن هذا النوع من التفكير متأصل فى الشعب الألمانى بصورة تبعث على الدهشة .

وإذا كان الأمر الذى دعا إلى كل هذا الشطط هو أن لون الشايقية أقرب إلى لون المولدين ، فمن الممكن تفسير هذا بقلة تسرب السلالات الجنوبية ، وبالاختلاط الذى حدث فى العصور القديمة ، لأن هذا الإقليم كان دائم الاتصال بالشمال . وإذا

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان ص ٢١٥ . لقد أرسل إلى بلاد النوبة عدد من الضباط فى العهد التركى ، ويسمونهم الكشاف ، ولا يزال نسلهم فى بلاد النوبة إلى اليوم يعرف بهذا الاسم . وهم منتشرون فى جهات محدودة جداً ، وبأعداد قليلة جداً ، ولا يعرف أن لهم أثراً فى بلاد الشايقية .

كانت المشكلة هى الروح العسكرية ، فإن الهجرات العربية كفيلة بتفسيرها و تعليلها تعليلا مقبولا من غير حاجة إلى أن نجلب الأتراك والأرناؤوط وسكان البوسنه والهرسك من بلادهم إلى هذه الأقاليم النائية .

وفى القرون الماضية كان للشايقية أربعة زعماء كل منهم يدعى ملك ، ومراكزهم فى مروى ، وحنك وكجبى وعمرى . وإلى نهاية القرن السابع عشر كانوا خاضعين — مثل كثير من القبائل — لنائب الفنج المسمى منجل والذى كان مقره فى بلدة قرّى ، أى أن نفوذ الفنج قد امتد إلى بلاد النوبة ، ولا يزال فى بلدة الدبة إلى اليوم جماعة تسمى نفسها « فنج » . ولكن الشايقية لم يخضعوا طويلا لهذا الحكم .

وفيما يلى خلاصة لتاريخهم كما استخلصه ما كمايكل :

فى حوالى عام ١٦٩٠ رأى الشايقية فى النزاع الداخلى بين الفنج والعبدللاب ، فرصة ينتهزونها للظفر بالاستقلال فثاروا بزعامة قائدهم عثمان واد حماد ، وقد جاء فى طبقات واد ضيف الله ، أنه كان بارعاً فى الرماية لا يخطىء الهدف ، وأنه كانت لديه أسلحة نارية ، وبفضلها انتصر على الفنج فى معركة وقعت أمام جزيرة دلقه .

ومنذ تم لهم النصر أصبح الشايقية لا يدينون بالخضوع لأحد سوى « الملك » التابعين له . ولكن هذه الحرية لم تزدهم إلا حباً فى الاضطراب ، وأفسحت لهم المجال للإغارة والعدوان .

ويروى الرحالة بونسه Poncet أنه فى عام ١٦٩٩ ، تابع النهر حتى وصل إلى كرتى ، ولم يستطع المضى إلى أبعد من ذلك مع ملازمة النهر ، فاضطر لأن يخترق صحراء بيوضة .

وفى غضون القرن الثامن عشر نشر الشايقية غاراتهم وعدوانهم على بلاد النوبة ، فى دنقله والمحس والسكوت ، حتى اضطروا كثيراً من السكان الأصليين إلى المهاجرة إلى كردوفان ، والظاهر أنهم فى غاراتهم هذه لم يلقوا أية مقاومة تستحق الذكر ، فكانوا يسطون من غير تمييز على السكان المسالمين فيسلبونهم أمتعتهم وخيرات بلادهم.

والظاهر أنهم وصلوا إلى كردوفان أيضاً ، حيث يروى لنا التونسى أنهم اشتركوا فى الإغارة على دارفور . ويصفهم بركهارت فى أوائل القرن التاسع عشر ،

بأنهم يتمتعون بالاستقلال التام ، ولهم ثروة عظيمة من الماشية والحبوب . ولهم شهرة بالكرم ، وحماية الضيف من كل عدوان كأنه واحد منهم . لا يتكلمون غير العربية ، وكثير منهم يحسنونها قراءة وكتابة . ويمجدون رجال العلم . ولهم مدارس يتعلمون فيها جميع العلوم التى تتصل بالدين ، ما عدا الرياضة والفلك . ويفرضون على الزراع أناوة عن كل ساقية نحو ٤ أرادب ذرة ، ورأسين أو ثلاثة من الضأن ، ومقدار من النسيج ؛ ومثل هذا يجبى لكل مك من الأراضى الخاضعة له .

ولم يسلم من عدوانهم أبناء عمهم الجعليون ، فكان الملك نمر فى حرب متصلة معهم — وقت رحلة بركهارت — وكانوا يسطون بخيلهم ورجلهم ينشرون الدمار والخراب فى الشاطئ الغربى للنيل .

كذلك اعتدوا على أمراء العبدللاب فى حلفاية الملوك ، حتى هبط سكان البلدة من نحو ٩٠٠٠ إلى نحو ٤٠٠٠ نسمة فى ذلك الوقت .

وكأنما أرادت الأقدار أن تكسر شوكة هذا العدوان ، فكان أول معارضة قوية لقيها الشايقية من المماليك الذين هاجروا فى أول عهد محمد على إلى بلاد النوبة وانتشر نفوذهم هناك حتى بلدة الخندق ، ولم يكن بد من أن يصطدموا بالشايقية وأن تدور بينهم معارك كانت الغلبة فيها أول الأمر للمماليك ، ثم تكررت المعارك بين الفريقين ، وكل منهما يتناوب النصر ، حتى جاءت حملة اسماعيل ، فاتحد جميع الشايقية تحت قيادة اثنين من أمرائهم (الملك صبير والملك شاويش) ، وأبلوا فى القتال بلاء حسناً ، وأظهروا شجاعة فائقة ، ولكنهم انهزموا فى النهاية بالقرب من كرتى .

ولكن الشايقية — وإن قبلوا الهزيمة — لم يشاءوا أن يحتملوا نتائجها ، فيعيشوا عيشة الهدوء والسلم ؛ يزرعون ويحصدون ، فقد كانوا من قبل يسخرون النوبة الذين يعيشون فى بلادهم والرقيق وطبقة الخدم لزراعة الأرض ، فكيف يرتضون أن يمارسوا حرفة كانوا يزدرونها بالأمس ؟ لهذا لم يلبثوا أن حولوا هزيمتهم إلى وسيلة يتذرعون بها لممارسه حرفتهم المفضلة وهى حرفة الحرب والقتال فألفوا جيشاً بزعامة رئيسهم ، وانضموا ليحاربوا فى صفوف جيش اسماعيل ،

واشتركوا فى غزو الفنج وفتح الجزيرة ، وأمكنهم بذلك أن يقبضوا ثمناً لمعاونتهم مساحات من الأراضى بالقرب من مصب النيـل الأزرق وحول خانق سبلوقة ، فأصبح لهم وطن جديد فى حلفاية الملوك ، والجهات التى تليها فى الشمال .

وظلوا طول مدة محمد على وإسماعيل مخلصين كل الإخلاص للسلطة التى ناصروها وكانوا من أهم العناصر التى يمكن الاعتماد عليها فى المحافظة على الأمن ، وجمع الضرائب ولعل هذا العمل الأخير أكسبهم سمعة غير مستحبة .

وظلوا على ولائهم هذا لم يخرجوا عنه حتى فى عصر المهدية ، وبعد سقوط الخرطوم فى أيدى المهدى وصدور الأمر بالعفو عن جميع القبائل ، لم يشمل هذا الأمر الشايقية .

وفى الوقت الحاضر يجد الشايقية مجالا لنزعاتهم العسكرية فى الانضمام إلى فرق الهجانة ، أو السوارى أو البوليس الراكب ، ولا يزالون محتفظين بسمعتهم الحربية وبغيرتهم على مصالحهم ، ولذلك يرهبهم جيرانهم ، وكثير منهم يشتغل فوق ذلك بالتجارة فى مختلف المدن .

وقد أصبحوا اليوم موزعين فى أقاليم بربر والبطانة والخرطوم وبعض المدن إلى جانب انتشارهم فى مديرية دنقله ، لذلك لم يكن من الممكن للقبيلة أن تحافظ على وحدتها ، ومع ذلك فإنهم حيثما وجدوا يبدون ميزة على كثير من السكان فى مختلف جهات السودان بفضل مارزقوه من قوة الشخصية .

ولا يزال أكثر الشايقية فى الإقليم الذى وصفناه من قبل ، غير أن لهم مع ذلك دياراً فى إقليم بربر والعاصمة المثلثة ، إلى جانب انتشارهم بصفة فردية فى مختلف المدن .

ويقسمهم ماكمايكل إلى نحو اثنى عشر فرعاً ، وكل فرع يقسم إلى عدة أقسام بحيث يبلغ مجموع الأقسام نحو ٥٥ قسما ، منها نحو عشر فقط خارج الإقليم الأصلى وعددهم كبير قد يعادل الجعليين أو يقرب منهم ، ولـكن ليس من السهل الوصول إلى تعداد دقيق يمكن الركون إليه .

* * *

الشلوخ :

سبقت الإشارة إلى أن الشايقية يشلخون وجوههم ؛ وكذلك الجمليون وأن الشايقية لهم ثلاث شلوخ أفقية ، بينما الجمليون لهم شلوخ ثلاثة رأسية . هذه الشلوخ تعمل فى أول عهد الرضاعة ، حينما يكون الطفل فى الشهر الثانى أو الثالث ، ولا يعرف أحد أصل هذه العادة ؛ وقد وجدها الرحالة برتون فى مكة ، وقيل له هناك إنها عادة مستحدثة هناك .

وهذه الشلوخ ليست مقصورة على الشايقية والجمليين ، فهى منتشره أيضاً بين النوبيين ، وإن لم تكن عامة وطريقة النوبيين تشبه الشايقية ، سوى أن الخطوط أقصر وأقل اتساعاً ، وهى معروفة كذلك عند الرباطاب والعبدللاب وغيرهم : وقد أخذت هذه العادة تزول بالتدريج .

* * *

نسب الشايقية :

فيما يلى بيان عن نسب الشايقية كما رواه للمؤلف أحد زعمائهم المشهورين بالعلم بالأنساب وهو يختلف قليلا عما رواه ما كما يكل :

١ — ينتسب الشايقية إلى الجد « شايق » بن حميدان ، بن صبح (الشهير بأبى مرخة) بن مسمار بن سرار ..

٢ — وقد أنجب سرار الجد الأكبر أربعة أولاد وهم : سمرة ، الذى أنجب بديراً جد البديرية . وسميرا ولم ينجب ، ورباط جد الرباطاب ، ومسمار ، الذى أنجب صبح ، الذى أنجب حميدان ، الذى أنجب « غانم » جد الجمليين و« شايق » جد الشايقية .

٣ — وأنجب شايق عشرة من الأبناء .

١ — سوار جد السواراب .

٢ — حوش جد الحوَشاب .

٣ — عون جد العونية .

٤ — شلّوف جد الشلوفاب .

٥ — باعوض جد الباعوضاب .

٦ — قريش جد العامراب .

٧ — نافع جد النافعاب .

٨ — مريس جد المريساب .

٩ — سالم جد البطن المسمى أم سالم .

١٠ — كدنجا جد الـكَدَنْجاب .

ولا شك أن أهم هذه الأقسام هم الـكدنجا ، والسواراب ؛ والـكدنجا أعظم ، وقد تفرع من الـكدنجا عدة بطون ، من بينها الحنّكاب ، والعدلاناب والعمراب وقد كان منهم بيوت الملك ؛ وهى متفرعة من جد واحـد من الـكدنجا اسمه صالح أمه بنت أمير الفنج واسمه عيسى ، وكان مقر حكمه فى بلدة كجسى ولم ينجب عيسى الذكور نسلا ، فورث الإمارة من بعده صهره صالح ، وبعد وفاته قسمت البلاد ثلاثة أقسـام بين الأبناء الثلاثة من الحنكاب والعدلاناب والعمراب ، وكان آخر ملوكهم صبير ملك الحنـكاب ، وشاويش ملك العدلاناب وحمد ملك العمراب .

٦ — الجوابره

إذا تجاوزنا الإقليم الذى يسيطر عليه الشايقية ، ملتزمين نهر النيل ، نرى النهر يغير اتجاه مرة أخرى ، عند بلدة الدبه ، منحدراً نحو الشمال ، وهنا تبدأ الأوطان النوبية إلى نهايتها فى شمال أسوان ، غير أن هذه المسـافة الطويلة من مجرى النيل ليست خالصة للنوبيين ، بل يتخللها جهات تسكنها قبائل عربيـة . مثل البديرية ، والجوابره ، والركابية والجعافره .

وأول القبائل التى نصادفها ، بعد أن نغادر بلاد الشايقية متجهين شمالا بمحاذاة النهر هم البديرية ، ولـكن نظراً لأن نصفهم يعيش على النهر ، والنصف الآخر فى كردوفان . فسنتكلم عليهم فيما بعـد ، طبقاً للترتيب الذى اتخذناه أساساً لمعالجة هذا الموضوع ، كما سبق إيضاحه فى أول هذا الفصل ، حيث التزمنا أن نتحدث أولا عن القبائل التى اتخذت من شواطئ النهر أوطانها الأساسية ، وليس لها بعيداً عنه سوى أوطان ثانوية .

وطبقاً لهذا الترتيب تـكون القبيلة التالية للشايقية هى الجوابره ، وهى آخر مجموعة عربية كبيرة فى شمال السودان ، على شواطئ النهر . وقد جعل ما كما يكل كلا من البديرية والجوابره فى مجموعة واحـدة ، وحاول أن يلقى كثيراً من الشك على انتسابهم إلى أصل عربى . وقال : إن الاسم الوحيد الذى يمكن أن يطلق عليهم بشىء يقرب من الدقة ، هو اسم دناقله ، أى سكان مديرية دنقله ، وقد سبق لنـا أن اعترضنا على إطلاق اسم المديرية على جميع سكانها دون تمييز بين الذين يُدعون ، ويدعوهم الناس ، دناقله ، وبين الذين لهم اسم آخر ، ولا يريدون أن يدعوا دناقله . أما التمسك بتسميتهم دناقله ، بسبب اشتمالهم على بعض الدم النوبى ، وهو أمر مسلم به فلا يقدمنا فى بحثنا كثيراً . إذ من اللازم أن نضع الناس حيث وضعوا أنفسهم . و إذا ترتب على هذا التمييز أن بعض الناس يفخر على البعض . فإن هذه نعرة قديمة مصيرها إلى الزوال ، وهى تنافى التعاليم الإسلامية كل المنافاة . وإذا كان الميدان ميـدان تفاخر ، فإن للنوبيين فى تاريخهم الطويل مفاخر جليلة ، ومآثر معروفة مشهورة .

لذلك لابد لنـا أن نسلم بصحة انتساب الجوابره إلى العرب ، ما دامت النسبة العربية قد غلبت عليهم ، والثقافة العربيـة قد طغت على ما سواها من الثقافات ؛ وإذا كانوا ينتسبون إلى أصل عباسى ، فذلك ما يدعونا لأن نضعهم مع الجعليين .

والمركز الرئيسى للجوابره فى جزيرة بادين ، الواقعة وسط النيل ، إلى الجنوب من الخط الذى يفصل بين بلاد المحس شمالا ، ومركز دنقله جنوبا . وتمتد أوطانهم فى الشمال إلى أبعد من جزيرة بادين قايلا ، حيث تعترض النهر جنادل حنك ومن الجنوب تمتد نحو ثمانين كيلو متراً مختلطة ببلاد الدناقله . وفى هذا الإقليم تقع جزيرة أرجو وجزيرة مقاصر ، وبلدة أبو فاطمه وكرمه على الضفة الشرقية ، وبلدة دنقله وتيتى على الضفة الغربية . ومع ذلك فإن هذه البلاد ليست كلها للجوابره ، بل يحتلون أجزاء منها . وهكذا تـكون أوطانهم منحصرة بين المحس فى الشمال وبين الدناقلة فى الجنوب ، وتنتهى فى الشمال عند بداية الشلال الثالث .

والظاهر أن الأوطان التى يحتلها الجوابره اليوم أقل مساحة مما كان فى حوزتهم

فيما مضى . فإن بركهارت يروى أنهم كانت لهم أوطان فيما بين الشلال الأول والثانى أى فى إقليم وادى حلفا ، وما يليه نحو الشمال . وقد نازعهم على هذه الأوطان الشمالية ، جماعة من عرب المغرب . وقد فزع هؤلاء الغربيون فى أول العهد العثمانى إلى السلطان لكى ينصرهم على الجوابره . فأمدهم ببعض الجنود ، فاضطر الجوابره إلى النزوح نحو الجنوب ، حيث عاشوا فى الأوطان التى يحتلونها اليوم ؛ ولا يزال معظم الأثرياء من سكان دنقلة ينتمون إلى الجوابره[١] ؛ ويروى بركهارت فوق ذلك أن بعض الجوابره ظلوا مقيمين فى الدر ووادى حلفا .

ولعل هذه الهجرة الاضطرارية إلى الجنوب التى أشار إليها بركهارت ، لم تكن إلى جهات غير معروفة لهم ، أو غريبة عليهم ، بل كانت تحتلها الشعبة الجنوبية منهم .

وكلمة جوابره مفردها جبرى ، والنسبة إلى جد قديم يدعى جابر ومتصل فى شجرة النسب بسائر الجعليين .

وقد انتشر الجوابره مثل كثير من القبائل الجعلية ، فى مختلف مدن السودان ، حيث يشتغلون بالتجارة ، وقد نزلت جماعة منهم أواسط كردوفان فى مركز بارا ، شمال الأبيض ، حيث يشتغلون بالزراعة منذ عدة أجيال ، وقد أمكنهم باستخدام الساقية والشادوف أن يستغلوا خور البشرى ، فى منطقة الخيران المعروفة[٢] .

٧ — الركابية

يطلق اسم الركابية على قبيلة صغيرة العدد ، ولكن لها مكان محترم بين قبائل السودان ، مواطنها الرئيسية فى مركز دنقله ، ولكنهم لا يحتلون إقليما خاصاً بهم لقلة عددهم ، بل يعيشون وسط الدناقلة ، وهم ينتسبون إلى جد من نسل الحسين ابن على بن أبى طالب ، أى أنهم عدنانيون قرشيون ، وإن لم ينتسبوا مثل الجعليين إلى العباس ولكن قرابة أنسابهم من الجعليين هى التى تدعو إلى ذكرهم معهم ، وإن كانوا مختلفين فى النسب عنهم بعض الاختلاف ، والظاهر أن هجرتهم أحدث

---

(١) رحلات بركهارت . الطبعة الانجليزية صفحة ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) راجع الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان لماكمايكل ، ص ٢١٣ .

عهداً من هجرة الجمليين ، ولها طريق يختلف عن طريق الجمليين ، وإن صحت الروايات المتواترة لديهم ، تكون هجرتهم من الناحية الشرقية ، من طريق البحر الأحمر . وهم يفخرون بنسبهم ؛ وقد اشتهر كثير من مشايخهم بالعلم والفضل . وكان كثير منهم يرحل إلى مصر فى طلب العلم ؛ وفى طبقات واد ضيف الله ذكر لأشهرهم .

وحيثما نزل الركابية كانت لهم شهرة فى الفقه والدين ، وكثير منهم تولى منصب القضاء . وقد هاجر منهم كثير إلى كردوفان ، بل وإلى الأطراف الشمالية من جبال النوبا ، فاختلطوا بالسكان ، وكانوا من أشهر العاملين على نشر الإسلام والثقافة الإسلامية فى جنوب كردوفان .

***

وهكذا ينتهى انتشار الجماعات العربية فى شمال السودان ، وتوغلهم فى بلاد النوبة ، ومن أهم مظاهر هذا التوغل أنه يتناقص كلما ابتعدنا عن بلاد الشايقية ، ويقل انتشار القبائل العربية ، حتى تكون قلة ظاهرة ، وسط الكثرة من النوبيين ، حتى إذا بلغنا أول الشلال الثالث ، رأينا هذا التوغل ينتهى ، على طول هذا الشلال ، وكذلك على طول الشلال الثانى ، حيث بلاد المحس ثم السكوت ، مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الانتشار هنا كان معظمه من الجنوب نحو الشمال .

٨ — الجموعية

بعد أن تتبعنا القبائل الجملية ، مبتدئين بالجمليين ، ثم بالقبائل التى تليهم مع انحدار نهر النيل شمالا حتى وصلنا بلاد النوبة ، نعود الآن فنتبع هذه القبائل ، صاعدين فى النهر نحو الجنوب ؛ فيما يلى الجمليين . وقد اخترنا أن نجعل الجمليين المجموعة المركزية التى نبدأ منها فى متابعة التوغل العربى نحو الشمال ونحو الجنوب لأن الجمليين هم القبيلة التى تدعى باسم المجموعة كلها من جهة ، ولمركزهم المتوسط من جهة أخرى . ولأهميتهم فى السودان من ناحية ثالثة .

وفيما يلي الجمليين إلى جنوب خانق سبلوقه ، وعلى الضفة الغربية للنيل الأعظم قبيلة صغيرة نسبيا منتشرة شمال وجنوب أم درمان ، وقد كان لها فيما مضى شأن أعظم مما لها اليوم ، وهى قبيلة الجموعية . ومما يلفت النظر أن فى السودان خمسة قبائل على الأقل اشتقت أسماؤها من كلمة جمع : وهى الجوامعة والجمعة أو الجمع (وسيأتى ذكرهما فيما يلى) والجموعية ومعها قبيلتان اندمجتا فيها فى الوقت الحاضر ، وهى الجمعاب والجمّاعاب .

وقد حاول ما كما يكل أن يستنتج من مجرد اشتقاق هذه الأسماء من كلمة جمع أن كلا من هذه القبائل يمثل خليطاً ، أو تجمعا لعناصر مختلفة متباينة الأصول والصفات . وفى هذا الافتراض ما فيه من الإسراف والشطط ، مع أن كل ماتحدّثنا به النسب المتواترة هو وجود أجداد يسمى بعضهم جامعا أو جمعة أو جمّاعا أوما شاكل ذلك . ومع أن المفروض فى كل قبيلة أنها لا تخلو من اندماج عناصر فيها سبق لها احتلال الإقليم الذى نزلته تلك القبيلة ، فإن استنتاج هذه الحقيقة من مجرد اسم القبيلة فيه ما فيه من تحميل الأسماء أكثر مما يبرره الواقع ، وقد تكون هنالك قبائل نتجت عن تجمع لعناصر مختلفة ، ولكن ليس فى اسمها ما يدل على ذلك .

ومهما يكن من شىء فإن شجرة النسب كما نقلها الرواة تدل على أن الجموعية قبيلة جملية انفصلت منذ بضعة قرون عن الجذع الأصلى للمجموعة الجملية . وتمتد أوطانهم كما ذكرنا من خانق سبلوقه إلى نحو ٤٠ كيلو متراً جنوب أم درمان أى إلى حدود الكواهلة ؛ والكثرة العظمى للقبيلة تعيش على الضفة الغربية للنيل الأبيض والنيل الأعظم ؛ وقليل منهم يعيش على الضفة الشرقية جنوب بلدة قرى فى منطقة خانق سبلوقه . ومن الجائز أنه كان لهم امتداد أوسع فى الضفة الشرقية ، ولكن تضاءل هذا الانتشار أمام توسع بعض القبائل القوية مثل العبد للاب ، أصحاب حلفاية الملوك ، وهم من غير الجمليين .

وفى عصر الفتح كان الجموعية بجميع أقسامهم خاضعين لزعيم واحد أو مِكْ ؛ وهذا الزعيم بدوره كان تابعاً لأمراء العبد للاب ، أصحاب حلفاية الملوك . وطبقاً

لما ذكره ماكمايكل تشتمل القبيلة على نحو خمسة عشر قسما ، أهمها وأشهرها قسم فتيحاب ، وهو بنفسه ينقسم إلى عدة أقسام ، وهو أيضاً أكثرها عدداً ، حتى كاد يصبح قبيلة قائمة بذاتها ، ورئيسها يدعو نفسه باسم مك ، ولكن مك الجموعية فى الوقت الحاضر هو من أسرة نايلاب . (بنى نايل) .

ويتحدث ماكمايكل عن الصفات الطبيعية للجموعية ، فيذكر أن سواد البشرة والتقاطيع الزنجية أكثر ظهوراً فيهم منها فى أية قبيلة عربية أخرى (١) وأنهم يرجعون ذلك إلى العدد الهائل من الرقيق الذى كانوا يملكونه قبل عهد المهدية ، وما ترتب على ذلك من الاختلاط ؛ غير أن ماكمايكل لا يقبل هذا التفسير على أنه هو السبب الوحيد لانتشار السمرة بينهم ، بل يريد أن يرجع هذه الظاهرة أو معظمها إلى الاختلاط بعناصر زنجية قديمة كانت تسكن هذا الإقليم قبل هجرة العرب إليه . وأن هذا هو السبب الأكبر فى ظهور الصفات الزنجية بينهم .

والنظرية التى التزمناها فى بحثنا هذا ، كما يتضح من الفصول السابقة ، هى أن الجنس الزنجى لم يكن فى يوم من الأيام مستوطناً للسودان الشمالى بدرجة محسوسة ، ولذلك نفضل التفسير الذى يدلى به الجموعية أنفسهم ، وهو كثرة اقتنائهم للرقيق فيما مضى . فإن موقعهم الجغرافى يجعلهم على مقربة من أسواق الرقيق ، وحياتهم الرعوية وما تشتمل عليه من الاضطراب قد تكون دعتهم أنفسهم لأن يكونوا من أصحاب هذه التجارة .

وما كمايكل نفسه يسلم بأنهم كانوا يملكون عدداً كبيراً من الرقيق . ولكنه يذكر ذلك لكى يفسر به ما يزعمه من أن للجموعية نزعة إلى السرقة ، وإن ذلك يرجع إلى عنصر العبيد الداخل فى تكوينهم .

ولو أن ما زعمه ماكمايكل صحيح من أن هذا الإقليم كان فيما مضى وطناً لعنصر زنجى يشبه النوبا وبين سكان الجبال فى جنوب كردوفان ، لكان الأولى أن نرى أثر

---

(١) راجع الجزء الأول من كتاب تاريخ العرب فى السودان ص ٢٢٣

هذا الانتشار فى الأقطار التى تليه من الجنوب، حيث نجد الحسّانية والحسينات، وقد اشتهروا بأنهم من أحسن أهل السودان فى الملامح والتقاطيع.

والجموعية — مثل القبائل الجعلية فى الشمال — يمارسون الزراعة على شواطئ النهر ولهم قطعان يرعونها فى القبائل المتاخمة، ولهم أيضاً بعض الاشتغال بالتجارة، وقد كانت لهم فيما مضى شهرة فى الحرب. وقد نازلوا العبدللاب، وكانت الحرب سجالا بينهم. ونازلوا الشايقية ودفعوا غاراتهم. وأرجح الروايات تشير إلى أنهم هم القبيلة الجعلية التى تولت زعامة بنى عامر وقضت على دولة البلو[١]. كما أسست مملكة تقلى.

٩ — الجِمَعْ أو الجِمَعَة

إلى الجنوب من أوطان الجموعية، تعترضنا ديار الكواهلة، بينهم ديار الحسانية والحسينات التى تمتد جنوباً إلى نقطة تقع قريباً من شمال جزيرة آبا — والحسانية والحسينات هم أيضاً من الكواهلة كما ذكرنا من قبل، وكلهم يعدون مهاجرين حديثين بالنسبة إلى القبائل الجعلية، ويلى هؤلاء الكواهلة من الجنوب مجموعة أخرى من الجعليين أكبرهم وأشهرهم قبيلة الجمع، ومعهم قبائل أقل خطراً مثل الأحامدة ودار محارب، وكلهم من الجعليين، وهكذا نرى أن سلسلة الأقطار النيلية التى يحتلها الجعليون بانتظام من بلاد النوبه إلى جبل الأولياء قد انقطعت بسبب تدخل هذه العناصر العديدة من بنى كاهل.

ومن الجائز أن بعض الكواهلة قد وصل إلى نهر النيل فى هذا الإقليم قبل نزول بعض الجمع، وأن التوزيع الحالى للقبائل الجعلية والكاهلية، جاء نتيجة نزاع طويل بين الفريقين، ولا شك أن الروايات تدل على أن الجمع قد أحرزوا انتصارات حديثة فى نزاعهم مع الكواهلة، لكن هذا لا يدل على أن الجمع أحدث عهداً فى هذا الإقليم. والاعتبارات الجغرافية، خصوصاً إذا قارنا هذه الحالة بنظائرها

---

(١) راجع مجلة ٢٦ (لسنه ١٩٢٧) من مجلة الجمعية الإفريقية J. of the African Society فى صفحة ١٤٠ وما بعدها.

فى أقطار أخرى ، ترجح أن هجرة الكواهلة أحدث ، وأنهم هم الذين زاحموا القبائل الجعلية على أوطانهم .

والراجح أن الطريق الذى سلكه الجمع إلى أوطانهم الحالية هو الجانب الغربى للنهر ، لأن الطريق شرق النيل محفوف بالمكاره ، ولا بد لمن يسلكه من اختراق النيل الأزرق ، ثم عبور النيل الأبيض إلى الضفة الغربية حيث يعيش الجمع الآن . واتجاههم نحو الجنوب على هذه الصورة هو استمرار للهجرات المتدافعة للقبائل الجعلية التى تعد قبيلة الجمع أبعد امتداد لها نحو الجنوب ، ونستطيع أن نؤكد أن الجماعات الجعلية المستقرة ، فى القرى والبلدان النهرية ، التى تمارس الزراعة وتعيش مستقرة فى ديارها ، لم تكن هى التى قامت بذلك التوسع نحو الجنوب بل كان هذا التوسع من عمل الشعبة البدوية ، التى تملك وسائل التوسع والانتشار ، واتخاذ أوطان جديدة ، وأوطان الجمع فى الوقت الحاضر تبدأ إلى الشمال من جزيرة آبا ، (وليست الجزيرة داخلة فيها) وتمتد على الضفة الغربية إلى خط عرض ٣٥َ , ١٢° أى إلى مسافة تقرب من المائة كيلومتر ، يليهم على شواطئ النهر فى الجنوب قبيلة سليم (وليسوا من الجعليين) وفى الداخل قبيلة الأحامدة وهى على الأرجح مزيج من الكواهلة والجعليين ؛ وتمتد هذه الأوطان غرب النيل مسافة تقرب من المائة كيلومتر ، إلى حدود كردوفان . وتجرى السكة الحديدية إلى الأبيض فى النصف الشمالى من ديارهم .

أما الضفة الشرقية للنهر ، فإن أراضى الجمع فيها أضيق مدى ، ولا يزيد اتساعها على العشرين كيلومتراً فى المتوسط ، ويحتلها قبيلة دار محارب ، وهم إحدى القبائل المندمجة فى الجمع .

ونظراً للموقع الجنوبى لهذه الأقطار يزداد فيها سقوط المطر عن سائر الأوطان الجعلية . فالمطر فى كوستى يبلغ زهاء ٤٠٠ ملليمتر (وكله صيفى بالطبع) . ويزداد كلما توغلنا نحو الجنوب ، كما يزداد كلما ابتعدنا عن النهر شرقاً أو غرباً ، وهذه الحال تساعد على وفرة المرعى فترة طويلة من السنة ، ولذلك تمكن السكان من اقتناء الماشية وعلى الأخص البقر . ومن أجل ذلك وصفهم بعض الكتاب بأنهم بقارة ،

ولا بأس بهذه التسمية على شرط أن يفهم منها أنها إشارة إلى الحرفة التى يحترفونها ، لا على أن لهم صلة نسب بالقبائل التى تعيش فى جنوب كردوفان ودارفور ، وهى التى يطلق عليها عادة اسم بقارة ، وجلها — إن لم يكن كلها — ينتسب إلى مجموعة جهينه .

ويرى ما كما يكل أن الجعل قد وصلوا إلى أوطانهم الحالية على النيل ، بأن هاجروا من الإقليم الجعلى فى دنقلة ، ثم نزحوا نحو الجنوب الغربى إلى كردوفان ، ثم عادوا فاتجهوا شرقاً إلى النيل الأبيض حيث يعيشون الآن . ومع ذلك لا يورد أى دليل على أنهم سلكوا هذا السبيل الملتوى بدلا من الطريق المباشر نحو الجنوب . بل كل ما ذكره يشير بغير ذلك ، لأنه يقول إنهم لم يختلطوا بعناصر النوبا أو دارفور كما فعل أقرباؤهم الجوامعة ، بل اختلطوا فى أوطانهم الحالية بالبقارة وتعلموا بعض عاداتهم ، مثل عادة تصفيف الشعر الخ . . ولسنا ننكر أنه كان لبعض الجعل هجرات نحو الغرب إذ يقال إن عدداً منهم كان يهاجر من آن لآن من أوطانه الحالية أو القديمة متجها نحو الغرب ، حيث اشتركوا فى مغامرات فردية أو جماعية ، فى جهات بعيدة ، ورحلات واسعة وصلت بهم أحياناً إلى أعالى النيجر . والسودان الفرنسى [1] ، وهناك روايات عديدة تدل على أن بعض هؤلاء المغامرين قد أكرهوا على أن يعودوا إلى الشرق ، فهل كانت هذه الرحلات إلى الشرق هى وحدها التى مكنت الجعل من النزول فى أوطانهم الحالية ؟ أم أن العائدين إلى الشرق لم يفعلوا أكثر من الانضمام إلى أقاربهم النازلين فى تلك الجهات ؟ لا شك أن هنالك مجالا لاختلاف الرأى فى هذا الأمر . وربما كان الأرجح أن الجعل — مثل الكواهلة — نزلوا على شواطئ النهر أولا ثم نزح فريق منهم نحو الغرب ، فيعود أكثرهم بعد ذلك إلى ديار أقاربه .

ومهما يكن من شيء ؛ فإن الفترات السابقة لعهد محمد على كانت ملآى بالحروب والمنازعات بين الجعل وحلفائهم من جهة ، وبين جيرانهم من جهة أخرى . ومن الغريب أننا نرى فى هذه المنازعات أن الجعل يتحدون مع سليم لقتال دار محارب ، مع أن هؤلاء يعدون من الجعليين . فاضطرت دار محارب للمهاجرة إلى الشاطئ

(١) راجع مقالا للمستر ريد Reid فى S.N.R. لسنة ١٩٣٠ ص ١٧٤ وما بعدها .

الشرق ، وقد ظلت العلاقات الطيبة سائدة بين سليم وجيرانهم الأقوياء فترة من الزمن وحدثت بينهم مصاهرات ، وهكذا استقرت الحدود القبلية قبل عهد محمد على على الصورة التى نراها اليوم . وفى عهد محمد على واسماعيل كانت العلاقات بين الجمع وبين الحكومة الجديدة على العموم طيبة . والكتاب الإنجليز يزعمون غير ذلك . ولكن لو كان ما يزعمونه صحيحاً ، لما رأيناهم يمتنعون عن مناصرة المهدى . كما امتنعوا على الخليفة من بعده . فاضطر إلى أن يرسل لهم جيشاً للإغارة عليهم وتخريب ديارهم . ونفى أكثرهم من البلاد إلى ديار بعيدة . غير أنهم عادوا بعد زوال عهد المهدية إلى أوطانهم الأولى ، حيث يعيشون اليوم . ويؤكد ما كما يكل أنهم اليوم لا يقلون عدداً عما كانوا عليه قبل المهدية أى حوالى ٣٠,٠٠٠ نسمة للجمع وحدهم ، عدا جيرانهم من سليم ودار محارب والأحامدة ومن إليهم .

عند ما نزل الجمع فى أوطانهم الحالية كانوا رعاة إبل ، ثم لم يلبثوا أن تحولوا إلى رعاة بقر كما قدمنا ، فأصبحت إبلهم قليلة أو معدومة . أما الزراعة فلم يكونوا يعبأون بها كثيراً ، وكانوا يكلون القيام بها إلى خدمهم وعبيدهم والمستضعفين من رجالهم . وكان غذاؤهم الأساسى هو الحليب ، والقليل من اللحم من آن لآن . أما الحبوب فإن الأسرة الصغيرة يكفيها أردب واحد من الذرة فى العام كله . لذلك لم يعيروا الزراعة ما تتطلبه من العناية . كذلك شغلهم الرعى عن استثمار أشجار الصمغ وتركوا هذا المورد الهام لجيرانهم من سكان كردوفان .

هكذا كانت حالهم إلى أن جاء عهد المهدية ، وشتت شملهم وحرموا من قطعانهم . ورأوا أنفسهم بعد العودة إلى الأوطان ، مضطرين إلى ممارسة الزراعة لكى يعيشوا ويدخروا من المال ما يمكنهم من اقتناء الماشية . ومع ذلك فإن كثيراً منهم لم يعودوا إلى حياة البادية والرعى ، بعد أن مارسوا الزراعة والاستقرار عدداً من السنين . بل أخذوا يبنون قرى مستقرة ، ويمارسون الزراعة بجد أكثر مما كانوا عليه من قبل . وانتشرت بالتدريج عادة الملكية ووزعت الأرض بين المشايخ فى كل قسم ، ووزعها كل شيخ بين الأسر المختلفة . بذلك استقرت حرفة الزراعة بين الجمع وغيرهم من « بقارة » النيل الأبيض . غير أن عدداً عظيما

منهم لم يلبثوا أن اقتنوا الماشية ، وآثروا حياة الرعاة ، وساعدتهم على ذلك وفرة المراعى الغنية . وقلة الحاجة إلى رحلات بعيدة فى طلب الكلأ ، وهم يعنون بتربية البقر ويختارون لها الفحول التى اشتهر قطيعها بوفرة الألبان . ويفضلون اللون الأبيض أو الأغبش ، ويستخدمون الماشية كدواب للحمل ، ولكنهم لا يرهقونها بأكثر مما تحتمل . وأمتعتهم التى ينقلونها وقت ظعنهم قليلة . وبيوتهم من الحصير خفيفة الحمل .

وتربية الماشية الثقيلة هى الأمر المفضل ، غير أنهم اضطروا لأن يعنوا بتربية الضأن أيضاً ولهم منها قطعان كبيرة . فقد هدتهم التجارب إلى أن الضأن أقل تعرضاً للأمراض من البقر . فلم يهملوا أمرها ، وكثيراً ما يفقدون جزءاً كبيراً من قطعان البقر ، فيجدون فى تربية الضأن ما يعوضهم عن بعض الخسارة الناجمة عن هذه الكارثة .

ويربون الضأن لألبانها ولحومها ، ويصنعون من ألبانها جبناً وزبداً . أما أصوافها فليست بهم حاجة كبيرة إليها . وبيوتهم من الحصير المصنوع من لحاء بعض الشجر ، لا يستخدم الصوف فى صناعتها . وقلما يقومون بجز الصوف بأنفسهم بل يحضر إلى ديارهم أفراد من القبائل الشمالية فيقومون بذلك العمل ، ويأخذون الصوف لأنفسهم .

وهكذا نرى أن الجمع ومن حولهم من القبائل الصغيرة ، مثل دار حامد وسليم ، ممن اتصلوا بهم وأصبحت بينهم قرابة دم ؛ يمثلون آخر انتشار للقبائل الجعلية نحو الجنوب . مبتدئين من بلاد النوبة فى الشمال ، إلى أول بلاد الدنكا فى الجنوب .

وننتقل الآن إلى ذكر القبائل الجعلية التى اتخذت أوطاناً بعيدة عن النهر فى كردوفان ، وسهل البطانة ، سواء أظل بعضها مقيما على النهر ، أو أصبحت أوطانه كلها أو جلها بعيدة عنه .

١٠ — البديرية

كثير من الجعليين انتقلوا من ديارهم الأصلية إلى جهات مختلفة من السودان ، إما فى هجرات فردية ، أو مجموعات قليلة ، ولكن البديرية يمتازون بأنهم قد هاجرت

منهم كتلة عظيمة إلى كردوفان بحيث أصبح للقبيلة وطنان منفصلان ، وشعبتان متساويتان تقريبا ، شعبة تعيش على النيل ، والأخرى فى كردوفان .

والجد الأكبر الذى ينتسب إليه البديرية يدعى بدير ؛ وفى رواية أخرى يدعى بدر ، ومع أن ماكمايكل يفضل الاسم الأخير ، فليس هنالك سبب لاستبعاد الاسم الأول[1] والوطن الأصلى للبديرية هو على النيل ، مابين الشايقية والجوابرة ، أى أنهم يجاوزون الدناقلة ويقاسمونهم بلادهم ، ونظراً لأن فى الدناقلة نسبة عالية من الدماء العربية ، يرى بعض الكتاب أن من الناحية الجنسية الصرفة ليس هنالك فرق جوهرى بين البديرية والدناقلة ، وليس من السهل فى جمع يضم أفراداً من الطرفين أن يميز المرء بين البديرى والدنقلاوى ، ولذلك اختلط الأمر على بعض الكتاب حتى زعم بعضهم أن البديرية عنصر نوبى فيه مزيج من الدماء العربية ، وأن أفراده يتكلمون الرطانة النوبية فيما بينهم[2] .

ويبدو أن البديرية كانوا فيما مضى منتشرين فى مساحات يحتلها الشايقية اليوم ، وأنهم كانوا أصحاب كرتى وأمبيكل ، ولكن ضغط الشايقية أجلاهم نحو الشمال ، وفى القرن الثامن عشر وقبله بزمن لايعرف مداه ، كان زعيمهم أو الملك يقيم فى دنقله القديمة على الضفة اليمنى للنهر ، وكان ذا نفوذ واسع ، والبديرية فى وطنهم النهرى يمارسون الزراعة ، ويعيشون مستقرين فى قراهم ، وأصحاب القطعان فيهم قليل .

أما أوطان البديرية فى كردوفان فواقعة إلى الغرب والشمال الغربى والجنوب الغربى من الأبيض ، وهنا أيضاً نجد كثيراً منهم مستقرين يمارسون الزراعة والتجارة ، ولكن عدداً غير قليل منهم رعاة ويصاحبون الحوازمة (وهم من جهينة) فى رحلاتهم فى طلب المرعى ، ولهم ماشية كثيرة وقطعان من البقر .

---

(١) من الغريب أن ماكمايكل فى كتابه عن قبائل كردوفان (١٩١٣) يعترض على ولسن (١٨٨٧) بأن اسم بدير غير مقبول لأن اسمه يعطى للأطفال ، وينسى أن الرجل يبدأ حياته طفلا ، ويعطى اسمه وهو طفل ، وأن اسم بدير منتشر بين الكبار حتى فى الوقت الحاضر ، وكانت العرب تسمى الطفيل ، ويكبر الرجل وله هذا الاسم ، كما أن الطفل : قد يسمى عند ولادته باسم كهل من باب التيمن بأنه سيكبر ويصير كهلا (راجع الهامش على ص ٧١)

(٢) مقال السر تشارلس ولسن (١٨٨٧) ، رواية ماكمايكل (١٩١٣) ص ٧٢

وكانت أول هجرات البديرية من وطنهم الأصلى على النيل إلى دار فور و كردوفان فى أثناء القرن الرابع عشر بعد أن تم فتح بلاد النوبة بواسطة العرب ، وكانت هذه الحركة حسب رأى ماكما يكل جزءاً من حركة عامة شملت كثيراً من الجعليين ، ولا شك أن هذه الهجرات الأولى قد تلتها هجرات عديدة ، بعضها مما نشأ عن عدوان الشايقية ومزاحمتهم البديرية فى أوطانهم النيلية . وقد تنقل البديرية فى ديار كردوفان وشرق دار فور من إقليم إلى إقليم حتى استقروا بعد لأى فى ديارهم الحالية ، وقد حدث لهم تزاوج واختلاط بكثير من القبائل بعضها من أقاربهم مثل الجوامعة والبعض من الجهينية مثل الحوازمة ، والبعض غريب عنهم تماماً مثل النوبا سكان جنوب كردوفان ، وبذلك كانوا من القبائل العربية التى أثرت فى جنوب كردوفان أى الجزء الشمالى من جبال النوبا ، وأكسبتهم الثقافة العربية والديانة الإسلامية ، ويرى ماكما يكل أن البديرية بدورهم اقتبسوا بعض عادات تصفيف الشعر فى صورة جدائل مستطيلة ، ، من النوبا ، وهذا أمر يصعب التسليم به ؟ لأن النوبا قصار الشعر مثل سائر الزنج ، ولعله هنا كعادته يخلط بين النوبا سكان جنوب كردوفان وبين النوبيين سكان بلاد النوبة .

وهنالك قبائل أخرى صغيرة ، شديدة الاتصال بالبديرية ، مثل الطريفية فى بلاد النوبة ، والشويحات فى كردوفان . وهما فى الواقع تعدان فرعين من المجموعة البديرية ، ولذلك لم نفرد لهما بحثاً خاصاً .

***

١١ — الجوامعة

سبق أن تحدثنا عن الجموعية والجِمْـعَة (أو الجمع) ، ومواطنهم على النيل . والجوامعة أبناء عمومتهم ، ولعلهم أهم وأكبر شعبة فى هـذه المجموعة المتشابهة الاسم ، وهم يختلفون عن الآخرين بأن أوطانهم اليوم كلها فى كردوفان ، وتمتد شمالا وجنوبا فى قطاع مستطيل شرق الأبيض ، غير أن بركهارت يروى فى رحلاته أن الملك زعيم المحس كان من أسرة جامع ، وهذا قد يبعث على الظن بأن

شعبة منهم قد اندمجت فى المحس ، وتولت منصب الزعامة فيهم ، أما الرأى الذى ذهب إليه ما كما يكل من أن اسم هذا الزعيم يبعث على الظن بأن الجوامعة كلهم تصلهم بالمحس صلة القرابة related to the Mahass[1] فأقل ما يقال فيه إنه بعيد الاحتمال جداً .

على كل حال ليس للجوامعة مواطن على النيل لا فى بلاد النوبة ولا فى غيرها من الجهات النيلية ، والأرجح أن هجرتهم إلى كردوفان ودارفورلم تكن من الإقليم النوبى مطلقاً ، بل من إقليم أم درمان حيث يعيش أقاربهم الجموعية . وقد حدثت هذه الهجرات فى القرن السابع عشر على أرجح الروايات ، أو على الأقل يرجع معظمها إلى ذلك العصر وهو وقت توسع دولة الفنج وانتشارها فى كردوفان ، وكان الجوامعة من أنصارها وجنودها الذين أعانوا على ذلك التوسع .

وينتسب الجوامعة إلى جد اسمه جامع ، ومفرد الجوامعة جَمْعى ؛ ويتمسكون بالنسب العباسى وبقرابتهم من سائر الجعليين .

ولكن ما كما يكل يرى أن الجوامعة لا يشتملون إلا على نواة فقط من الدم العربى الأصيل ، وقد تجمع حول هذه النواة عناصر غريبة ، يرجح أنهم من زنوج دارفور ، ويصفهم بأنهم جنس منحط a much debased race[2] وأن فى وصفهم بأنهم عرب تجاوزا كثيراً ، أكثر من إطلاقنا هذا الاسم على أى قبيلة عربية أخرى فى السودان . وقد فسر على الهامش فى كتاب آخر له[3] أنه يريد بالانحطاط ، قلة احتفاظهم بالتقاطيع العربية الصميمة ، وعلى ذلك فإن الصورة التى أوردها فى كتابه لا تؤيد هذا الزعم .

ولا يزال هناك عدد لا يستهان به من الجوامعة يعيش فى دارفور ، كما أن منهم عدداً فى واداى ، غير أن الكثرة الهائلة منهم تعيش فى شرق كردوفان . وقد زعم ما كما يكل مؤيداً لأقوال بعض السائحين ، أن لديهم عادة ذكرها ، وهى أن البنت لا يسمح لها بالتزوج حتى تهدى طفلا إلى خالها ، وإنما هى التى تختار الرجل الذى

---

(١) راجع الجزء الأول من تاريخ السودان ص ٢٢٣

(٢) قبائل كردوفان (١٩١٣) ص ٧٦

(٣) تاريخ العرب فى السودان ص ٢٢٣

تتجنب منه هذا الطفل بملء حريتها . ومع أن الذين يروى عنهم ما كمايكل — على فرض صحة روايتهم — إنما يذكرون أن هذه عادة بعض سكان دارفور ، فإنه لم يتردد فى نسبتها إلى الجوامعة ، ويزعم أن لديهم اصطلاحا شائعاً بينهم ، يصفون به هذه الحالة ، وهو قولهم أن البنت « أعانت خالها . » وبديهى أن هذا الزعم فيه خلط كثير ، بإسناده عادة كهذه إلى قبيلة مسلمة صحيحة الإسلام[1] .

هذا وقد عانى الجوامعة شقاء كثيراً فى عهد المهدية ، وزعم سلاطين أنهم لم يبق منهم أكثر من خمسهم . ولعل فى هذا مبالغة ، ومهما يكن من شىء ، فإنهم قد استردوا أوطانهم وتكاثر عددهم ، وأصبحت لهم ثروة بفضل استغلالهم لغابات الصمغ ، فهم أعظم القبائل التى أقبلت على هذا الضرب من النشاط الاقتصادى ومركز تجارتهم فى أم روابه من أهم الأسواق لهذه السلعة .

١٢ — الغُدَّيات

يتفق جميع النسابين فى السودان على وصف الغديات بأنهم من أصل جعلى ، ولاحاجة بنا لأن نشك فى ذلك الزعم ، وأوطانهم اليوم إلى جنوب الأبيض ، وتمتد إلى شمال جبال النوبا . وهم أهم عنصر عربى استطاع أن ينشر الثقافة العربية فى النصف الشمالى من دار النوبا . والظاهر أن هجرتهم الأولى حدثت فى عصر توسع الفنج ، وكانوا من أهم العناصر التى غزت كردوفان ، وكان معهم الجوامعة ، وكانت للغديات المكانة الأولى فى القوات الغازية وللجوامعة المكان الثانى . غير أن الغديات اختاروا النزول والإقامة فى هذه الأوطان الجنوبية التى كان النوبا منتشرين فيها ، ولا شك أنهم لم يخضعوا النوبا الشماليين لسلطانهم فقط ؛ بل أدمجوهم فيهم إدماجاً تاما ، فأصبحت العناصر القديمة والحديثة كلها تدعى

---

(١) سألت كثيراً عن صحة هذا الزعم فأنكره الجميع وأكدوا لى أن الجوامعة من أحسن القبائل إسلاما . ومن الأسف أن ماكمايكل كان يعتمد كثيراً على ما يذكره الرحالة ، وهذا أكبر سبب لخطئه فى الحكم . وكان بوسعه أن يعتمد على دراسة شئون القبائل فى عصره بدلا من الرجوع إلى كتب الرحالة القدماء .

باسم الغديات ، ولذلك يوصفون بأن الدماء النوباوية فيهم لا تقل عن الدماء العربية ، وقد وصل تأثيرهم إلى صميم بلاد النوبا فى الوقت الحاضر ، وبفضل هذا التأثير نرى النوبا الشماليين فى دلنج وما جاورها يقلدون العرب فى زيهم وأكثرهم يتكلم العربية وكثير منهم يدين بالإسلام ، وقد أقلع غير المسلمين منهم عن بعض الحرف التى ينفر منهم العرب مثل تربية الخنازير .

١٣ ـ البطاحين

قبيلة البطاحين — وإن جاء ذكرها فى آخر الكلام عن الجعليين — تمثل عنصراً من أقدم عناصرهم . وقد ظل الشكرية ولهم السيادة والزعامة فى سهل البطانة زمناً طويلا ، إلى أن قويت شكوة البطاحين وارتفع شأنهم فى هذا الإقليم فى العهود الحديثة وإن كانت الشكرية لا تزال لها المكان الأول فيه .

وهم عبارة عن قبيلة بدوية مركزها الرئيسى بلدة أبى دليق ، الواقعة شرق الخرطوم بنيف ومائة كيلو متر ، أى فى وسط سهل البطانة الشمالى ، ومع ذلك فإن هذه البلدة أسستها أسرة من بنى كاهل ، وكانت فى وقت من الأوقات خاضعة للشكرية ، ولكنها اليوم المقر الرئيسى للبطاحين . وتمتد أوطانهم من غير حدود واضحة حتى تصل إلى مركز رفاعة فى الجنوب وشرقاً إلى منتصف البطانة ، وغربا إلى مسافة تبعد عن النهر نحو عشرة أميال ، اللهم إلا القليل منهم الذى نزل فى خرطوم بحرى . ولا شك أن هذه الجهات متدخلة فى مواضع عديدة فى أوطان الشكريه ، وقد حدثت منازعات عديدة حول الماء والمرعى .

واسم البطاحين مشتق من البطحاء ، والإشارة فيما يبدو إلى بطحاء مكة ، والقياس فى هذه الحال يستدعى أن نسميهم البطاحيين ، غير أن الصيغة الأولى هى الغالبة اليوم . والمفرد بطحانى .

وهم رعاة إبل وغنم وماعز . ولهم قطعان كبيرة ، تغلب عليهم البداوة ، ويزرعون مع ذلك بعض الأخوار والأودية الضحلة المنتشرة حولهم ، ويصفهم ماكايكل ، بأن مظهرهم تغلب عليه الصفات العربية (القوقازية) والجسم نحيل ، خفيف

الحركة ، والتقاطيع معتدلة ، والبشرة ذات حمرة وشحوب . ويصف أخلاقهم بسرعة الغضب وحب المشاكسة مثل الشايقية ، ومع ذلك يميلون إلى الفكاهة ويمتازون بالجرأة والشجاعة ، كذلك يصفهم بأنهم لصوص لايرجى إصلاحهم ولا يستحون من السرقة . غير أن سرقتهم ليست من الطراز الإجرامى كالسطو على المنازل ، بل بقية من عهد الجاهلية ، حين كان اختطاف جمل يعد من الأعمال المرغوبة المحمودة .

وقد كانوا قبيلة قليلة الخطر ، عاجزين عن مجاراة الشكرية ، جيرانهم الأقوياء . وفى عهد محمد على واسماعيل إزدادت هذه الحالة وضوحاً ، بفضل ما كان للشكرية من النفوذ الواسع . وانقلبت الحال فى عهد المهدية حينما تعرض الشكرية لضروب من العنت والاضطهاد ، فضعفت شوكتهم وارتفع شأن البطاحين . ولكن فى العهد الحديث استرد الشكرية بالتدريج مكانتهم القديمة ، بل زادوا عليها ، واتسع نفوذهم فى جميع أنحاء البطانة شمالا وجنوباً . ومع ذلك فإن البطاحين لا يزالون من أعظم القبائل التى تعتمد على رعى الإبل كحرفة أساسية لها .

***

ويلحق بالبطاحين قبيلة أخرى من أقربائهم الجعليين ، وطالما كان بين الإثنين حلف وتأييد مشترك فى الدفاع والهجوم ، ألا وهى قبيلة الخوالدة ، وكانت لهم فيما مضى غارات وحروب على الكواهلة والشكرية يناصرهم دائماً أقاربهم البطاحون ، وينتسب الخوالدة إلى جد يدعى خالد ، وتشير الأنباء المتواترة إلى أنه أنجب ثمانية من الأبناء ، تنتسب إليهم البطون الثمانية التى تتكون منها القبيلة اليوم ، وتجمع الروايات على أنهم وصلوا إلى السودان بعد أن نزحوا إلى مصر وأقاموا فترة من الزمن فى الدلتا ، حيث لا تزال بقية منهم بالقرب من طنطا . أما الكثرة العظمى فقد دخلت السودان فى حوالى القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر ، ونزلوا أولا إقليم شندى ، ثم لم يزالوا ينتقلون تدريجياً نحو الجنوب ، فى سهل البطانة . ولشدة ضغط الشكرية عليهم اضطروا إلى عبور النيل الأزرق بالقرب من واد مدنى ؛ ونزلوا فى الجزء الشمالى من الجزيرة . فيما بين واد مدنى وبلدة مناقل ، حيث يعيشون

فيما يقرب من خمسين قرية تمتد ما بين البلدين . ولا تزال هذه هى أوطانهم الرئيسية إلى وقتنا هذا[١] .

***

ولا بد لنا فى ختام هذا الفصل أن نؤكد ما ذكرناه من قبل ، من أن الوحدات المختلفة للمجموعة العباسية ، التى تكلمنا عنها ، ليست هى كل القبائل الجعلية . بل هنالك وحدات صغيرة ، لا يكاد يعرف عنها شىء أكثر من أسمائها . وهى فى العادة تخضع لناظر قبيلة من القبائل ذات النفوذ ، التى تجاورها .

ولم تكن معالجتنا لكل قبيلة بحسب أهميتها ، بل بمقدار ما أمكن الوصول إليه من أنبائها ومختلف أحوالها . لذلك يجب ألا تقاس أهمية القبيلة بمقدار ما خصص لها من الفقرات أو الصفحات . والواقع أن القبائل الجعلية لم يكتب عنها شىء يطفىء الغلة ، إذا استثنينا كتيباً صغيراً للمستر نكلز Nicholls عن الشايقية[٢] .

وواضح مما تقدم أن المجموعة الجعلية هى أهم مجموعة فى السودان ، وأن مراكز احتشادها كانت فى الإقليم الأوسط من أوطانها الحالية . ثم انتشرت منه نحو الشمال منحدرة مع النهر من جهة ، ونحو الجنوب مصعدة فى النهر من جهة أخرى. لذلك رأينا أن انتشارها يتضاءل بالتدريج فى الأطراف السفلى والعليا من أوطانها .

---

(١) راجع مقالة H. C. Jackson عن الجوالدة فى المجلد الأول (سنة ١٩١٨) من S.N.R. ص . ١٦٧ وما بعدها .

(٢) لم يتح للمؤلف الانتفاع بهذا الكتاب (المطبوع فى دبلن ١٩١٣) . ومع ذلك فليس فى هذا ضير ، إذ لا يتفق مع التناسب فى فصول الكتاب ، أن يطول الشرح والوصف لقبيلة واحدة مع اختصار الكلام على سائر القبائل . ومن الملاحظ أن ما كمايكل فى كلامه على الشايقية لم يشر كثيرا إلى ما جاء فى كتاب نكلز المذكور .

الفصل العاشر

قبائل جهينة — ١

المجموعة الثانية الكبيرة من القبائل العربية فى السودان هى التى يصفها الكتاب بأنها تنتمى إلى « جهينة » أى إلى فرع من فروع العرب العاربة أو القحطانيين ، كما أن المجموعة الجعلية تنتسب إلى فرع من فروع العرب العدنانيين . أى أن إحدى المجموعتين تنتسب إلى العرب الجنوبيين أو اليمنية . والأخرى إلى العرب الشماليين ، طبقاً للتقسيم القديم فى جزيرة العرب نفسها . ولو أن عبارة شمال وجنوب لم تلبث حتى فى عصور الجاهلية أن أصبح مدلولها اسمياً فقط ، لأن عرب اليمن ، كما هو معروف ، قد نزح كثير منهم إلى الشمال ، حتى نزل بعضهم الشام ، مثل غسان ، والبعض على حدود العراق ، مثل المناذرة . ولكن ظلت عبارة جنوبى وشمالى محتفظة بمعناها بحسب الأصل الإقليمى للقبائل قبل أن تنزح القبائل اليمنية وتنتشر فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية .

وقد انقسمت قحطان إلى شعبتين كبيرتين : كهلان ، وحمير ؛ وتفرعت عن كهلان عدة قبائل مشهورة مثل جذام ولخم وكندة وطيء ومذحج وهمدان والأوس والخزرج .

ومن حمير تفرعت قبائل مشهورة أيضاً منها قضاعة وبَلِى ، ومنها جهينة التى نحن بصددها . وقبل ظهور الإسلام ، كان للقبائل الجنوبية شأن عظيم ؛ وكانوا أكثر عدداً وأعظم خطراً من القبائل العدنانية . وكان منهم كثير من البيوت المالكة ، بل إن معظم الملوك كانوا منهم .

ولكن ظهور الإسلام فى قريش قد جعل كفة العدنانيين ترجح ، وموقفهم فى ميدان التفاخر يسمو ويعلو ، وبذل النبى مجهوداً عظيما لكى يمنع هذا التفاخر بالأنساب والألقاب ، مؤكداً ألا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فلم يكتف

بأن ساوى بين العدنانى والقحطانى ، بل رمى إلى المساواة بين الشعوب والأجناس ، فأطاعه فى ذلك الصحابة والتابعون وعقلاء المسلمين ، غير أن العصبيات القديمة لا تموت بسهولة . والنسب القرشى أو حتى العدنانى قد ارتقى بفضل النبى ، إلى منزلة ليس من السهل أن يتجاهلها من يمتون إليها بصلة القرابة ولو من بعيد . ولذلك بقى الحرص على الانتساب إلى الدوحة الهاشمية متأصلا فى النفوس . وظهرت آثاره فى السودان كما ظهرت فى سائر الأقطار الإسلامية .

ومع ذلك فإن القحطانية ، نظراً لوفرة عددها ، كان لها فى الفتوح الإسلامية الأولى مكان ملحوظ ، وكان بعض الجيوش التى أرسلت إلى إفريقية ، يشتمل أكثره على عرب من الدوحة اليمنية ، ولذلك كان لهم من الفضل فى نشر العروبة والإسلام فى أفريقية ما لا يقل عما لغيرهم من القبائل العربية . . وقبل الإسلام بقرون عديدة كان لليمنيين انتشار فى القارة الإفريقية ، وكان لهم بها علم ، أكثر مما كان لغيرهم من العرب . وهذا كان له أثره عند ما غزت الجيوش العربية القارة الإفريقية .

ويحدثنا المقريزى أن جيش عمرو بن العاص كان يشتمل على نسبة عالية من اليمنية ، وعلى الأخص من جهينة ، ثم يخبرنا أن القبائل التى تألف منها هذا الجيش ، قد خفى أمرها بعد ذلك ، وغابت أنباؤها ، فهل نحكم من هذا بأنها اندمجت فى سائر السكان واتحدت فيهم ؟ أو أن بعضهم قد اتخذ طريقة نحو الجنوب ، إلى صعيد مصر وإلى ما وراء الصعيد من ديار وأقطار ؟ ليس من السهل أن نجيب على هذا السؤال ، ولكن الجيش الذى غزا جنوب الصحراء الشرقية فى القرن التاسع الميلادى كان يشتمل على عدد كبير من بنى جهينة ، وكذلك الأمر فى الجيوش العربية التى جاءت بعد ذلك .

كذلك يجب أن نذكر أن قبيلة جهينة كانت أوطانها فى غرب الحجاز ، حول ينبع ، مشرفة على البحر الأحمر ، مما يمكنها من الانتقال عبر البحر إلى الحدود الشرقية لحوض النيل .

هذه الشواهد تشير بأن بعض المؤثرات العربية الجهنية قد دخلت السودان

من الشمال والشرق ، ولكننا إذا درسنا توزيع القبائل التى تنتسب إلى جهينة فى السودان اليوم ، نجد أكثرها انتشاراً فى دارفور وكردوفان ، وليس من السهل أن نفترض أن هذا جاء عن محض الصدفة ، بل إن هذا يبعث على الترجيح بأن كثيرا من الجهنيين قد دخلوا السودان من الشمال الغربى ، من طريق الأربعين أو من أى طريق آخر من الصحراء الليبية .

والقبائل الجهنية فى السودان ترجع بنسبها إلى عبد الله الجهنى الصحابى ، وهو وإن لم يكن من جهينة مباشرة فإنه على كل حال من قضاعة التى تنتسب إليها جهينة . والظاهر كما يقول ما كايكل ، أن العرب فى السودان ، الذين ينتمون إلى جهينة ، قد أعلنوا هذه النسبة وتمسكوا بها ، وأيدتها شواهد عديدة . ولعل بعضهم توهم بعد ذلك أن عبد الله الجهنى الصحابى لا بد أن يكون من جهينة . وجعله محور النسبة فى القبائل كلها . فالأجيال القديمة لم تقل شيئا عن عبد الله ، واكتفت بالانتساب إلى جهينة . أما الأجيال التالية ، فقد تسرب إليها هذا الوهم . فجعلته أساساً للنسبة الجهنية .

وهنالك فرق جوهرى بين العدنانيين والقحطانيين فى جزيرة العرب ، وبينهم فى السودان . ففى البلاد العربية الأصلية كان الناس يفخرون بأنسابهم اليمنية ، دون أن يحاولوا خلطها بأنساب أخرى . أما فى السودان . فان الجهنيين كثيراً ما اتصلوا بالمصاهرة بالجعليين فنشأت بهم وبين العباسيين صلات وروابط .

ويلاحظ أيضاً أن المجموعة الجعلية على اختلاف أنسابها وأوطانها ، تصف نفسها بأنها جعلية أو عباسية . فالبديرى — كما يقول ما كايكل — إذا سألته إلى أى القبائل تنتمى قال : إلى الجعلية . ولكن إذا سألت شكريا قال : إنه ينتمى إلى الشكرية ، ولا يقول إلى جهينة . ولا بد من سؤاله مراراً عن نسبه الأصلى وعن الأرومة الأصلية التى تنتمى إليها قبيلته ، ففى هذه الحالة قد يجيب بأنه من جهينة وأحياناً يقول إنه من جهينة من جهة الأم فقط ، أما من جهة الأب فينتمى إلى على بن أبى طالب أو إلى أى فرع آخر من الدوحة الهاشمية .

على الرغم من هذا ، فان الحقيقة المؤكدة هى انتماء جميع هذه القبائل إلى أصل

واحد ، وهو القبيلة العربية جهينة ، ذات الأصل اليمنى ، التى كانت مواطنها الدائمة بعد اليمن ، فى إقليم يقع على البحر الأحمر .

ونلاحظ فرقاً جوهريا آخر بين الجعلية وجهينة ، وهو : أن مجموعة القبائل اليمنية تنتمى إلى قبيلة عربية مشهورة . أما الجعلية فيسمون باسم شخص : وهو ابراهيم جعل : أو على أحسن الفروض ينتسبون إلى العباس ، أى إلى شخص أيضاً . ويفسر ما كما يكل ذلك ، بأن الجهنيين ظلوا على بداوتهم ، وهم فى السودان فلم يمتزجوا كثيراً بالسكان الأصليين ، فاحتفظوا بوحدتهم وتبعيتهم القبلية ، أما الجعليون فقد اختلطوا اختلاطا شديداً بالسكان السابقين لهم الذين كانو مستقرين ويمثلون جماعات مختلفة من الناس . ومعنى هذا فى نظر ما كما يكل أن الجعليين كانت لهم قبيلة عربية واحدة ينتمون إليها ، وقد ضاعت معالمها بعد كل هذا الاختلاط .

وهذا رأى له وجاهته . ولكن لعل الأوفق أن الجعليين لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة ، بل جماعات عديدة من قبائل ذات نسب متقارب هاجرت على دفعات وعلى مدى قرون ، محتلين الأقطار التى يعيشون فيها اليوم والتى بسطوا نفوذهم عليها قطراً بعد قطر إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية تولت الزعامة ووحدت القبيلة ، وهذه الأسرة الحاكمة هى التى كان لها فضل فى إدماج المجموعة كلها بعضها فى بعض ، وفى إدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية .

وهنا لك سؤال قد يخطر لنا فى هذه المناسبة ، وإن لم يكن من السهل الإجابة عليه ، وهو أى المجموعتين أقدم عهداً فى السودان ، وأقدم تكويناً وانتشاراً . وإذا أردنا أن نستعين بالتوزيع الجغرافى فى الإجابة على هذا السؤال ، رأينا أن الجعليين يحتلون أواسط السودان ، وكان انتشارهم دائماً على طول هذا المحور الممتد من الشمال إلى الجنوب . وإذا ابتعدوا عنه شرقاً أو غرباً كان ذلك فى صورة إشعاعات وتفرعات خاضعة للمصدر الذى تفرعت عنه . أما القبائل الجهنية فتحتل من السودان أقاليم موزعة بين الشرق والغرب ؛ من حوض العطبرة شرقاً إلى أقاصى دارفور غربا .

ولأول وهلة قد يذهب بنا الظن إلى أنه ما دام الجهنيون منتشرين من الشرق إلى الغرب يتوسطهم الجعليون ، فلا بد أن قبائل جهينة كانت منتشرة انتشاراً

متصلا ، حتى جاء الجمليون فاحتلوا الإقليم الأوسط ، وتكون هجرة الجمليين فى هذه الحالة أحدث من هجرة القبائل الجهنية .

غير أن هذا الرأى لا يلبث أن يبدو خطؤه ، عند ما نبحث عن طرق الهجرة التى سلكتها كل مجموعة ، وهنالك يبدو لنا فى غير لبس ولا غموض ، أن القبائل الجهنية الشرقية تمثل هجرات مستقلة تماماً عن هجرات الجماعات التى تعيش فى كردوفان ودارفور . فهنالك فى الواقع ثلاث طرق مختلفة ، الأولى من الشرق أو الشمال الشرقى ، وقد سلكتها جهينة الشرق ، والطرق الشمالية التى سلكها الجمليون ، والطرق الشمالية الغربية أو الليبية ، التى سلكتها جهينة الغرب ، وسنورد فيما بعد الأدلة التى تثبت أن هجرة كل من الشعبتين الجهنيتين كانت مستقلة عن الأخرى .

والأرجح أن الهجرات الثلاثة ، ترجع إلى عصور متقاربة ، ولعلها كانت متقاربة فى الزمن ؛ ومع ذلك فإن تتابع الهجرات فى مختلف العصور يشير إلى أن الباب الشرقى كان أقدم نوعاً ، يليه الباب الأوسط ، ثم الطريق الليبى فى النهاية . ومع ذلك فإن هجرة القبائل الجهنية إلى كردوفان قديمة بدليل ما يرويه ما كمايكل من أنه فى أوائل عصر الفنج كان لجهينة ٥٢ وحدة قبلية فى النيل الأزرق وأكثر منها فى الأقاليم الغربية [1] .

ومما يلفت النظر أن ما كمايكل يذهب إلى أن معظم القبائل الجهنية فى الشرق والغرب نشأت من هجرات شرقية ، استقر بعضها فى الشرق ، واندفع البعض مغرّباً حتى وصل إلى بلاد برنو . وأن هذا كله حدث فى القرن الرابع عشر . مع أن المخطوط الذى يستند إليه يميز صراحة بين المجموعتين الشرقية والغربية ، ويشير إلى الصلات التى تربط بين القبائل الغربية فى السودان وليبيا [2] . مما يدل على أن المجموعة الغربية ذات تاريخ مستقل . وليس من السهل أن نتصور هجرات تبدأ من سواحل البحر

---

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان (ص ١٣٩ و ٢٧٦) نقلا عن بعض المخطوطات . والإشارة إلى الجهات الغربية ليست فيما يبدو مقصورة على السودان ، بل تمتد إلى غرب دارنور ، وإلى ليبيا وتونس .

(٢) راجع الوثيقة رقم BA فقرة ١٢٣ فى الجزء الثانى من نفس الكتاب فى صفحة ٢٨

الأحمر وتنتشر بواسطتها القبائل إلى إقليم بحيرة تشاد ويتم هذا كله فى غضون قرن واحد .

يدلى ماكمايكل برأيه هذا وهو يتحدث عن الجهنيين بوجه عام ، ولكنه عند ما يتحدث عن البقارة بعد ذلك ، وهم أعظم مجموعة جهنية فى كردوفان ودارفور ، يعود فيرجح ، أنهم جاءوا من طريق ليبى قريب من نهر النيل ، وقد استرشد فى رأيه هذا بعبارة رواها ابن خلدون ، عن تدفق قبائل من جهينة إلى بلاد النوبة ثم نزوحهم عنها بعد ذلك[١] . وقد ذكر ابن خلدون صراحة أنهم كانوا موزعين على الضفة الشرقية والغربية .

والرأى الذى يسهل به تفسير توزيع القبائل الجهنية فى مختلف الأنحاء ، هو التسليم بأنها كانت قبيلة عظيمة وأنها لم تقتصر فى انتشارها على طريق واحد . وحسبنا دليلا على قوة هذه القبيلة ما أورده ابن خلدون فى وصفها وهو يتكلم عن القبائل العربية عامة فيقول : إن مواطن جهينة «ما بين الينبع ويثرب إلى الآن ، فى متسع من برية الحجاز إلى عقبة أيلة ، وهم على العَدْوة الشرقية من بحر القلزم . واجتاز منهم أممٌ إلى العدوة الغربية ، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هنالك سائر الأمم ، وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم ، وأزالوا ملكهم . وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد »[٢] .

وفى عبارة ابن خلدون هذه ، مع ما هو معروف عنه من دقة التعبير ، ما يدل دلالة صريحة على أن جهينة كانت قبيلة عظيمة ، تسلك فى هجراتها مختلف السبل ، إلى صعيد مصر ، وإلى بلاد النوبة ، وإلى شرق السودان إلى حدود الحبشة ، ومع ذلك يظل منها جماعات عددها كاف لاحتلال أوطانها الأصلية فى الحجاز ، ما بين يثرب وينبع جنوباً والعقبة شمالا . وأوطانها فى الحجاز اليوم لا تزال بالقرب من

---

(١) من الغريب أن هذا التناقض يحدث ما بين صفحات متقاربة ، راجع الجزء الأول من الكتاب نفسه (ص ٢٧٤ ، ٧٦) ، أما عبارة ابن خلدون فواردة فى الجزء الخامس من تاريخه (ص ٤٢٩) طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

(٢) راجع الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون (ص ٢٤٧) ، ولا أدرى كيف فات ماكمايكل هذا النص أيضاً .

ينبع والجهات التى تليها شمالا . وليست بالطبع بنفس الاتساع الذى كان لها فيما مضى ، لأن فترة الهجرات المتتالية على مدى القرون الطويلة ، مما يضعف الوطن الأصلى .

***

هذا وتنقسم القبائل الجهنية فى السودان إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالى .

١ — رفاعه (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبداللاب والعركيين وغيرهم) .

٢ — اللحويون والحلويون[١] .

٣ — العوامرة والخوالدة الخ[٢] .

٤ — الشكرية .

ومواطنهم جميعاً فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة ، أى فى النصف الشرقى من السودان ثم :

٥ — دار حامد .

٦ — بنى جرار .

٧ — الزيادية .

٨ — البزعة .

٩ — الشنابلة .

١٠ — المعاليا .

ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة وهم يعيشون فى الجهات الشرقية والوسطى من كردوفان . ثم

---

(١) قبيلتان صغيرتان من بنى جهنية ، الأولى تعيش فى البطانة تحت رعاية الشكرية ، أما الحلاويون فلهم بعض الاستقلال ، ويعيشون فى الجزيرة حول بلدة حصاحيصا .

(٢) تتألف هذه المجموعة من العوامرة والعمارنة والفادنية والخوالدة . وكلها قبائل رعوية صغيرة فى الجزيرة ويمارسون بعض الزراعة . والخوالدة فى الجنوب ، وهم خلاف خوالدة شمال الجزيرة أقارب الجعليين .

١١ — الدويحية .

١٢ — المُسَلميَّه .

١٣ — البقارة .

١٤ — المحاميد ، والماهرية . الخ

١٥ — الكبابيش .

١٦ — المغاربة : (الذين جاءوا من المغرب) .

١٧ — الحَمَر : (خلاف الحُمْر ؛ وهم من البقارة) .

وهؤلاء منتشرون فى كردوفان ودارفور ، وإن كان بعضهم مثل المسلمية والدويحية لهم أوطان فى الجزيرة والنيل الأزرق .

وليست هذه القبائل متساوية فى الأهمية سواء من حيث العدد أو الثروة أو النفوذ ، لأن البقارة مثلا يضمون عدداً كبيراً من القبائل بعضها مثل الزريقات على جانب عظيم من الخطر . ولكن هذا التقسيم له بعض الوجاهة ، لأنه مبنى على أساس إقليمى من جهة ، وعلى أساس القرابة من جهة أخرى ؛ وسنكتفى فى هذا الفصل بالكلام على أهم الوحدات فى الشرق والغرب[١] .

قبيلة رُفاعة

رفاعة ، بضم الراء ، على الأقل فى الوقت الحاضر ، قبيلة كثيرة العدد واسعة الانتشار ؛ وفيما مضى كانوا مجاورين للبجه ولهم أوطان على حدود الحبشة ، وفى عصر الفنج كانوا بدواً كلهم ، ومواطنهم تمتد على جانبي النيل الأزرق فى السودان من السفوح الحبشية إلى القرن . أما بلدة رفاعة فى الطرف الشمالى من النيل الأزرق ، فلم تنشأ إلا فى وقت متأخر ، بعد أن أخذ فريق من أهل الشمال منهم ينزعون إلى حياة الاستقرار ، ومع ذلك لم تعد هذه البلدة خالصة لهم كما رأينا من قبل عند الكلام على الشكرية .

---

(١) سبق الكلام عن الشكرية وهم أهم القبائل الجهنية الشرقية — وذلك فى الفصل الثامن .

وفى الوقت الحاضر لا يزالون منتشرين على جانبى النيل الأزرق ، على الأخص فى النصف الجنوبى إلى الرصيرص . لأن ضغط القبائل الشمالية أدى إلى تسرب عناصر أخرى إلى النصف الشمالى .

والظاهر أن قبيلة رفاعة كانت قبيلة مستقلة بنفسها عن أخواتها من جهينة حتى فى الأوطان الأصلية فى جزيرة العرب ، وكان بين الفريقين خصومات ومنازعات شأن هذه القبائل البدوية .

ويقول بركهارت فى رحلاته ، إنه عند ما كان فى شندى قابل أعرابياً آتياً من سواكن ، يقول انه رفاعى (بكسر الراء) أى ينتمى إلى القبيلة العظيمة جهينة التى تعيش بالقرب من ينبع . وأن هذا الأعرابى قد سمع بأن فرعاً عظيما من قبيلته يعيش فى الجنوب من سنار وأنه ينوى زيارتهم ، لأنهم قد اشتهروا بعطفهم على أقاربهم فى الحجاز ، الذين يقصدونهم فى أوطانهم بالسودان .

وبركهارت كاتب مدقق ، ولذلك يمكننا الاعتماد على شهادته . والظاهر أن هذا الأعرابى ، وهو مثال الآخرين سواه ، انتقل أولا إلى سواكن ومنها إلى بربر . ثم انحدر جنوباً إلى النيل الأزرق ، وهذا طريق أسلم من اختراق بلاد البجه ؛ وإن كان الطريق الثانى أقرب .

ويلفت ما كما يكل نظرنا إلى عبارة وردت فى كتاب كاترمير ، رواية عن مخطوط عربى ، أن معركة دارت فى صحراء عيذاب بين رفاعة وجهينة سنة ٦٨١ هجرية (١٢٨١ م) وأن القبيلتين كانتا متجاورتين فى ذلك الإقليم لمدة أجيال كثيرة ، وهكذا نستطيع أن نستخلص من هذه العبارة دليلا على الطريق الذى سلكته رفاعه ، بل وبعض القبائل الجهنية الأخرى إلى جهات السودان الشرقية .

ووجود قبيلة رفاعة فى إقليم ينبع يؤيد أن طريق الهجرة كان إلى الصحراء الشرقية ، صحراء عيذاب ، ثم الانحدار تدريجياً نحو الجنوب ، مع المحافظة على البداوة التى ظلوا محتفظين بها إلى زمن الفنج .

وينقسم الرفاعة تقسيما إقليمياً ، إلى الشماليين والجنوبيين .

وقد أصبحت المجموعة الشمالية الآن مستقرة فى قرى ، ومعظم نشاطها زراعى

أو تجارى ، أو غير ذلك مما يلازم حياة الاستقرار . وكثير من القرى يشاطرهم فيها عـدد غير قليل من الشكرية أو الدناقلة أو الجعلية أو المحس . ولو أن هنا لك قرى كثيرة سكانها كلهم من رفاعة ، وبوجه عام يعتبر الرفاعة والمحس أصحاب الديار الأصليين على ضفتى النيل الأزرق كما يقول ما كايكل . فإن صح هذا ، ونحن نعلم قدم المحس فى هذا الإقليم ، فمعنى ذلك أن الرفاعة استقروا هنا منذ زمن طويل .

أما رفاعة الجنوب فالبداوة سائدة بينهم ، والاستقرار أقل . وكثيراً ما يطلق عليهم اسم جهينة[١] ، وهم ينقسمون إلى قسمين : رفاعة الشرق (ناس أبوجن) شرق النيل الأزرق ، ورفاعة الهـُوىْ (أوناس أبوروف) . والنسبة إلى أبوجن وأبوروف ، ترجع إلى اسم الأسرتين الحاكمتين لمدى أجيال طويلة . وهذا التقسيم إلى شرقيين وغربيين تقسيم إقليمى صرف ، وليست له أية صفة للتمييز بين الشعبتين من ناحية النسب .

والانقسام إلى شرق وغرب أدى إلى أن تتغير حركات الجماعة وهجراتها الموسمية . فالشرقيون يقضون الصيف فى البطانة الجنوبية . وأوطانهم على جوانب نهر دندر . والغربيون أوطانهم إلى الغرب من الرصيرص ، حيث تمتد شمالا وجنوباً . ورحلتهم الصيفية تصل بهم إلى جبل مويا .

أما الأقسام القبلية فيذكر منها ما كايكل ٢٤ قسما بين الجنوب والشمال ، والشرق والغرب مثل القواسمة والعركيين ، والطوال والهلالية وبنى حسن وبنى حسين . وهنا لك قسم واحد يدعى باسم « جهنية » ، وهو عبارة عن قبيلة بدوية صغيرة تعيش فى الجنوب الغربى من البطانة بالقرب من المجرى الأسفل لنهر رهد . وهى قبيلة غير ذات خطر .

ومع أن الكثرة العظمى من رفاعه تعيش فى إقليم النيل الأزرق ، فإن قليلا منهم يعيش على النيل الأبيض ، وبعضهم مع الكبابيش فى كردوفان ، وقليل منهم ربما ذهب إلى دارفور .

* * *

(١) يروى ما كايكل أن بعض السودانيين يطلقون على القبيلة اسم جهينة العول أى الذين لا يعتدون ولا يقاتلون ، ويروى مثلا سائرا : جهينة العول العشرة فوق الزول : أى أنهم ضعفاء فى الحرب يكفى واحد لقتال عشرة منهم .

العبداللاب :

ومن مجموعة القواسمة شعبة تستحق أن يفرد لهـا ذكر خاص ، وهى الشعبة المسماة بالعبداللاب أصحاب حلفاية الملوك ؛ وهم فى الحقيقة عبارة عن أسرة عظيمة كبيرة العدد والخطر . تتركز اليوم حول حلفاية والخرطوم (بحرى) ؛ ومنها جماعات موزعة على ضفاف النيل الأزرق ما بين رفاعة والخرطوم ، حيث يمارسون الزراعة . ولهم قطعان قليلة .

ولـكنهم على قلة عددهم النسبى ، ومواردهم المحدودة ، لهم شأن كبير وخطر عظيم . لأن مؤسس الأسرة عبد الله جماع ، وهو من شعبة القواسمة من قبيلة رفاعة هو الذى ساعد عمارة دنقس على القضاء على مملـكة سوبه ، وتأسيس مملـكة سنار ؛ وكان هو العضد الأكبر لهذه المملـكة فى الإقليم الشمالى . وكان أصله من قِرّى شرقى خانق سبلوقة ، وظلت قرّى عاصمة لهم فترة من الزمن ، ثم انتقل مقرهم بعد ذلك إلى حلفاية الملوك ، وكانت هذه الأسرة تتوارث الحكم فى أثناء مملـكة سنار ، وكانت هى ذات الحول والطول فى الإقليم الشمالى من تلك المملـكة .

وكان اللقب الرسمى لأمراء العبداللاب هو « منجل » وهو اصطلاح غير عربى فيما نعلم . وقد لقب به عدد من الولاة فى عصر الفنج ، ولـكنه كان يطلق بوجه خاص على العبداللاب .

ولا بد من الإشارة إلى أن أمراء العبداللاب لم يكونوا مجرد زعماء للشعبة الشمالية من رفاعة أو حتى القواسمة ، بل حكام إقليميون ، لهم السلطة التامة على جميع القبائل التى تعيش فى الشطر الشمالى من مملـكة سنار .

فالمنجل العبداللابى هو نائب الملك فى الجزء الشمالى من مملـكة سنار ، وهو منصب وراثى ، وصاحبه له حق جباية الضرائب والتصرف فيها . وكان ملـكه يمتد من مصب دندر إلى بلاد دنقله . وبعض مناجل العبداللاب كانوا ذوى شهرة لا تقل عن ملوك سنار أنفسهم . وكانت لهم وسائل لجباية الضرائب من البدو الرحل لعلها أبرع مما وفقت له الحـكومات الأخرى التى جاءت بعدهم .

وبعد أن ضعفت الحكومة المركزية فى سنار وتغلب سلطان الهمج وازداد نفوذهم ، صار العبداللاب مستقلين استقلالا تاما . وانقضت صلة التبعية بينهم وبين سنار . وقد تعرض العبداللاب لكثير من إغارات الجمليين ، فكان ملكهم يتناقص أحياناً فى الشمال ثم يستردون بعض ما فقدوه بعد ذلك .

وقد أورد ما كمايكل بعض البيانات الطريفة عن منصب المنجل . فقال إن أصل الاسم مشتق من الهمج . وهذه عبارة لا تفيدنا كثيرا عن أصل هذه الكلمة ، فالهمج هم عبارة عن القبائل أو الجماعات التى بسط عليها الفنج سلطانهم . وهم خليط من القبائل ، ولغاتهم متعددة . فكل ما نستطيع تقريره هو أن الكلمة من أصل سودانى .

ومنصب المنجل يخول لصاحبه حق لبس الطاقية ، وهى عبارة عن طاقية لها ذؤابتان أو زائدتان عن اليمين والشمال محشوتان بالقطن كأنهما قرنان . وكان هنالك بضعة أمراء فى عصر الفنج يتمتعون بهذا الحق ، منهم أمير فازوغلى ، وأمير الجمليين ، وزعيم الغديات ، وبعض زعماء الرفاعة .

ويصف بعض الكتاب « تتويج » المنجل فى العبارات الآتية ، والوصف ينطبق على تتويج العبداللاب . يحضر الأمير إلى سنار ، وفى يوم الاحتفال يمنحه السلطان الطاقية ثم يجلسه على الكرسى (الكوكور) ويخاطب بأنه الملك ويدعى له بالعمر المديد والحكم السديد ، ثم يقبله السلطان ويتمنى له أطيب الأمانى . ويأمر بأن يدق له الطبل الملكى ويعلن بأن الملك قد توج . ثم يعود بعد ذلك إلى وطنه متوجا معرشا (بالتاج والعرش) .

وإلى جانب التاج أوالطاقية . كان يمنح عمامة وسيفا وعباءة وسلسلة من الذهب وهنالك إشارة إلى بعض ملوك النوبة فى القرن الثانى عشر ، فى الإقليم الواقع بين أسوان وكرسكو وأن أحد ملوكهم كان يلبس العمامة ذات القرنين ، والسوار (السلسلة الذهبية) ومن الجائز أن هذه العادة قديمة فى البلاد التى امتد إليها النفوذ النوبى ، وورثها الفنج فيما ورثوه من تقاليد الحكم والدولة . وهنالك أقوال أخرى عن الصلة بين هذه التقاليد ، وأشباهها فى العصر الفرعونى . غير أن الموضوع لا يزال يفتقر إلى الدراسة .

بنى فزارة

يحدثنا ماكمايكل أن بنى فزارة — بهذا الاسم — لم يعد لهم وجود فى السودان ؛ ولكن فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هذا الاسم يطلق على أكبر مجموعة من رعاة الإبل فى كردوفان ودارفور ، وقد تمزقت هذه المجموعة الكبيرة إلى وحدات منفصلة كل وحدة تسمى باسمها الخاص . وقبيلة فزارة العربية قبيلة عدنانية ، وتنتمى إلى قيس عيلان . وقد هاجرت شعبة كبيرة منها إلى مصر . فكيف أصبحت اليوم فى السودان تعد من قبائل جهينة ؟

فى الغالب أن ما ذهب إليه ماكمايكل صحيح ، وهو أن أوطان فزارة كانت متاخمة لأوطان جهينة فى الجزيرة العربية ، ولعل هجرة القبيلتين إلى مصر حدثت فى وقت واحد ، فكانت جماعات من الفريقين تنتقل معاً ، وكانت بينهم مصاهرات على الأرجح أدمجت القبيلتين إحداهما فى الأخرى .

وأهم القبائل الداخلة فى مجموعة فزارة هى بلا شك تلك التى يطلق عليها اسم « دار حامد » : وهى قبيلة منقسمة إلى عدة شعب ، ولا يجمعها زعيم واحد ، بل كل شعبة لها شيخها الخاص بها .

وهنالك قسمان صغيران من دار حامد ، التحق أحدهما بالكبابيش ، والآخر يصاحب الكواهلة ، وكلا هاتين الشعبتين يعيش عيش البداوة ولا يعرف الاستقرار . وكانت القبيلة كلها بدوية ترعى الإبل فيما مضى ، غير أن القسم الأعظم من القبيلة نزل فى منطقة الخيران شمال الأبيض ، حيث يقوم ببعض الزراعة ، وعلى الأخص زراعة الذرة الرفيعة ، ومع ذلك له قطعان من الإبل يرعاها ، فى الوقت الذى لا تشغله الزراعة .

ومن الجائز أن دار حامد هم من أول القبائل استعماراً لمنطقة الخيران ، ولكن شاركهم فيها بعد ذلك كثير من القبائل الأخرى : مثل البديرية وكثير من الدناقلة ، الذين يحسنون استخدام السواقى والشواديف للرى .

وتنتسب القبيلة إلى جد يدعى حامد ، وهذا الجد بدوره يرجع إلى عبد الله

الجهنى . وقد هاجر حامد وأخوه حماد على رأس القبيلة منذ زمن لا يقل عن قرنين ، وقد يبلغ أكثر من ذلك ، وطريق هجرتهم على الأرجح كان عن طريق الجانب الغربى للنيل ، إما بواسطة درب الأربعين ، أو بالتزام الجانب الغربى للنيل فى بلاد النوبة ، ثم الاتجاه جنوباً إلى كردوفان . وهم يزعمون أن جدهم هذا كان معاصراً لأبى زيد الهلالى ، وأن أبا زيد نصحه بأن يتجنب دارفور ، ويذهب إلى كردوفان ، وأن يختار لمقامه الجزء الأوسط من كردوفان . ولم تتح للمؤلف زيارة دار حامد ، ولكن أبلغه غير واحد أنهم تظهر فيهم أحياناً صفات جسدية تذكر بسكان بلاد المغرب ، ومع أن قصة معاصرة جدهم لأبى زيد الهلالى قد تقبل الشك ، غير أن المفاضلة بين دارفور وكردوفان قد تفيد أن الهجرة كانت عن طريق وسط بين الإقليمين ، وأن جزءا من دار حامد قد هاجر فعلا عن طريق مغربى أو تونسى ؛ وإن كانت الروايات تدل على أن معظمهم جاء عن طريق غرب بلاد النوبة[١] .

الزيادية

ينتمون أيضاً إلى مجموعة بنى فزارة ، التى أكثر التونسى من ذكرها ، وكانت أوطانهم فيما مضى موزعة بين دارفور وكردوفان ، ولكن شعبة دارفور كانت أعظم بكثير . ثم تعرضت القبيلة للاضطهاد الشديد زمن المهدية ، حتى كادت تفنى عن آخرها ، ثم لقيت من اضطهاد على دينار فى دارفور ، ما سبب نقصاً كبيراً فى عددهم هناك ، واضطر معظمهم إلى المهاجرة إلى كردوفان . وبذلك انعكست الحالة فأصبح اليوم أكثرهم رعاة إبل بالقرب من مواطن دار حامد . ولم يبق منهم فى دارفور إلا القليل .

بنى جرار

كان لهم فيما مضى شأن كبير فى كردوفان ودارفور ، وكانوا هم والحمر أعظم القبائل التى تنافس الكبابيش فى النصف الشمالى من كردوفان إلى حدود بلاد النوبة ؛

(١) ماكمايكل تاريخ العرب فى السودان الجزء الأول ص ٢٥٧ .

ولكثرتهم فى ذلك الوقت كان اسم فزارة ألصق بهم منه بأية قبيلة أخرى . وكانت لهم أوطان فى دارفور أيضاً ، ويرى ماكايكل أنه كانت تربطهم أواصر القرابة بقبيلة فزارة التى كانت تعيش فى صعيد مصر فى القرن الخامس عشر .

وفى القرن الماضى انتهت المنافسة بينهم وبين جيرانهم إلى تغلب خصومهم ، وعلى الأخص الكبابيش . فأصبح بنوجرار اليوم وليست لهم أوطان فى دارفور ، ويعيشون فى إقليمين محدودين من كردوفان ، الأول بالقرب من النيل الأبيض ، حيث يعيشون فى قرى عديدة ، يمارسون الزراعة وحياة الاستقرار ، والآخر فى أواسط كردوفان حيث يرعون الإبل وصغار الماشية .

البزَعة

قبيلة قليلة المدد ، يصلون نسبهم ببنى جرار جيرانهم ، ولهم قرى مبعثرة فى إقليم الصمغ شرقى كوردوفان ، وفى الجهات القليلة الآبار جنوب بلدة أُمْ دَم ، حيث تضطرهم قلة المياه للاعتماد على البطيخ كمورد للماء فى بعض فصول السنة[1] وهنالك شعبة منهم لها قليل من الإبل يرعونها فى غرب كردوفان .

الشنابلة

يشبهون البزعة فى أن لهم شعبتين ، الأولى رعاة إبل فى إقليم دار حامد والكواهلة ، والأخرى أكثر استقرارا على النيل الأبيض . والظاهر أنهم أقرب نسبا إلى دار حامد منهم إلى أية قبيلة أخرى من قبائل فزاره . وبعضهم قد اندمج فى قبيلة الحمَر ، واكتسبوا ثروة كبيرة من الإبل . كما انضم فريق منهم فترة من الزمن إلى الكبابيش ، وفى صعيد مصر على الضفة الشرقية قبيلة تدعى الشنابلة ، والراجح أنهم من أقارب القبيلة السودانية [2] .

---

(١) ماكايكل نفس المرجع ص ٢٦٥

(٢) نفس المرجع والمكان .

المعاليا

تعد المعاليا قبيلة كبيرة إذا قيست إلى أكثر قبائل فزارة ، ولكنها لا تعد من القبائل الكبيرة بوجه عام . وقد كانت أوطانها موزعة بين دارفور وكردوفان والأكثر فى دارفور . وبعد المهدية ، أخذوا يهاجرون بكثرة إلى المكان الثانى . وبعضهم أمعن فى هجرته إلى الجنوب حتى جاور الرزيقات ، وبعد هزيمة على دينار فى سنة ١٩١٦ ، أخذ عدد منهم يعود إلى شمال دارفور ، لعله يسترد بعض الجهات التى كانت تابعة للقبيلة من قبل .

ومعظم أوطانهم فى الغرب من دار حامد ، كما أن بعضهم يعيش فى مركز النهود والأبيض والدلنج وأم روابه ، وفى مركز الدلنج كان لهم اتصال بالنوباويين ولعل بعض الفضل يرجع إليهم فيما يشاهد فى هذا الإقليم من المؤثرات العربية . هذا ولا يزال أكثرهم رعاة إبل وإن كان بعضهم مستقرا فى القرى ، والبعض يرعى البقر فى الجنوب الشرقى من دارفور ، والجنوبى الغربى من كوردوفان .

الفصل الحادى عشر

قبائل جهينة — ٢

تحدثنا فى الفصل السابق عن شعبتين من قبائل جهينة : الأولى الشعبة الرفاعية ، والثانية الشعبة الفزارية ، وسنتناول فى هذا الفصل طائفة من أعظم قبائل جهينة ، المنتشرة فى كردوفان ودارفور . ولكننا سنبدأ بذكر قبيلتين أقل خطراً من الأخريات لأن لهما أوطانا فى كردوفان والجزيرة ؛ وهاتان هما الدويحية والمسلمية .

الدويحية

يعيش بعض الدويحية فى إقليم النيل الأزرق ، وهؤلاء يجنحون إلى حياة الزراعة والاستقرار غير أن معظم القبيلة — وهى على كل حال قليلة العدد — رعاة إبل فى أواسط كردوفان ، يصاحبون الكواهلة وينتقلون معهم .

المسلَّمية

كثير من المسلمية يسمون أنفسهم البكرية ، مبتمدين بنسبهم عن كل من الجعليين والجهنيين ، وإذا صح هذا الزعم يكونون وحدهم فيما نعلم المنفردين بهذه النسبة فى السودان ، وليس من السهل أن نتبين كيف وصلوا إلى أوطانهم الحالية كما أن من الصعب أن نجد مجموعة بكرية (أى من نسل أبى بكر الصديق) تعيش فى صورة قبيلة فى أى قطر من الأقطار العربية . لأن معظم البكريين يعيشون فى صورة أسر منتشرة فى مختلف الجهات والأقطار .

والنسابون فى السودان يصلونهم بالمجموعة الجهنية . وهذا بالطبع لا يمنع أن يكونوا قد أصهروا إلى أسرة بكرية . وفى هذا ما يفسر دعواهم من جهة ورأى النسابين من جهة أخرى .

وهم يعيشون فى الجزيرة حيث سمى أحد المراكز باسمهم وعلى ضفتى النيل الأبيض وأكثرهم مستقرون يمارسون الزراعة . ولهم فى البطانة شعبة صغيرة تعيش عيشة البداوة وقد تحدث عنهم جون يترك وقد زار بلادهم وأقام بينهم فترة من الزمن فى عهد محمد على ، ويدل وصفه لهم على أنهم كانوا أكثر عددا فى ذلك الوقت مما هم عليه اليوم.

والذين يعيشون فى البطانة يلازمون الجانب الشمالى الغربى ، بالقرب من النيل الأزرق ، ومن أخص عاداتهم أنهم يحتفرون « حفيرا » يملأونه بالماء وقت المطر ، ليستقوا منه فترة من زمن الجفاف . وحفيرهم بالقرب من أم دبان مشهور ، وفى القرية قبتان عظيمتان ومن تحتهما ضريح يضم رفات بعض زعمائهم .

البقـارة

كلمة بقارة كما هو واضح ، معناها رعاة البقر ، والمراد بهذه التسمية تمييزهم عن جيرانهم فى الشمال من رعاة الإبل ؛ غير أن للكلمة معنى اصطلاحياً فى السودان خلاف المعنى اللفظى ، وهذا المعنى الاصطلاحى لا يخرج الكلمة عن معناها الأصلى ولكنه يضيق حدود هـذا المعنى . ففى السودان كثير من رعاة البقر . ولكنهم لا يدعون بقارة . أى أن رعاة البقر كلمة عامة ، والبقارة كلمة خاصة ، فالدنكا رعاة بقر ، ولكن أحداً لا يدعوهم باسم البقارة ، إنما هم دنكا ، ويجب أن يدعوا بهذا الاسم ، لا بالاسم العربى بقارة ، الذى لا يطلق إلا على العرب رعاة البقر .

وفوق ذلك فإن اسم بقارة لا يطلق على العرب الذين يرعون البقر على نهر النيل الأعظم ، أو شرق النيل الأبيض والأزرق . بل هو مقصور على العرب فى غربى النيل الأبيض ؛ فى كردوفان ودارفور ؛ وعلى القبائل الجهنية بوجه خاص .

فالأصل فى استخدام لفظ بقارة أنه للتمييز بين صنفين من الرعاة فى هذا الإقليم الواسع الفسيح : رعاة الإبل فى الشمال (شمال ١٣°) ورعاة البقر فى الجنوب . ففى هـذا الإقليم الواسع الفسيح تتدرج الحياة النباتية من الكثرة والوفرة فى الجنوب إلى الشح والقلة فى الشمال ؛ من السفانا الغنية إلى الأعشاب الصحراوية المبعثرة فى

الأودية والخيران . هذا الإقليم كله تسوده حرفة الرعى ، ولكن الأحوال الطبيعية تجعل من الضرورى أن يختص الإقليم الشمالى برعى الإبل والجنوبى برعى البقر . والإقليمان متجاوران ، وهذا التجاور يبعث على التمييز بين سكان الشمال والجنوب ، على الرغم مما بين الاثنين من صلات القرابة . فيصف بعضهم بعضاً بأنهم بقارة أو أبالة . ومن الجائز أن تكون القبيلة الواحدة لها فرع يرعى البقر ، وفرع يرعى الإبل . فكأن التسمية جاءت للتمييز بين القبائل اليمنية التى احتفظت بحرفتها الأصلية وهى رعى الإبل ، وبين أبناء عمومتهم فى الجنوب ، الذين تحولوا إلى حرفة أخرى برعى حيوان آخر لم يكن لهم برعيه عهد .

ولا بد لنا أن نفترض أن هذه القبائل كانت كلها رعاة إبل ، ثم توغلت بطون منها فى الجنوب ، مصطحبين معهم إبلهم ؛ غير أن الجنوب فيه حشرات مثل ذباب تستسى أو ذباب السِّرِت أو غيرها من الحشرات ، التى لم تكتسب الإبل المنعة اللازمة لمقاومتها ، فلم تلبث هذه الإبل بعد بضعة أجيال أن هلكت بالتدريج . ورأى الرعاة أن الإقليم يناسبه رعى البقر . وقد وجدوا لدى السكان الأصليين قطعاناً كبيرة منها . فلم يلبثوا أن استبدلوا البقر بالإبل ، فأصبحوا بقارة .

هذا الاسم إذن يطلق على وجه التخصيص على القبائل الجهنية ، لا على غيرهم ومع ذلك فهنا لك رعاة بقر من الجعلية مثل الجمع والغديات فى جنوب كردوفان ، ومثل بعض الحسانية والحسينات . وهؤلاء قد يسمون بقارة على سبيل التجاوز بحكم المجاورة ، وفى هذه الحالة يكون معنى الاسم رعاة بقر ، وليس له أى معنى من الناحية الجنسية . لكن اصطلاح البقارة على التخصيص مقصور على الشعبة اليمنية التى تعيش فى جنوب كردوفان ودارفور ، وتحترف هذه الحرفة .

ونظراً لأن هؤلاء البقارة قد تحولوا إلى رعى البقر عن رعى الإبل ؛ أى أنهم حديثو العهد برعى البقر ، نراهم يستخدمون البقر كما كان أسلافهم يستخدمون الإبل ، لا يوقرونها ولا يحترمونها ولا يعظمونها كما يفعل الدنكا بل يركبونها ، ويحملون عليها أثقالهم إذا انتقلوا من مكان إلى مكان ، ويضعون على ظهورها أداة تشبه الرحل أو الهودج لتجلس عليه المرأة

ويصف ما كمايكل البقارة فى مظهرهم الخارجى ، بأنهم سمر البشرة ، يمتازون بخفة الجسم والنحول . ولهم تقاطيع واضحة جميلة ، وعيون براقة ، والشعر قليل على الوجه ، ولذلك تكون لهم لحى خفيفة مدببة ممتدة إلى الأمام ، وشارب يمشطونه باعتناء زائد . والشبان يسرحون شعرهم إلى الخلف ، فى صورة ضفائر أو جدائل ، أما الكهول فلا يتمسكون بهذه العادة .

ويحمل الرجال رمحاً طويلا ، له سنان عريض . وتتحلى النساء بعقود من الكارم الغليظ الحبات ، ويضعن على الجبهة حلية من الفضة . والنساء تمشط شعرها بعكس الرجال ، من الخلف إلى الأمام ، وتجمعه فى مقدمة الرأس . ويلبسن حلقاً فى الأذن وفى الأنف أحياناً . ومظاهر الحشمة تختلف ، لأن طبيعة المناخ تجعل التحجب الكثير أمراً صعباً . وعلى الرغم من أن المرأة لا تتجاوز حدود الحشمة فى سلوكها ، فإن المظاهر فيها شىء كثير من الحرية ، التى لا نراها على شواطئ النيل ، وبين القبائل الجعلية عامة . وكثيراً ما ترى الفتيات وهن لا يلبسن سوى الرّهـط ، من القماش أو الجلد ، معلقاً من الخصر ، والصدور والأرجل عارية .

ويمتد إقليم البقارة من ناحية الغرب إلى جوار بحيرة تشاد ، أى إلى إقليم واداى وبرنو ، وفى هذه الجهات الغربية تظهر فى السكان صفات تذكرنا بالفلاّتا ، الذين تسربت بعض دمائهم إلى الدماء العربية ، كما أن الحدود الجنوبية للبقارة تتاخم الأقاليم الزنجية ، حيث يعيش الفرتيت والدنكا . وقد اتخذ العرب منهم رقيقاً : وإلى الشمال فى دارفور حيث سلطنة دارفور ، اتصل البقارة بسلالات من طراز آخر ، وهم الفور والجماعات المتصلة بهم .

ويعد البقارة أبرز قبائل السودان فى الصفات الحربية ، وأكثرها نزوعاً إلى الحرب ، بعد الشايقية . وهم كذلك صيادون مهرة ، وهذه النزعات الحربية ساعدتهم على تأسيس أوطانهم فى بلاد جديدة عليهم ، ومكنتهم من الدفاع عنها ، حتى وصلوا بالأقطار العربية إلى حوض بحر الغزال ، وإلى أبعد امتداد للقبائل القوقازية فى السودان ، نحو الجنوب .

ولكن هذا الاضطراب والنزعة العسكرية التى يسرت لهم التوسع نحو الجنوب ، قد ترتب عليها تصادم شديد مع سلطنة دارفور ، حيث الحكم المستقر والقوات العسكرية المنظمة ، مما أضعف شوكة البقارة فى دارفور ، عدا قبيلة الرزيقات .

وحياة البقارة تجعل هذا التصادم أمراً لا مفر منه ؛ لأنهم فى فصل الجفاف ، أواخر الشتاء ، يزحون بماشيتهم نحو الجنوب ، حيث يصيدون الفيلة ويسترقون الأفراد من الزنج ويخطفون ماشيتهم . وفى فصل المطر ، يذهبون نحو الشمال هرباً بقطعانهم من الذباب . إلى مراعى المرتفعات الشمالية ، وهرباً من المستنقعات المنتشرة فى الجنوب إلى الأرض الجافة فى الشمال ، أى إلى الأراضى التى يرى أصحاب السلطان فى سلطنة الفور أنها ملك لهم ، ولا بد للبقارة من أن يؤدوا ضريبة عن إقامتهم فى هذه الجهات زمن الأمطار .

ومن عادة الملوك فى السودان أن يأخذوا الجزية من الرعاة الذين لايستقرون فى مكان واحد زمناً طويلا ، بأن ينتهزوا فرصة التجائهم إلى إقليم قريب منهم ، فيحصلون الجزية فى ذلك الوقت . وبديهى أن البقارة لم يكونوا راغبين فى دفع هذه الجزية ، ولم يكونوا يؤدونها إلا تحت ضغط لا قبل لهم بمقاومته . فكان التصادم الذى لا مفر منه بين البقارة وسلطنة الفور ، وكان البقارة يحاولون جهدهم التهرب من دفع الجزية الكاملة . وأحياناً ينجحون فى ذلك ، وأحياناً يفضلون الابتعاد نحو الشرق أو الغرب ، تهرباً من سلطان دارفور .

والإقليم الذى يعيش فيه البقارة واسع جداً من الشرق إلى الغرب ، ولكنه محدود فى امتداده من الشمال إلى الجنوب ، (شكل ١٥) وهذا الاتساع العظيم من الشرق إلى الغرب من النيل الأبيض إلى بحيرة تشاد ، قد أفسح المجال للحركة والانتقال شرقاً وغرباً . دون التزام وطن واحد فترة طويلة من الزمن ، ولم تكن هذه الحركة تشمل قبيلة بأسرها ، بل أحياناً تكون مقصورة على شعبة أو بطن من البطون ، أو شُعَب وبطون لقبائل مختلفة ، فيتحد بعضها ثم ينفصل ثم تتحد أجزاء كانت من قبل منفصلة . مما أدى إلى تداخل القبائل بعضها فى بعض ، بحيث أصبحت القبائل الحديثة المعروفة اليوم لا تمثل وحدات ملتحمة ، لكل منها تاريخ

واحد ، أو كانت دائماً متماسكة كما نعرفها اليوم ، ولكن نظراً لأنها متشابهة بوجه عام فى تاريخها وصفاتها ، فإن هذا الاختلاط لا يغير من صفاتها ومميزاتها .

وقد تغيرت الحال بالنسبة إلى كردوفان فى عهد محمد على واسماعيل ، حيث تكونت القبائل بصفة مستقرة اللهم إلا ما عراها من الاضطراب فى عهد المهدية ثم عادت أمورها إلى الاستقرار بعد ذلك . أما الأحوال فى دارفور فظلت كما كانت عليه إلى سقوط سلطنة على دينار فى سنة ١٩١٦ .

ويقول ما كمايكل إن استبداد سلطان دارفور دفع كثيراً من قبائل القارة إلى الاحتماء بقبيلة قوية مثل الرزيقات ، ودفع غيرهم مثل بنى هلبه إلى المهاجرة إلى واداى ، ثم عادوا إلى السودان بعد زوال السلطنة المذكورة .

لهذه الأسباب يرى ما كمايكل أن البقارة على أحسن ما يكونون فى كردوفان . أما فى دارفور إذا استثنينا الرزيقات فقد ساءت حالهم وأصبحوا يميلون إلى حياة تمتاز بالاستقرار والركود(١) ، والتوزيع الحالى للبقارة هو كما يلى :

(ا) فى كردوفان : بنو سليم على النيل الأبيض ؛ حيث يجاورون الجمع فى الشمال والشلك فى الجنوب . ثم إلى غربهم أولاد حميد ، وفرع من الهبانية (ومعظمهم فى دارفور) ، وكلاهما يعيش إلى الجنوب من أم روابه وحول تقلى ، ثم الحوازمة بين الأبيض والدلنج وتالودى ، ثم المسيرية جنوب أبو زيد (غربى دلنج) وأخيراً الحُمـْر فى الركن الجنوبى الغربى من كردوفان شمال بحر العرب ، وإلى الجنوب الغربى من المسيرية ،

(ب) فى دارفور .

١ — الرزيقات .

٢ — الهبانية (٢) .

٣ — التعايشة

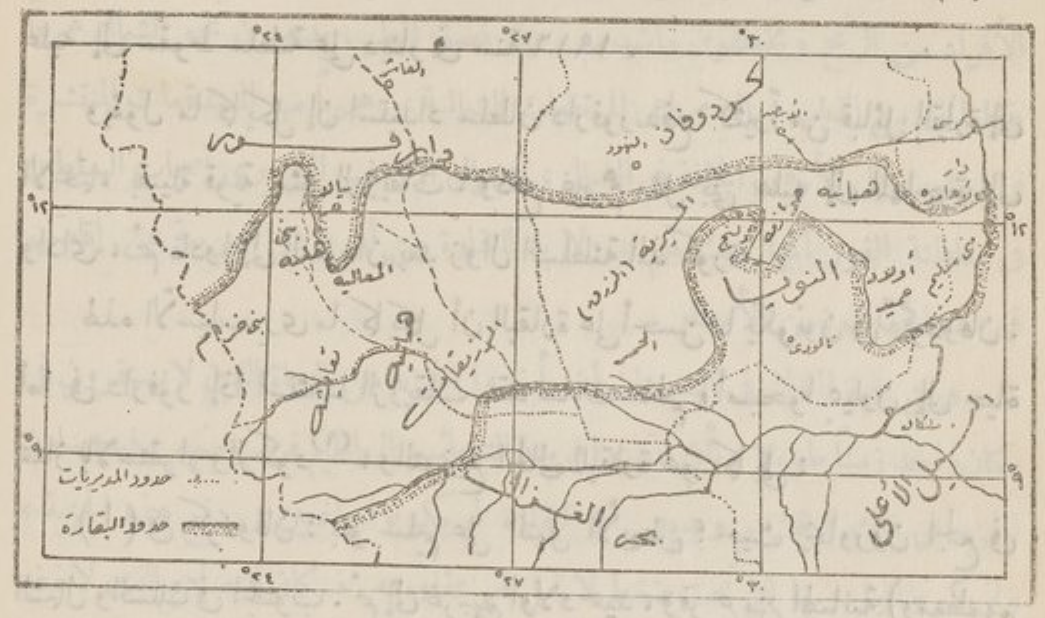
٤ — بنى هلبه وبنى خزام (٢) .

وهم على هذا الترتيب تقريباً من الشرق إلى الغرب . وهنالك بعض المسيرية

(١) راجع كتابة العرب فى السودان الجزء الأول ص ٢٧٣ .

(٢) يكتب التونسى الحبانية وبنى حلبة بالحاء ، غير أن الاسم الشائع فى السودان هو بالهاء

إلى الشمال قليلا من الرزيقات ، وبعض الثعالبة ، وغيرهم على حدود دارفور ووادای هـذا بقطع النظر عن الموجودين فى وادای (بعض بنى هلبه ومعظم بنى خزام) وغيرهم فى برنو وباقرمى . هذه المجموعات فى كردوفان ودارفور هى التى يطلق عليها اسم «البقارة» حسب الاصطلاح المقرر. ومما يدل على أنهم لا يختلفون فى الأصل عن أقاربهم فى الشمال أن بعض القبائل إلى اليوم يعيش جزء منها فى شمال دارفور



(شكل ١٥)

حيث يرعى الإبل والجزء الآخر فى الجنوب حيث يرعى البقر ، فبعض البطون من الرزيقات لا يزال فى شمال دارفور يرعى الإبل منقطعا تماما عن الرزيقات فى الجنوب .

وبديهى فى مثل هـذه الحالة أن القبائل التى ظلت فى الشمال احتفظت بأصولها ودمائها العربية ؛ ولذلك كان لونهـا أقل سمرة من الشعب الجنوبية التى اتخذت من الفلاتا أو من الزنج زوجات وإماء وا كتسبت بعض الصفات الزنجية .

***

وهنا يبدو لنا أن نتساءل كيف وصلت هـذه القبائل العربية القحطانية إلى أوطانها الحالية ؛ إن ماكما يكل بحث هذا الموضوع وعرض لوجهات النظر المختلفة وسنعرض هنا خلاصة لبحثه هذا وإن خالفناه فى بعض التفاصيل لأسباب أغفلها

ولم يذكرها[1] ، وقد سبقت لنا معالجة هـذا الموضوع من ناحية قبائل جهينة عامة ، وننظر إليه الآن من ناحية البقارة بوجه خاص .

يتساءل الكاتب هل جاء البقارة بطريق النيل إلى أوطانهم الحالية ، أى أنهم جاءوا من الشرق والشمال الشرقى ، أم جاءوا من الشمال والشمال الغربى ، أى من بلاد المغرب ، ثم نزلوا برنو واداى ؛ ثم تحركوا شرقاً إلى أوطانهم .

يقول ماكايكل : إن انتساب البقارة إلى عبد الله الجهنى ، وقولهم أنهم وقبائل فزارة أبناء عم ، كل هذا مما يدعو إلى الظن بأنهم جاءوا من الإقليم النهرى ، أى عن طريق نهر النيل . ولكن من ناحية أخرى يجوز أن النسبة إلى عبد الله الجهنى جاءت مع بعض المهاجرين من الإقليم النهرى . وهنالك بعض البقارة يؤكدون أن أجدادهم جاءوا من تونس مباشرة (مثل الحمر والحوازمة)[2] أوفزان إلى الأقطار الواقعة إلى الغرب من دارفور ، وبعد أن أقاموا هناك بضعة أجيال ، أخذوا يهاجرون إلى دارفور و كردوفان .

وبعد أن يذكر ماكايكل هذين الرأيين يرجح جانب الرأى الأول (طريق النيل) فيقول إنه وإن كان مما لا شك فيه أن عدداً كبيراً من العرب قد هاجروا جنوباً من تونس والجزائر ومراكش إلى أواسط إفريقية ، فى القرون التى أعقبت الغزوات الهلالية لشمال إفريقية . ومع أن المرء لا بد له أن يسلم بأن انتشار قصة الاتصال بأبى زيد الهلالى عند البقارة ، لا تخلو من مغزى . فإننا من جهة أخرى لدينا شهادة ابن خلدون التى لا شك فيها ، بأنه فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، احتشدت بطون من جهينة فى بلاد النوبة ، ثم اندفعت إلى الأقطار التى تليها نحو الجنوب متتبعين الأمطار .

وآراء الخبراء المحدثين تميل بقوة إلى أن البقارة جاءوا من الشرق ؛ ثم يستشهد بأقوال بارت الرحالة الفرنسى عن قبائل الشاوية ، أى البقارة الذين يعيشون فى برنو وباقرمى وحول بحيرة تشاد . ويرى أنه ليس هنا لك أدنى شك فى أن هـذه

---

(١) نفس المرجع ٢٧٥

(٢) راجع ماكايكل قبائل كردوفان الشمالية والوسطى ص ١٤٦ ، ١٥١ .

القبائل هاجرت من الشرق ؛ وأنهم انتقلوا بالتدريج عبر البلاد الزنجية . ولهجتهم بعيدة كل البعد عن لهجة المغاربة ؛ وتحتفظ من وجوه عديدة بفصاحة وسلامة لغة الحجاز . وهؤلاء الشاوية ينتمون إلى عدة عشائر وبطون ، ويبلغ عددهم فى إقليم تشاد ٢٠٠ — ٢٥٠ ألفاً . ويشهد بارت على أن عرب برنو أتوا من السودان ببعض العادات الشائعة عندهم فى السودان ، مثل الدية والختان الفرعونى .

ثم يتمثل ما كمايكل بقول سائح فرنسى آخر (كاربو Carbou) : وهذا المؤلف يقسم العرب فى إقليم برنو إلى قسمين ، أولهما الذين جاءوا من الشمال ، والثانى العرب الذين جاءوا من الشرق (ويسميهم جهنية) ، ويقول إن العرب يطلقون على السكان الأصليين اسم نوبا مما يدل على أنهم أقاموا فترة من الزمن فى السودان . كذلك لاحظ هو أن بعض العرب يطلقون على قبائل كانم اسم « همج » وهى أيضاً تسمية تعودوها فى الشرق .

يرى ما كمايكل أن هذه الأقوال وأمثالها دليل قاطع على أن الكثرة العظمى من بنى جهينة قد جاءوا من « الشرق » متتبعين النهر ، دون أن يذكر لنا على وجه التحديد ماهذا الطريق الشرقى ، وهل ابتدأ متتبعاً نهر النيل من الشمال ثم انفصل عنه متجهاً إلى الغرب ، وفى أى مكان أو إقليم بالتقريب حدث هذا الانفصال ؛ ولكن الظاهر أنه يرى أنهم هاجروا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وأنهم اجتازوا بلاد النوبة ثم اندفعوا جنوباً من بلاد النوبة إلى شمال كردوفان . ثم اندفعو من هناك مباشرة إلى بَرْنو . كل هذا وهم لا يزالون رعاة إبل ، ولا يعرف تماماً متى نزحت طائفة منهم نحو الجنوب وأصبحوا بقارة .

ويرى ما كمايكل فوق ذلك أن الجعليين (مثل الجوامعة) قد سبقوا البقارة إلى كردوفان الشرقية فى إقليم الرهد وبروكى ، وأن البقارة إنما بدأوا حياتهم كرعاة بقر فى غرب كردوفان ، وبعد ذلك انتشروا نحو الشرق من جهة ، ونحو دارفور من جهة أخرى .

وخلاصة الرأى الذى ذهب إليه ما كمايكل هو :

أولا : أن الكثرة العظمى من البقارة قد وصلوا إلى أوطانهم الحالية فى

السودان ووادای وبرنو ، من إقليم نهر النيل (وهو يقصد النيل النوبى بدليل اعتماده على رواية ابن خلدون) .

ثانياً : أن قليلا من العرب المغاربة أو البربر المستعربين هاجروا فعلا من فزان وتونس واختلطوا بالقبائل الجهنية .

ثالثاً : أن الروايات التى تصلهم بالهلالية لا تدل إلا على أن فريقاً منهم جاء فعلا من تونس على أثر الغزو الهلالى .

رابعاً : أن شهادة السائحين الفرنسيين بسلامة لغة البقارة فى برنو مما يدل على أنهم جاءوا من الشرق .

وقد سبق لنا أن لاحظنا أن هذا المؤلف ، عند كلامه عن قبائل جهينة عامة ، يذهب إلى أنهم جميعاً جاءوا عن طريق السودان الشرق ، ولكنه عند ما أخذ يعالج موضوع البقارة ، اتجه وجهة أخرى تثبت أن لهم هجراتهم المستقلة عن هجرات أبناء عمهم فى شرق السودان .

ولا شك أن هذه الوجهة هى الصحيحة ، فى جملتها ، ولكن يبدو لنا أنها تفتقر إلى بعض التعديل فى التفاصيل ، وذلك أن ماكمايكل — اعتماداً على ما كتبه ابن خلدون — يرجع جميع الهجرات الجهنية إلى القبائل التى نزلت ببلاد النوبة وأقامت بها فترة من الزمن ثم ارتحلت عنها سعياً وراء العشب والمطر . وهذا الرأى مع التسليم بصحته يشمل فى الغالب جماعات محدودة من جهينة أخصها الكبابيش ، أما سائر القبائل ، فإنها لم تقم على شواطئ النيل النوبى ، بل هاجرت على طول الصحراء الليبية إلى دارفور وكردوفان مباشرة .

والسبب الذى يدعونا إلى ترجيح هذا الرأى مسألة لم يشر إليها المؤلف المذكور ، وقد تكون لها دلالتها ، وهى أن قبائل البقارة وبطونها المختلفة تمتاز عن معظم قبائل السودان ، بأن أسماء القبائل والبطون لا تنتهى بالمقطع المعروف آب إلا نادراً ومثل هذا الأمر ينطبق أيضاً بوجه عام على قبائل بنى فزارة ، بينما هو لا ينطبق على الكبابيش إلا بمقدار ، ولا ينطبق على الرفاعة أو الشكرية أو غيرهم من القبائل الجهنية الشرقية .

فمن المألوف الشائع أن جميع القبائل النيلية والشرقية لها بطون كثيرة تنتهى أسماؤها بالمقطع آب ؛ أما البقارة وبنو فزارة ، بل وجميع الجهنيين الغربيين يسمون بطونهم أولاد كذا ؛ مثل أولاد حمد بدلا من حمداب وأولاد مليك بدلا من مليكاب وأولاد نايل بدلا من نايلاب ، وقبيلة الحمر (رعاة الإبل) وهم أيضاً من جهينة يسمون بطونهم أحيانا ناس كذا وأحيانا أولاد كذا .

ويبدو لنا أن اختلافا كهذا لا يجىء عن محض الصدفة ، خصوصاً أن هذه الظاهرة لا تنطبق على الكواهلة فى كردوفان الذين كانت لهم أوطان فى شرق السودان ، بل تبدو فقط فى القبائل الجهنية فى كردوفان ودارفور .

وإلحاق مقطع آب فى آخر الاسم يرجع إلى مؤثرات لغوية (لعلها حامية) قديمة . وأثرها واضح فى إقليم النيل الأبيض والأزرق والنيل الأعظم ، والجهات المجاورة للنهر ؛ ويمتد هذا التأثير شرقاً إلى البحر الأحمر ، ويبدو بوضوح فى قبائل البجة . وهو مؤثر ثقافى . وليس مؤثراً جنسياً ، ويبدو أن الثقافة الحامية كانت أقوى ما تكون فى الأقاليم النهرية وفى شرق السودان ، وتأخذ فى الضعف كلما ابتعدنا عن النهر نحو الغرب .

فاذا شذت قبائل البقارة وأقاربهم من رعاة الإبل ، وقبائل فزارة ونصف الكبابيش عن الظاهرة السائدة فى الجهات الأخرى من السودان . فلا بد أن يكون سبب ذلك قلة تعرضهم للمؤثرات التى غلبت على تلك الأقطار ، ولم يقيموا فى الجهات النيلية فترة من الزمن ، بل الأرجح أنهم سلكوا طرقا للهجرة ابتعدت بهم عن الجهات النيلية . وهذه هى الطرق التى فضلنا أن نسميها الطرق الليبية ، والتى منها طريق الأربعين ، أو ما يشابهه من الطرق التى تفضى من مصر إلى دارفور و كردوفان مباشرة .

وقد لاحظنا أن الكبابيش هم القبيلة الجهنية الوحيدة ، التى نجد فيها تلك المؤثرات التى تبدو فى أسماء بعض بطونها . وموقعها الجغرافى فى شمال كردوفان وقربها من بلاد النوبة وصحراء بيوضه أى الجهات التى تأثرت بالثقافة الحامية ، يجعلها

بمثابة الشذوذ الذى يثبت القاعدة العامة . ولعلها تتألف من تلك البطون الجهنية ، التى أشار إليها ابن خلدون والتى عاشت فترة من الزمن فى بلاد النوبة .

وهكذا يبدو أن الاحتمالين الذين وازن بينهما ما كمايكل ؛ وهما الطريق النيلى النوبى وطريق فزان وتونس ليسا الاحتمالين الوحيدين ، بل هنالك طريق وسط بينهما ، وهو الطريق الشمالى الغربى للسودان . أى الجهات الشمالية لكردوفان ودارفور . وهو عدا ذلك الطريق الذى تذكره معظم القبائل فى رواياتها وأخبارها .

وهذا الطريق الليبى على الأرجح يمتد من غربى الدلتا فى مصر . منتشرا نحو الجنوب . ولذلك نرى الأستاذ سلجمان يجد صلة بين بعض القبائل فى غربى مصر وبين كثير من القبائل الجهنية فى السودان الغربى [١] .

وسنورد فيما يلى فصولا موجزة عن القبائل الجهنية الرئيسية فى كل من كردوفان ودارفور .

البقارة فى كردوفان

١ — بنى سليم : يعيشون على النيل جنوب الأحامد والجمع ، وقد سبقت الإشارة إليهم عند الكلام على الجمع وأنه كانت بينهم مصاهرات . وبنو سليم تمتد أوطانهم إلى كاكا أى إلى حدود الشلك ، ولا شك أنهم انتزعوا من هؤلاء جزءا من أوطانهم الشمالية وأزاحوهم عنها . وهم يرعون البقر ، ولكنهم أكثروا فى الزمن الأخير من تربية الضأن لأنها أقل تعرضا للأمراض ، وهم البقارة الوحيدون على النيل الأبيض وهجرتهم إليه حديثة ، ولهم فضل نشر الثقافة العربية غرب النيل الأبيض إلى مدى أبعد مما بلغته شرقى ذلك النهر .

٢ — أولاد حميد : يعيشون شمال تقلى Taqali وجنوب أم رابه أى أول أقاليم كردوفان من الشرق .

وينتسبون مثل كثير من البقارة إلى جد يدعى جنيد : وأنسابهم تدل على أن بينهم وبين الهبانية والتعايشة قرابة . وإن كانت مواطن التعايشة بعيدة نحو

---

(١) راجع كتابه Races of Africa لندن سنة ١٩٣٩ ص ٢٣٤ .

الغرب من دارفور . وبفضل مقامهم فى هذا الإقليم المتاخم للنوبا كان لهم بعض التأثير فى نشر الثقافة العربية فى النوبا الشماليين ، كما أنهم بلا شك قد تسرب إليهم بعض دمائهم .

كذلك يلاحظ أن مواطنهم لقربها من الإقليم النهرى الذى تسوده القبائل الجعلية ، قد ساعد على المصاهرات بينهم وبين الجعليين .

٣ — الهبانية : يعيشون إلى الجنوب من بلدة الرهد ، وهم هنا يمثلون فرعا من الدوحة التى تعيش فى دارفور، وسواء فى كردوفان أو دارفور فهم أكثر ميلا إلى الاستقرار من غيرهم من البقارة والشعبة التى تعيش فى كردوفان هاجرت إلى إلى أوطانها الجديدة منذ نحو قرن مضى . ولذلك نشأت بينهم وبين جيرانهم مثل الجوامعة فى الشمال ، والجمع وأولاد حميد فى الشرق والجنوب عداوات . ويقال إن عدد القبيلة كلها كان يقرب من ٨٠٠٠ ؛ وكانت الضرائب المقررة على شعبة كردوفان ٢١٥ ج م ، وفى دارفور ٢٦٤٠ ج م ، ولكن هذه النسبة تغيرت بعد ذلك وازداد عدد القسم الكردوفانى منهم بحيث أصبح لايقل كثيرا عن شعبة دارفور .

وأوطانهم فى دارفور واقعة بين أوطان الرزيقات فى الشرق والتعايشة فى الغرب ، والمساليط فى الشمال والدنكا فى الجنوب . ونظرا لقربها من بلاد الدنكا فى الجنوب ، حيث التربة السوداء القليلة المسام نرى أوطانهم تكثر فيها المستنقعات فى موسم المطر ويتعرضون لإغارة الذباب وهم مغرمون بالصيد ، وبصيد الفيلة بوجه خاص .

وينقسم الهبانية إلى قسمين كبيرين : الطارة والسوط ، وكلا هذين الاسمين عبارة عن ضرب من الوسم الذى توسم به الإبل ، ولا يزال هنالك رعاة إبل فى كردوفان الشمالية : يستخدمون الطاره وتوضع على صفحة العنق والسوط فى صورة خط مستقيم على الفخذ من آخر العمود الفقرى إلى أسفل .

لا شك أن هذه التسمية ترجع إلى الوقت الذى كان فيه الهبانية جميعا رعاة إبل فى شمال كردوفان ، والظاهر أن انقسامهم إلى شعبتين الطاره والسوط ، يرجع إلى زمن متقدم .

وكل من الشعبتين ينقسم إلى عدة أقسام ، وهذه الأقسام تتكرر بين الهبانية سواء أكانت أوطانهم كردوفان أو دارفور .

٤ — الحوازمة : كلهم فى كردوفان (والمفرد حزمى) : قبيلة كبيرة العدد يبلغ أفرادها زهاء العشرين ألفاً . أوطانهم تمتد إلى الشرق من دلنج فى اتجاه شمال شرقى إلى جنوبى غربى إلى القرب من كادجلى ، أى أنهم أيضا يتوغلون فى بلاد النوبا . ولا شك أنهم امتصوا كثيرا من النوبا حتى أن شعبة منهم تسمى أولاد نوبا. ويرى ما كمايكل أن الحوازمة قد استقلوا كقبيلة منفصلة منذ نحو ٢٥٠ — ٣٠٠ سنة :

٥ — المسيرية والحمر : كانوا إلى وقت قريب نسبياً قبيلة واحدة ، وكان لها قسمان المسيرية الزرق ، والمسيرية الحمر ، وهذه كانت حالهم إلى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى كثر الحمر فانفصلوا وأصبحوا قبيلة واحدة ؛ ولا تزال أوطانهم متجاورة ، فالحمر فى الجنوب الغربى من كردوفان حيث يتصلون ببلاد الدنكا ، والمسيرية إلى الشمال الشرقى منهم . ومواطن الحمر ذات تربة صلصالية سوداء فى الجنوب ، وتربة خفيفة فى الأراضى المرتفعة إلى الشمال ، وانتقالهم فى الصيف إلى الشمال ، وإلى الجنوب فى الشتاء يساعدهم على الانتفاع بجميع المراعى ، وتجنب غوائل الذباب فى موسم المطر . ولا تكاد أوطانهم فى الشمال تتجاوز بلدة مجلد على العرض الحادى عشر .

أما المسيرية — (أو الزرق) فواطنهم إلى الشمال الشرقى من أوطان الحمر ؛ وتمتد إلى العرض الثالث عشر . وهم قبيلة عظيمة معظمها فى كردوفان ، ولكن نسبة صغيرة منهم تعيش فى دارفور . ويختط بلادهم خور عظيم يدعى وادى الغلة ، مجراه من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، ولعله يصب فى بحر العرب أو أحد روافده ، وقد كان لهم فيما مضى شأن كبير فى دارفور ووادای . ولكن المنازعات التى ثارت بينهم وبين السلطان قد نقصت من شأنهم فى تلك الجهات ، ومع ذلك لا يزال عدد منهم لا بأس به فى وادای ، وهم رعاة إبل . أما فى دارفور فإن الباقين منهم هناك يعيشون إلى الشرق من جبل مرة ، ويرعون البقر ، ولهم بعض الزراعة ، مما يجعلهم أقرب إلى الاستقرار .

ومن القبائل التى تعد فرعاً مستقلا ، ولكن شديد القرابة بالمسيرية قبيلة تدعى الثعالبة . ومعظمهم فى دارفور يعيشون إلى جوار المسيرية هناك .

البقارة فى دارفور

١ — الرزيقات :

إذا اخترقنا حدود كردوفان الجنوبية (دار الحُمُر) إلى دارفور ، دخلنا بلاد الرزيقات ، وكلهم فى دارفور وهم أكثر قبائل دارفور ثروة وأقواهم نفوذاً . وأوطانهم واقعة فى أقصى الجنوب الشرقى من دارفور ، ما بين الحمر شرقاً ، والهبانية غرباً ، والدنكا جنوباً .. وإلى الشمال مساحة قليلة السكان ، تكثر فيها المستنقعات بعد الأمطار ، ويشتد جفافها فى وقت امتناع المطر . ولهذه الأسباب الطبيعية من جهة ، ولنزعتهم الحربية ، ووفرة خيلهم من جهة أخرى . أمكن للرزيقات أن يعيشوا بمأمن من استبداد سلاطنة دارفور . ولكنهم اضطروا تفادياً للاصطدام مع على دينار وأمثاله أن يلتزموا أوطانهم فى الجنوب فى القرن الماضى ، بدلا من التوغل فى أواسط دارفور كما كانوا يفعلون فى أوائل القرن التاسع عشر .

وعلاوة على تربية الماشية ، وهى كثيرة ، لهم زراعة منتظمة بفضل الظروف المناخية الملائمة . وفى الجفاف ينزحون إلى شواطىء بحر العرب ، وهم أكثر قبائل البقارة اتصالا بالدنكا والإغارة عليهم فيما مضى ، مما أدى إلى اختطاف كثير من الإماء ، واتخاذ زوجات منهم ، وذلك أثر فى سحنهم وألوانهم بعض التأثير .

ولشدة بأسهم وسعة احتيالهم ونجاحهم فى تحدى سلطان دارفور ، كان كثير من القبائل يحتمون بهم ، مثل الهبانية ، وبنى هلبة وخزام .

وينقسم الرزيقات إلى ثلاثة أقسام : وهم الماهرية ، والمحامد ، والنوايبة . وهنالك ثلاثة قبائل بهذه الأسماء فى شمال دارفور ، وكلها رعاة إبل ، وبعضها يعيش على حدود واداى . وهذا مما يحمل على الظن بأن شعبة من كل من هذه القبائل الثلاثة قد هاجرت إلى الجنوب وعاشت فى أوطان متجاورة ، ثم اتحدت فكونت قبيلة الرزيقات ؛ التى أصبحت أعظم وأشهر قبائل البقارة .

٢ — الهبانية :

معظمهم كما ذكرنا فى دارفور ، ولكن سبق الكلام عليهم جميعاً عند الكلام على شعبة كردوفان .

٣ — التعايشة :

إلى الغرب من الهبانية ، نجد التعايشة ، وهم أقرب البقارة نسباً إلى الهبانية . كما تتجاور منازلهم . وأوطانهم فى الركن الجنوبى الغربى من دارفور ، تجعلهم من أبعد القبائل العربية نحو الغرب ، وليس بينهم وبين الحدود الغربية للسودان سكان أو جماعة عربية أخرى بصفة دائمة ، فأوطانهم واقعة بين ديار الهبانية شرقاً ، وحدود السودان الفرنسى غرباً ، ودار فرتيت جنوباً ، وبنى هلبة شمالا ، ولا شك أنهم فيما مضى قد توغلوا من قبل فى بحر الغزال ، ونشروا الثقافة العربية فيه .

والإقليم الذى يعيشون فيه اليوم قليل السكان ؛ ومكانهم النائى جدير أن يبعدهم عن الأحداث الهامة فى السودان ، لولا أن الخليفة عبد الله التعايشى كان منهم ؛ فارتفع شأنهم بتوليه منصب الزعامة . وقد جلب منهم آلافا (يقدرهم سلاطين بنحو ٢٤,٠٠٠ محارب بنسائهم وأطفالهم ، ولعله يقصد أن هذا عددهم جميعا ، وليس عدد المحاربين وحدهم) إلى أم درمان ليكونوا له سنداً وعضداً ، وقد كانت لهم السيطرة على بعض الجهات الهامة ، مثل دنقلة ، فى عهد الخليفة عبد الله . وبعد انتهاء عهده ، عاد كثير منهم إلى ديارهم ؛ ولكن بقيت أعداد صغيرة منهم فى مديرية كسلا وسنار وعلى النيل الأبيض . وفى كثير من المدن الرئيسية .

والظاهر أن اسم التعايشة (المفرد تعايشى) نسبة إلى جد يدعى أحمد تعايش ، أحد أحفاد حميد ، الذى ينتسب إليه فى النهاية كل من أولاد حميد والهبانية والتعايشة . والظاهر أن حميداً هذا كان يعيش فى أوائل القرن الثامن عشر .

والتعايشة ، مثل الهبانية ، ينقسمون إلى قسمين : وهما القلادة ، والعِرق ، وكلاهما اسم لوَسْم تُوسم به الإبل ، كما أن الهبانية ينقسمون إلى السوط والطارة . وبديهى فى كلا الحالين أن هذه التسمية تثبت أن القبيلة فى مواطنها فى الشمال كانت ترعى الإبل ، واحتفظت بمميزاتها حتى بعد أن تخلت عن حرفتها القديمة .

٤ — بنى هلبة :

ويجاورون التعايشة من جهة الشمال ، وكانت أوطانهم فيما مضى متاخمة لجبال مَرَّة ، ولبلاد الفور ، وذلك عرضهم لكثير من المشقات ، إذ كان يطلب منهم دفع إتاوات ضخمة لسلاطين الفور . . . وكذلك لم تتحسن حالهم كثيراً فى عهد المهدية . وهم الآن قبيلة ضعيفة ، ولها فروع فيما وراء الحدود الفرنسية السودانية .

وهنالك قبائل صغيرة ، من البقارة ، أو أجزاء من قبائل ، معظمها فى وادای وراء حدود السودان ، وقد ضربنا صفحاً عن ذكرها لقلة خطرها عن جهة ، ولأن معظمها يعيش خارج حدود السودان ، وإن كانت بينهم وبين البقارة صلات نسب .

وصفوة القول أن القبائل التى أطلق عليها اسم البقارة تعيش فيما بين خطى عرض ١١ و ١٣ ، وبعضها قد يمتد جنوب هذا الخط كثيراً ، مثل الحمر والرزيقات ، وقد رأينا أن اسم بقارة له معناه الجنسى الاثنوجرافى ، لأن هذه القبائل عربية جهنية ، انفصلت عن أخواتها من رعاة الإبل فى الشمال ، وأخذت تحترف رعى الماشية الثقيلة فى الجنوب . وقد شاهدنا أثناء عرضنا السريع أن هنالك أكثر من دليل يدل ، بما لا يدع مجالا للشك ، على أن هذه القبائل كانت فى مواطنها السابقة . وقبل نزوحها إلى الجنوب ترعى الإبل .

وننتقل الآن إلى الحديث عن القبائل الجهنية الشهيرة التى تحترف رعى الإبل .

الكبابيش

قبيلة من أعظم قبائل السودان وأشهرها ، وقد كان لها فى السودان الحديث شأن كبير . ولا شك أن الكبابيش أعظم القبائل الأبالة ، وأكثرها عدداً . وإبلها أكثر عدداً من الإبل لدى أية قبيلة أخرى . ولكن ليس معنى هذا أنها أكثر ثروة بالنسبة إلى كل فرد من أفرادها ، بل معناه فقط أنها أكثر القبائل إبلا ، وهذا العدد الكبير من الإبل يقابله أيضاً عدد كبير من الناس ، فالكواهلة مثلا فى المتوسط أغنى من الكبابيش بكثير ، وعلى الأخص

فى الإبل . وقد غلا سلجمان فى تقدير ثروة الكبابيش . فزعم أن الرجل الغنى منهم قد يدفع عن ابنه مهراً للزوجة قدره مائة ناقة ، وأن أفقر الناس لن يعطى أقل من خمس أو ست . ويقول ديفز الذى عاش أعواماً مع الكبابيش ، إن قليلا جداً منهم من يملك مائة ناقة (وقد لا يزيدون على عشرة أفراد) وإن كثيراً من بطون القبيلة ليس لها إبل مطلقاً . والرجل الذى يدفع مهراً لزوجة ابنه خمساً أو ستاً من النوق لا يعد فقيراً [1] .

وليست الإبل هى الثروة الوحيدة للكبابيش ، فإنهم يملكون من الضأن ستة أمثال عدد الإبل . ولعل الضأن أصل ثروتهم ، أو عمادها الأول فى وقت من الأوقات ، لذلك سموا الكبابيش ؛ ونظراً لأن مواطنهم تمتد جنوباً إلى تخوم البقارة فإن العشائر التى فى الجنوب لها بعض البقر أيضاً .

ومواطن الكبابيش محورها وادى الملك ، وكلها واقعة شمال خط عرض ١٤° . والحدود الجنوبية لبلادهم مقاربة لهذا الخط ، وليس لها فى الشمال حدود واضحة ، سوى الصحراء الليبية . ومن الناحية الغربية يقترب الكبابيش فى تجوالهم من حدود دارفور ، وفى الشرق قد يسقون إبلهم من وادى المقدم فى وقت الجفاف (الشتاء) . وقد يصل عدد منهم إلى النيل فى إقليم دنقله ، وبعض هؤلاء قد يستقرون ويحترفون الزراعة . وأوطانهم فى الجنوب تمثل نجاداً متوسطة الارتفاع تتخللها تلال صخرية بارزة مثل جبل أم بدر وجبل كاتول . وهذه الجهات الجنوبية أكثر مطراً ، ويتخللها بعض الخيران ؛ وهنا أيضاً يمارس البعض الزراعة ، ولكن القائمين بها هم بعض الأتباع والخدم . أو الأشخاص الذين لا يملكون إلا القليل من الضأن والماعز ، لأن الكبّاشى حرفته الرعى قبل كل شىء .

وبلاد الكبابيش ملائمة كل الملاءمة لرعى الإبل والضأن . ويرى ما كمايكل أنها تشبه من وجوه عديدة بلاد نجد فى جزيرة العرب . بحسب ما يطالع الإنسان

---

(١) فقد الكبابيش كثيراً من ثروتهم فى عهد المهدية . وبعد هزيمة على دينار فى سنة ١٩١٦ ساعدتهم إدارة السودان بأن باعتهم مقداراً ضخما من إبل ذلك السلطان بثمن اسمى ، نظير خدماتهم وإخلاصهم .

فى وصفها . واتساع رقعتها ، وتعدد آبارها وأوديتها جعل من الممكن للقبيلة أن تنمو ويزداد عددها ، وأن تمتص عناصر عديدة اندمجت فيها على مضى الزمن . وفى الوقت الحاضر يمتاز الكبابيش بالوحدة الاجتماعية ، أى أنهم يؤلفون مجموعة واحدة منظمة تنظيما اجتماعياً . ولهم رئيس أعلى (يسمى الآن ناظراً) . ويخضع له الأفراد ورؤساء الأقسام والبطون والعشائر . ووحدتها الاجتماعية (أو السياسية) هى التى تبرر أن نطلق عليها اسم قبيلة ، ولكن جميع الشواهد تدل على أن هذه القبيلة العظيمة تتألف فى الواقع من عدة قبائل اندمجت على مضى القرون والحدت . ومن الجائز أن هذا الاندماج قد حدث نتيجة لتفوق بعض القبائل فى الثروة والعدد ، فاستطاعت واسطة الغزو أو المصاهرة أن توحد الأجزاء وتجعلها كلاً متحداً مندمجاً . ولكن لا بد من التسليم أيضاً بأن طبيعة الإقليم والحياة الاجتماعية والاقتصادية ، تدعو إلى مثل هذا الاندماج . وتدعو إلى تكوين وحدة قبلية كبيرة بدلا من عدة وحدات صغيرة ، يجد كل منها مشقة فى تدبير المراعى والسقاية لقطعانه . ناهيك أن تنازع البقاء فى مثل هذه الأراضى سيؤدى حتما إلى اندماج الوحدات الصغيرة فى الكبيرة .

ومن أكبر الأدلة على أن الكبابيش يتألفون من عدة قبائل اندمج بعضها فى بعض أنه ليس لها وسم واحد لإبلها . بل لكل من أقسامها الستة والعشرين وسم خاص به . ونحن نعلم أن البدو لهم تقاليد يحافظون عليها أشد المحافظة فى وسم إبلهم . ولذلك كان اختلاف الوسوم دليلا على اختلاف نشأة كل قبيلة . وعلى أن الأقسام المختلفة تمثل قبائل أو وحدات مستقلة اتصلت واندمجت .

ولا شك أن هذه الأقسام لا تمثل كلها هجرات عربية خالصة ، بل تشتمل على وحدات قديمة ، قد يكون منها البجه أو النوبة . ولكن الكثرة العظمى من الكبابيش ينتمون إلى بطون عربية من جهينة . واسم الكبابيش (مفردها كباشى) يزعمون أنه يرجع إلى جد — هو فى الغالب خرافى — يدعى كباش ، وإذا لم يكن هذا الجد خرافيا فلعل كباشا كان لقبه الذى لقب به لعنايته برعى الضأن أو لاشتهاره بامتلاك عدد كبير منها ، وفى كلا الحالين لا بد أن يكون الاسم مشتقا من رعى

الكباش أو الضأن ، كما تسمى بعض القبائل العربية بالمعازة أو العنازة ، أو الشويهات (نسبة إلى شاه) .

وقد تدفقت القبائل العربية الجهنية إلى هذا الإقليم فى أزمان يصعب تحديدها ، ولكن كثيرا منها تدفق فى القرن الرابع عشر بعد أن خضعت بلاد النوبة للإسلام والنفوذ الإسلامى .

ولا شك أن البلاد لم تكن خالية من السكان بل كان فيها عناصر قديمة هى التى يطلق عليها الأهالى هنا كما فى جهات أخرى من السودان اسم العنج .

والعنج من الأسماء القليلة فى تاريخ السودان التى لا نكاد نعرف لها مسمى : وإنما وصل إلينا هذا الاسم نتيجة لسؤال السكان — وهم عادة من العرب — عمن كان قبلهم فى البلاد . وممن ورثوا الحكم فيها ، فيكون ردهم بأنهم قد استولوا على البلاد من العنج ، وليس هذا الأمر مقصورا على ديار الكبابيش ، بل يتجاوزها إلى الأقطار النيلية بل وفى أرض الجزيرة وسهل البطانة أحياناً .

والظاهر أن لفظ العنج ليس كلمة معناها « السكان الأصليون » ، بل كلمة تدل فعلا على جماعة أو شعب من الشعوب . وقد ورد ذكرها فى أواخر القرن الثالث عشر للدلالة على إقليم أو جماعة تسكن الإقليم ، وذلك بالنسبة لوفود زارت مصر فى ذلك الحين ، وشكت إلى حكامها ما يعانونه من ملك دنقله .

كذلك يشير السكان إلى كثير من الآثار على أنها من مخلفات العنج .. وهذا التواتر من جهات متعددة يحمل على الظن ، بل على اليقين ، أن أمر العنج ليس حديث خرافة أو أسطورة ، وحتى ليس لفظاً مقتبساً من لغة من اللغات بمعنى السكان الأصليين . بل لا بد أنه كان يطلق على شعب قديم ، خضع بالتدريج للنفوذ المفروض بواسطة المهاجرين المتأخرين نسبياً ، واندمج العنج على مضى الزمن تماماً فى العرب .

ولا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فندعى أن العنج كانوا عنصراً من النوبا ، سكان الجبال فى جنوب كردوفان كما يزعم البعض ، أو أنهم أشبه بالتبو سكان تبستى . أو حتى أنهم من النوبة يشبهون النوبيين النهريين . على الرغم من أن النوبيين

كانت لهم هجرات إلى كردوفان ، بل أقرب إلى العقل أنهم جماعات قديمة ، وعلى الأرجح قوقازية .

وحسبنا هنا أن نشير إلى أن الكبابيش قد امتصوا عناصر من هؤلاء العنج ، ولعل هذا لم يكن العنصر الوحيد الذى امتصوه . والأرجح أنه قد دخل فى تكوينهم أيضاً عناصر من البجه ومن النوبه . ولكن هذا لاينفى أن الكثرة العظمى من الكبابيش من عناصر عربية جهنية فى جملتها . ولعل نسبة الجماعات غير العربية لا تتجاوز ٣٠ ٪ ، وفى أسماء القبائل والبطون نحو الثلث ذات صبغة حامية ، مما يدل على اندماج عناصر لا تتجاوز الثلث فى العناصر العربية ، ولذلك يصدق ما قاله ما كما يكل بأن ما فى الكبابيش من الدماء العربية الخالصة لا يقل عما لسائر القبائل السودانية .

وهكذا نرى أن الكبابيش ، وان حسبوا اليوم قبيلة واحدة ، فإنهم قبيلة تكونت من اندماج عدد كبير من القبائل قد يتجاوز العشرين عدداً . ومن الجائز أن البطون العربية نفسها لم تكن فى الأصل تنتمى إلى قبيلة واحدة .

***

والكبابيش كما ذكرنا من قبل رعاة إبل — فوق كل شىء — وعلى الرغم من اسمهم ومن وفرة الضأن عندهم ، فإن الإبل لها المقام الأسمى ، وهى المعيار الذى تقاس به الثروة والغنى والجاه ، والظاهر أيضاً أن الكبابيش عريقون فى حرفة رعى الإبل ، لأن لهم تقاليد تتصل مباشرة بما يجرى فى الجزيرة العربية ، وأشهر هذه التقاليد استخدامهم للعطفه والتنجه ، أو الهودج ، وهو عبارة عن أعواد من الخشب مثبتة على ظهر البعير ، ومغطاة بالأقمشة ، والجلود ، بحيث تستر الجزء الأكبر من الجمل ، وتصل الجلود المرخاة إلى قرب الأرض ، والكل محلى بالودع وبشرائط من الجلد وغير ذلك ، طبقاً لتقاليد مقررة متداولة . وفى هذا الهودج المفرد تجلس المرأة ، وفى الهودج المزدوج ، المؤلف من طبقتين ، تجلس الفتاة فى المقعد الأعلى ، وتابعتها فى المقعد الأسفل .

والظاهر أن الكبابيش هم القبيلة العربية الوحيدة فى السودان ، التى تقتنى

هذه المطفة ، والإبل لدى الكبابيش مشهورة بقوتها وشدة احتمالها ، ولكنها لا تمتاز بالسرعة كما هى الحال فى إبل البجه .

وفى النهاية لابد لنا أن نتساءل كيف وصل الكبابيش إلى أوطانهم الحالية ، وهنا يجدر بنا أن نذكر ما رواه بعض الرحالة المتقدمين من أن الكبابيش منتشرون شمالا إلى حدود مصر ، وكذلك نذكر أنهم عريقون فى البداوة ورعى الإبل ، وفى كلا الأمرين ما يدل على أنهم أو معظمهم لم يعرفوا الاستقرار طويلا ، وأن أكثرهم نزل أوطانه الحالية من طريق يحاذى وادى النيل من جهة الغرب ؛ ثم اتجهوا جنوباً حتى احتلوا أوطانهم الحالية . ولا يزال الكبابيش إلى اليوم يسلكون هذا الطريق ، حين يقصدون إلى مصر لبيع إبلهم فى أسواقها .

وقد قدر سلجمان عدد الكبابيش فى عام ١٩١٨ بعشرين ألفا ، ولكنهم فى الوقت الحاضر قد يزيدون على ضعف هذا العدد .

الحَمَر

الحمر قبيلة حديثة التكوين ، لا يرجع تكوينها إلى أبعد من منتصف القرن الثامن عشر (١) . وليس من السهل تحقيق نسبها على وجه الصحة وإن كان من الواضح أنها تتألف من عناصر مختلفة أكثرها ينتمى إلى جهينة ، والقبيله تتألف فى الوقت الحاضر — كما كانت تتألف من قبل — من ثلاث شعب ، وهى بترتيب أهميتها : العساكره (مفردها عسكرى) والدقاقيم (مفردها دقومى) والغريسية (مفردها غريسى) . وكانت الشعب الثلاثة إلى وقت قريب ، مستقلة بعضها عن بعض استقلالا يكاد يكون تاما ، ولكل منها ناظر على الرغم من أن جماعات منها قد تعيش فى قرية واحدة ، وكثيراً ما تلتقى فى موسم النشوق (أى الارتحال الصيفى فى طلب المرعى) ولكن برغم الوطن المشترك والتجاور المستمر والمنافع المتبادلة لم تندمج الأجزاء الثلاثة بعضها فى بعض اندماجا تاما . وقد أعيد تنظيم القبيلة حديثا (سنة ١٩٢٨)

---

(١) راجع كتيبا للاستاذ هندرسن . A Note on the History of the Hamar Tribe (الخرطوم سنة ١٩٣٥) ص ٥ .

بحيث أصبح إلى جانب النظار الثلاثة للشعب الثلاثة ، سلطة قبلية عليا تتمثل فى الشيخ الأكبر للقبيلة الذى يطلق عليه إسم ناظر عموم الحمر ؛ وهو وان كان من العساكرة غير أن له الرئاسة على النظار الثلاثة . وهذا الإجراء قد أدى إلى تحسن واضح فى تماسك القبيلة وازدياد التعاون بين شعبها وبطونها .

واسم الحمر يرجعه أبناء القبيلة إلى جد اسمه أو لقبه الأحمر غير أن معلوماتنا عن هذا الجد لا تكاد تتجاوز اسمه .

وتنفرد الغريسية برواية يروونها يزعمون فيها أن أصلهم حميريون من اليمن هاجروا فى زمن الحجاج بن يوسف ، فعبروا البحر الأحمر ، وعاشوا فترة من الزمن حول تاكا (كسلا) . ثم هاجروا من هناك إلى دارفور ثم انتقلوا فى وقت متأخر إلى أوطانهم الحالية فى الإقليم الغربى من كردوفان ، ويرى ما كمايكل أن هذه الدعوى قد تقوم على أساس صحيح ، بسبب ما يقال من أن هنالك صلة قرابة بين الحمر وبين الحمران الذين يعيشون فى إقليم تاكا . ومن الجائز بالطبع أن هذا الرأى ينطبق على عدد محدود من الأفراد أو الأسر . وليس التشابه فى الاسم وحده دليلا يمكن التمسك به لأن الدقاقيم لهم أيضا بطن يسمى الحمران ، مع أنهم لا يدعون أنهم جاءوا من الشرق .

فأكبر الظن أن العناصر الشرقية قليلة جداً لأن أسماء البطون والعشائر لا تدل على التأثر بالأسماء الشرقية كما سبق إيضاحه . بينما الحمران سكان تاكا تظهر فيهم هذه المؤثرات بوضوح .

ويعيش الحمر بأقسامهم الثلاثة فى الأطراف الغربية من كردوفان ، على حدود دارفور ، كما أن كثيراً منهم هاجر إلى الأوطان الحالية بعد إقامتهم فترة من الزمن فى شرق دارفور . وتمتد أوطانهم الحالية فى الشمال إلى خط العرض الرابع عشر ، وتمتد جنوباً إلى ما بعد الخط العرض الثانى عشر فى أقصى الغرب ، ولكنها بوجه عام واقعة شمال هذا الخط ، وبذلك يكون طول بلادهم من الشمال للجنوب يقرب من ٢٠٠ كيلومتر ، ويتجاوز ذلك قليلا فى العرض . وبلدة النهود واقعة وسط إقليمهم ، ولكنها تحكم حكماً إدارياً ،وليست كل هذه الأوطان التى تتجاوز مساحتها

٣٠,٠٠٠ كيلومتر مربع ، خالصة للحمر ، بل قد نزل بينهم كثير من أبناء القبائل الأخرى ، ويطلق عليهم اسم الأعراب . وكان بعض زعماء الحمر يشجعون الأعراب على النزول بينهم والاندماج فيهم .

وكان عماد الاقتصاد الرئيسي للحمر رعى الإبل أول الأمر ، ووصفهم بعض الكتاب بأنهم فى القرن الماضى كانوا أكثر إبلا من الكبابيش ؛ وكان بين القبيلتين تنافس وعداوة ، اشتدت وزادت وضوحاً ، عند ما ظهرت المهدية فناصرها الحمر بخلاف الكبابيش ، فرأى الحمر فى ذلك فرصة للعدوان ، حتى سلبوا الكبابيش الشطر الأعظم من قطعانهم .

وفيما عدا ذلك لم يجن الحمر فائدة كبيرة من مناصرتهم للمهدية . وفى أوائل هذا القرن حدثت بينهم وبين الزيقات حروب لا مبرر لها ، انهزم فيها الحمر . ومن جهة الشمال لم يكن بد من أن يغير الكبابيش ، ويسلبوهم قطعانهم . بحيث لم يبق لهم من الماشية سوى مقدار ضئيل .

ومع أن بعضهم لا يزال رعاة إبل ، فإن معظم الحمر يعيشون اليوم من الزراعة ، ومن جمع الصمغ ، وليست أوطانهم كلها صالحة للزراعة ، بل لعل ربعها أو ثلثها فقط هو الصالح للزراعة ، وبعد الأمطار لا يبقى فى الأرض ماء كثير ، ولذلك نرى عادة تجويف شجر التبلدى وادخار الماء فى جذوعها ، أكثر انتشاراً لدى الحمر منها عند أية قبيلة أخرى . وكثيراً ما ينتفعون بالبطيخ الوحشى فى تغذية الإبل . وهو ينمو أحياناً فى أراض قلما تصلح للزراعة .

* * *

يتبين مما تقدم أن رعاة البقر فى الجنوب من كردوفان ، يقابلهم رعاة الإبل فى الشمال ، هذا بالطبع إلى جانب أعمال الزراعة واستخراج الصمغ من شجر الهشاب ، الذى امتاز به إقليم كردوفان . ومعظم رعاة البقر كما رأينا من جهينة ، كما أن أعظم رعاة الإبل الكبابيش والحمر منها أيضا ، ثم الكواهلة الذين لهم نسبهم الخاص .

كذلك رأينا أن جنوب دارفور يحتله البقارة أيضاً ، ولكننا لن نجد فى دارفور ذلك التقابل الدقيق بين رعاة البقر فى الجنوب ورعاة الإبل فى الشمال ، كما هى الحال

فى كردوفان ، بسبب الاختلاف فى طبيعة إقليم دارفور ، واعتراض كتلة جبال مرّه فى وسطه ؛ ثم تكوين سلطنة دارفور وغير ذلك من الظروف التى سنذكرها فى الفصل التالى .

ومع ذلك فان فى شمال دارفور مجالا لرعاة الإبل . شرق الجبال وغربها وشمالها . وهذا المجال يمتد إلى واداى وإلى السودان الفرنسى . وفى هذا الإقليم قبائل من جهينة أيضا ، أو بعبارة أصح أجزاء من قبائل ؛ منهم الماهرية والمحاميد والنوايبه ، وهم يؤلفون تلك الشعب الثلاثة من رعاة الإبل التى تضاهى أسماؤها أسماء الشعب لقبيلة الرزيقات ، رعاة البقر فى جنوب دارفور . وقرابة الرحم بين الفريقين أمر مسلم به . ويجاورهم فى أوطانهم الشمالية وحدات أخرى من جهينة مثل العَريقات والمطيفات .

ومهما يكن من شىء ، فان المجال لتكوين قبيلة ضخمة من رعاة الإبل فى دارفور لم يكن أمراً ميسوراً كما هى الحال فى كردوفان التى تمتد فيافيها دون عائق من جبال وعرة أو سلطة مركزة مستقرة .

الهواوير

لعل هذا هو أنسب مكان للتحدث عن الهواوير لأنهم وإن لم يكونوا صراحة من قبائل جهينة فإن لبعض النسابين رأيا خاصا قد يقربهم منها ؛ ومن جهة أخرى فإن مجاورتهم للكبابيش ، ومواطنهم فى شمال كردوفان مما يبرر ذكرهم فى هذا الفصل .

والهواوير قبيلة مستقلة متوسطة فى العدد وثروتها فى الإبل لا بأس بها ، ومواطنها الرئيسية تمتد من غربى وادى الملك إلى صحراء بيوضة . فهم جيران الكبابيش من ناحية الشمال الشرقى ، والعلاقات بين القبيلتين طيبة ، وكثيراً ما ينتقلون معا فى طلب المرعى ، وعلى الأخص زمن الأمطار .

وقد دخل الهواوير السودان مهاجرين من القطر المصرى ، ملتزمين الجانب الغربى من النيل على دفعات فى أزمنة مختلفة ، ولعل القبيلة لم تتكون فى مواطنها الحالية إلا فى زمن متأخر . وينتمى الهواوير من جهة النسب إلى تلك القبيلة العظيمة : الهَوّارة .

ولا شك أن الهوارة قد نشأوا فى بلاد المغرب ثم هاجروا إلى مصر ، وقد ذكرهم القلقشندى فى صبح الأعشى ضمن القبائل غير المقطوع بعروبتها . [1] وقال « إن نسّابتهم يقولون إنهم من عرب اليمن » وينتمون إلى إحدى بطون قضاعة ، وهذا النسب إن صح يقربهم كثيراً من الجهنيين .

ويقول المؤلف المذكور إن أوطانهم الأولى كانت تمتد فى مديرية البحيرة من الإسكندرية إلى مسافة بعيدة نحو الغرب والجنوب . وظلت هذه حالهم إلى آخر المائة الثامنة (القرن الرابع عشر) ثم اضطروا تحت ضغط قبائل زُنّارة وحلفائهم من بقية عرب البحيرة ، إلى الخروج عن أوطانهم هذه إلى صعيد مصر ، فنزلوا بالأعمال الإخميمية فى جرجا وما حولها ، ثم قوى أمرهم ، واشتد بأسهم ، وكثر جمعهم حتى انتشروا فى معظم الوجه القبلى فيما بين أعمال قوص ، وإلى غربى الأعمال البهنسائية ، وأقطعوا بها الإقطاعات ، وصارت الأمرة لهم فى تلك الجهات ، ودام الأمر على ذلك إلى عهد القلقشندى . وقد امتد نفوذهم بعد ذلك إلى مديرية قنا ، ولا تزال أهم مراكزهم فيها إلى اليوم غير أن تسلطهم على القسم الجنوبى من الصعيد لم يكن دائماً باعثا على رضى سكان تلك الجهات : فاضطرت الحكومة فى عهد المماليك وفى أول عصر محمد على إلى محاربتهم وإخضاعهم .

ولا شك أن هذه الأحوال قد اضطرت كثيراً منهم إلى النزوح جنوباً إلى السودان ، فانتقل بعضهم مشتغلا بالتجارة إلى شمال دارفور ، وهؤلاء يدعون إلى اليوم باسم الهوارة الجلابة ، أما الهواوير ، فلعل هجرتهم كانت موزعة تتناول القرون

---

(١) صبح الأعشى ، الجزء الأول . ص ٣٦٣ .

الخمسة الأخيرة ، أى منذ طوردوا فى أوطانهم فى مديرية البحيرة ، فلما تكاثر عددهم كونوا قبيلة مستقلة باسم الهواوير ، والمفرد هوارى ، كما هى الحال فى القطر المصرى الآن .

ومعلوماتنا عن الهواوير قليلة ، وهى تشير إلى أنهم يمتازون بالصفات القوقازية واللون الحنطى ، ولم يختلطوا بعناصر من الجنوب ، بخلاف أقاربهم الجلابة فى دارفور الذين يعيشون عيشة أكثر استقراراً ، وتسربت إليهم بعض الدماء الغريبة .

الفصل الثاني عشر

مملكة الفُنْج وسلطنة دارفور

ليس الغرض من هذا الفصل أن نعرض بحثاً تاريخياً لمملكة الفنج وسلطنة دارفور ، لأن هذه البحوث التاريخية تخرج عن نطاق هذا الكتاب ، المخصص لدراسة القبائل والوحدات البشرية فى بيئاتها المختلفة فى السودان الشمالى . ولكن ترددت الإشارة فى الفصول السابقة إلى الفنج ، بوصفهم وحدة من الجماعات البشرية الخطيرة فى السودان . ولذلك لم يكن بد من التعريف بهم ، وعرض الآراء المختلفة عن نشأتهم وتطورهم .

كذلك لا نريد فى هذا الفصل أن نتكلم على سلطنة دارفور من الناحية التاريخية ، بل من ناحية تكوينها البشرى ، والقبائل أو الجماعات المختلفة التى تضمها ، أى أننا سنعالج موضوع سلطنة دارفور بوصفها إقليماً خاصاً من أقاليم السودان ، واقعا كله فى السودان الشمالى ، وله من الناحية البشرية مميزات انفرد بها ، تميزه عن الأقاليم الأخرى .

الفُنْج

سبق لنا الكلام على إقليم الجزيرة بين النيل الأبيض والأزرق ؛ وعلى القبائل المختلفة من جهينة وجعلية التى اتخذته وطناً لها ، وهذه السلالات العربية منتشرة فى القسم الشمالى من الجزيرة ، الذى ينتهى جنوباً عند خط العرض الثانى عشر ، على وجه التقريب . وإلى جنوب هذا الخط يبدأ انتشار جماعات غير عربية ، ولا تزال هذه الظاهرة تزداد ، حتى ينتهى التوغل العربى ، وتصبح هذه الجهات ميداناً خالصاً لجماعات تغلب عليها الصفات الزنجية مثل الدنكا والانجسنا والبَرتا والبُرُن ، والشلك ؛ وهكذا يتم التدرج من السودان الشمالى إلى السودان الجنوبى .

والقسم الشمالى من الجزيرة يمتاز بالسهولة التامة ، غير أن القسم الجنوبى تتخلل سهوله مرتفقات جبلية منعزلة بعضها عن بعض ، وإن كانت متقاربة فى كثير من المواضع . وليس لتوزيعها نظام مطرد . وهذه المرتفعات — على الرغم من أنها يطلق عليها اسم جبال — لا تعدو فى بعض الأحيان أن تكون كتلا صخرية ضخمة بارزة ، مرتفعة عن السهول المجاورة بما لا يزيد على بضع مئات من الأمتار . وصخورها مكونة فى الأغلب من الجرانيت أو من صخور بللورية أخرى غير أن بعضها ذو حجم كبير ، يشابه جبال النوبا فى جنوب كردوفان . وفى هذه الحالة تكون الجبال آهلة بالسكان .

وهكذا تقاسمت العناصر القوقازية والزنجية أرض الجزيرة منذ زمن بعيد ؛ وتكونت فى النصف الشمالى فى العصور الوسطى مملكة علوة المسيحية ، وعاصمتها سوبة . وأخذ النفوذ العربى يتوغل فيها منذ زمن بعيد ، يرجع على الأقل إلى القرن العاشر الميلادى . وفى أوائل القرن الرابع أخذ النفوذ العربى يشتد وينتشر . وفى عام ١٤٧٤ أنشئت بواسطة العرب مدينة أربجى على النيل الأزرق ؛ وفى سنة ١٥٠٤ هوجمت مملكة علوه من الشمال والجنوب ، وقامت على أنقاضها دولة الفنج . وكان هذا الفتح نتيجة لتحالف قبيلة القواسمة ، وعلى الأخص شعبة العبد اللاب برئاسة أميرها عبد الله جماع ، مع جماعة « الفنج » ، والأولون أغاروا من الشمال ، والآخرون حشدوا جيوشهم من الجنوب برئاسة زعيمهم عماره دُنقس مؤسس الدولة الجديدة .

نشأت دولة الفنج إذن فى أواخر القرن الخامس عشر . وأنشئت لها عاصمة جديدة ، مدينة سنار القديمة ، الواقعة إلى الشمال من سنار الجديدة بنحو ثلاثة أميال . ووقوع العاصمة فى الجزء الجنوبى من مملكة علوه أمر بلا شك له مغزاه ، ولعل الأرجح أن هذا الموقع أقرب إلى الإقليم الذى تكونت فيه قوة الفنج واشتدت فيه شوكتهم . أما عبد الله جماع فقد كوفئ على معاونته بأن قلد منصب نائب الملك فى الإقليم الشمالى ، ومنح لقب مَنجل ، واتخذ له عاصمة جديدة فى قِرّى ، فى الطرف الجنوبى من خانق سبلوقه ، على الضفة الشرقية لنهر النيل الأعظم .

ولم تلبث دولة الفنج أن اتسعت رقعتها اتساعا عظيما ، وأصبحت تمتد من حدود

الحبشة إلى سواكن فى الشرق ، وإلى دنقله فى الشمال ، وإلى حدود دارفور فى الغرب ؛ وإن لم يكن نفوذها قوياً دائماً على جميع هذه الجهات فى جميع الأوقات . ولم يكتف ملوك الفنج فى توسعهم بالاعتماد على الغزو ، بل كان من دأبهم أن ينشئوا الزوايا والمساجد ، وأن يلحقوا بها المدارس لتعليم الدين . فكان لهم فضل كبير فى نشر الثقافة الإسلامية العربية .

ومع أن إنشاء دولة الفنج حادث من أخطر الحوادث فى تاريخ السودان ؛ فإن نشأة « الفنج » أنفسهم كانت — ولا تزال — موضع جدال بين الكتاب ، والسبب الأكبر فى هذا الاختلاف أن الكتاب — وأكثرهم من الإنجليز — لا يريدون التسليم بصحة أقوال الفنج أنفسهم عن أصلهم ونشأتهم .

وأول شىء يجب ذكره هو أن الفنج ليسوا قبيلة من القبائل ، بل هم أسرة كبيرة ، أو طبقة حاكمة ، مثلهم كمثل آل عثمان بالنسبة للدولة العثمانية . وقد كان ظهورهم فجأة فى نهاية القرن الخامس عشر ، إذ ظهر زعيمهم عماره دنقس ومعه أتباعه وحاشيته ، يقود جيشاً مؤلفاً من خليط من الناس ، فيه عناصر حامية وعربية ومولدة .

ومن الجائز أن ظهور أمير الفنج فى ذلك الوقت ، حادث فجائى بالنسبة إلينا ، إذ كنا نجهل ما حدث قبل ذلك من التطورات فى أرض الجزيرة أو فى جنوب البطانة . ويغلب على الظن أن أمره كان معروفاً لمعاصريه قبل تأسيس دولته ، وإلا لما كان من السهل أن يتصل بالقبائل العربية فى الشمال ويتحالف وإياها على الغزو المشترك .

ورواية الفنج أنفسهم عن نشأتهم الأولى تتلخص فى أن أجدادهم من بنى أمية التجأوا إلى البلاد الحبشية بعد زوال دولتهم على أيدى بنى العباس . فعاشروا الحبشة وصاهروهم . وقد احتج الخلفاء العباسيون لدى ملوك الحبشة لإيوائهم هذه الشعبة من بنى أمية ، فأدى ذلك إلى خروج هؤلاء الأمويين من دولة إثيوبيا والتجائهم إلى الجهات المتاخمة ، ولعلها فى الطرف الجنوبى من الجزيرة وسهل البطانة ؛ هنا لك تكونت تلك النواة ولم تزل تنمو وتتكاثر ، حتى أصبحت من القوة بحيث تمكنت من

غزو مملكة علوه والقضاء عليها . ومن المهم أن نذكر — ونحن بصدد هذه الرواية — أن دولة الفنج منذ بدء تأسيسها كانت دولة إسلامية ، لغتها العربية ، وليس لها أية لغة أخرى .

ومع أن هذه الرواية تتفق مع التطورات التى يحق لنا أن نتوقعها . فإن بعض الكتاب لم يقبلها ، لأنها تتعارض مع ما جاء فى رحلات السائح الاسكتلندى بروس ، الذى مر من هذه الجهات فى أواخر القرن الثامن عشر ، والذى استقى أخباره من بعض الموظفين ، أمه من الشلك فيما يظهر ، وأخبره هذا الموظف أن الفنج — أى الأسرة أو الطبقة الحاكمة — من أصل شلكاوى .

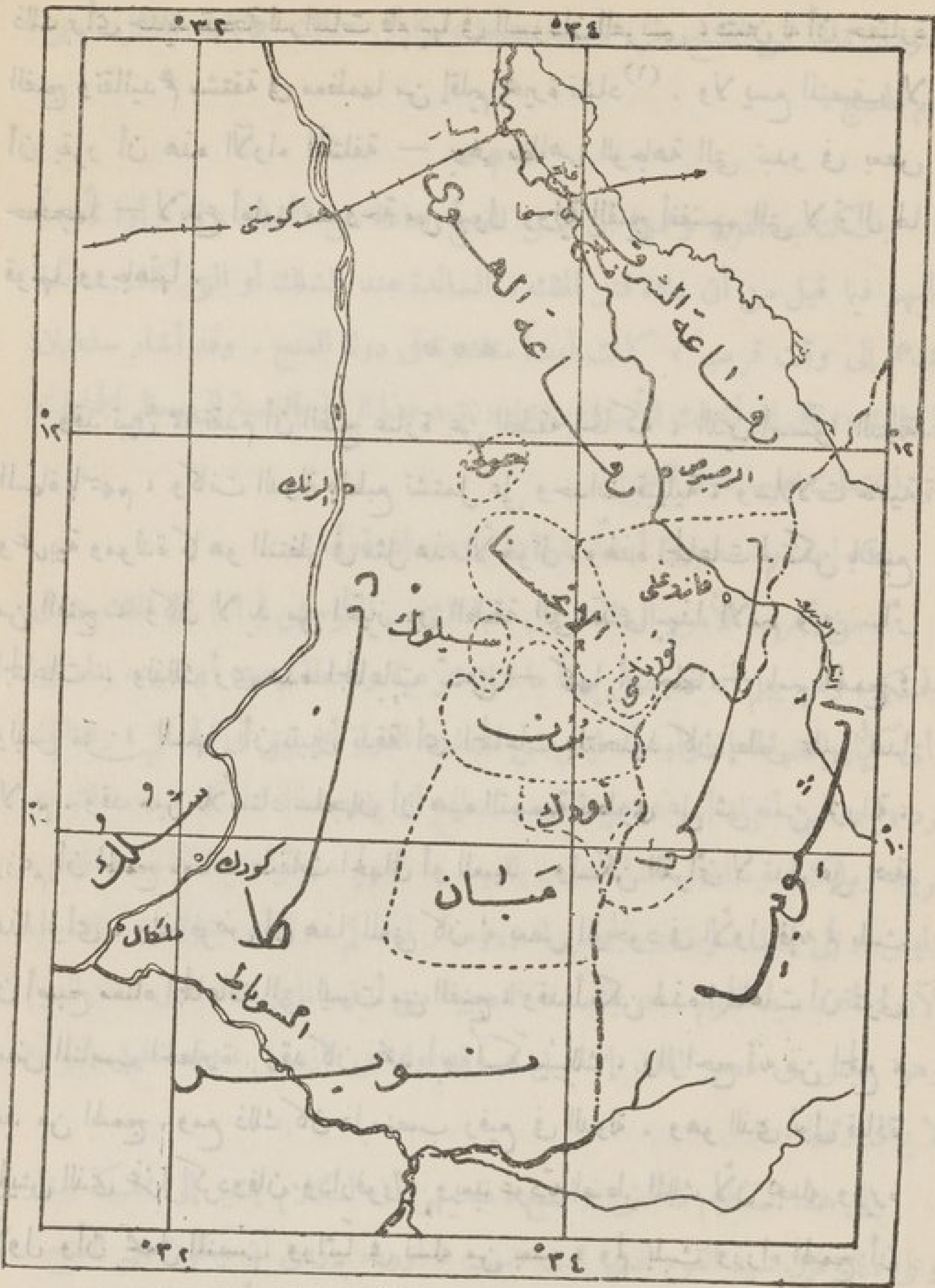
إن الشلك فى الوقت الحاضر ، لا يحتلون أرضاً فى الجزيرة ، اللهم إلا مساحة ضئيلة فى إقليم ملكال تمتد إلى مصب السوباط ، وبينهم وبين بلاد الفنج مسافات بعيدة تقترب من ٣٠٠ كيلومتر ، يحتل بعضها الدنكا ، وقبائل أخرى مثل المابان والبُرُن والإنجسنا وغيرهم . وعاصمة الشلك فى الوقت الحاضر ومعظم أوطانهم واقعة على الضفة الغربية للنيل الأبيض فى أقصى الجنوب . وحياتهم مركزة على الضفة الغربية فى صورة واضحة . ومع أن هذا كله مما يحمل على التردد فى تصديق رواية بروس ، فإن أحد الكتاب ، قد أيد وجهة نظر السائح الاسكتلندى تأييداً شديداً ، وهو المستر A. J. Arkell . وأخذ يلتمس الأدلة على هذا الرأى ، معتمداً أحياناً على رواية بروس ، وتارة على بعض التخمينات اللغوية .

مثال ذلك قوله نقلا عن وسترمان إن كلمة فنج أوفون هى فى الأرجح الكلمة الشلكاوية بون ، والباء والفاء من الأحرف التى تتواتر فى لغة الشلك كما هى الحال فى لغة النوبة . ومعناها الغريب أو الغرباء . ونظراً لأن الشلك قد احتلوا سنار وأسسوا المملكة الجديدة . فلا بد لهم أن يدعوا أنفسهم باسم جديد يميزهم وهم مسلمون عن أقاربهم الوثنيين فى النيل الأبيض ؛ وكان من الطبيعى أن يختاروا لذلك الاسم الذى يطلقونه على العرب والمسلمين وهو الفون أو الغرباء[1] !

---

(١) راجع مقالة أركل فى S.N.R لعام ١٩٣٢ ، الجزء الثانى ص ٢١٤ .

وقد دار جدال طويل حول هذا الموضوع [1] ، لا يتسع المقام لسرد تفاصيله ،



(شكل ١٦) توزيع القبائل فى أواسط الجزيرة وجنوبها

(١) إلى جانب المقال السابق راجع أيضاً المقالات الآتية وكلها فى مدونات السودان S. N. R : فى المجلد ١٣ ص ٢٤٧ مقال لمستر Chataway وآخر لمستر Nalder فى مجلد ١٤ ص ٦١ ، وثالث لمستر Chataway فى مجلد ١٧ ص ١١١ ؛ وآخر فى ص ٢٦٠ نفس المجلد لمستر روبرتسن ؛ وخامس لمستر هندرسن ص ١٤٩ من المجلد ١٨ .

ولعله ليس من المفيد أن نثير حجج مستر آركل وأفكاره القديمة ، لأنه خرج بعد ذلك برأى جديد نتيجة لدراسات قام بها فى السودان الفرنسى ، فتبين له أن حضارة الفنج وتقاليدهم مشتقة فى معظمها من إقليم بحيرة تشاد(١) . ولا يسع المنصف إلا أن يقرر أن هذه الآراء المختلفة — برغم مظاهر الوجاهة التى تبدو فى بعض حججها — لا تدع أمامنا مندوحة من قبول رواية الفنج أنفسهم التى لا تزال لها قوتها ووجاهتها .

* * *

وقد تبين مما تقدم أن الفنج عبارة عن الطبقة الحاكمة ، الذين أسسوا الدولة المسماة باسمهم ، وكانت الدولة بالطبع تشتمل على وحدات قبيلية ، وسلالات حامية وعربية ومولدة كما هو المنتظر فى مثل هذه الأحوال . وهذه الجماعات لم تكن بالطبع من الفنج ، وكان لا بد من التمييز بين الطبقة التى تدعى بهذا الاسم وبين سائر الجماعات . ولذلك نرى هذه الجماعات تدعى — كلها أو جلها — باسم الهمج ؛ وليس من السهل أن نتبين بدقة أى الجماعات بالتحديد كان يطلق عليها هذا الاسم . وقد خيل للأستاذ سلجمان أن هذه التسمية تنطوى على شيء من الزراية ، وزعم أن الهمج معناها طبقات الجهال أو العبيد . ولكن القرائن لا تدل على صحة هذا الرأى ، وإذا فرض أن هذا المعنى كان له بعض الوجود فى الأول فإنه لم يلبث أن أصبح معناه الجماعات التى ليست من الفنج ، وقد أمكن لهذه الجماعات أن تتولى بعض المناصب الخطيرة . وقد كان محمد أبو لُكَيْلِك ، والراجح أنه من الجمع ، يعد من الهمج . ومع ذلك كان ذا منصب رفيع فى الدولة . وهو الذى تولى قيادة الجيش الذى غزا كردوفان ودارفور ، وبعد عودته اضطر الملك لأن يجعله وزيره الأول وأن يجعل المنصب وراثياً فى نسله من بعده ، ولم يلبث وزراء الهمج أن أصبحوا ولهم المكان الأول فى الدولة وتصريف شئونها .

ونظراً لأن جماعات الفنج قد تزايد عددها على مضى الزمن . لا يزال فى

(١) راجع فى مجلد (٢٧) من S,N,R (سنة ١٩٤٧) مقالة بعنوان More about Fung Origins.

السودان إلى اليوم أسر تدعى باسم الفنج موزعة فى عدة جهات . ولا يزال فى السودان مك من الفنج مقره مدينة سنجا ، كما أن هنالك جماعات قلائل تدعى باسم الهمج .

***

والكتاب الذين توهموا أن أصل الفنج جماعة من الشلك ، قد رأوا تأييداً لرأيهم فيما قيل من أن عادة قتل الملك ، السائدة عند الشلك أو التى كانت سائدة عندهم إلى وقت قريب ، كانت أيضاً منتشرة فى دولة الفنج . وقد أشار سلجمان إلى ذلك ، وقال إن أبحاث الأستاذ برتشارد تؤيد هذا الرأى بالنسبة إلى معظم الجماعات التى اشتملت عليها دولة الفنج .

وقد استشهد سلجمان أيضاً بشهادة بروس إذ يقول :

« من أغرب الأمور السائدة بين هذا الشعب المتوحش (!) أن الملك يتولى الحكم ، وهو يعلم أنه قد يقتل يوماً ما قتلا شرعيا بواسطة رعيته أو عبيده بناء على رأى كبار الضباط إذا رأوا أنه ليس من مصلحة الدولة أن يبقى فى الحكم ، وهنالك فرد واحد من أفراد أسرته هو الذى يستطيع أن ينفذ هذا الحكم ، ويسفك دم قريبه ومليكه ، وصاحب هذا المنصب يلقب سيد القوم ، وهو مدير الخاصة والخدم ، وليس له على ذلك صوت فى المجلس الذى يصدر الحكم ، والذى يتولى هذا المنصب الآن : أحمد سيد القوم ، هو بالصدفة العجيبة من أرق الناس حاشية فى سنار اليوم وهو يعيش فى قصر الملك إسماعيل ، وقد ولد فى فازوغلى ، وقد خيل إلى أنه لا يزال وثنيا . »

وفى هذا الكلام تناقض واضح ، فبديهى أن الكلام يشير إلى مملكة سنار وعلى ذلك فإن سيد القوم الذى يجب حسب ما أورده بروس أن يكون من الفنج ، هو من فازوغلى ، أى من البرتا ، ودينه رقيق حتى خيل لبروس أنه لا يزال وثنيا .

وأساس هذا التناقض فى رواية بروس أنه لا يميز بين ما يجرى فى فازوغلى وما يجرى فى سنار . ومن السهل على مثله أن يخلط بين ما يجرى فى بلد وما يجرى فى غيرها .

والذى لا شك فيه أن هذه العادة لم تـكن فى يوم من الأيام لها وجود عند الفنج ، على فرض وجودها لدى بعض القبائل التى غلبت عليها الوثنية فنحن نعلم من أنباء كل ملك من ملوك الفنج شيئاً ليس بالقليل ، ونعرف بوجه خاص ظروف موت كل منهم . وليس هنالك حالة واحدة تؤيد ما ذهب إليه بروس .

وهكذا تتضاءل الأدلة المختلفة التى أريد بها إرجاع الفنج إلى أصل شلكاوى وترجح كفة الرواية التى ترجع بهم إلى أصل عربى ، وإذا كانت البشرة قد اكتسبت سمرة حتى كانت دولة الفنج تسمى المملكة الزرقاء ، فإن هذا أيضاً مما يؤيد روايتهم . لأن الهاربين من بنى أمية كانوا كلهم أوجلهم من الرجال وتزوجوا من الحبش واتخذا إماء من بنات شنقل فأثر ذلك فى ألوانهم وتقاطيعهم .(١)

مملكة تقلى

فى طريقنا من مملكة سنار إلى سلطنة دارفور ، نخترق مديرية كردوفان ؛ وإذا عرجنا على الركن الجنوبى منها ألفينا أنفسنا فى منطقة الجبال ، حيث تعيش قبائل النوبا ؛ وفى الركن الشمالى الشرقى منها نشأت مملكة تقلى ، فى أواسط القرن السادس عشر . ولم تكن مملكة ضخمة تضارع دولة الفنج أو سلطنة دارفور . ولكن لها فى تاريخ العروبة فى السودان شأناً خطيراً لأنها مكنت للعناصر العربية من التوغل فى هذا الربع الشمالى الشرقى من جبال النوبا ، إلى الشمال من بلدة رشاد بل وإلى الجنوب منها ، مع أن هذه الجبال كانت دائماً قلعة تحتمى بها جماعات النوبا البعيدة عن الثقافة العربية والديانة الإسلامية .

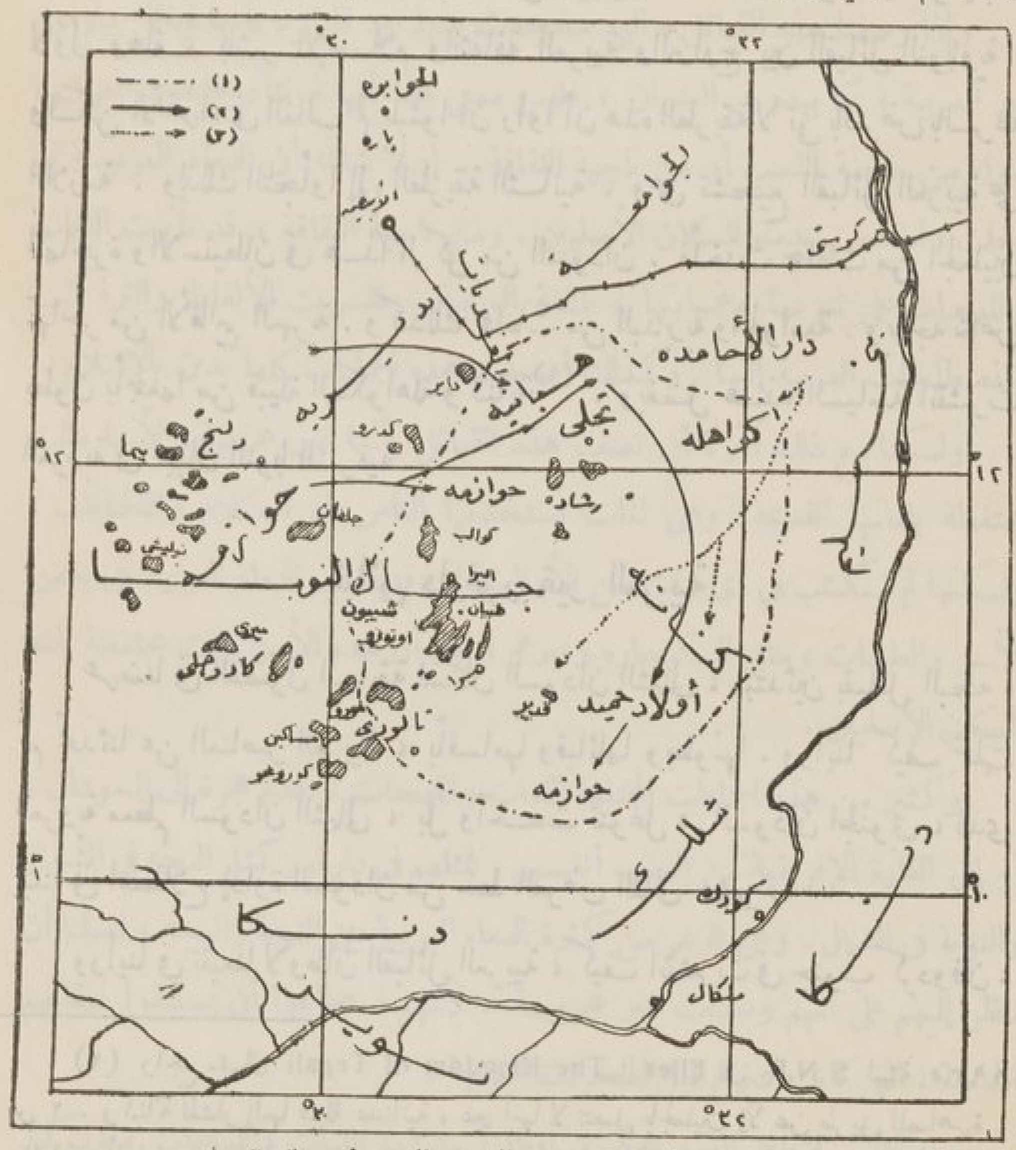
ويرجع تأسيس مملكة تقلى إلى هجرة رجل من الزهاد الجعليين ، ويقال إنه من قبيلة الجموعية ، حوالى سنة ١٥٣٠ ، وقد نزل هذا الرجل وسط تلال تقلى ، فلم يلبث أن اجتذب قلوب السكان ، وجلهم من النوبا ، بورعه وطيب أخلاقه . واتصل بزعيم الإقليم عن طريق المصاهرة . فلم يكن بد أن يؤدى هذا إلى تولى ابنه المشهور

---

(١) راجع كتاب H.C. Jackson, Tooth of Fire ص ٨ وما بعدها .

وليس حديث هجرة الأمويين إلى السودان مما جاء على لسان الفنج وحدهم ، فقد أورد المقريزى نقلا عن ابن سليم (القرن التاسع) أن قد انتقل من نجا من الأمويين إلى الساحل الأثيوبى للبحر الأحمر » (الخطط الجزء الأول ص ٣٠٩ طبع القاهرة ١٣٢٤ هـ)

باسم جبلى أبو جريدة ، منصب الرئاسة والملك ، ولعل هذا قد تم حوالى عام ١٥٧٠ ، ولم يلبث أن اشتمل ملكه على الإقليم الشرقى من الجبال ما بين بلدة تالودى فى الجنوب إلى أبوحبْل فى الشمال . وخلفه فى الملك تسعة عشر من أبنائه وأحفاده . وقد كان لهذه المملكة شهرة واسعة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر . بحيث استطاعت أن تحافظ على استقلالها الذاتى فى عهد محمد على وإسماعيل ، كما استطاعت أن تقاوم المهدية بعض المقاومة ، ولا يزال نسل أمرائها إلى اليوم يتمتعون بقسط



(شكل ١٧) مملكة تقلى والتوغل العربى فى جبال النوبا

(١) حدود مملكة تقلى فى أقصى اتساعها
(٢) هجرة البقارة من الغرب
(٣) هجرة العرب الشماليين من الشرق والشمال

كبير من الاحترام ، وبنصيب لا بأس به من النفوذ ، وإن استحالت المملكة إلى قسم من الأقسام الإدارية فى السودان .

وليس الذى يهمنا أن نتتبع تاريخ تلك المملكة ، وإنما الذى يعنينا أن نذكر أثرها فى نشر العروبة فى جنوب السودان . والظاهر أن أمراء هذه المملكة كانت لهم سياسة مرسومة فى نشر الإسلام والعروبة فى هذه الجهات الوعرة . وكانت هذه السياسة ترمى إلى تحقيق هدفها عن طريقين : الأول وهو ما يخطر بالبال لأول وهلة ، بنشر الإسلام والثقافة العربية والتزاوج بين القبائل النوباوية . ولكن الأمراء فى الغالب لم يلبثوا أن رأوا أن هذه الطريقة لا تفى بالغرض بالسرعة اللازمة . ولذلك التجأوا إلى الطريقة الثانية ، وهى تشجيع القبائل العربية على المهاجرة والاستيطان فى هذا الركن من السودان . فأخذت جماعات من الجعليين تهاجر من الأقاليم النهرية . وكذلك جماعات من البديرية والجوامعة . وبوجه خاص بطون بأجمعها من قبيلة الكواهلة وكنانة[1] . وبفضل هذه السياسة انتشرت العروبة فى جبال النوبا الشرقية .

قبائل دارفور غير العربية

عرضنا فى الفصول السابقة لسكان السودان الشمالى ، مبتدئين بقبائل البجه ، ثم تحدثنا عن العناصر العربية ، بأقسامها وقبائلها وبطونها . ورأينا كيف شملت العروبة معظم السودان الشمالى ، بل وأخذت تتوغل فى السودان الجنوبى ، الذى يبدأ فى اصطلاح إدارة السودان من خط العرض الثانى عشر .

ورأينا فى تتبعنا لأوطان القبائل العربية ، كيف انتشرت فى جنوب كردوفان ،

---

(١) راجع مقال Elles : The Kingdom of Tegali فى S N.R. لسنة ١٩٣٥ ص ٢ . وكنانة المشار إليها قبيلة عدنانية ، غير أنها لا تتصل بالجعليين إلا عن طريق المصاهرة . والراجح أنها فرع من القبيلة العربية التى تسمى بهذا الاسم فى جزيرة العرب . وهى تعيش اليوم فى إقليمين : الأول على النيل الأزرق جنوب سنجا مع قبائل رفاعة . والأخرى فى جنوب كردوفان ، وبوجه خاص فى الجزء المشار إليه هنا (راجع ما كمايكل تاريخ العرب فى السودان الجزء الأول ص ٣٣ وهو يشير إلى أنهم هم وقبيلة دغيم هاجروا إلى السودان عن طريق مصر .

حتى توغلت فى جبال النوبا ؛ وفى دارفور حتى احتلت الربع الجنوبى منها ، وحتى توغلت فى حوض بحر الغزال إلى خط العرض التاسع .

وبعد هذا الانتشار الواسع نحو الجنوب ، وبعد احتلال البقارة للربع الجنوبى من دارفور ، بقيت فى هذه المديرية الغربية جماعات وقبائل ، بعضها قديم وبعضها حديث الهجرة . لا نستطيع أن نصفها بأنها عربية خالصة . لأنها لم تتكون نتيجة لهجرة قبائل أو وحدات عربية .

وإذا وصفنا هذه القبائل ، التى سنتحدث عنها بعد قليل ، بأنها قبائل دارفور غير العربية ، كما يبدو فى العنوان ، فليس معنى هذا أنها لم تتأثر بالنفوذ العربى ، سواء من ناحية النسب أو من ناحية الثقافة . إذ لا شك أن الدماء العربية قد دخلت واختلطت بدماء السكان الأصليين . ومن ناحية الثقافة ، قد تأثرت اللغات واللهجات على تنوعها وغرابتها ، باللغة العربية . فتسربت الألفاظ والتراكيب والمصطلحات العربية إليها . وكذلك أصبحت هذه الجماعات كلها تدين بالإسلام .

ولكنا مع ذلك آثرنا أن نصف هذه القبائل بأنها غير عربية ، لأنها ظلت محتفظة بلغاتها القديمة . وهى لغات يستخدمها الناس فى الكلام والتخاطب ، ولكنها لم تكتب فى أى وقت من الأوقات ؛ وقد تغلب الدماء العربية فى بعض الأسر والطبقات ، مثل الكنجاره وغيرهم ، غير أن هذه الأسر ظلت محتفظة بلغة السكان الأصليين .

وكثير من هذه الجماعات المختلفة اللغات واللهجات ، أقدم هجرة إلى السودان ، أو إلى القارة الإفريقية من العرب أنفسهم . فمثلهم فى دارفور كمثل البجه فى الشرق والنوبة فى الشمال . وعلى الرغم من كثرة الدماء العربية بين النوبة والبجه ، فضلنا أن ننظر إليهم على أنهم وحدات غير عربية . لأنهم استطاعوا أن يستبقوا صفاتهم الخاصة ، التى كانت تميزهم قبل الهجرات العربية .

وقد كان سلاطين الفور يحكمون أقطاراً متعددة اللغات واللهجات ، ولكن اللسان الرسمى للبلاد كان واحداً ، وهو العربية ، التى يدرسها الأطفال منذ نعومة أظفارهم ، ويتخذونها وسيلة للدراسات الدينية والأدبية . وجميع ما كان يصدر عن

ديوان السلطان من الأوامر والبيانات والمكاتبات ، كان يكتب دائماً باللغة العربية وحدها .

وهكذا نرى أن فى مديرية دارفور إقليما ممتازاً يختلف فى كثير من الوجوه عن الأقاليم التى سبقت لنا دراستها ، سواء من الناحية الجنسية أو الثقافية .

واسم هذه المديرية ، الواقعة فى أقصى الغرب من السودان ، مشتق من اسم شعب الفور ، على كثرة ما اشتملت عليه من السلالات والقبائل ، وعلى الرغم من أن الفور لا يحتلون منها سوى حيز محدود . ودارفور تشبه كردوفان ، بأنها تغلب عليها السهولة وتموّج السطح ؛ ولكنها تشبه كردوفان أيضاً بأنها تشتمل على مساحة جبلية وعرة ، لا تمتاز بتضاريسها الطبيعية فقط ، بل لها أيضاً ميزات بشرية تجعلها مختلفة عن السهول المجاورة لها .

غير أن هنا لك وجوه اختلاف بين الإقليمين كردوفان ودارفور . فالجبال فى كردوفان تحتل الربع الجنوبى الشرقى من المديرية ، وتتصل اتصالا مباشراً ، بحكم موقعها الجنوبى ، بالأقاليم التى يسودها الدنكا والنوير وغيرهما من السلالات الزنجية . أما دارفور فجبالها تحتل الجزء الأوسط من المديرية كلها . وإلى الجنوب من الجبال مساحة واسعة سهلة تتصل بسهول كردوفان من جهة ، وبسهول السودان الفرنسى من الناحية الغربية . فهى بمثابة طريق معبد سهل ، ما بين جبال دارفور فى الشمال وهضبة فرتيت فى الجنوب . وهذا الممر السهل الواسع قد احتله البقارة ، كما اتخذته القبائل طريقاً تنتقل فيه بين الشرق والغرب ، وسط سهول السفانا .

وهنا لك فرق آخر بين كردوفان ودارفور ، كان له أثره فى التكوين الجنسى والثقافى لكل من القطرين ؛ وهو أن كردوفان ملاصقة فى الشرق لنهر النيل . وبذلك تعرضت لمؤثرات ثقافية متنوعة مصدرها نهر النيل والأقطار التى تحف به . أما دارفور فملاصقة للأقاليم الليبية ، التى يطلق عليها اليوم اسم إفريقية الاستوائية الفرنسية . وهذه الأقاليم تأثرت بضروب من الثقافات تختلف اختلافاً كبيراً أو قليلا عن المؤثرات التى مصدرها نهر النيل ، وهى تشمل مساحات واسعة تمتد من أقصى الشمال إلى حدود السفانا فى الجنوب . وتختلف أقطارها بعضها عن

بعض . فهنا لك سلالات حامية فى ليبيا الشمالية ، وثقافات متنوعة فى إقليم تِبِستى ووادای ، يقابلها ثقافات أخرى فى حوض بحيرة تشاد والأقطار التى حولها ، مثل بلاد البرنو والكانم . وقد أثرت كل هذه الجهات الشمالية والجنوبية فى دارفور ، ولم يكن لها أثر كبير فى كردوفان .

وليس معنى هذا أن دارفور كانت بنجوة من جميع المؤثرات التى مصدرها نهر النيل . لأنها تتصل به اتصالا غير مباشر ، لوقوعها على الحافة الغربية لحوض نهر النيل ، جنوبيه وشماليه ، فهنا لك أودية مثل بحر العرب ، ينحدر من مرتفعات دارفور ، إلى أن ينتهى إلى حوض بحر الغزال . وهنا لك أودية شمالية مثل وادى المِلْك ينحدر من أطراف دارفور ، متجهاً إلى النيل الأعظم ، حيث يتصل به عند بلدة الدبة . وبمحاذاة هذه الأودية انتقلت المؤثرات النيلية على اختلافها ؛ وهى مؤثرات جنوبية فى الجنوب ، تحمل بعض العناصر البشرية التى تعيش فى حوض بحر الغزال وثقافتها ؛ ويقابلها مؤثرات نوبية وعربية من الأطراف الشمالية للحوض . وهناك فوق ذلك طريق المواصلات القديم المسمى درب الأربعين ، الذى يرجع استخدامه إلى عصور تاريخية قديمة ، وكان وسيلة للاتصال بين النيل الأسفل وبين دارفور .

ومن الممكن تقسيم دارفور إلى ثلاثة أقسام جغرافية . أولها يمتد من أقصى شمال المديرية إلى خط العرض ٣٠َ ١٤° وهو عبارة عن أراض متوسطة الارتفاع ، تتخللها التلال ؛ وتنحدر من هذه التلال أودية يجرى فيها ماء قليل فى موسم المطر ، ثم لا يلبث أن يغشاها الجفاف . ويكسوها العشب فترة من الزمن ، وينمو بها شجر أكثره من السنط . وكلاهما مما يعتمد عليه فى رعى الإبل . والمطر لا يزيد على ٣٠٠ ملليمتر فى جنوبها ، ثم يتناقص تدريجياً كلما اتجهنا شمالا . ولا يكاد يكفى للزراعة إلا فى مساحات محدودة ، وجهات ملائمة .

والمنطقة الوسطى تمتد من خط عرض ١٢ جنوبا إلى ٣٠َ ١٤° شمالا ، وهى التى تتوسطها الكتلة الجبلية الممتازة بالارتفاع والقمم العالية ؛ ولكنها ليست كلها جبلية بل تحيط بها السهول شرقا وغربا . حيث التربة ذات طبيعة رملية .

والمطر غزير على الجبل يصل إلى ٧٠٠ ملليمتر ، ويتناقص فى المنخفضات السهلة إلى ٣٠٠ ملليمتر ؛ وتوزيع الزراعة يتبع توزيع المطر . فهى تقل فى السهول وتكثر فى المنحدرات الجبلية .

والقسم الثالث هو المنطقة الجنوبية ، وهى متوسطة الارتفاع ، وتغلب عليها السهولة ، وإن تخللها بعض التلال ، ومطرها أكثر من سائر سهول دارفور ، يتراوح بين ٧٠٠ و ٩٠٠ ملليمتر ، والزراعة ممكنة فى معظمها ، ولو أن رعاة البقر يحتلونها ؛ ولذلك تغلب فيها الحياة الرعوية على الزراعية .

ولا شك أن كتلة جبال مرة ، هى الظاهرة الجغرافية الهامة التى تميز دارفور . وهى عبارة عن هضبة عالية يزيد ارتفاعها فى المتوسط على ٢٠٠٠ متر ، وبعض القمم فيها تصل إلى ٣٠٠٠ متر ، ومن المهم أن نذكر أن موقعها يمتد من خط عرض ١٢ فى الجنوب إلى عرض ١٤ فى الشمال ؛ وهى ترتفع فجأة من السهول الجنوبية حيث تصل بسرعة إلى أعلا قممها . ثم تتدرج فى الانحدار بعد ذلك نحو الشمال حتى تنتهى إلى شمال جبل سى ، الذى يبلغ ارتفاعه ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، ثم تنقطع وتنخفض بسرعة حتى تنتهى إلى التلال الشمالية عند خط عرض ١٤,٥ .

وهكذا يكون طول هذه الكتلة من الجنوب إلى الشمال نحو ١٥٠ كيلو متراً ولكنها لا تكاد تتجاوز ٥٠ أو ٦٠ كيلو متراً من الشرق إلى الغرب ، وبذلك يتراوح سطحها بين ٤٥٠٠ و ٥٠٠٠ كيلو متر مربع ؛ ولا شك أن جبال مرة من أهم المعالم التضاريسية البارزة فى السودان . وتبدو أعلامها بارزة واضحة سواء أنظرنا إليها من الجنوب من نيالا أو من الشرق من الفاشر ، أو من الغرب من كبكابية أو زالنجى . ومن المهم أن نشير إلى أن جبال مرة ليست واقعة على حدود دارفور الغربية ، بل هى تتوسط دارفور ، وإن كانت الحدود الغربية أقرب إليها نوعا من الحدود الشرقية .

والظاهر أن الحدود بين دارفور و كردوفان هى فى معظمها حدود طبيعية على الأخص فى شرق دارفور ومن السهل أن نلاحظ قلة توزيع القرى والسكان فى هذا الجزء من الحدود ، ومرد ذلك إلى وجود سلسلة من الكثبان الرملية تمتد من

الشمال إلى الجنوب لعلها من مخلفات فترة فى عصر جيولوجى حديث امتاز بالجفاف وغلبت عليه الطبيعة الصحراوية ، فتكونت فيه هذه الكثبان . غير أن توزيع هذه الكثبان محدود ولا يتناول الحدود الشرقية كلها ، فنراها تنتهى فجأة فى الشمال ، حيث تبدأ جبال بركانية مثل جبل ميدوب الواقع إلى الشمال من خط عرض ١٥ .

أما الأراضى الغربية لدارفور فتمتد من الجبال إلى بلاد افريقية الاستوائية وتتصل بها اتصالا مباشرا ولا يفصلها عنها اى اختلاف جوهرى فى طبيعة الأرض أو التربة ، ولذلك كانت الحدود الغربية لدارفور ، وبالتالى للسودان ، كلها حدوداً سياسية بالمعنى الصحيح ، أى أنها نتيجة اتفاق بين الطرفين المتجاورين ، سواء أ كان ذلك فى العصور الوسطى أو العصور الحديثة . وهذا الانتقال السهل بين دارفور والجهات التى تجاورها من الغرب هو الذى جعل الباب مفتوحا لتصل منه تلك المؤثرات الليبية التى سبقت الإشارة إليها .

وهكذا نرى أن إقليم دارفور لا يشتمل على منطقة انتقال من الجنوب إلى الشمال فحسب ، بل ويشتمل أيضاً على منطقة انتقال بين الشرق والغرب ، أو بين السودان النيلى ، والسودان الليبى ؛ وبذلك أصبحت إقليما ممتازاً ليس له نظير فى السودان كله .

والاتصال السهل بين حوض الغزال وبين أواسط دارفور ، بسبب وفرة المطر والمرعى من جهة ، ووجود أدوية توجه خطى المهاجرين من جهة أخرى ، قد كان سبباً فى انتقال عناصر بشرية من حوض الغزال ودار فرتيت ، إلى أواسط دارفور فى زمن قديم معرق فى القديم ، وهذه الهجرات القديمة ، قد كانت سبباً فى نقل جماعات عديدة ، على مضى القرون من الجنوب إلى الشمال . وطبيعى أننا إذا أردنا اليوم أن نفتش عن بقايا هذه الهجرات القديمة ، فإننا لن نجدها فى الجهات السهلة ، بل فى الجهات الوعرة . وسنجدها بوجه خاص فى كتلة جبل مرة ، التى استطاعت أن تحتفظ بكثير من الدماء الجنوبية ، والثقافات واللغات التى لا نجد لها نظيراً فى السهول التى تحيط بتلك الجبال ، ولا فى الأراضى السهلة التى تحيط بها من الجنوب حيث تعيش قبائل البقارة اليوم .

وهكذا نرى أن لدينا إقليما ، يحتفظ بدماء فيها كثير من العنصر الزنجى الجنوبى ، وسط إقليم تسوده الدماء القوقازية ، ومع ذلك فهو واقع كله شمال خط عرض ١٢ الذى يعتبره الكثير بمثابة الخط الفاصل بين السلالات القوقازية فى الشمال ، والسلالات الزنجية فى الجنوب . ومهما كان لخط العرض الثانى عشر هذا من معنى ثقافى جنسى فى أى جزء آخر من السودان ؛ وأيا كان مبلغ انطباقه على توزيع السلالات الزنجية والقوقازية ، فانه لا معنى له فى دارفور ، لأن الإقليم الوحيد الذى فيه بقية من الدم الزنجى فى دارفور واقع كله شمال خط عرض ١٢ ، بينما الأراضى الواقعة جنوبه لغاية خط العرض التاسع هى كلها خالصة للسلالات القوقازية ، والثقافة العربية .

* * *

لا بد إذن من أن يكون لموقع دارفور الفريد ، ولتعرض الإقليم لمختلف المؤثرات الثقافية والسلالية ، أثر واضح فى التكوين البشرى للإقليم ؛ وليس بمستغرب أن يكون له تاريخه الخاص .

فلا بدع إذن إذا وجدنا بين سكانه سلالات مختلفة من حيث نشأتها ومناطق تكوينها الأصلية ، وأنسابها ، ومبلغ قدمها فى الإقليم أو حدوث نزوحها إليه ؛ ومن الصعب الموازنة الدقيقة بين هذه المؤثرات المختلفة ، من ليبية ونوبية وجنوبية ومغربية ، وخصوصاً بعد أن شملتها كلها الثقافة العربية والديانة الإسلامية .

ولكنا نستطيع أن نشير إلى مبلغ تنوع هذه المؤثرات ، ففى الشمال نرى عناصر ليبية ، تظهر لنا فى وجود جماعات مثل القرعان والبدايات والزغاوة ، مصدرها القريب اقليم تبستى ووادای ، ولكن بعضها مثل الزغاوة ، يمت إلى مصدر بعيد فى صميم بلاد المغرب . وهنا لك عناصر قديمة مثل الداجو والفور والبرتى متركزة فى المنطقة الجبلية وما حولها . وبعض هذه العناصر من أصل جنوبى ، ولذلك تغلب عليه الصفات الزنجية . وله قرابة بسكان الجزء الغربى من حوض بحر الغزال .

وحتى هذه العناصر القديمة لم تسلم من المؤثرات الليبية (كما هى الحال فى الداجو) والعربية كما هى الحال فى الفور .

وهناك عناصر نوبية ، تبدو ممثلة فى جبل ميدوب وفى شعب التنجور ، وكذلك فى البرقد وهناك المؤثرات الليبية الوسطى التى تظهر فى المساليط . ولغتهم ليس لها نظير فى دارفور .

كذلك كان لإقليم كانم وبرنو (إقليم بحيرة تشاد) تأثير واضح ، حتى أن كلمة الفاشر كاسم لمدينة مشتق من لغات هذا الإقليم ، وهو اسم يطلق على العاصمة أينما كانت .

ويضاف إلى ذلك المؤثرات العربية التى انتشرت أولا فى الأراضى الشرقية ، ثم زحفت إلى الغرب ، والأخرى الآتية من ليبيا ، وزحفت نحو الشرق ؛ ولا تزال قبائل عربية عديدة تحتل السهول الشرقية من دارفور ، ولها اتصال وثيق بالقبائل التى ترعى البقر فى الجنوب ، من حيث نشأتها وهجراتها .

* * *

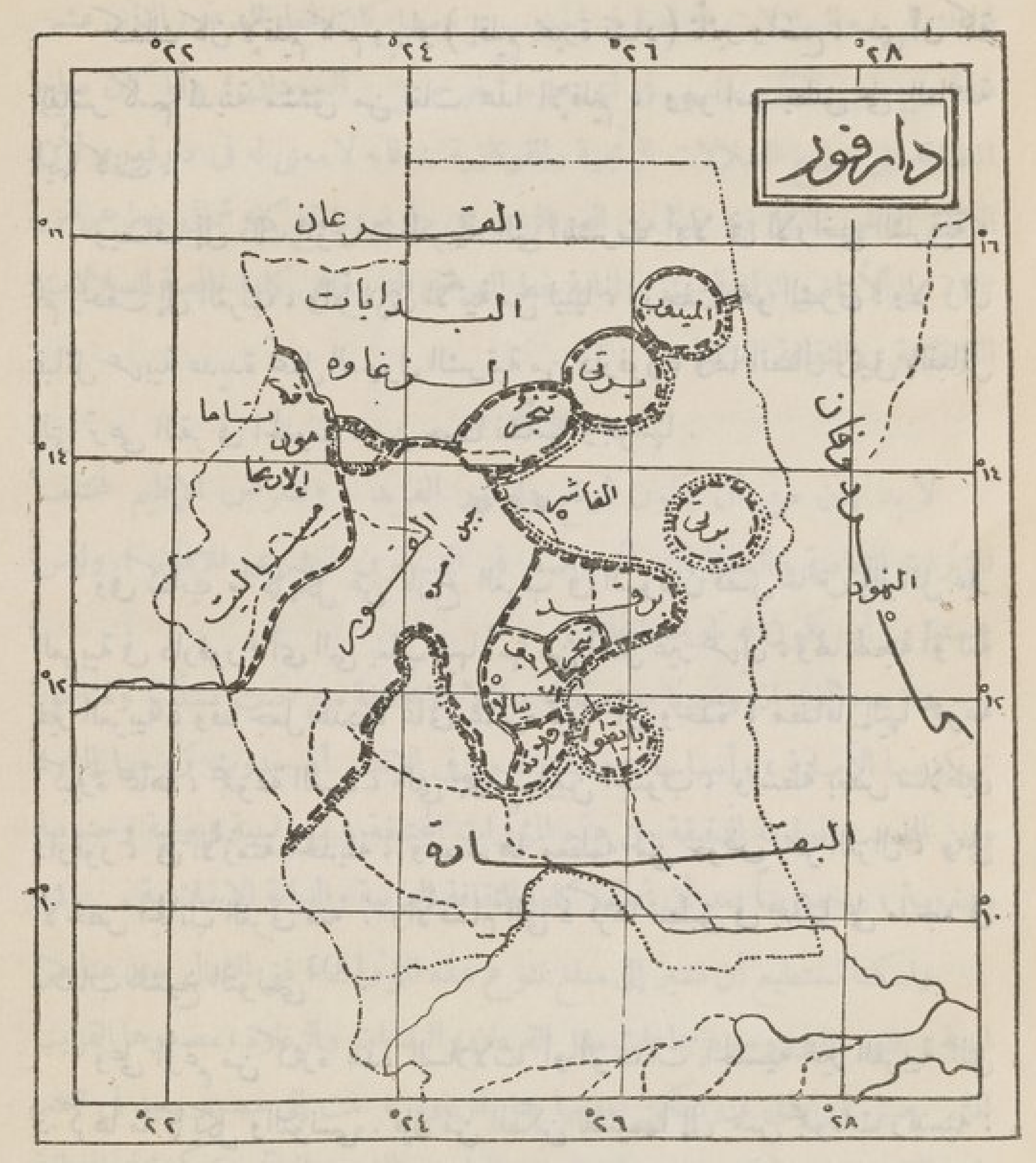
وفى كتاب ماكمايكل عن تاريخ العرب فى السودان فصل خاص بالقبائل غير العربية فى دارفور ؛ أى التى يغلب فيها أنها من أصل غير عربى ، ولها لهجة أو لغة غير العربية ، وقد جمل عددها ثمانى عشرة قبيلة أو وحدة ، مضافاً إليها مجموعة كبيرة سماها ، مجموعة العبيد ، التى جىء بها من الجنوب ، بواسطة بعض سلاطين دارفور ، فى الأزمنة الحديثة ، ومصدرها معظمه من حوض بحر الغزال ، وعلى الأخص الجانب الغربى منه . والأقسام التى ذكرها تنطبق فى جملتها على ما جاء فى كتاب الشيخ التونسى [1] .

وعلى الرغم من كثرة هذه السلالات أو الوحدات الجنسية غير العربية التى ذكرها ماكمايكل والتونسى . فإن من الممكن تقسيمها إلى خمس مجموعات رئيسية :

الأولى : مجموعة مصدرها إقليم تبستى وما يجاوره من الأقطار ، وبوجه خاص البلاد التى تليه من الغرب إلى أواسط الصحراء الكبرى :

(١) راجع الفصل الرابع من كتابه صفحة ٥٢ وما بعدها . وكتاب الشيخ محمد عمر التونسى المسمى تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (طبع على الحجر بباريس سنة ١٨٥٠ ولم ترقم صفحاته) .

وهذه المجموعة تشتمل كما ذكرنا على القرعان والبدايات والزغاوة ، ومواطنهم تمتد من الشمال للجنوب لغاية المنحدرات الشمالية لجبال مره ، على الترتيب المذكور . فالزغاوة إلى الجنوب يليهم البدايات فى الوسط والقرعان فى الشمال .



(شكل ١٨) توزيع القبائل فى دارفور

ولغة الزغاوة مشابهة تماماً للغة التبو ، مما يدل على تأثر الإقليمين بهجرات متشابهة .

الثانية : مجموعة مصدرها إقليم النوبة ، وهى تشتمل بوجه خاص على قبائل

الميدوب والتنجور ، وهم جميعاً ينتسبون إلى أصل نوبى ، وهنالك أسباب قوية لتأييد هذا النسب .

الثالثة : مجموعة تأثرت بالهجرات النوبية ، وفى لغاتها ما يدل على ذلك . ولكنها بلا شك تشتمل على عناصر قديمة ؛ وهذه المجموعة تتألف من :

١ — البِرْتى Berti أصلهم من جبال تباجو Tabago ، ثم هاجر كثير منهم إلى الجنوب الشرق اتقاء لخطر الفور .

٢ — الداجو : وهم أيضاً عنصر قديم ولهم قسمان فى شرق وغرب دارفور .

٣ — البِرقِد : شمال وشرق الداجو .

٤ — البِيْقو أو البايقو : ولغتهم قريبة من لغة الداجو ؛ وفيها كثير من المفردات النوبية .

والقبائل التى يشملها هذا القسم قد تأثرت بالثقافة النوبية ، دون أن تتأثر كثيراً بالدماء النوبية .

الرابعة : هى المجموعة الغربية ، مصدرها الأقاليم الجنوبية من ليبيا ، أو السودان الفرنسى ، الممتدة من غرب دارفور على طول السفانا إلى حوض نهر النيجر . وتشتمل على عناصر من الفِلاّتا والميمة والمراريت والبرنو والتكارنة وما إليهم .

الخامسة : هى المجموعة التى نستطيع أن نصفها باسم المجموعة الأصلية ، أو القديمة ، والتى ترجع هجرتها (من الجنوب على الأرجح) إلى عصر قديم جداً ، وإن تأثرت بعد ذلك تأثراً يسيراً أو كثيراً بهجرات أحدث .

وهذه المجموعة تشتمل على خمس قبائل :

١ — القِمر ، وقد فقد معظمهم لغته الأصلية ، شعب وديع مسالم ، مواطنه الرئيسية إلى الشمال من واداى .

٢ — تاما : سكان دار تاما إلى جنوب القمر وعلى الحدود الشمالية من واداى .

٣ — الإرِنجا والمون : ويعدهم بعض الكتاب جماعة واحدة . ويتكلم كل من تاما وإرنجا ومون لغة واحدة لا يتكلم بها غيرهم .

٤ — المساليط : يعيشون فى الدار المسماة باسمهم ، ما بين الفور من الشرق ووادای من الغرب ودار تاما فى الشمال ودار سولا فى الجنوب .

٥ — الفور : وطنهم الرئيسى إقليم الجبال ، والأرجح أنهم يشتملون على أقدم العناصر . وإن تأثروا بهجرات أحدث فيما بعد .

وإلى جانب هذه المجموعات الخمسة يذكر ماكايكل طائفة « الحدادين » أو الحداحيد ، أطلق عليهم هذا الاسم لاحترافهم الحدادة ، ولعلهم من نسل قبيلة قديمة دفعتهم حرفتهم إلى العزلة وتجنبتهم القبائل الأخرى ، كما حدث فى جميع الأحوال المشابهة ، حيث نرى الحدادين ، حتى بين القبائل الزنجية ، يعيشون كأنهم جماعة من المنبوذين ، برغم انتفاع جيرانهم بما تنتجه حرفتهم .

* * *

ولا شك أن الفور هم العنصر الأكثر بروزاً فى التكوين الجنسى لهذا الإقليم كله . وفى هذا وحده مايبرر تسمية المديرية باسم دارفور . ولكن السبب الأكبر فى ظهور اسم الفور على سائر الأسماء ، نشوء سلطنة عظيمة نواتها إقليم الجبال وما يليها من الأقطار . ومع أن الفضل فى انشاء هذه السلطنة يرجع إلى عنصر يختلف بعض الاختلاف عن الفور الأصليين فإن الاسم الذى أطلق على هذه السلطنة مشتق من اسم سلالة الفور .

والفور اسم الشعب كله ، وهو الصيغة العربية للاسم ، والمفرد فوراوى . وهم يسمون أنفسهم فوراً والمفرد فُرْدُنْجو ، ولغة الفور المسماة بِلى فور مختلفة عن سائر اللغات ، ولا تمت إلى العربية بصلة ، سوى اقتباسها ألفاظاً وعبارات عربية . وقد وصفت بأنها تشتمل على خصائص حامية وسودانية ، وإن كان هذا الوصف الأخير لا يدل على معنى واضح . وهى تشتمل على حروف وأصوات تشبه ما فى لغات سكان الجنوب وعلى الأخص إقليم بحر الغزال . وهى غنية بألفاظها ومفرداتها . ولها نحو وصرف معقد[1] .

وقد وصف ماكايكل الفور بأنهم أحط مرتبة من جيرانهم سواء من

---

(١) راجع مقال مستر بيتن A.C. Beaton The Fur, S.N.R. 1948, Part1.

الناحية الجسدية (أى أنهم أقرب إلى الشكل الزنجى والتقاطيع الزنجية) أو الاجتماعية أو من ناحية الذكاء والفهم [١] . لذلك قد يبدو لأول وهلة غريبا أن يكونوا هم العنصر الظاهر فى هذه المديرية حتى يغلب اسمهم على سائر الأسماء غير أن بعض الكتاب ممن عاشر الفور يشهد بأنهم لا يقلون عن جيرانهم ذكاء ونشاطا [٢] .

ولكن الفور يمتازون بعدة ميزات : أهمها كثرة عددهم واحتلالهم لجميع المنطقة الجبلية الغزيرة الأمطار ، وزحفهم منها إلى الجهات التى تجاورها شرقا وغربا ، وانصرافهم إلى حياة الزراعة والاستقرار مما جعلهم أشد التزاماً للأرض ، وجبالهم التى تتيح لهم أراضى زراعية مع وفرة المياه ، هى بمثابة قلعة حصينة ، يعتصمون بها إذا ظهر عدو مغير ويحتفظون فيها بوحدتهم وكيانهم حتى ينجلى الخطر .

وفوق هذا كله امتاز شعب الفور بأنه يشتمل على شعبة خاصة من أبنائه تدعى الكنجارة [٣] وهؤلاء كان لهم الفضل الأكبر فى رفع شأن الفور وإظهارهم على سائر السلالات المجاورة . وهؤلاء الكنجارة يمتازون بأن تقاطيعهم تغلب عليها الصفات القوقازية ، كما يمتازون بالجد والنشاط والذكاء . وهم أحسن إسلاماً من سائر الفور . وهذه الميزات كلها يرجعها ماكايكل إلى أنهم يشتملون على كثير من الدماء العربية . والأرجح أنه قد دخل فى تكوينهم عنصر عربى اكتسب تجربة سابقة فى بلاد ذات حكم مستقر منتظم ، أى أن الكنجارة لا يرجعون إلى عنصر من البدو الذين لا يرغبون فى حياة الاستقرار ، وإلا لما نجحوا فى إنشاء دولة تمتاز بالنظام والاستقرار . ولعل من الصواب أن نشبه الكنجارة بالفنج ، وأنهم يمثلون عنصراً قوقازياً فاتحاً ، على رأس جيش مؤلف من عناصر مختلفة ، ولكن الجميع يوصفون باسم الكنجارة ، وقد بسطوا نفوذهم على الفور واختلطوا بهم ، ولكنهم ظلوا شعبة منفصلة لها السيادة والقيادة ، وإن كانوا يعدون أنفسهم من الفور .

ويوشك أن يكون من المؤكد أن هذا العنصر الفاتح ، قد تكوّن فى إقليم ما

---

(١) ماكايكل : تاريخ العرب فى السودان الجزء الأول ص ٩١

(٢) راجع مقال بيتن Beatan عن الفور فى مجلة S.N.R. لسنة ١٩٤٨ ص ٣

(٣) كتبها النونسى بالهاء ، وهناك من يكتبها بالألف أو الألف المقصورة .

فى جنوب الصحراء الليبية ، والأرجح أن أوطانه الأصلية كانت فى إقليم بحيرة تشاد ؛ وأهم الأدلة على هذا كما ذكرها أركل[١] :

١ — استخدام كلمة ميرام Meiram بمعنى بنت السلطان الحاكم ، فى دارفور وهى من لغة البرنو .

٢ — استخدام كلمة الفاشر بمعنى العاصمة ، وكان البرنو يستخدمون هذه الكلمة بمعنى الساحة الواسعة أمام قصر السلطان .

٣ — تقسيم سلاطين الفور مملكتهم إلى أربعة أقسام فى الشمال والجنوب والشرق والغرب ، كالعادة السائدة فى إقليم بحيرة تشاد .

٤ — كانت العملة السائدة حول بحيرة تشاد قطعة من القماش ، وكذلك الحال فى دارفور . وقد أورد أدلة أخرى تبدو أقل شأناً من هذه ، فنكتفى بما تقدم ، ولسنا بحاجة لأن نعلق أهمية كبيرة على رواية شفوية كانت متداولة فى بلاد البرنو فى أوائل القرن التاسع عشر ؛ تشير إلى أن كلا من دارفور ووادای كان تابعاً لمملكة برنو ، اللهم إلا على أنها دليل آخر على الصلات بين الفور وتلك الأقاليم .

ومن الأدلة على أن سلطنة دارفور قد أسستها أسرة عربية ، أن أول السلاطين كان يدعى سليمان سلونج : وكلمة سلونجا بلغة الفور معناها عربى . وهذه الأسرة الحاكمة التى كان على رأسها سليمان هذا ، وتسمى أسرة كَيْرا ؛ تنتسب أيضاً إلى بنى هلال ، وليس من المستبعد أن يكون نفوذ بنى هلال قد وصل إلى جنوب الصحراء . وانتقل منها إلى دارفور .

ووجود طبقة من السكان لها اسم خاص ، كاف وحده ، إذا قارناه بالظاهرات المشابهة فى جهات أخرى ؛ لإثبات أن هذه الطبقة تمثل عنصراً ممتازاً نزل البلاد غازياً أو مهاجراً ولم يلبث فى كلا الحالين أن قبض على زمام الأمور . ولكن الظاهرة التى امتازت بها دارفور هى أن الكنجارة يصفون أنفسهم بأنهم فرع أو شعبة من الفور ، الذين يصفهم التونسى بأنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : الكنجاره ، والكرا كريت ، والتيمركا ، ولا تزال هذه الأقسام قائمة إلى اليوم .

---

(١) مجلد ٢٧ (١٩٤٦) ص ٨٧ من S.N.R

ولذلك جاز لنا أن نتساءل هل كان هـذا التقسيم سابقاً لتلك الهجرة المشتملة على عناصر عربية ، أم لاحقا لها . . . وليس لدينا فى الأخبار والروايات ، مايرشدنا إلى الإجابة الصحيحة على هذا السؤال .

إن السلطنة التى أسست لم توصف بأنها سـلطنة الكايرا أو الـكنجارة بل وصفت بأنها دولة الفور ، وهذا خلاف لـما رأيناه فى دولة البللو أو دولة الفنج نفسها . أو حتى الدولة العباسية أو العثمانية . . أضف إلى ذلك أنه ليس للـكنجاره لغة خاصة بهم ، بل لسانهم هو لسان الفور ، وكان المعقول أن تكون لهم ثقافة تميزهم ، ماداموا يمثلون عنصراً تغلب عليه سلالة أجنبية أيا كان مصدرها .

ولعل التفسير لهـذه الظاهرة ، هو أن العناصر الجديدة قد دخلت البلاد بالتدريج ، وعلى هجرات متتالية . وأن هذه الأقسام الثلاثة ترجع إلى زمن سابق لتلك الهجرات . وكان نزول هؤلاء المهاجرين فى القسم الذى يسكنه أحد تلك الأقسام فاختلطوا به على مضى الزمن ، حتى ازدادات فيه نسبة الدماء العربية أو القوقازية ورجحت كفته على ممر السنين ؛ حتى جاء الوقت والظروف التى مكنته من إنشاء هذه الدولة فى القرن السابع عشر ؛ أى أن اسم الـكنجاره سبق تسرب الدم العربى إليهم .

والروايات التى بين أيدينا لا تشير إلى أن أول هؤلاء السلاطين وهو سليمان سُـلونج ، كان أول المهاجرين ، بل تشير إلى أجداد له سبقوه إلى نزول بلاد الفور والاستقرار فيهـا ، ويذكرون من بين هؤلاء الأجداد شخصاً يدعى أحمد المعقور لم تحدد الروايات تاريخ هجرته . وإنما تشير إلى انتسابه لبنى هلال . وأن سليمان المذكور من نسله .

والظاهر أن تأسيس سلطنة دارفور قد سبقته حروب أهلية . خرج منهـا سليمان المذكور ظافراً منتصراً ، واتخذ عاصمته فى بلدة طرّه فى شمال جبال مره . وأمكنه أن يوحد السلطنة ويمد نفوذها شرقاً وغرباً . . وكان حكمه ممتـداً من عام ١٦٤٠ إلى ١٦٧٠ ؛ وجاء بعـده سلاطين لهم من حسن التدبير وقوة التنظيم ما ثبت أركان الملك ، وإن لم تخل الفترات الأخيرة من الاضطرابات .

وعند ما استتب الحكم واتسعت المملكة ، أخذت الجماعات تنتشر فى أنحاء

السلطنة ، ومع أن نواة الدولة كانت دائماً فى المنطقة الجبلية ، فإنها لم تلبث أن شملت السهول المجاورة شرقاً وغرباً وانتشر الفور أنفسهم تبعاً لذلك .

وقد نزح من بلاد الفور شعبة من الكنجارة تدعى المسابعات ، نزحت إلى الشرق حتى احتل بعضها إقليما فى شرق دارفور ، وبعضها نزح إلى كردوفان ؛ وفى بعض الأوقات بلغوا من السطوة أنهم كانوا ينافسون سلطنة الفور بلويناصبونها العداء أحياناً .

أما الأقسام الثلاثة للفور ، وهم الكنجاره ، والكرا كريت ، والتمركا ، فإنهم منتشرون فى جميع أنحاء البلاد ، ومن الصعب أن نضع حدوداً تفصل بينها ، ومع ذلك فإن الكنجاره قد أصبحوا أكثر انتشاراً فى الشرق ، والكرا كريت فى الشمال وعلى الأخص حول جبل سى . أى الإقليم الذى تحتله جماعات تعد من أقدم السكان والتمركا منتشرون بوجه خاص فى الجنوب الغربى ، وربما كان الكنجاره أوسع انتشاراً من كل من المجموعتين الأخريين [1] .

ومن الممكن أن نتصور أن سلطنة دارفور قد بدأت فى الكتلة الجبلية ، حتى توطدت أقدامها ورسخت قواعدها ، ثم أخذت تنتشر بقيادة الكنجاره إلى الشرق حتى عمت دارفور ، وزحفت إلى كردوفان ، وتغلبت على المسابعات ، وأصبح لها النفوذ والسيطرة على كردوفان الشمالية والوسطى ، إلى وقت فتوح محمد على فى سنة ١٨٢١ . وكما اتسع نفوذ الفور إلى الشرق ، اتسع أيضاً نحو الغرب ، وكان سلاطين المساليط تابعين لسلطان دارفور ، غير أن الحدود الغربية ظلت مجالا للنزاع بين سلطنة واداى وسلطنة دارفور ، وإن كانت الغلبة والرجحان عادة فى جانب الفور .

ونظراً لتتابع عدة سلاطين أولى قوة وأولى بأس شديد ، أصبح اسم دولة الفور مهاباً ، تخشاه القبائل المجاورة ، ويتحاماه البقاره فى الجنوب ، على كثرة عددهم وشدة بأسهم ، وكثيراً ما نزحت جماعات منهم بعيداً هرباً من أن يمتد إليهم سلطان الفور .

ولقد كان للسلطان دائماً عناية خاصة بجيشه ، وكثيراً ما كان يحشد فيه

---

(١) أصبح للكنجاره مستعمرة فى شرق السودان فى القضارف وما حولها

جماعات من العبيد ، بجلبهم من مختلف الجهات ، وعلى الأخص من قبائل بحر الغزال ، وبذلك تعقد التكوين الجنسى للسكان باضافة هذه العناصر الجديدة التى اندمجت فى الفور واقتبست لغتهم وثقافتهم .

وهنا لك روايات تزعم أن جميع الفور الأصليين ، أصلهم من إقليم بحر الغزال قريبو الصلة بالفرتيت ، أى القبائل المختلفة التى تعيش فى الشمال الغربى من حوض الغزال ، غير أن ماكما يكل يرى أن لغة الفور لغة خاصة بهم ، وليس لها فيما يعلم نظير عند أية قبيلة من سكان دار فرتيت .

ويصف ماكمايكل الفور الأصليين (خلاف الكنجاره) ، بأنهم ذوو قامة قصيرة أو متوسطة ، وجسم نحيل وأرجل دقيقة ، وعظام صغيرة ، ورءوس بيضية الشكل [1] والمقاييس التى أجريت على ١٨ من الفور فى الخرطوم أظهرت لسلجمان أن متوسط القامة ١٦٥ م م والنسبة الرأسية ٧٤٫٤ والأنفية ١٠٢ .

ويتحامل ماكمايكل عليهم فيرميهم بالبلادة أو الغباء والمكر الوضيع Stupidity and low cunning in combination ؛ وأنهم يميلون إلى الخرافات والمخادعة . ويكذبون بالغريزة حتى فى أتفه المسائل ، تجنباً لقول الصدق . يغلب عليهم الجهل ، ويميلون إلى تصديق مالا يقبله العقل من الإشاعات ، سريعو الغضب ، وينزعون إلى الكسل والسكر . ولكنهم مع ذلك يضحكون بسهولة ، ويميلون إلى الفكاهة . وأقصى أمانيهم فى الحياة اقتناء البقر [2] .

وشباب الفور يتزين بأساور من النحاس الأصفر ، ويحلون الرأس والشعر بالخرز والودع . ومتى وصلوا إلى سن الرجولة طرحوا هذه الحلى ونبذوها .

ومن أسلحتهم الحراب للرماية ، وأ كثرهم يحتقب دائماً جعبة فيها عدد كبير منها ، كما يحمل معه مدية . ولكن سلاحهم الذى يمتازون به هو عصا الرماية ، التى يتخذونها من جذور شجر القطر . وهى عصا ملتوية بزاوية منفرجة ، ولهم

---

(١) نفس المرجع ص ١١٣ .

(٢) سبقت الإشارة إلى أن هذا الرأى لم يقبله مستر بيتن ، الذى عاشر الفور زمناً غير قصير ولعل سبب الاختلاف يرجع إلى أن ماكمايكل شهد حرب على دينار ، وبنى رأيه على مشاهداته عقب تلك الحرب . حين كان الأهالى غير مطمئنين إلى الحكم الجديد ورجاله .

براعة خاصة فى استخدامها لصيد الأرانب ودجاج الوادى ، وعند الضرورة لضرب سيقان الخيل .

والفور شعب زراعى على الرغم من وفرة ماشيتهم وحبهم لاقتنائها ؛ وأهم غلاتهم الذرة الرفيعة ، ويزرعون البصل والطماطم أيضاً . وقد وصف ما كمايكل طريقتهم فى تخزين الذرة ، وكيف يبنون لهذا الغرض مخازن مربعة الشكل من الخشب والحطب ، على قاعدة من عروق الخشب ، مرتفعة عن سطح الأرض بنحو قدم وذلك تجنباً لخطر النمل الأبيض . وإن كان هذا النمل الأبيض نفسه مما يجمعه الأهالى ويأكلونه بعد طهيه .

ويختزن الحب فى المنازل فى داخل برمات مصنوعة من الطين الممزوج بالروث ؛ وهى عادة تبلغ نحو ١٢٠ سنتيمتراً فى الارتفاع وقطرها نحو الستين سنتيمتراً ، ويحفظون الماء والمريسة فى قدور من الخزف المصنوع ببساطة . ولا يمتاز خزفهم بالإتقان ، وأكبر صناعة يجيدها الفور هى صناعة الأسفاط المتقنة ذات الألوان والرسوم الجميلة ، يتخذونها من أنواع مختلفة من العيدان والخوص ، وربما وجد الإنسان منها ما يباع حتى فى أسواق أم درمان .

***

وديانة الفور الإسلام ، وكذلك ديانة جميع السلالات والأجناس فى سائر المديرية . ولا شك أن كثيراً منها دخل البلاد مسلماً ، ولكن طوائف عديدة منهم قد أسلمت وهى تسكن دارفور . وهكذا صارت مديرية دارفور كلها تدين بالإسلام من أولها لآخرها . وهذه نقطة أخرى تميز دارفور عن كردوفان ، وتميز الإقليم الجبلى فى دارفور ، عن الإقليم الجبلى فى كل من كردوفان وبلاد الفنج ، ولئن كانت من قبل فى بعض الجهات الجبلية أو المنعزلة بقية من الوثنية القديمة ، فإن ضغط الجماعات الإسلامية من جميع الجهات ، وتأسيس سلطنة دارفور نفسها وتنظيمها تنظيما إدارياً موحداً ، كل هذا كان كفيلا بنشر الإسلام والعروبة ، فى جميع أنحاء الإقليم .

وليس مما ينقض هذه الحقيقة أن تكون هنالك خرافات شائعة بين بعض

القبائل والجماعات ، وبعض الطقوس التى لا يعرفها الإسلام ، فإن أمثال هذه الأشياء لا يكاد يخلو منه بلد دخله الإسلام أو النصرانية ، لأنها مما ألفه الناس منذ أزمان طويلة ، واستئصالها أمر مرهون بمضى الوقت وازدياد الثقافة وانتشار التعليم .

وقد تكلم غير واحد من الكتاب عما شاهدوه أو نقل إليهم من عادات غريبة على الإسلام ، وأكثر ما يردده هؤلاء انتشار عادة تكرمة الأشجار أو شجرة خاصة تقام حولها شعائر وطقوس حتى وصفها بعضهم بأنها شجرة مقدسة ، وأن بعض القبائل تعبدها ، أو تعبد الروح الكامن فيها ، وكذلك تكرمة بعض الحجارة .

ويقول سلاتين فى كتابه : إنه رأى عند البدايات شجرة عظيمة من الهجلج ممتدة الفروع ، فى بقعة طهرت تطهيراً شديداً ، ونثرت حولها الرمال الناعمة ، يركع الناس حولها يبتهلون إلى إله مجهول ، ويقول إن لديهم عادات غريبة فى الميراث فالمقابر عادة تبنى على مسافة من القرية ؛ وبعد الانتهاء من دفن الميت ، يقف الورثة صفاً ، ثم تعطى لهم إشارة فيجرون بأسرع ما يمكن إلى منزله ، وأول رجل يثبت حربته فى دار الميت يكون له حق الوراثة ، ويخلفه على جميع ممتلكاته بما فى ذلك النساء والزوجات ، ما عدا أمه ، وله الحق أن يتزوج منهن من يشاء وأن يمنح الحرية لمن يشاء .

ويزعم سلاتين أنه تحدث إلى أحد رجالهم فى العادات غير الإسلامية المنتشرة بينهم ، فأنكر أن هنالك عادات من هـذا النوع فلما سأله سلاتين عن الشجرة المذكورة قال إنهـا شجرة عادية ، فقال سلاتين إنه رأى بعض العرب الماهرية يريدون أن يرعوا أنعامهم تحت تلك الشجرة ، ولـكنه لـما رأى مالها من مظاهر الحرمة والتقديس نهاهم عن ذلك ، فأخذ الرجل يشكره من كل قلبه[1] .

ويروى سلجمان أنه فى جبل كاجا — إلى الشمال الغربى من جبل كاتول — على الرغم من أن الناس مسلمون ويقولون إن المطر من عند الله ، تقام حفلات فى موسم المطر تكرمة لذكرى شخص يدعى أبو على ، يرى سلجمان أنها من مخلفات

---

(١) الحرب والنار فى السودان ، نسخة انجليزية (١٨٩٦) ص ١١٤ .

العهد الوثنى ، وليس « أبو على » سوى اسم لأحد صانعى المطر القدماء : وأبو على أيضاً اسم لثعبان يرى بعض القبائل أن روح الزعيم تكمن فيه ، وتقام حفلة سنوية لذكراه بالقرب من كوخ بجانب أخدود فى الأرض ، والمفروض أن هذا الكوخ كان مسكناً له ، وفى هذه الحفلة تذبح معزى ، وتلطخ بعض الصخور بدمها ، ثم يطهى لحمها على نار جديدة ، ويأكلها الأشخاص القائمون بطقوس الاحتفال ، والذين « تركبهم » روح أبو على المذكور(١) .

وهكذا يدلى الكتاب بآراء مختلفة تدور كلها حول تقديس شجر أو حجر أو ثعبان ، كما يشيرون إلى بعض العادات السائدة عند التنجور تتصل بعلامة الصليب ، ولا شك أن هذه العلامة حملها المهاجرون من بلاد النوبة فى العهد المسيحى وليس بمستغرب وجود مخلفات عند العامة ، من بقايا العهود الدينية السابقة .

سلطنة دارفور

لعل أهم ما تمتاز به دارفور — كما امتازت دار الفنج — هو تأسيس دولة تشمل إقليما عظيما من السودان الغربى ، وأول السلاطين كما ذكرنا هو سليمان سلونج ، ولكن هنالك أخبار عديدة تدل على وجود فترات سابقة من الحكم المستقر ، شمل هذا الإقليم من قبل ، وهنالك على الأقل أسماء أربعة سلاطين فى القرن السادس عشر(٢) . ولكن لا نكاد نعلم عنهم أكثر من أسمائهم ؛ وكان سلطانهم مقصوراً على إقليم جبل مرة .

وهنالك روايات أخرى تشير إلى أن أول من أسس مملكة فى الإقليم هم شعب داجو ، ولكن دولتهم كانت على الأرجح محدودة المدى ، ومنحصرة فى الإقليم

---

(١) Pagan Tribes ص ٤٤٨ ومن الملاحظ أن سلجمان يشير الى جبل كاجا وهو فى الطرف الغربى من كردوفان ، بالقرب من حدود دارفور ، ولكن هنالك فى دارفور نفسها خرافات تتصل بالثعابين وأنها تلبسها الأرواح بقطع النظر عما يقال عن تحول بعض الأفراد الى حيوانات مفترسة . وهو ما يتهم به المساليط .

(٢) مقال بيتن السالف الذكر ص ٣ . والأسماء هى دالى أفنو ، وإدريس جعل ، وكورو وتنسام والأول بلا شك من برنو

الجنوبى الشرقى ، ولم يمتد نفوذهم إلى الشمال أو إلى الغرب ، وبالتالى لم يشمل جبال مرة نفسها[1].

كذلك تشير الروايات إلى أن شعب التنجور أسس دولة بعد زوال دولة داجو أو كانت معاصرة لها ؛ ومع أن دولة التنجور حقيقية تاريخية ، فإنها كانت مقصورة على الأطراف الشمالية من الإقليم الذى شملته دولة الفور فيما بعد . ويروى التونسى أنه شاهد أحد زعماء التنجور يلبس عمامة سوداء حداداً على ذلك الملك الزائل الذى كان آخر سلطان تولاه ، يدعى دُرشيد . الذى انتزع الفور منه زمام السلطنة . واستولوا على دياره وضموها لسلطنتهم .

وهكذا يبدأ التاريخ الأقرب إلى التدوين بتولى سيمان سلونج الملك فى سنة تقدر بعام ١٦٤٠ والظاهر أن سليمان تولى السلطة بعد عهد من الفوضى والحروب الداخلية وقد قدر تاريخ توليه الملك بمنتصف القرن السابع عشر ، فكان رأس أسرة حاكمة توالى أعضاؤها تباعاً على النسق الآتى (التواريخ الأولى تقريبية) .

سليمان سُلونْج	١٦٤٠ — ١٦٧٠
موسى بن سليمان سلونج	١٦٧٠ — ١٦٨٢
أحمد بكر بن موسى	١٦٨٢ — ١٧٢٢
محمد (دوره) بن أحمد بكر	١٧٢٢ — ١٧٣٢
عمر (ليل) بن محمد دوره	١٧٣٢ — ١٧٣٩
أحمد قاسم بن أحمد بكر	١٧٣٩ — ١٧٥٢
محمد طيراب بن أحمد بكر	١٧٥٢ — ١٧٨٧
عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر	١٧٨٧ — ١٨٠٢
محمد فضل بن عبد الرحمن	١٨٠٢ — ١٨٣٩ [2]
محمد حسين بن محمد فضل	١٨٣٩ — ١٨٧٤
ابراهيم بن محمد حسين	١٨٧٤ — ١٨٧٥

(١) راجع لمبن Lampen فى S.N.R. ، ١٩٥٠ ، ص ١٨٣

(٢) كان هو السلطان وقت رحلة الشيخ التونسى ، وقد مدحه مدحاً كثيراً .

(عهد الحكم المصرى ١٨٧٥ — ١٨٨٣)

(عهد المهدية ١٨٨٣ — ١٨٩٩)

على بن دينار ١٨٩٩ — ١٩١٦

***

ومع أن مدة هـذه السلطنة لم تدم أكثر من قرنين ونصف قرن ، فى حكم مستمر مطرد . فإن هذه المدة ليست بالفترة القصيرة بالنسبة لمثل هذه المالك الإفريقية النائية ، وبالنظر إلى شدة التنافس والتنازع ، وإلى موقع الإقليم الجغرافى ، الذى جعلها عرضة للإغارات من نواح عديدة .

ومهما يكن من شىء فقد قامت فى إقليم دارفور سلطنة مستقرة ذات نظام إدارى واضح ، وقد اتسعت أحياناً حتى شملت جزءاً كبيراً من كردوفان ، بل امتدت فترة قصيرة حتى وصلت إلى نهر النيل عند بلدة المتمه .

وقد كان لهذه السلطنة نظم أساسية ، ضمنت لها بعض الاستقرار ولا تزال آثار هذه النظم باقية إلى اليوم ، وأهم عنصر فى هذا النظام هو شخصية السلطان نفسه ، فقد كان أكثر هؤلاء السلاطين رجالا ممتازين ، وكان لـكل منهم جيش دائم ، وحرس شخصى عنى السلطان بتأليفه عناية خاصة ؛ وكثيراً ما كان يعتمد على عدد ضخم من العبيد ، الذين جندوا خصيصاً لهذا الغرض ، وكان له مجلس خاص من المقربين .

وقد كانت العاصمة الأولى للسلطان فى طره ، فى الطرف الشمالى من جبال مره ونقلت بعد ذلك إلى الفاشر ؛ وقد قسمت السلطنة إلى أربعة أقسام إدارية كبيرة ، فى الشمال ، وفى الجنوب ، وفى الشرق ، والغرب ، مع بعض الانحراف فى التقسيم عن الجهات الأربعة الأصلية ، وكل من هذه الأقسام الأربعة كان يتولى إدارتها شخص يدعى المقدوم ، وكثيراً ما كان هذا المنصب وراثياً . وكان للمقدوم سلطة واسعة ، وله الحق فى الحكم بالإعدام . وكان يطوف بمديريته ومعه حرسه الخاص ، لـكى يحافظ على الأمن ، ويعاقب من يخل به ، ويصلح بين القبائل . ويفصل فى جميع الأحكام . وهو الذى يولى المناصب القبلية الرئيسية ، وعليه أن يحضر

إلى عاصمة السلطان مرة فى كل ثلاث سنوات ، لكى يشهد الاحتفال بتجديد جلود الطبل السلطانى ويؤدى خراج السنوات الثلاث ؛ ويتسلم جزءاً من هذا الخراج لينفقه فى إدارة مديريته .

وكانت كل مديرية (أو مقدومية) مقسمة إلى أقسام صغيرة على رأس كل منها موظف يسمى « شرطى » أو شرتى ، ولو أن نفوذه ومنصبه كان أعظم مما يدل عليه هذا اللفظ ؛ وكل قسم برئاسة شرطى مقسم بدوره إلى أقسام صغيرة برئاسة دمالج ، وهؤلاء الدمالج يكونون أحياناً مجلساً استشارياً خاصاً لمساعدة الشرطى فى أعماله .

وهنالك عدة وظائف أخرى مخصصة للحاشية السلطانية ، وبعضها قد يكون للشرطى نفسه ، منها منصب يدعى أرُنْدولُو : وهو يعادل منصب الحاجب ، وكان منصباً خطيراً ، ولم يكن مقصوراً على عمل الحاجب ، أى حارس باب السلطان أو الشرطى ، بل هى أقرب إلى وظيفة الحاجب عند خلفاء العرب ؛ فقد كان شخصاً ذا نفوذ كبير فى البلاط .

وهكذا نرى أن سلطنة دارفور كسلطنة الفنج كانت ذات إدارة واسعة منظمة تنظيماً دقيقاً ، وإن كانت كلها تعتمد فى النهاية على شخصية السلطان نفسه ؛ وما رزق من الهمة والذكاء والفضائل المختلفة التى لا بد منها لإدارة دولة عظيمة .

ويبدو أن بلاد دارفور ، وعلى الأخص فى جبال مره وما حولها كانت أكثر ازدحاماً بالسكان فيما مضى ، مما هى عليه اليوم ، ولعلها قد مرت بها أطوار تاريخية عديدة أكثرها لا يزال مجهولا . فقد لاحظ ما كمايكل وجود منازل عديدة ، وأحياناً قرى كاملة مهجورة ، وكثير منها يشتمل على منازل مبنية بالحجارة ، على طراز لا مثيل له فى الوقت الحاضر [1] .

* * *

الفلاّتا

جاء فى سياق الكلام عن قبائل دارفور ذكر الفلاتا ، وأنهم من العناصر

---

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان ص ١٠٨ وما بعدها .

التى هاجرت إلى دارفور من الجهات الواقعة فى أقصى الجنوب من الصحراء الكبرى ، أى من أقاليم المراعى (السڤانا) الممتدة شمال منطقة الغابات ، من السودان إلى المحيط الأطلسى تقريباً . وبعض هؤلاء يمثلون هجرات حديثة . ولكن بعضهم قد نزل دارفور منذ قرنين أو أكثر واتخذ له وطناً إلى الجنوب من منطقة الجبال . وهؤلاء وصفهم التونسى بأنهم من جماعات الفولا (المفرد فولانى) ، المنتشرين فى أقاليم السڤانا ، فيما يسمى السودان الفرنسى ، كما تشمل أيضاً القسم الشمالى من بلاد نيجريا .

والأصل فى الفولا أنهم قبائل حامية امتزجت بدماء عربية ، وكان لها نشاط كبير فى نشر الإسلام فى غرب أفريقية وفى نيجريا . وبذلك تسربت إليهم دماء أهل الجنوب أيضاً .

غير أن اسم الفلاتا ليس مقصوراً على تلك الشعبة التى تعيش فى دارفور ، بل يطلق فى السودان على جماعات كبيرة انتشرت فى جميع البلدان ، وفى إقليم الجزيرة وشرق السودان بوجه خاص ، حيث نراهم يحتلون قرى وجهات بأكملها . ويقسمهم مستر ترمنجهام إلى ثلاثة أقسام :

١ — طوائف الحجاج الذين يقصدون إلى الحج عن طريق السودان ، وطريقهم الرئيسى من دارفور إلى الأبيض ، حيث يركب أكثرهم القطار إلى بور سودان ومنها إلى الحجاز . ونظراً لأنهم يكتسبون رزقهم أثناء رحلتهم ، فإن رحلة الحج هذه تستغرق نحو سبع سنوات . وفى العودة يفضل كثير منهم البقاء فى السودان .

٢ — المجموعة الثانية تتألف من مستعمرات كبيرة فى إقليم كسلا وسنار ، وكثير من سكانها يتألف من جنود من غرب أفريقية كانوا يحاربون فى صفوف الخليفة ، ثم تولت إدارة السودان توطينهم ، وتهيئة أسباب الإقامة لهم . ومن هذا الطراز تلك المستعمرة العظيمة التى قامت فى إقليم سنار برئاسة سلطان مارنو ، وهو ابن سلطان سُكوتو فى غرب إفريقية ، وهنالك عدد كبير منهم يعيش بصفة دائمة ويشتغل بمختلف الحرف فى أم درمان وغيرها من المدن . وهم يحتشدون بوجه خاص حول

الإدارات والمنشآت الحكومية ، حيث يكونون جزءاً عظيما من الأيدى العاملة . ويزعم مستر ترمنجهام أنه لولاهم لما أمكن تنفيذ مشروع الجزيرة .

٣ — أما الطائفة الثالثة فهى تلك المستعمرة القديمة إلى الجنوب من دارفور ، التى تقدم ذكرها .

وليس هنالك إحصاء ولو تقريبى لعدد الفلاتا فى السودان . غير أن أحد موظفى حكومة نيجريا قام بإحصاء خاص للمهاجرين من نيجريا ، وقدرهم بما يقرب من ثمانين ألفاً . أما المهاجرون من جهات أخرى فليس لدينا عنهم أى إحصاء أو تقدير .

ومن المعلوم أن السودانيين ليسوا مرتاحين بوجه عام لهذه الهجرات المتزايدة من الفلاتا ، خصوصاً أن السكان أنفسهم فى ازدياد مطرد . غير أن إدارة السودان لاتزال تشجع هذه الهجرات على زعم أنها لازمة لتوفير الأيدى العاملة[1] .

---

(١) راجع ترمنجهام ص ٣١ S. Trimingham ; Islam in the Sudan

الفصل الثالث عشر

النوبيون

جاء ذكر النوبيين مراراً فى الفصول السابقة فى مناسبات عديدة ، وعلى الأخص عند الإشارة إلى مستعمراتهم فى مختلف أنحاء السودان ، غير أن الأوطان الرئيسية للنوبيين هى بالطبع تلك الأراضى الملاصقة لنهر النيل من شمالى أسوان إلى بلدة الدبة وكورتى ، يستقلون أحياناً بهذه الجهات النهرية لا يشاركهم فيها أحد ، ويجاورهم أحياناً — كما رأينا من قبل — جماعات عربية .

فالنوبيون فى أوطانهم الأصلية شعب نهرى ، يلتزم وادى النيل التزاماً شديداً ، قل أن نجد له نظيراً فى أى جزء آخر من الوادى . وذلك لاشتغالهم بالزراعة من جهة ، ولأن الطبيعة الصحراوية للأقاليم المتاخمة للنهر شرقاً وغرباً ، أرغمت السكان على مضى القرون الطويلة أن تظل ملتزمة للنهر ، وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة التى تحف به .

ولهذا الإقليم المستطيل الضيق مقدرة كبيرة على امتصاص العناصر الغريبة التى دخلته من آن لآن ، وعلى تمثيلها تمثيلا كاملا حتى تندمج اندماجاً تاماً فى سائر السكان ، وقد تلقى النوبيون على مدى آلاف السنين ألواناً من السلالات والجماعات ، نزلت ديارهم مهاجرة أو غازية ثم لم تلبث أن استولت عليها البلاد وأدمجتها فيها . وهذه الخاصية وإن كانت معروفة فى مصر ، فإنها أكثر ظهوراً فى الديار النوبية .

وليست هذه المساحة الطويلة التى يعيش فيها النوبيون ، مطردة فى مظاهرها الطبيعية ؛ فعلى الرغم من أنها تتفق فى أنها جزء من وادى النيل يقرب طوله من الألف كيلومتر ، فإن طبيعة الوادى تختلف من مكان لآخر . فالإقليم الجنوبى من الدبة إلى أبو فاطمه وكرما ، يشتمل على واد سهل متسع ، يغطيه الفيضان ، فى كثير من أجزائه وفى ذلك ما يساعد على بعض المشروعات الزراعية ، والنهر هنا سهل

الملاحة معتدل الجريان . وإلى الشمال من أبو فاطمه يبدأ ما يسمى الشلال الثالث ، وهو يكاد أن يتصل بالشلال الثانى ، فى مساحة تقرب من ٤٠٠ كيلومتر ، تكتنف النهر فيها سلاسل عديدة من الجنادل وتتعذر فيه الملاحة ، وتقل المساحات القابلة للزراعة قلة تذكرنا بإقليم المناصير ، وإلى الجنوب من وادى حلفا إلى جنوبى أسوان ، يعتدل مجرى النهر مرة أخرى ، وتكون الملاحة فيه سهلة ميسورة ، وهكذا نرى الأوطان النوبية النهرية تشتمل على ثلاثة أقاليم رئيسية ، إقليم سهل فى الجنوب ، وآخر فى الشمال ، يتوسطها إقليم وعر كثير الجنادل والعقبات .

والصحراء كما ذكرنا تحد الإقليم شرقاً وغرباً ، وتحصره فى نطاق ضيق جداً ، وهى صحراء وعرة ليس فيها ما يغرى سكان الوادى بالحركة أو الانتقال إليها ، فإذا ازدحم سكان الوادى بسبب النمو الطبيعى فلا مندوحة لهم عن التماس أسباب العيش فى الجهات الجنوبية أو الشمالية من الوادى ، متبعين مجرى النهر صعوداً أو هبوطاً ، ولكنهم ، مهما شطت بهم الديار ، يحنون دائماً إلى تلك الأوطان الضيقة المحدودة . ويودون أن يعودوا إليها متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وإذا لم تفسدهم الحضارة فى البلاد التى ينزلونها بعيداً عن أوطانهم ، فإنهم يظلون محتفظين بطابعهم وطباعهم ، التى تمتاز بالبساطة والاقتصاد والهدوء ، والتعاون فيما بينهم ، والرعاية لأقاربهم فى أوطانهم الأصلية ، وكثير من القرى النوبية الفقيرة تعيش اليوم بفضل ما يصلها من المساعدات المادية من رجالها الذين يعملون فى مختلف الجهات فى مصر والسودان . ويوشك ألا يكون لبعضها مورد آخر يستحق الذكر .

ولا بد لنا أن نقرر فى بدء هذا البحث ما نعنيه بالنوبيين ، فالنوبة شعب قديم ، عريق فى القدم . لازموا أوطانهم الحالية بضعة آلاف من السنين ، وقد نزل العرب ديارهم وخالطوا السكان وصاهروهم ، فأضيف النسب العربى الجديد ، إلى النسب النوبى القديم . وقد سبق للنوبيين فى تاريخهم الطويل أن دخلت بلادهم عناصر مختلفة واندمجت فيهم . وظل النوبيون برغم ذلك متمسكين بثقافتهم وبلغتهم الخاصة ، مما يدل على أن الهجرات العربية لم تكن من القوة بحيث أزالت الثقافة النوبية . ولذلك رأينا أن معالجة موضوع السودان الشمالى معالجة علمية ، تقضى علينا أن نجعل

من النوبة مجموعة مستقلة عن المجموعات الأخرى . لأن النسب العربى مشترك بين جميع أبناء الوادى ، ولكن لبعضهم مميزات انفرد بها وفى ذلك ما يبرر النظر إليهم كوحدة قائمة بذاتها .

***

والنوبة — بوصفهم شعباً يعيش فى أوطانه الحالية — لم يلق من العلماء ما يستحقه من الدراسة ، سواء من الناحية الإثنولوجية أو الاجتماعية . وذلك على الرغم من كثرة ما كتب عن النوبة فى الأزمنة القديمة وعن لغتهم وما لها من الاتصال بلغات تشبهها من قريب أو بعيد فى جهات أخرى من حوض النيل ؛ وعن الآثار التى اشتمل عليها هذا الإقليم الأوسط من نهر النيل ، ومقارنتها بالآثار فى نواح أخرى من الوادى ؛ وعن المقابر وما اشتملت عليه من العظام والجماجم . والمقارنة بينها وبين السلالات المعروفة فى الشمال والجنوب ، كتبت فى هذه الموضوعات وأمثالها الفصول الطوال[1] ، أما وصف النوبيين فى الوقت الحاضر فكان دائماً يعالج فى بضعة أسطر لا تسمن ولا تغنى .

هذه البحوث القيمة والجهود العلمية الضخمة ، حاول أصحابها أن يكشفوا عن الأطوار المختلفة التى مرت ببلاد النوبة وعن أصل اللغة النوبية ، وهل هى تمثل لغة وطنية قديمة نشأت فى البلاد أو لغة دخيلة جاء بها عنصر دخيل فى عصر من العصور . وعن الصلة بين الثقافة النوبية فى الشمال وفى إقليم مروى فى الجنوب . ولا يستطيع منصف أن يزعم أن هذه المحاولات قد قربتنا من حل لواحدة من تلك

(١) نورد هنا بعض المراجع عن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر :

1) The Archealogical Survey of Nubia
(نشرته مصلحة الآثار المصرية فى عدة مجلدات :
2) Seligmann : The Hamitic Problem. J R.A.I. 1913.
3) Hillelson : Nubian Origins. S.N.R. Vol XIII pp. 137—148
4) Kirwan : A Survey of Nubian Origins S.N.R. Vol. XX p. 47
5) G.W. Murray : English—Nubian Dictionary (1923).
6) Junker and Shafer : Nubisch Texete

هذا بخلاف الكتب الخاصة بالسودان مثل كتاب ماكايكل وترمنجهام وكتب الرحالة أمثال بركهارت ، والمراجع العربية مثل المقريزى والمسعودى وابن خلدون ، مما سبقت الإشارة إليه . وكذلك المؤلفات القديمة لعلماء اليونان واللاتين أمثال إراتوسطين وسترابون وغيرهما .

المشاكل ، بل ليس من الإسراف فى شىء أن نقول إنها زادتها صعوبة وتعقيدا ،

والذى يهمنا هنا هو البحث عن نشأة السلالة النوبية ومبلغ قدمها فى أوطانها الحالية ، والأوطان الأخرى التى انتشرت أو أثرت فيها وأهم العناصر التى اندمجت فيها على مضى القرون ومن المفيد مع هذا كله أن نعرض للبحوث الخاصة باللغة النوبية ونشأتها وانتشارها ، بقدر ما تساعد على إيضاح الأطوار المختلفة التى مرت بالشعب النوبى .

إن تقدم الأبحاث الأثرية فى بلاد النوبة السفلى والعليا لم يكن على وتيرة واحدة ، فهنالك ظروف خاصة دعت إلى البحث الأثرى فى بلاد النوبة الشمالية ، وإلى التوسع فى هذا البحث بسبب إنشاء خزان أسوان ، والخوف من ضياع معالم الآثار القديمة فى هذا الإقليم . فترتب على ذلك القيام بالتنقيب عن الآثار وعما اشتملت عليه المقابر القديمة فى المساحة الممتدة من أسوان إلى جنوب وادى حلفا ، ونشر نتائج تلك البحوث بواسطة مصلحة الآثار المصرية ، أما بلاد النوبا العليا فإنها لم تبحث بحثاً أثرياً يستحق أن يقارن بالأبحاث الخاصة بالإقليم الشمالى . والجهات القليلة التى بحثت مقصورة على مواضع محدودة جداً . وحتى هذه لم تبحث بحثاً وافياً . ولذلك كانت المقارنة بين الشمال والجنوب فى أبحاث العلماء غير متكافئة ، مما يجعل الوصول إلى نتيجة سليمة أمراً غير يسير .

أما البحوث اللغوية فلعلها كانت أكبر الأسباب فيما وقع فيه العلماء من الأخطاء ، لأن علماء اللغة ، وهم يمثلون أكبر مجموعة من الباحثين فى الدراسات النوبية ، قد بنوا آراءهم على اعتبارات لغوية دون أن يدخلوا فى بحثهم أى اعتبار آخر . ولعل أكبر خطأ ترتب على ذلك هو الخلط بين الشعب النوبى وبين الجماعات التى يطلق عليها اسم النوبا سكان الجبال الواقعة فى جنوب كردوفان . وشعب النوبة كما ذكرنا شعب قديم : والاسم نفسه قديم ، أما « النوبا » كاسم لسكان جبال كردوفان الجنوبية فلا يعرفه السكان أنفسهم ، وهم يدعون أنفسهم أحياناً سكان الجبال ، ولكن التسمية السائدة هى أن كل شعبة تسمى باسمها الخاص ، دون أن يكون هنالك اسم جامع شامل لجميع سكان الجبال .

وقد وقع فردريك مولر وتبعه بعض الكتاب ، فى خطأ كبير ، عندما رأى أن هنالك نوعاً من التشابه بين اللغة السائدة فى بعض جبال كردوفان الجنوبية وبين اللغة النوبية ، فحكم بأن جميع سكان الجبال المذكورة يتكلمون لغة تمت بصلة القرابة إلى اللغة النوبية ، ولم يكتف بهذا ، بل حكم أيضاً بأن النوبيين والنوباويين من سلالة واحدة : وقد أصبح حكمه هذا مضرب الأمثال عند علماء الأجناس للخطأ التى يتورط فيها علماء اللغات ، حين يبنون قرابة النسب على تشابه لغوى(١)

غير أن الخطأ الذى وقع فيه فردريك ملر ومدرسته كان خطأ مزدوجا ، فقد أصبح من الثابت أن الجبال فى جنوب كردوفان لاتشتمل على لغة واحدة ، بل على ثلاثة مجموعات لغوية مختلفة ، وأن الجبال الشمالية الغربية فقط مثل جبل دار وما يليه ، هى وحدها التى يتحدث أهلها بلسان ، يرى علماء اللغات أنه يشبه من بعض الوجوه لغة النوبيين .

أما الخطأ الثانى فهو أن السلالة النوبية والسلالة النوباوية مختلفتان أشد الاختلاف سواء أكان ذلك من ناحية المظهر الطبيعى أو العادات الاجتماعية السائدة فى كل من الإقليمين . فالنوبيون شعب قوقازى ، بينما سكان الجبال تغلب عليهم الصفات الزنجية . وقد وصف سلجمان كلا منهما فقال : إن النوباوى ممتلئ الجسم والعضلات ؛ شديد السمرة إلى درجة تبرر وصفه بأنه أسود البشرة ، أما النوبى فنحيل متوسط القامة ، وبشرته سمراء سمرة تكون فى كثير من الأحيان خفيفة . وسكان الجبال شعرهم مفلفل والنسبة الأنفية عالية ، والصفات الزنجية المعروفة واضحة ، أما النوبيون فشعرهم مموج فى الغالب . وقد يكون أقرب إلى الاستقامة برغم وجود أحوال شاذة . والتقاطيع لاتشبه التقاطيع الزنجية فى شىء .

كذلك من الناحية الثقافية يختلف الإثنان كل الاختلاف ، فالنوبيون قد يستخدمون الشلوخ كما تفعل القبائل العربية ، ويمارسون الختان للأولاد والختان الفرعونى للبنات ، وهذه كلها عادات لايعرفها النوباويون سكان الجبال . ولكنهم بالعكس يمارسون عادات لايعرفها النوبة مثل خلع القواطع ، وخرق الشفة السفلى

---

(١) سلجمان المرجع المذكور ص ٦١٠ وما بعدها

للنساء لكى توضع فيها حلية . . وكلا الشعبين يصنع الفخار ، ولكن شتان بين الطريقة المتبعة ونوع الفخار الناتج فى الإقليمين . فالفخار النوبى مشابه تمام المشابهة لما يصنعه المصريون ، وليس هناك وجه شبه بينه وبين ما يصنع فى جبال كردوفان الجنوبية[1] .

ومما يؤسف له أن سكان الجبال هؤلاء قد أطلق عليهم اسم النوبا ، فساعد تشابه الأسماء على كثير من الخطأ ، وعلى الأخص عند العامة وهواة العلم . ولئن كان هذا الأمر مما لا يمكن الرجوع فيه ، فإن من الواجب ، وعلى الأخص على المتعلمين من سكان السودان ومصر أن يدركوا أن هذا التشابه فى الاسم سطحى ، ولا يستند إلى أية صلة أو قرابة نسب بين الشعبين .

أما التشابه اللغوى فلقد كان من الممكن أن نتصور هجرة نوبية انتشرت فى كردوفان متجهة نحو شمالها أولاً ، ثم ممتدة إلى جنوبها بعد ذلك ، حتى تستقر فى الأطراف الشمالية الغربية من الجبال[2] ، غير أن هذا الرأى السهل البسيط لا يشفى غلة علماء اللغة ، وعلى الأخص المتطرفين منهم ، ذلك أن اللغة النوبية أو لهجات تشبهها من بعض الوجوه موجودة أيضاً فى شمال كردوفان ودارفور ، كما هى الحال فى جبل ميدوب ، طبقاً لما سبقت الإشارة إليه فى الفصل السابق ، وكذلك فى الأطراف الجنوبية من البطانة بين أعالى العطبره والنيل الأزرق ؛ وكان من الممكن تفسير هذا التشابه بما كان للنوبيين من التأثير فى إقليم النيل الأزرق وفى سهل البطانة بالذات ، كما كان لهم انتشار مؤكد فى دارفور وكردوفان . ولكن هذا التفسير يأباه كثير من علماء اللغة مثل زيلارتس . . وفوق ذلك اكتشف اللغويون أن هنالك خصائص فى بعض المفردات وفى النحو والصرف ، مشتركة بين اللغة النوبية وبين لغات البارى فى أعالى بحر الجبل ، والمازاى فى

---

(١) نفس المرجع ص ٦١٢

(٢) يرى ماكمايكل (تاريخ العرب فى السودان الجزء الأول ص ١٤) أن هذا قد حدث بعد الفتح العربى لمملكة دنقلة .

هضبة إفريقية الشرقية ولغة النيليين أمثال الدنكا والشلك[١] . وكان من الجائز أيضاً تفسير حتى هذه الظاهرة بأن هـذه الجماعات كلها دخلتها كثير من الدماء الحامية وأن اللغة النوبية كالشعب النوبى من أصل حامى صميم ، فمن المعقول أن تكون الثقافة الحامية قد تسربت إلى جميع هذه الجماعات على بعد ما بينها من المسافات .

غير أن زيلارتس العالم النمساوى رأى لأسباب بلاشك وجيهة فى نظره أن لغة جبال كردوفان المشابهة للنوبية لا يمكن أن تكون مشتقة من لغة النوبيين سكان إقليم النوبة فى جنوب مصر وشمال السودان ، بل إنهما فرعان من لغة واحدة كانت منتشرة فى شمال كردوفان ، ثم انتقلت بواسطة أصحابها إلى كل من الإقليمين ؛ ونورد هنا تلخيصاً لرأى ذلك العالم كما رواه سلجمان[٢] .

كان الوطن الأصلى للنوبة (والنوبا) فى شمال كردوفان حيث تكاثر عددهم واتسعت أوطانهم ، بحيث أمكن تقسيمهم فى ذلك الزمن البعيد إلى قسمين : ا و ب ، تبعاً لاختلاف اللهجات .

وفى القرون السابقة للميلاد (أى ما بين ٥٠٠ و ١٠٠ ق . م .) نزحت أعداد كبيرة من نوبة ا غربا إلى جبل ميدوب . ونزحت أخرى فى اتجاه شمالى إلى النيل حيث عاشوا جنباً لجنب مع الليبيين الذين كانوا سكان البلاد فى ذلك الوقت .

وفى القرن الأول والثانى هاجر باقى قسم ا من كردوفان فى الاتجاهين المذكورين ؛ ويزعم المؤلف تأييداً لرأيه أن هنالك أسطورة لدى بعض النوباويين ، بأن أجدادهم وأجداد النوبيين كانوا إخوة ، ثم حدث نزاع حول ملكية خنزير كان قد قُرِّب قرباناً فى بعض المناسبات . فهاجر أجداد النوبيين ونزحوا عن البلاد . وهذه الأسطورة على طرافتها لا تؤيد وجهة نظر المؤلف فى أن النوبيين هاجروا من شمال كردوفان بل من إقليم الجبال .

---

(١) مقدمة كتاب G.W. Murray : English - Nubian Comparative Dictionary

(٢) فى كتاب Pagan Tribes of the Nilotic Sudan p 411

ومهما يكن من شيء فإن هذه الشعبة الثانية من القسم ا ، التي هاجرت فى القرن الأول والثانى بعد الميلاد قد سلكت طريقين : أولهما طريق وادى الملك ، إلى بلاد النوبة مباشرة ، والآخر طريق درب الأربعين إلى الواحات الخارجة ، وهؤلاء كانوا قلة ، أما الكثرة فقد هاجرت إلى بلاد النوبة حيث أقاموا مع أقربائهم الذين نزلوا هذه الديار قبلهم ببضعة قرون .

أما قسم ب فيقول عنه المؤلف إنه هاجر مشرّقاً إلى أرض الجزيرة فى أوائل القرن الرابع (حوالى سنة ٣٢٠) ثم إلى البطانة حيث أغار على مملكة مروى وقضى عليها ، ولكنه لم يقتبس حضارتها ولم يمتزج بالسكان ، إلى أن دخلت المسيحية إلى بلاد دنقلة ثم إلى مروى فانتشر تأثيرها إلى قسم ب بل وامتد أيضاً إلى جبل ميدوب .

والمهم فى هذا كله أن هذا المؤلف وغيره يزعم أن هؤلاء المهاجرين هم السلالة التى تدعى بحق باسم النوبة . وهم الذين نشروا اللغة النوبية فى البلاد وقد حملوها من أوطانهم الأصلية فى شمال كردوفان .

وقد حاول زيلارتس بنظريته هذه التى تستند إلى بعض الخصائص اللغوية ، أن يعطى صورة كاملة تفسر الظاهرات المختلفة المتصلة بانتشار الثقافة النوبية فى مختلف الجهات ، ولم يفته أيضاً أن يجد تفسيراً لبعض الإشارات التى ذكرت بأن النوبيين وصلوا إلى الواحات الخارجة ، ويبدو فى الصورة التى رسمها تلك النزعة الغالبة عند كثير من الكتاب ، وهى أن اللغة النوبية ليست أصلية فى بلاد النوبة بل دخلت البلاد فى وقت ما — سابق للعهد المسيحى — كما أن الجماعات التى أدخلت هذه اللغة ونشرتها هى التى كانت تدعى باسم النوبة .

ومع ذلك فليس من السهل قبول هذه النظرية لسببين : أولهما ما أوضحناه من قبل من أن النوبا فى كردوفان مختلفون كل الاختلاف عن النوبيين ، والسبب الثانى أن هذه الهجرات لطائفة ا النوبية قد دخلت بلاداً تسودها الحضارة منذ قرون عديدة ، كثيرة السكان ، وإن اتسعت لبعض المهاجرين فليس بمعقول أن يضطر هؤلاء المهاجرون السكان الأصليين إلى تغيير لسانهم بل وإلى تغيير اسمهم . ونحن

نعلم أن سكان البلاد لم يكونوا بالشعب السهل الذى يتيسر إخضاعه .

وقد ظلت اللغة النوبية زمناً طويلا دون أن تكتب إلى أن تحولت البلاد إلى الديانة المسيحية فى منتصف القرن السادس على أيدى قسس مصريين ، فكتبت النصوص الدينية بالحروف القبطية . كما استخدمت تلك الحروف فى كتابات أخرى ، وبذلك أصبحت اللغة النوبية لغة مكتوبة . أما النصوص السابقة لذلك العهد فإنها نصوص باللغة المصرية القديمة ، ولعلها كانت اللغة الرسمية للبلاد بينما كانت النوبية هى لغة الناس ، مع ما بين اللغتين من التشابه .

ويصف لنا مستر مرى اللغة النوبية وصفاً نلخصه فيما يلى :

ليس هنالك لغة تتفق مفرداتها مع اللغة النوبية اتفاقاً كثيراً . بل ان كثيراً جداً من أصول الكلمات النوبية ليس له نظير فى جميع اللغات التى قورنت بها . أما اللغات التى تشابه اللغة النوبية فى مفرداتها ، فأكثرها بلا شك لغات حامية ، وبلا شك أن الصبغة الحامية هى الغالبة على اللغة سواء من ناحية المفردات أو النحو والصرف ، ولكن هنالك اختلافاً كبيراً بينها وبين اللغات الحامية ، فى ناحية واحدة وهى النظام الصوتى Phonetic System ، ولكن له نظير فى اللغات النيلية فى جنوب السودان مثل لغة البارى[١] .

فاللغة النوبية تشتمل حسب رأى هذا المؤلف وغيره على عناصر حامية وأخرى غريبة عن الحامية . ولعل مصدر هذا العنصر الغريب بعض الشعوب الجنوبية . وقد رأى بعض العلماء مثل راينش Reinisch أن الأصل فى اللغة النوبية أنها حامية دخلتها مؤثرات أجنبية . ولكن بعضهم مثل مرى نفسه يرى أنها فى الأصل لغة نيلية جنوبية مثل لغة البارى . ثم تعرضت لمؤثرات حامية شديدة على مدى العصور . ومع أن الموضوع لا يزال يفتقر إلى البحث فإن الرأى الأول هو الذى يتفق مع التطورات الجنسية والتاريخية .

هذا وقد دخلت اللغة النوبية مفردات من مصادر أخرى ، بعضها من شمال

---

(١) راجع مرى المرجع السابق ص X .

الحبشة ، عن طريق مملكة مروى على الأرجح ، كما استعارت اللغة النوبية ، كلمات عربية بما يقرب من ثلث مفرداتها ، كما تأثرت بالطبع باللغة المصرية القديمة والقبطية .

ومع ذلك فليس الأمر المستغرب هو أن تقتبس اللغة النوبية ألفاظاً عربية كثيرة ، بل الأمر الذى يبعث على العجب هو تمسك النوبيين بلسانهم على مدى العصور الطويلة ؛ وبالرغم من تحولهم إلى الإسلام تحولا تاماً ، ظلوا محتفظين بلغتهم .

* * *

وكما اختلف الكتاب فى أن اللغة النوبية حامية — أى من نفس الأسرة اللغوية التى تنتمى إليها لغات البجه وغيرهم — ثم تأثرت بعناصر أجنبية ؛ أو أنها لغة جنوبية مثل لغة البارى ثم غلبت عليها المؤثرات الحامية ؛ كذلك اختلف الكتاب فى الشعب النوبى هل هو فى الأصل نازح من الجنوب ، تغلب عليه الصفات الزنجية ، ثم تعرض لهجرات قوقازية من الشمال ومن الشرق والغرب ، أو أنه فى الأصل شعب حامى قوقازى تأثر ببعض الهجرات الزنجية ، أو دخلته الدماء الزنجية كما هى الحال فى سائر وادى النيل ، عن طريق تجارة الرقيق .

رأيه من افريقيا

إن الرأى الذى سبق التعبير عنه مراراً فى الفصول السابقة ، هو أن السودان الشمالى بوجه عام لم يكن فى وقت من الأوقات وطناً أصلياً للجنس الزنجى ، ولم يقصده الزنوج من تلقاء أنفسهم بالهجرة والاستقرار ، وقد بنى هذا الرأى على دراسة تاريخ هجرات الجنس الزنجى من القارة الاسيوية فى زمن قديم ، والطرق التى سلكها وأسلوب المعيشة التى مارسها ، والتى لم تكن تصلح لها الجهات الشمالية ، فلننظر الآن إذا كان هذا الرأى مما يتفق وتطورات السكان فى بلاد النوبة ، كما كشفت عنها الحفائر ، ودلت عليها الأخبار .

ونظراً لأن الاستقرار فى بلاد النوبة يرجع إلى زمن قديم جداً — إلى الألف الخامسة قبل الميلاد على الأقل — ولأن البلاد تعرضت لهجرات وغزوات متنوعة فى هذه العهود الطويلة ، نرى العلماء يتحدثون عن النوبيين فى الأعصر المختلفة ، بأنهم يكونون مجموعات : ا ، ب ، حـ وبعضهم يضيف أيضاً مجموعة رابعة د ، ومجموعة

خامسة س[١] . والاتفاق العام بين هؤلاء الكتاب هو أن مجموعة ا ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، والعصر السابق للأسر ، واستمرت إلى الأسرات الأولى ، ومجموعة ب ترجع إلى عصر بناة الاهرام ، وهى تمثل مجموعة ا معدلة تعديلا ملحوظاً فى حضارتها وثقافتها ، ومجموعة ج ترجع إلى عصر المملكة الوسطى أى الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها ، أما مجموعة س فيرجعونها إلى العصر الرومانى ابتداء من سنة ٣٠٠ ميلادية .

ولا يتسع المقام لتتبع حوادث التاريخ فى جميع هذه المراحل ولكن من المهم أن نذكر أن محور هذه الحوادث واحد فيما يظهر ، وهو العلاقات بين مصر وبلاد النوبة . وكانت هذه العلاقات تمتاز بالاتصال الثقافى والتجارى ، وعلاقات حسن الجوار ، ثم تتخللها فترات اضطراب ، تجند فيها حملة عسكرية للحد من طغيان عدو من الأعداء ، وجميع الشواهد تشير إلى أن هذا العدو دخيل ، أغار على بلاد النوبة وقد يمتد عدوانه إلى الحدود المصرية .

ويسهل التسليم بأن بلاد النوبة ، وهى البقعة الخصيبة وسط الصحراء والفيافى قليلة الماء والنبات ، قد تتعرض للعدوان من ثلاث نواح : من الشرق حيث قبائل البجه ، أو طوائف منهم ، ومن ليبيا التى كانت وكراً لجماعات طمحو وتهنو وغيرهم ، الذين تردد عدوانهم على وادى النيل قرناً بعد قرن ؛ ثم من الجنوب ، من شمالى كردوفان ، حيث الطريق ممهد بواسطة الأودية التى تنتهى إلى نهر النيل .

والإغارات الأولى والثانية يقوم بها على الأرجح جماعات حامية شرقية وليبية ، تزيد فى نسبة الدم القوقازى فى البلاد ، أما الهجرات الجنوبية فإن من الجائز أن تقوم بها جماعات فيها بعض الصفات الزنجية Negroids بقيادة قوقازية . وهذه الظاهرة مألوفة فى القارة الإفريقية .

هذه هى الاعتبارات الأساسية التى يجب أن نذكرها ونحن نتتبع التطورات النوبية من مجموعات ا إلى ب و ج وهلم جرا . وسنجد فى كتابات بعض علماء الآثار ما يؤيد هذا الرأى .

---

(١) هذه المجموعات التاريخية لا صلة بينها وبين الأقسام ا ، ب اللغوية التى سبقت الاشارة إليها

مجموعة ا خصصت لها فترة طويلة فى تاريخ بلاد النوبة إذ تمتد من نحو عام ٥٠٠٠ إلى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد . هذه الفترة الطويلة هى عصر تكوين السلالة النوبية ، وإن لم تكن البلاد أثناء ذلك بمأمن من الاضطراب . ويقول سلجمان فى وصف النوبيين فى ذلك العصر : إن الحفائر قد كشفت أن بلاد النوبة فى أقدم الأزمنة كانت آهلة بشعب يدفن موتاه بنفس الطريقة المتبعة فى مصر فى العصر السابق للأسرات ؛ ويصنع فخاراً على نفس الأسلوب المتبع فى مصر فى ذلك الوقت ؛ وتشتمل مقابرهم على أدوات وآلات عديدة تتفق تماماً مع ما عثر عليه فى المقابر المصرية لذلك العهد ؛ وقد وجد الأستاذ إليوت سمث بعد دراسة العظام والجماجم أن النوبيين من مجموعة ا لا يختلفون عن المصريين فى ذلك الزمان ؛ ثم يتطرق الأستاذ سلجمان إلى الإثبات بأن هاتين السلالتين المتشابهتين كانتا تعيشان فى عصر واحد (١) .

كان هذا الشعب النوبى القديم إذن من نفس السلالة التى ينتمى إليها المصريون القدماء : وتمتاز هذه السلالة بالقوام النحيل والقامة المتوسطة أو فوق المتوسط بقليل ، والرأس مستطيل بارز من الخلف ، والتقاطيع قوقازية ، وهى فرع من الجنس الذى يطلق عليه اسم جنس البحر المتوسط لانتشاره فى أوربا على سواحل هذا البحر . وهو يمتاز فوق ذلك بالأنف المعتدل والشفاه المعتدلة ، وبشعر مموج أو أقرب إلى الاستقامة ولون البشرة أسمر أو فى لون الحنطة .

هذه السلالة التى عمرت بلاد النوبة دهراً طويلا ، والتى كانت حرفتها الزراعة وهى حرفة تساعد على التعمير وازدياد السكان ، هى بمثابة الأسس التى بنى عليها الشعب النوبى من الناحية الجنسية ، والتى لم تحدث فيها الإغارات على مضى القرون سوى تغيرات يسيرة .

وكانت العلاقات مع مصر بوجه عام طيبة ، وتدخل فيها التجارة والمبادلة ، وكانت البعثات المصرية تمر من بلاد النوبة نحو بلاد جنوبية مثل يام ، كما حدث للوزير حرقوف فى عصر پپى الثانى ، دون أن تلقى معارضة أو تصادف عدواناً ،

---

(١) مقالة سلجمان فى J.R.A.I لسنة ١٩١٣ السابق ذكرها ص ٦١٢ .

ولذلك يبدو أن الإغارات التى قام بها صنفرو ، لم تكن موجهة إلى النوبيين الأصليين بل إلى عنصر غريب ، يختلف عن السكان الأصليين بأنه لم يكن يحترف الزراعة ، بل يحترف الرعى . ولذلك نرى صنفرو يسجل أنه قد حصل من هذا العدو على غنائم تقدر بمائتى ألف رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة .

وهذا الاضطراب الذى ظهر فى عصر صنفرو أخذ يتكرر فى صورة أشد وأوضح فى عصر الأسرة الثانية عشرة . وأخذت تظهر فى البلاد عناصر جديدة ، وتتوغل فيها توغلاً عدائياً . وقد ترك أمينمحمت الأول كتابة يقول فيها : « لقد استوليت على شعب واوات ، وقبضت على شعب المازوى » . ولا نعرف بالضبط ما شعب الواوات وهو على الأرجح قبائل ليبية ، أما شعب المازوى فقد سبق لنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب أن أوضحنا أن المازوى هم البجه .

ويرى غير واحد من العلماء أنه فى هذه الفترة وما بعدها أخذت تظهر ، فى فترات الإغارة هذه ، عناصر تشبه السلالات الزنجية ، وأخذت تؤثر فى التكوين الجنسى للسكان بعض التأثير ، وهذا هو العصر الذى أطلقوا على سكانه اسم المجموعة النوبية جـ ؛ وهى التى قرر الأستاذ إليوت سميث بأنها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن النوبيين كما نعرفهم اليوم ؛ أما العنصر الزنجى الذى دخل البلاد فى ذلك الوقت ، فالأرجح انه لم يدخل مع المازوى ، ولعله دخل مع الواوات .

هذا وقد كان المصريون القدماء يشيرون إلى سكان الجنوب بكلمة نِهسْ ؛ وهى لاتفيد أى معنى آخر ، وليست لها أية دلالة من ناحية الجنس والسلالة ، وأحياناً تستخدم تلك الكلمة بمعنى الأراضى الواقعة جنوب مصر على اختلافها : وقد ترك ببى الأول كتابة يقول فيها إنه شن الحرب على ست مجموعات من النهس وهم نهس إرثت ونهس مازا ونهس يام ونهس واوات ونهس كاو ونهس طمح[1] . ونستطيع أن نميز من بين هؤلاء الستة ثلاث سلالات على الأقل لا صلة بينها وبين السلالات الزنجية ، وهى الإرثت والمازا (البجه) والطمح .

وهذه الوثيقة تؤيد الرأى بأن كلمة نهس لاتعدو أن يكون معناها سكان الجهات

(١) سلجمان نفس المرجع ص ٩١٨

الجنوبية . ومع ذلك قد جرت عادة كثير من الكتاب على ترجمتها بكلمة زنجى ، ومن بين هؤلاء الكتاب العالم الأمريكى هنرى برستد . ولكن عارضه فى ذلك علماء كثيرون مثل الأستاذ يُنكر .

وقد اضطرت حكومة مصر فى الأسرة الثانية عشرة إلى أن تحفر قناة عند الشلال الأول لتيسير الملاحة للسفن التى ترسل لتأديب المغيرين ، كما اضطرت إلى توسيع إدارتها بحيث شملت بلاد النوبة الشمالية إلى أول الشلال الثالث . وفى الأسرات الثانية عشرة إلى العشرين تم « تمصير » بلاد النوبة الشمالية والجنوبية من النواحى الثقافية والاجتماعية والسياسية ، وأنشئت لها عاصمة فى نبتا ، بالقرب من بلدة مروى الحديثة .

وهنا تظهر مشكلة لا تزال تفتقر إلى حل مقبول : وهى أن تصوير المصريين القدماء للنوبيين فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها ، يمثلهم على أنهم زنوج ، مع المبالغة فى تصوير التقاطيع الزنجية ، فكيف يتفق هذا الوصف مع ما ذكره إليوت سميث استناداً على دراسة الجماجم والعظام والمقارنة بين النوبيين فى ذلك العصر والنوبيين فى الوقت الحاضر ، والرأى الذى انتهى إليه بأنه ليس هنالك فرق جوهرى بين الاثنين ؟

ويرى سلجمان فى تفسير ذلك التناقض أن البلاد كانت تشتمل فعلا على عدد عظيم من الجماعات الزنجية أغارت عليها من الجنوب ، ثم طوردت تلك الجماعات واضطرت إلى أن تعود إلى بلادها . ثم جاء الاتصال المستمر بين مصر وبلاد النوبة عاملا جديداً على زيادة الدماء الشمالية القوقازية .

ويرى غيره من الكتاب أن مقارنة الجماجم والعظام دليل أقوى من الصور والرسوم ، ولا بد أن المصور المصرى كان يقوم بتصويره وهو فى أوطانه الشمالية ، ويبنى رسومه على ما يشاهده من جماعات الأسرى ، التى كانت ترسل إلى الشمال ؛ وهؤلاء يشتملون على عدد من الجنود الزنوج وإن كان معهم أحياناً بعض قادتهم من غير الجنس الزنجى .

ما هذا الهراء ؟! قائد أبيض على جيش أسود !!

وهنالك تعليل آخر . لعله لا يختلف كثيراً عن الرأى الثانى ، وهو أن المصور

المصرى كان يرسم صورة للأعداء الذين أغاروا على بلاد النوبة ثم على حدود مصر الجنوبية . فكان يصورهم زنوجاً قحاً على سبيل الزراية والاحتقار .

غير أنه ليس بمستبعد أن بعض الإغارات التى حدثت فى بلاد النوبة فى العصور القديمة كانت تقوم بها جماعات زنجية أو شبيهة بالزنجية Negroid بقيادة جماعة من الحاميين . وهذا ما نجده فعلا فى آثار الجماعات التى أطلق عليها اسم المجموعة النوبية س . وهى ترجع إلى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد والفترة التى أعقبتها ، وقد وجدت آثارها وعظامها فى بعض المقابر فى إقليم بلانه إلى الشمال من وادى حلفا وغيرها ، وقورنت محتوياتها بما اشتملت عليه بعض المقابر فى جزيرة مروى[١] .

والبحث فى هذه المقابر لا يصل بنا إلى نتيجة حاسمة لأن أكثرها ، وعلى الأخص مقابر القادة والزعماء، قد نبشت وخربت مراراً[٢] ، وقد قام ببحث الجماجم والعظام الدكتور بطراوى وقرر بعد فحصها أن هنالك سلالتين تتميز إحداها عن عن الأخرى : الأولى تظهر فى جماعات المحاربين والرؤساء ، ويمتازون بالقامة الطويلة وصفات أبعد عن الصفات الزنجية ، والأخرى تمتاز بالقامة القصيرة والصفات الزنجية وتظهر فى النساء بوجه خاص ، كما أن هنالك أمثلة تشير إلى اختلاط بين السلالاتين[٣] .

ولايدع بحث الأستاذ البطراوى مجالا للشك بأن النوبيين رقم س ، وإن كانت تغلب عليهم الوثنية والعادات المخالفة لما كان يسود بلاد النوبة ، فإنهم لم يكونوا يمثلون سلالة زنجية خالصة ، بل جماعات حامية اقتادت معها سبياً من الزنج

***

والظاهر أن مجموعة س قد انجلت عن البلاد بعد ذلك ، وإن تركت آثاراً بها وأخذت الأحوال فى شىء من الاستقرار فى القرن الخامس والسادس ، وانتشرت

(١) جزيرة مروى هى الإقليم الواقع بين العطبرة والنيل ، وفى شماله بلدة مروى القديمة وآثارها اليوم أطلال بالقرب من كبوشية . ومن المهم التمييز بينها وبين مروى الحديثة المجاورة لبلدة نبتا .

(٢) مقالة كروان عن أصل النوبة فى المجلد العشرين من S.N.R. ص : ٥٦ .

(٣) Batrawi : Archeological Survery of Nubia (1929-34) p. 180

المسيحية بعد ذلك ، وأنشئت مملكة مسيحية ، عاصمتها بلدة فرس ، ثم تحولت العاصمة بعد ذلك إلى بلدة أنشئت فى العهد المسيحى وهى دنقله القديمة ، (أو دنقله العجوز) ، ثم انتشرت المسيحية بعد ذلك إلى جزيرة مروى ، كما أنشئت بعد ذلك مملكة علوة ، وعاصمتها سوبة ، وفى عهد الفتح العربى لمصر كانت هنالك دولتان مسيحيتان ، الأولى دولة دنقله أو دولة النوبة والأخرى دولة علوة ، وكان هنالك دولة أخرى تدعى مَقُرَّه اندمجت فى دولة دنقلة قبل الفتح العربى لمصر .

هذا وقد دخلت المؤثرات والسلالات العربية من طريقين : الأول من الشمال حيث انتشرت قبائل عربية أكثرها من ربيعة ما بين الشلال الأول ووادى حلفا ، وهذا هو الإقليم الذى كان يطلق عليه اسم مريس ، وهى كلمة قبطية بمعنى الجنوب أو الإقليم الجنوبى ، والطريق الثانى الذى سلكته المؤثرات العربية من الجنوب ، كما أوضحنا ذلك عند الكلام على انتشار الجعليين .

***

يتبين مما تقدم أنه إذا كان هنالك محل لاختلاف الرأى فى أمر اللغة النوبية وهل هى لغة من اللغات التى تسود الجماعات الزنجية ، ثم تأثرت بعد ذلك تأثراً شديداً بالمؤثرات الحامية أو بالعكس ، فليس هنالك أقل شك فى النوبيين أنفسهم كما نعرفهم اليوم ، بأن أصولهم فى السلالات القوقازية الحامية عريقة قديمة ، وأن الصفات الزنجية التى قد نراها أحياناً بينهم هى العنصر الطارئ الدخيل .

وكذلك لا شك أن النوبيين ، كما نعرفهم اليوم ، كانوا أوسع انتشاراً ، وبلادهم مصعدة فى النهر إلى مدى أبعد مما تصل إليه اليوم ، فالمديرية النوبية المصرية التى كانت حاضرتها بلدة نپتا هى التى أنشأت عاصمة فى الجنوب فى بلدة مروى القديمة ، بالقرب من بلدة شندى الحديثة . وقد ازدهرت مروى بدورها ، واتسع نفوذها حتى وصل إلى ملتقى النيل الأزرق والأبيض وإلى أرض الجزيرة ، وهذه كلها أقطار كانت تسكنها بلا شك سلالات ، وتصل إليها مؤثرات ثقافية خلاف السلالات والمؤثرات النوبية ، ولكن بقايا الثقافة النوبية ظاهرة فيها أيضاً . وقد يكون من الغلو أن تزعم أن مملكة المرويين ، أو مملكة علوة ، كانت مملكة نوبية خالصة .

What about Blacks in the USA? One can point out racial differences as well as interracial products, as in the case of Nubians & Zee !

ولكن لا شك أن بلاد النوبة الشمالية هى العامل الأكبر فى إنشاء هاتين المملكتين .

وقد اختلف العلماء فى أصل اسم النوبة ، كما اختلفوا فى تاريخهم وفى نشأة لغتهم ، والأصل المصرى القديم للكلمة مشتق من لفظ نوب أو نوبو ، بمعنى الذهب ، أى أنها بلاد الذهب ، وهو أحد الأسماء التى كان يطلقها المصريون على هذه البلاد ، وإلى جوارها كما هو معلوم مناجم قديمة لذلك المعدن الثمين ، وقد وصفت البلاد بهذا الاسم فى كتابة فى الأسرة الثانية عشرة فى عهد الملك أمنمحعت الأول (١) ، ومع أن هذا الاشتقاق الواضح مما يسهل التسليم به ، فإنه لم يجد قبولا من أولئك الكتاب الذين يرون أن شعباً زنجياً يدعى باسم النوبة ، قد أغار على البلاد ونشر فيها الدم الزنجى ولغة من اللغات الزنجية ، فى عصر يعد نسبياً عصراً متأخراً ، وأن هؤلاء المغيرين الذين لا نكاد نعرف عنهم شيئاً هم الذين أكسبوا البلاد اسمها الذى تعرف به الآن .

ومهما يكن من شيء ، فإن والى مصر الأمير عبد الله بن سعد بن أبى السرح عندما عقد معاهدته فى سنة ٦٥١ ميلادية مع ملك هذه البلاد سماه فى المعاهدة عظيم النوبة (٢) ، ونص على أن المعاهدة المعقودة تشمل البلاد التى تمتد من حدود مصر إلى حدود علوة ، مما يدل على أن عظيم النوبة المذكور كان مسيطراً على كل ذلك الإقليم ، من الشلال الأول إلى إقليم كان يدعى فى ذلك الوقت إقليم الأبواب ، لعله عند الشلال السادس .

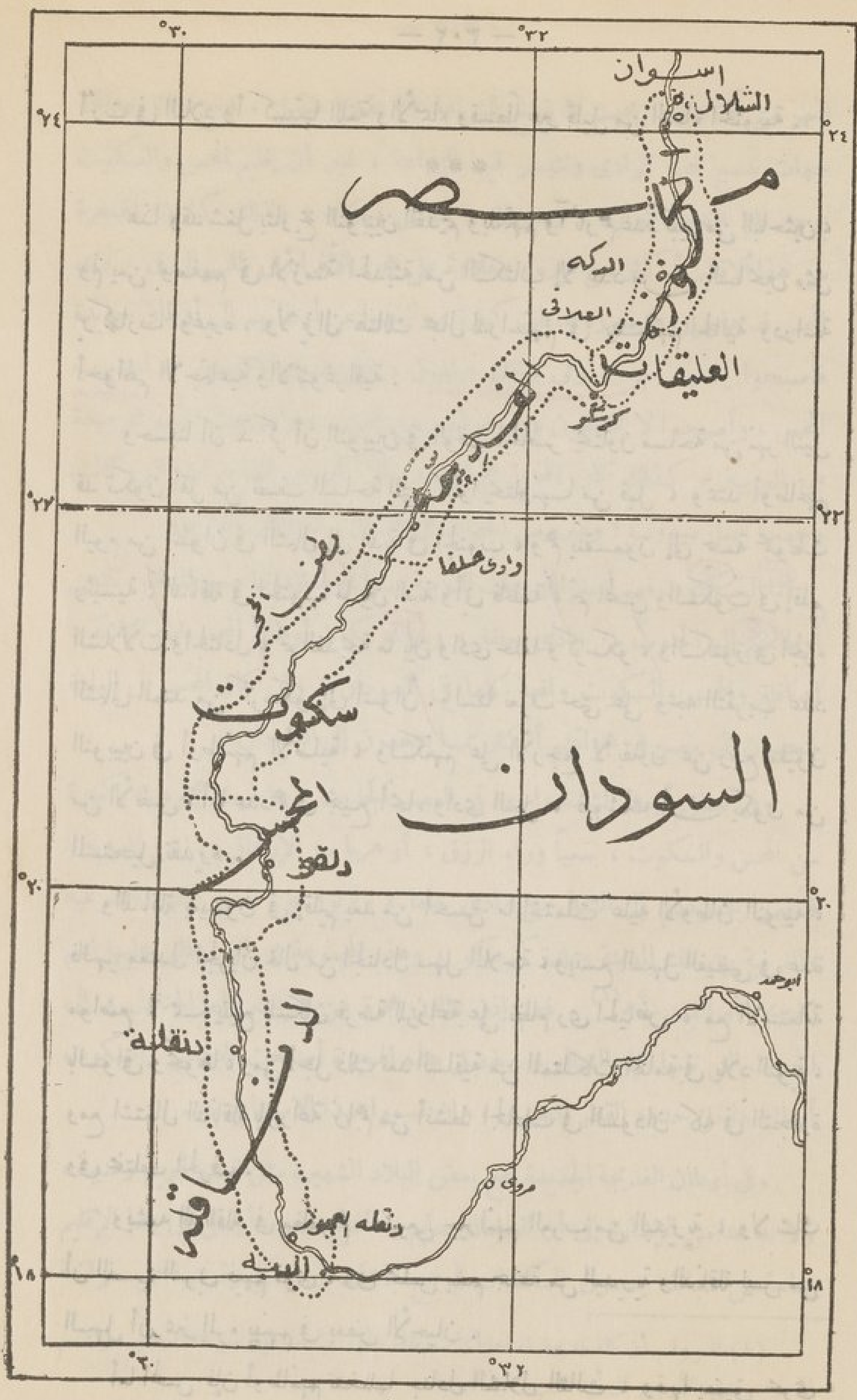
وقبل زمان عبد الله بن سعد بن أبى السرح بنحو تسعة قرون كان الجغرافى الاسكندرى إراتوسطين يدعو سكان تلك البلاد باسم النوبة (٣) . وهكذا ترجع النصوص التاريخية باسم النوبة إلى القرن الثالث قبل الميلاد . أى فى زمن سابق بعدة قرون لظهور تلك الطوائف التى سموها نوبة س ، والتى يقال إنها هى التى

---

(١) ما كما يكل : الجزء الأول ص ١٢ (هامش) نقلا عن برستد Ancient Records, I,520

(٢) خطط المقريزى الجزء الأول ص ٣٢٢ .

(٣) ما كما يكل نفس المرجع ص ١٢ وكروان Kirwan = Nubian Origins p. 47. فى المجلد العشرين من S.N.R.



شكل (١٩) توزيع المجموعات النوبية

أثرت فى البلاد وأكسبتها اللغة والأسماء وقسطاً غير قليل من الدماء الجنوبية .

***

هذا وقد شغل بتاريخ النوبيين القديم وبلغتهم وآثارهم عدد كبير من الباحثين ، ولم يعن بوصفهم فى الأزمنة الحديثة من الكتاب إلا عدد من السائحين مثل بركهارت وغيره . ولا يزال هنالك مجال لدراستهم فى بيئاتهم الحالية ودراسة أحوالهم الاجتماعية والاثنوغرافية .

وحسبنا أن نذكر أن النوبيين فى الوقت الحاضر يحتلون مساحة من نهر النيل قد تكون أقل من نصف المساحة التى كانوا يحتلونها من قبل ، وتمتد أوطانهم اليوم من أسوان فى الشمال إلى الدبة فى الجنوب ، وهم ينقسمون إلى خمسة مجموعات رئيسية : الدناقلة فى الجنوب ما بين الدبة وأبى فاطمة ، ثم المحس والسكوت فى إقليم الشلالات والجنادل ، ثم الفديجة ما بين وادى حلفا وكرسكو ، والكنوز فى الجزء الشمالى الممتد من كرسكو إلى أسوان . ولسنا نعرف حتى على وجه التقريب عدد النوبيين فى أوطانهم الأصلية ، ولكنهم على الأرجح لا يقلون عن ربع مليون من الأنفس ، أما عددهم فى جميع أنحاء وادى النيل ، فيوشك أن يكون من المستحيل تقديره .

والدناقلة يعيشون فى إقليم يعد من أحسن ما اشتملت عليه الأوطان النوبية ، فالنهر معتدل الجريان خال من الجنادل سهل الملاحة ، ويتسع السهل الفيضى فى عدة مواضع ، مما يتيح للسكان فرصة للزراعة على نظام رى الحياض ، مع الاستعانة بالسواقى ونحوها ، ومن أجل ذلك تعد الساقية من الممتلكات الهامة فى بلاد النوبة ، ومع اشتغال الدناقلة بالزراعة نراهم من أنشط الجماعات فى السودان كله فى التجارة وفى مختلف الحرف .

ويشبه الدناقلة فى مظهرهم الطبيعى جيرانهم العرب من البديرية ، ولا شك أن النسب العربى فيهم قوى ، وفى مجلس يضم جماعة من البديرية والدناقلة ليس من السهل أن يميز المرء بينهم فى بعض الأحيان .

أما المحس فإن أوطانهم تتخللها جنادل الشلال الثالث ، وفيها يضيق مجرى

النهر من آن لآن . بحيث لا يتسع للزراعة إلا بمقدار ضئيل ، ومع ذلك فهنالك جهات يتسع فيها الوادى وتتيسر فيها الزراعة ، غير أن إقليم المحس والسكوت بوجه عام محدود الموارد ، وسرعان ما يضيق بسكانه ، ولذلك كثرت الهجرة من هذا الإقليم أكثر من غيره ، وعلاوة على هجرة الأفراد فى طلب الرزق ، نرى المحس قد هاجروا فى صورة جماعات كبيرة ، ونزحوا عن أوطانهم إلى أوطان جديدة فأصبحوا يحتلون جزيرة توتى وإقليم عيلفون ، وفى هذين الإقليمين قد استعرب المحس ، وأصبحوا لا يختلفون عن جيرانهم من العرب ، وأصبحت لغتهم الوحيدة هى العربية ، كذلك كان المحس هم العنصر الأكبر فى المهاجرات التى كانت وجهتها جبل ميدوب ؛ وغيره من الجهات فى شمال كردوفان ودارفور .

أما السِكّوت فهم أصغر المجموعات النوبية عدداً ، ومعلوماتنا عنهم قليلة ، وتنتهى أوطانهم إلى الجنوب من وادى حلفا ، وبذلك تكون أوطان المجموعات الثلاثة : الدناقلة والمحس والسكوت واقعة كلها فى السودان ؛ وإن كان المحس فى العادة يتجهون إلى مصر فى هجراتهم أكثر مما يتجهون إلى السودان .

وفى بعض أزمنة الشدة والجهد فى العصر الحديث ، هاجرت مجموعات كبيرة من المحس والسكوت ، سعياً وراء الرزق ، أو هرباً من الإرهاق فى زمن المهدية ، فاتجهوا بجموعهم إلى الشمال من وادى حلفا ، ونزلوا على ضفتى النيل الشرقية والغربية بين تلك المدينة وبلدة كرسكو ، وهذه المجموعة هى التى يطلق عليها اسم الفديجة أو الفِدِجّه[1] . فهم إذن يمثلون هجرة من هجرات إقليم الجنادل ، إلى الجهات التى تليها نحو الشمال ، وبفضل هذه الهجرة أصبحت للمحس والسكوت أوطان داخل حدود القطر المصرى ، وإن تسموا بهذا الاسم الجديد .

وفى أوطان الفديجة الجديدة تقع بعض البلاد الشهيرة مثل قصر ابريم وعنيبة ، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن السلطان سليم بعد فتح مصر ، أرسل إلى هذا الإقليم جماعة من ضباطه يسمون الكشاف (جمع كاشف) ، لكى يقوموا على حراسة

---

(١) المعروف أن كلمة فديجة معناها أننا سنهلك ، أى أنهم هاربون من هلاك محقق ، والاسم لا يرجع على الأرجح الى أبعد من زمن المهدية .

التخوم الجنوبية لمصر ، وأكثر هؤلاء الكشاف من أصل ألبانى أو بشناق أو أناضولى . وقد اندمجوا فى السكان على مضى الزمن . ولم يلتزموا إقليم ابريم ، بل انتشروا فى غيره من الجهات المجاورة ، بحيث لا يحتلون اليوم إقليما أو جهة من الجهات ، ومع ذلك لا يزال أكثرهم يعرف بذلك الاسم ، وإن لم تصبح لأحدهم الوظيفة القديمة التى كانت له فى عصر سليم الأول .

أما الكنوز فأوطانهم كلها داخل القطر المصرى . وشكلهم الطبيعى فى معظم الأحيان لا يكاد يختلف فى شىء عن سكان الوجه القبلى فى مصر . وقد نجد بينهم فى كثير من الأحيان أشخاصاً يمتازون بالملامح العربية الوسيمة . ولا غرو فإن هذا الإقليم قد استحال إلى مستعمرة عربية على أثر الفتح العربى لمصر . ونزلته قبائل من ربيعة ومضر ، وبعض الجهنيين أيضاً[1] ، ولكن السيادة فيه كانت لربيعة وهو أول إقليم زالت عنه سلطة ملك النوبة المسيحى ، وتحول فى وقت متقدم إلى الإسلام .

وقد كانت الإمارة فى هذا الإقليم فى عهد الفاطميين لأمير ينتمى إلى قريش ، اسمه أبو المكارم هبة الله ، ويعرف بالأهوج المطاع ، وهو الذى ظفر بأبى ركوة الخارج على الحاكم بأمر الله ، وقبض عليه ، فأكرمه الحاكم إكراماً عظيما ولقبه كنز الدولة[2] ، فانصرف الاسم إلى أتباعه ورعيته ، ولازم الاسم سكان هذا الإقليم إلى وقتنا هذا .

واللغة النوبية التى يتحدث بها جميع النوبيين تختلف اختلافاً قليلا من إقليم إلى إقليم ، فلهجات المحس والسكوت والفديجة تؤلف مجموعة متشابهة ، بينما لغة الكنوز والدناقلة تؤلف مجموعة ثانية متشابهة ، وقد قيل فى تفسير ذلك أن الجهات الوعرة فى إقليم الجنادل الوسطى حال دون الاختلاط بأهل الشمال والجنوب ، فتشابهت لغة سكان الجنادل . غير أن هذا التفسير لا يساعد على إيضاح تشابه لهجات الدناقلة والكنوز مع بعد المسافة بينهما . ولا بد لنا أن نفترض أن الاتصال بين إقليم الكنوز والدناقلة كان كثيراً ومطرداً بحكم العلاقات التجارية بين الجنوب

---

(١) المسعودى فى مروج الذهب الجزء الأول ص ١٩١ .

(٢) المقريزى فى البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩١٦) صفحة ٥٠ .

والشمال . ولم يكن بد لسرعة الاتصال من تجنب الإقليم النهرى الكثير الجنادل ، والذى لا يلعب دوراً خطيراً فى التجارة . فإن السلع الرئيسية كانت من مصر والسودان ، وكان كل من الدناقلة والكنوز بحكم موقع أوطانهم هم الذين يقومون بالنصيب الأكبر من تلك التجارة . ولذلك كثر اتصالهم وتشابهت لهجاتهم .

وقد جرت عادة النوبيين ، وعلى الأخص فى النصف الشمالى من بلادهم ، على التميز بين الضفتين الشرقية والغربية وسكانهما ، فيدعون الجهات الشرقية وسكانها ماتوكىّ ، والجهات الغربية وسكانها تينوكىّ . وفى إشاراتهم الخاصة بهذا المعنى ما قد يفهم منه أن سكان البر الشرقى جاءوا من الشرق ، وسكان البر الغربى جاءوا من الغرب ؛ أو على الأقل هذا ما فهمه الأستاذان يُنكَر وشيفر [1] . وليس يبدو أن هنالك فرقاً جوهرياً فى أية ناحية من النواحى بين سكان الشرق والغرب ، والأمر لا يعدو التميز بين الضفتين الشرقية والغربية ، كما هى الحال فى سكان الصعيد . ولا بد من دراسات اجتماعية وانثروبولوجية دقيقة لمعرفة ما بين سكان الضفتين من فروق ، إذا كان هنالك فروق .

---

(١) فى ص ١١٧ من الجزء الثانى من كتاب Nubische Texte (طبع فينا سنة ١٩٣٢)

استدراك

الصواب	الخطأ	رقم السطر	رقم الصفحة
العدنانيين	العدنايين	١٥	١٦٤
شكل ١٣	شكل ١٢		١٦٧
الجعليين	الجبلين	١	١٧١
الجغرافى	الجرافى	١٩	١٧١
لوريمر	لوزيمر	١٨	١٧٧
الشايقية	الشايفية	٥	١٧٩
شوكة	شكوة	٨	٢٠٥
رزيقات	زريقات	١١	٢١٥
أم روابة	أم رابة	١٨	٢٣٥
تشاد	نشاد	٩	٢٧٢
بلانة	بلاية	٧	٢٩٨
بلدة	يلدة	١٧	٣٠٣

فهرس أبجدى

(أ)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

اللوحة الأولى



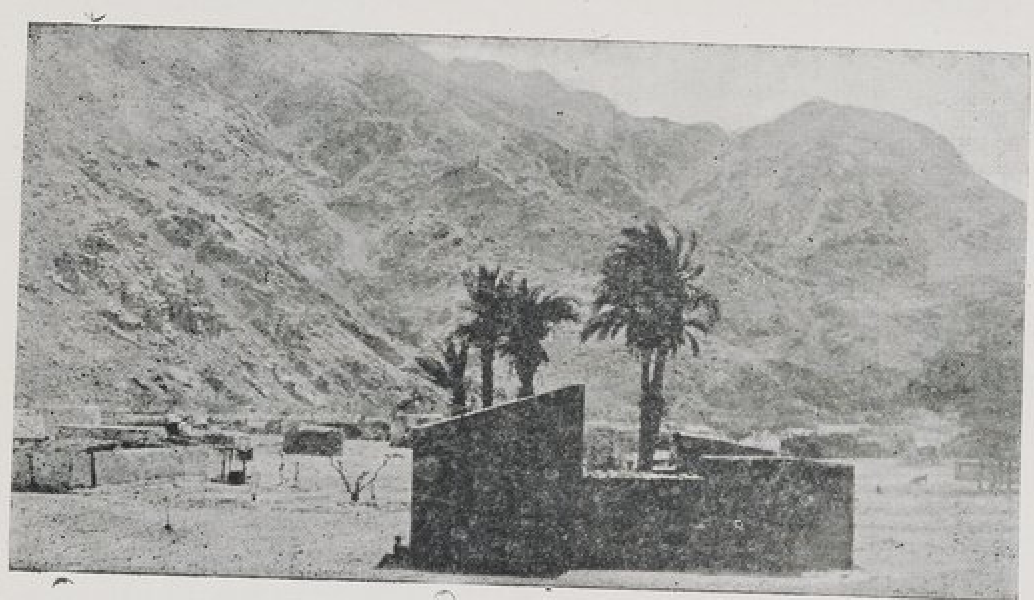


(فوق) منظر لجبل علبة والمظاهر النباتية فى أحد الأودية وقد كشفت التعرية عن جذور شجر الهجليج .

(تحت) شلال ينصب من أحد جوانب جبـل علبه . وعلى الرغم من قلة المطر فإنه يتساقط أحيانا بغزارة شديدة فترة قصيرة ، فيتدفق بسرعة بسبب الانحدار الشديد (انظر ص ٢٤) .

اللوحة الثانية

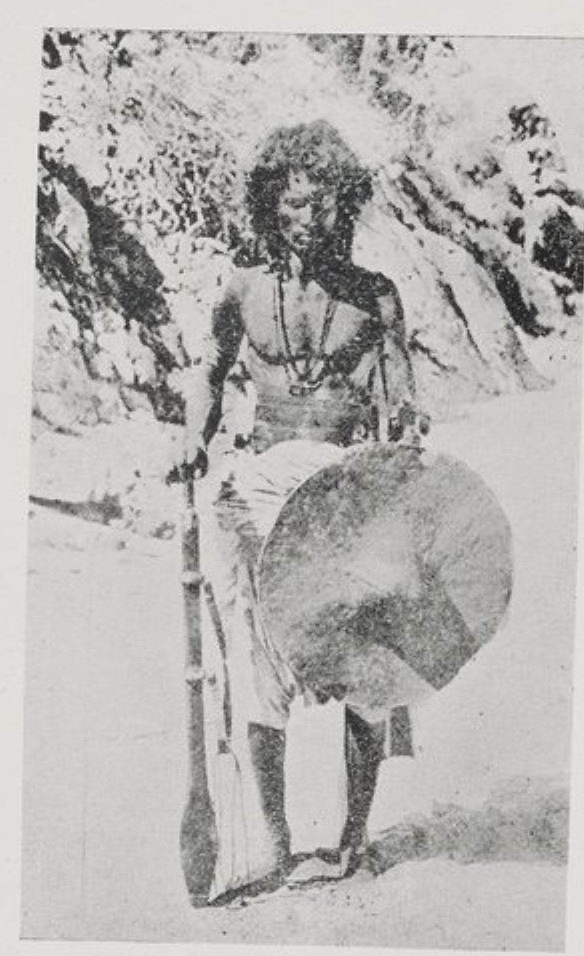




(فوق) مرسى حلايب من البحر ، حيث يلتقى البشاريون فى بعض المواسم ، والبلدة بالقرب من عيذاب القديمة (انظر ص ٨٠) .

(تحت) جبال البحر الأحمر فى أوطان الأمرأر ، (انظر ص ٩٢) .

اللوحة الثالثة

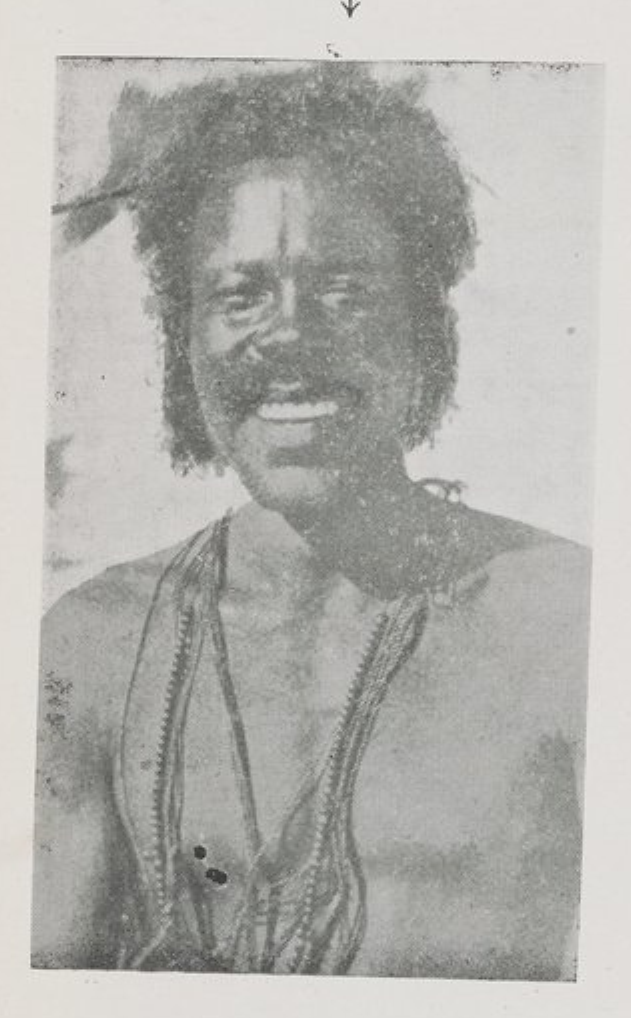


↑

(فوق) أحد الأمرأر فى زيه الحربى وفى يمينه السيف وفى يساره الدرقة .

(تحت) صورة أخرى لأحـد الأمرأر (انظر ص ۹۷) .

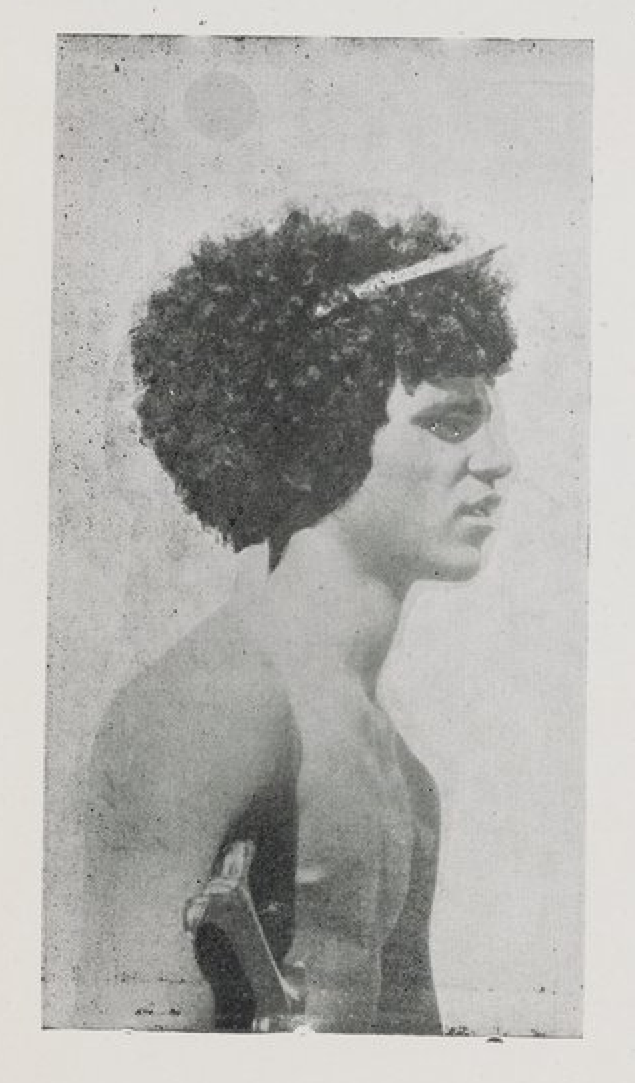
↓



اللوحة الرابعة



(فوق) بعض الهدندوه فى رقصة حربية .



(تحت) أحـد شباب الهدندوه
(انظر ص ١١١) .

اللوحة الخامسة







(فوق) جماعة من الشايقية البدو فى شمال البطانة ، وهم من الكافنجة بينهم السيدة حرم الدكتور أحمد بخرى (انظر ص ١٨٣) .

(تحت) صورتان لرجل من الحسانية ، صورتا فى وادى أبو الدوم ، ويلاحظ الأنف المحدب والتقاطيع الفوقازية الواضحة (انظر ص ١٨٥) .

اللوحة السادسة



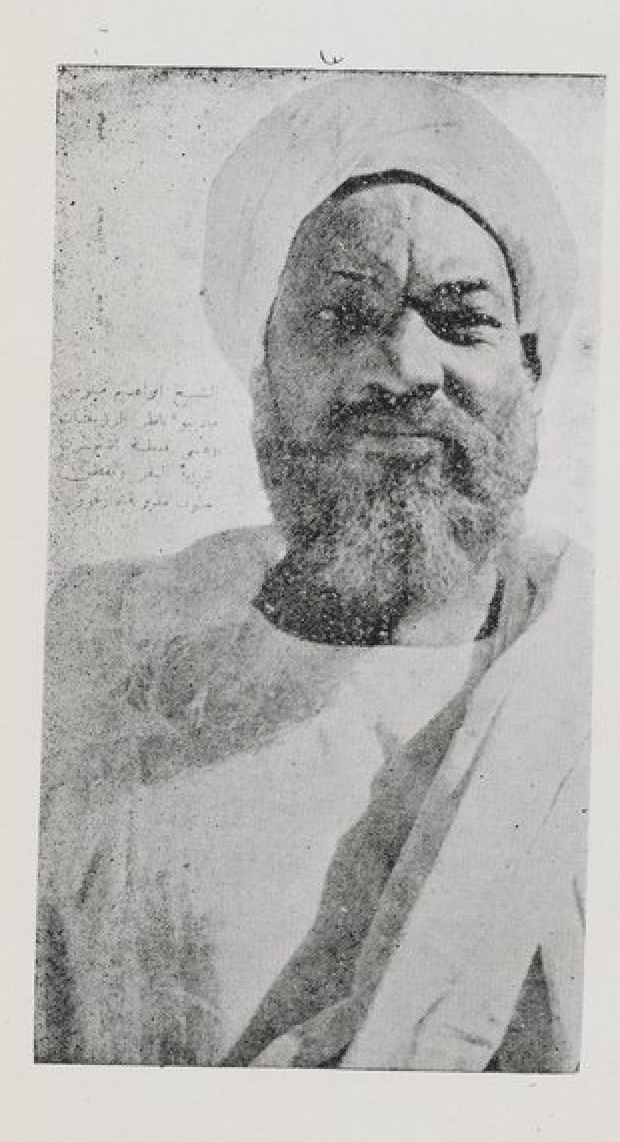
↑

(فوق) ناظر الجعليين الشيخ محمد ابراهيم بك فرح (انظر ص ١٧٠) .

(تحت) ناظر الرزيقات الشيخ ابراهيم موسى مادِبّو (انظر ص ٢٣٨) .

↓





اللوحة السابعة





(فوق) شارع فى بلدة بارا شمال الأبيض (انظر ص ١٩٢) .
(تحت) صورة تمثل الحيران شمال بارا (انظر ص ٢٢٠) .

اللوحة الثامنة

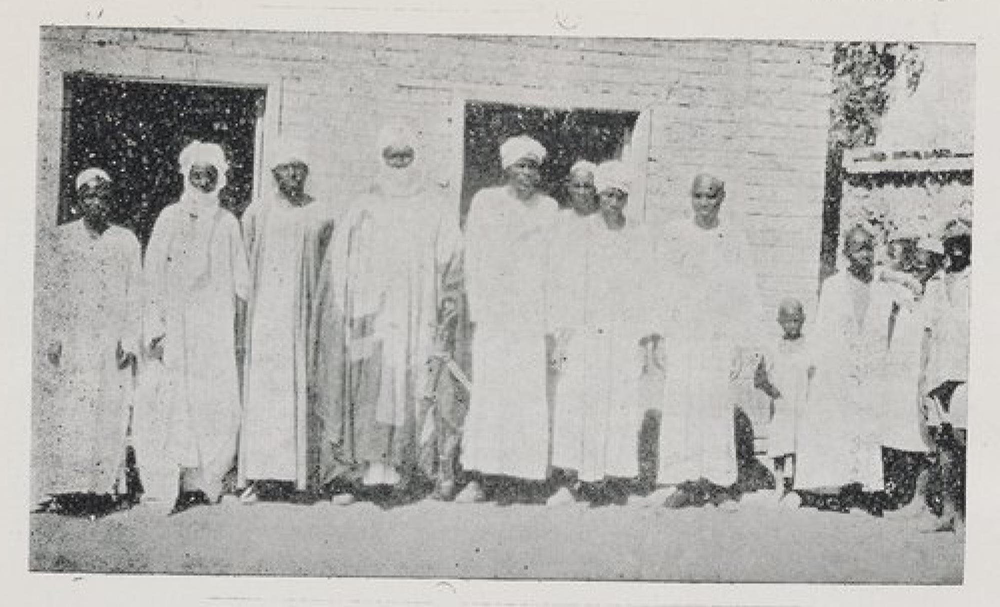


(فوق) شجر التبلدى المنتشر بكثرة فى غرب كردوفان (انظر ص ٢٤٧)

(تحت) صورة لسيدة من كرائم البقارة ، جالسة فيما يشبه الهدوج على ظهر ثور . (انظر ص ٢٢٦) .



اللوحة التاسعة

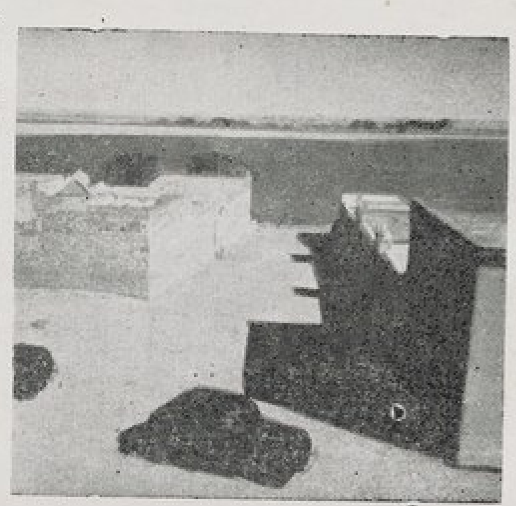




(فوق) صورة لسلطان مايرنو (الملثم) وحوله بعض حاشيته أخذت أمام داره بالقرب من سنار (انظر ص ٢٥٧) .

(تحت) صورة لرجل من زعماء البدايات (انظر ص ٢٦٨)

اللوحة العاشرة







(فوق) منظر النيل عند بلدة الخندق وإلى جانبه جماعة من المحس تلاحظ التقاطيع القوقازية (انظر ص ٢٩٣) .

(تحت) منظر لجنادل كبركى ، من جنادل الشلال الثانى جنوب وادى حلفا بنحو ٢٠ كيلو مترا (انظر ص ٣٠٣) .



